جامعة مؤته

عمادة الدِّراسات العليا

بناء الاستفهام في السّور المكيّة
" دراسة أسلوبيّة "

اعداد الطالب

كريم أحمد أبوسمهدانه

اشراف الدكتور

زهير أحمد منصور

رسالة مقدمة إلى عمادة الدّراسات العليا
استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدّكتوراه
في البلاغة والنّقد في قسم اللّغة العربيّة وآدابها

جامعة مؤته، 2006

بسم الله الرحمن الرحيم

MUTAH UNIVERSITY
Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (14)

إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب كريم أحمد أبو سمهدانه الموسومة بـــ:

بناء الاستفهام في السور المكية: دراسة أسلوبية

استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في **اللغة العربية.**

القسم: اللغة العربية.

	التوقيع	التاريخ	
أ.د. زهير أحمد منصور		2006/12/17	مشرفاً ورئيسا
أ.د. عبدالقادر مرعي الخليل		2006/12/17	عضواً
أ.د. عبدالقادر أحمد الرباعي		2006/12/17	عضواً
د. يوسف عواد القماز		2006/12/17	عضواً

عميد الدراسات العليا

أ.د. حسام الدين المبيضين

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo

مؤته – الكرك – الاردن
الرمز البريدي :61710
تلفون :03/2372380-99
فرعي 5328-5330
فاكس 03/2 375694
البريد الالكتروني

الإهداء

إلى رموز تضيء غدي البعيد .... البعيد: الأستاذ الدّكتور زهير أحمد المنصور، والأستاذ الدّكتور يحيى عبابنه، والأستاذ الدّكتور محمد الشّوابكة، والشّهيد لبطل جمال أبو سمهدانه .... إلى الّذين طالما نعمت برضاهما انفرجت عني صغار الكروب، وعظامها أمي وأبي ..إلى الّذين أشدّ بهم أزري أخوتي ..... إلى الّتي وهبها الباريّ خصال الزّوجة المثال زوجتي الحبيبة شريكة دربي وضلعي الأثير بين أضلعي، رمزا لكلِّ نور، و منارا لكلّ دروب التّيه ..... وإلى كلِّ من علّمني حرفا أنار به دربي.... وإلى دفء الأخوة، ونبع الصداقة أخواتي، وأصدقائي .... إلى كلِّ هؤلاء أهدي هذا الجهد المتواضع.

كريم أحمد أبو سمهدانه.

الشكر والتقدير

لا بدَّ من كلمة شكر إلى كلِّ من وقف إلى جانبي في إنجاز هذا العمل، وأخص بالشكر الموصول أستاذي ومشرفي الأستاذ الدكتور زهير المنصور، الذي أفادني بالكثير من علمه الغزير، فما بخل عليّ بعلم ولا توجيه، ولعل ملاحظاته التي تركتها تركتها يداه على مسودات البحث أثناء الكتابة بمثابة شاهد على ذلك، أسأل الله أن يجزيه عني خير الجزاء.

كما أتوجه بالشكر والتقدير إلى أعضاء لجنة المناقشة الذين تشرفت بمناقشتهم لهذه الأطروحة، مع التقدير لملاحظاتهم التي ستكون محطّ اهتمامي فيها، وفي المستقبل، واستميحهم عذرا على عناء قراءة الرسالة.

كريم أحمد أبو سمهدانه.

فهرس المحتويات

الفصل الثالث : الأنماط الأسلوبيّة 167

الملخص

بناء الاستفهام في السّور المكيّة
" دراسة أسلوبية "

جامعة مؤته، 2006

تشتمل الدراسة على مدخل، وأربعة فصول، وخاتمة، ففي المدخل تناولت الدراسة مفهوم الأسلوبية وعلاقة هذا المفهوم ببناء الاستفهام. أما الفصل الأول: فإنني تناولت فيه مفهوم الاستفهام عند اللغويين، والنحويين، والبلاغيين، والمفسرين على اختلاف أزمانهم، وبينت الدراسة من خلال المفاهيم التي عرض لها الدارسون قديما وحديثا أنواعه، وما يتضمنه من معان ودلالات.

وفي الفصل الثاني تناولت الدراسة أبنية الاستفهام في السور المكية فقسّمته إلى قسمين الأول الاستفهام بالحروف، والثاني: الاستفهام بالأسماء، وبينت الدراسة من خلال هذين القسمين أنّ كلَّ بناء بشقيه الحرفي والأسم له خصوصية في الدلالة تحددها تراكيب البناء، وطبيعة المعنى السياقي، وقد بينت الدراسة أنَّ الخصوصية الدلالية تولد حركة في بنية العمل الأدبي تجعله يقترب من التعبير الدرامي.

أمَّا الفصل الثَّالث من الدّراسة، فإنّه يتناول الظّواهر الأسلوبيّة في البنية الاستفهامية، وخاصة التنغيم، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، وتحول الخطاب، وقد بينت الدراسة من خلال الموضوعات، أنها تساعد في كشف الجوانب النفسية ذات الصلة بالمتلقي العام، والخاص، وتبين مركزية العلاقة التي تتحكم بمصير المتلقي في الدنيا، والآخرة.

أمّا الفصل الرّابع، فقد خصصته الدراسة للموضوعات التي تتركز فيها البنية الاستفهامية، فبينت أنَّ الموضوع الرئيس هو العقيدة، فكثرت صيغ الاستفهام التي تتناوله، والمحور الثاني المصير الأبدي ـ الجنة أو النار ـ والمحور الثّالث: الرَّحمة، والرَّابع: الشورى، والخامس: السخرية. فأظهرت الدراسة أن بناء الاستفهام يمثل ثقة للمتلقي الإيجابي حينما يكون موجها إليه يجعله قادرا على الفهم والإفهام.

Abstract

Interrogation Structure in Maki Surrahs
"A Stylistic Study"

Mu'tah University ، 2006

This dissertation includes an introduction, four chapters and a conclusion.

In the first chapter, I discuss the concept of interrogation used by linguists, grammarians, eloquent specialists, and Qur'an expositors showing its meanings and indications.

The second chapter discusses interrogation structure in Maki Surahs. Therefore, I divided it into two parts: the first part is interrogation through letters. The second part is interrogation through nouns. The study in its two parts tries to shed light on the specification of interrogation in evidence where the contextual meaning and the nature of interrogation modifies this specification, which generates an action in the literary work, making it closer to the dramatic expression.

The third chapter discusses the stylistic phenomena in interrogation structure especially in tuning, deletion, repetition and speech transfer. Through its topics, the study indicates that it helps to reveal the psychological aspects related to general and special recipient. It shows the central relation that controls the recipient's fate in life and the after life.

The fourth chapter discusses the topics that concentrate more on interrogation like creed, the eternal fate, paradise or hell, mercy, Shura and mockery. The study shows that interrogation construction represents positive recipient's trust when it is directed to him/her and makes him/her able to understand and transfer interrogation that he/she understood.

المقدمة :

إنَّ الحمد لله ربِّ العالمين، نحمده حَمد الحامدين، ونشكره شكر الشّاكرين، ونتضرع إليه تضرع المتضرّعين، أنْ يلهمنا الصواب والتَّوفيق، وأنْ يجعل عملنا كلّه خالصا لوجهه الكريم. والصّلاة والسّلام على خير من نطق العربيّة بلسان عربيّ مبين، لا ينطق عن الهوى، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

القرآن الكريم هو حبل الله المتين، والذّكر الحكيم، والصّراط المستقيم، وهو الّذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يَخْلَق من كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه، ولذا كان القرآن مقصد الفقهاء، وكان إدراكه غاية أهل التّفسير، وجماله وتفوقه البيانيّ مجال بحث الفقهاء والنّقاد، وكانت مُثله العليا في المعاملات، والأخلاق، والسّلوك مجالا رحبا نَهل منه المفكّرون من علماء الأخلاق والاجتماع، إلاّ أنّ هذا المقصد من العناية بالقرآن لم ينقطع في يوم من الأيام، بلْ ستظل موصولة إلى أنْ يرث الله الأرض، ومن عليها، فأسراره لا تنفد بل مخبوءة لا تنتهي، وستظل الإنسانيّة تغوص على درر هذا البحر، لتلتقط منها ما يزيد في جمالها، ورونقها لتهزّ به المشاعر وتثير به الأذواق.

وبناء الاستفهام من درر هذا البحر العظيم، فهو فن من فنون القول، يسري في أنماط الكلام سريان النَّسيم في الرِّياض العطرة، يزداد تألقا وبهاء في الأساليب الأدبيّة الرّفيعة، يكشف عن خَبيئات المعاني، ودقائق الأسرار، فيعرضها عرضا رائعا يحمل النّفس على الانتشاء، والمشاعر على التّوقد، والقلوب على اليقظة، والعواطف على الاستمتاع، والعقول على الاقتناع، ويخرج المعاني في معارض مجلوة، وألوان زاهية، ومذاقات متفاوتة، فتصبح النّفوس ــ بما فيها من ملكات الإدراك ــ لوحة شديدة الإحساس تنعكس عليها تلك المعاني فتقرأها الأسماع، والقلوب قبل أنْ تقرأها الأبصار الّتي فتح الله عليها نعمة التّدبر في كتابه العزيز.

ومن هذا تأتي أهمية الدّراسة بالنسبة للباحث لتكون في سياق الدّراسات الّتي تخص بناء الاستفهام في القرآن الكريم، وخاصة في الجانب المكيّ، ذهابا منها إلى أنَّ الدِّراسات الأسلوبيّة في هذا الجانب تكشف عن بعض جوانب إعجاز القرآن، وبيان بلاغة نظمه، وتركيبه، بالإضافة إلى أنَّ الدِّراسات الأسلوبيّة تقوم على تحليل مدلول ألفاظ الآيات القرآنيّة الّتي ورد فيها البناء الاستفهامي، وفق مستوياته المختلفة في السّور المكيّة، وهذا

النّمط قلت الدِّراسات حوله في ا لقــرآن الكــريم بشكل عام، والسّــور المكـــيّة بــشكل خاص. وتكمن أهمية الدِّراسة أيضا بأنَّها تتناول جزءا كبيرا من القرآن الكريم تمحور في الجانب المكيّ دون المدنيّ؛ لأنَّه يحمل وِحْدة دلالية كلية تتمثل بالحــديث عــن قــضية العقيدة؛ الألوهيّة، والرّبوبية، والعبودية، وما يتعلــق بهــا مــن ذكــر آلاء الله، والجنــة والنَّار، والقصص... وغير ذلك، فهذه الوِحدة الدِّلالية تمثل في بنيتها العميقــة للمــستوى النَّصي في السّور المكيّة أعلى درجات التَّماسك اللفظي، والمعنوي على مستوى الآيــات في السّورة الواحدة، والسّور في القرآن الكريم، وقد أشارت الدِّراسة في هذا المحــور ــ حتى تكتمل أهميتها ــ إلى دور المتلقي، والسِّياق في تحقيــق التَّماســك النّــصي للبنــاء الاستفهامي في السّور المكيّة.

وفي هذا المقام الّذي لا بدَّ أن نشير إلى أنَّ الدّراسة الأسلوبيّة البلاغية ليست نثرا، أو شرحا للآيات، لكنَّها محاولة للتعرف على أبعاد النّص الفنيّة، والموضوعيّة، وخصائصه، وعلائقه، فالأسلوبيّة هي الوريث الشّرعي للبلاغة القديمة، ولهذه الأسباب ستهتم الدّراسة بكل ما هو خاضع للجانب الفنيّ، والموضوعيّ في بناء الاستفهام في السّور المكيّة خاصة كونه ظاهرة بارزةتستحق الاهتمام بالدّرس والبحث . وإذا كان الدّرس البلاغي يهتم فــي المقام الأوّل ببناء الجملة وبنية النّص، فإنّه من جهة أخرى يهتم بما يسمى مقتضى الحــال أو المقام، وإذا وسعنا في نظرتنا إلى مقتضى الحال فإنّنا يمكن أنْ نتناول فــي دراســتنا الأسلوبيّة لبناء الاستفهام علاقات النّص الدّاخلية، والخارجية الّتي يمكــن أنْ تمتــد إلــى التّعرف على رؤية الإنسان من الوجود، ومن ثمَّ يمكن أن تفضي بنا هذه الدِّراسة إلى فهم النَّص فهما متكاملا، فالتَّركيب اللّغــوي الّــذي يتكــون منــه البنــاء الاســتفهامي هــو المنطلق للدرس البلاغي، والموقــف هــو الإطــار الّــذي نــرى فــي ضــوئه هــذا التّركيب، وعلاقته بالنّص.

وبناء الاستفهام ليس حالة طارئة على التّركيب، بل هو داخل فــي نــسيجه متفاعــل معه، فدلالته ليست قاصرة على نوع أداة الاستفهام، أو على نــوع عناصــره، وطريقــة ترتيبها وتركيبها، أو على رؤية السّ ائل، وإنّما هي مرتبطة بذلك كله، ومتولدة عنه، فيأتي هذا من خلال منهج وصفي تحليلي يجعل العناصر البلاغيّة فــي الــنّص خادمــة لبنيــة الاستفهام في المقاصد القرآنيّة بشكل عام، والــسّور المكيّــة محــور الدِّراســة بــشكل خاص، وبهذا المنهج نجعل العناصر البلاغيّة المتشكلة م ن بنى الاستفهام خادمة للمقاصــد

القرآنية وإبرازها، وتسجيل المعاني النّاتجة عن العلاقات بين الكَلِم، وفق قانون النّحو وقواعده، أو ما يسمى النّظم، الذي دعا إليه إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني من خلال تنظيره لهذه القضية التي أدار إعجاز القرآن الكريم عليها، و من خلال هذا المنهج كان من واجبي أنْ لا أخرج عن روحه النَّقدية، وأنْ لا أحوله إلى أحاجي ومعميات، كما يحدث عند البنيويين، أو الأسلوبيين، فلم أفرضْ نمطاً تحليليا على النّصوص، بل إنني حاولت أنْ أستخلص المنهجيّة، والأسلوبيّة التحليلية من النّصوص والشّواهد ذاتها.

وهذا المنهج وما رافقه من معطيات المنهج النَّفسي، هو الأقوم والأليق بكلام الله ــ عزّ وجل ــ ولهذا ارتضيته في هذه الدّراسة البلاغيّة معتمدا من خلاله على كثير من الدّراسات الّتي تناولت الجانب الأسلوبيّ للقرآن الكريم، فيعد كتابا " أسرار البلاغة " و "دلائل الإعجاز " من أروع ما ألّف في البلاغة الوظيفيّة والأسلوبيّة، وفيهما خلاصة النّظرية البلاغيّة لدى الجرجانيّ، إذْ وقف عند كثير من مسائل الاستفهام، ولا سيما الظَّواهر التَّركيبية الَّتي تعرض للجملة الاستفهاميّة من تقديم وتأخير، وحذف وزيادة، فكانت كتاباته مرتكزا ينطلق منه البلاغيون الذين جاءوا بعده في معالجة أبنية الاستفهام، وأحواله المختلفة، وما من شك في أنّ السّبب وراء ذلك هو العقليّة الإبداعيّة، والحسّ الأدبيّ الّذي تمتع به الجرجانيّ، وجاء جار الله الزّمخشري كامتداد للمدرسة الجرجانيّة، فعمد إلى كتابي الجرجانيّ السّابقين وراح يتمثّلهما في تفسير القرآن الكريم " الكشّاف "، الَّذي تتبع نظام تأليف العبارة القرآنيّة محاولا رصد ما فيها من تغيرات تركيبيّة تُحمّل المعنى الأصلي دلالات إضافية، فتحدَّث عن أوجه التَقديم والتَّأخير، والحذف في تركيب الجملة الاستفهاميّة عند شرحه للآيات وتفسير معناها، فيقف بذلك وَقَفات بلاغيّة طويلة عندما يستدعي المقام ذلك، فكان بذلك إضافة كبرى إلى جهود الجرجانيّ، ومن الدَّراسات نّهاية الإيجاز في دراية الإعجاز " لفخر الدين الرَّازي، و"مفتاح العلوم " للسّكاكيّ، وكتابا "المصباح في المعاني والبيان، والبديع " لابن النَّاظم، ثم جاء الخطيب القزوينيّ بكتابين " الإيضاح، وتلخيص المفتاح " فاشتملا على معظم مسائل الاستفهام وأحواله التَّركيبية، وتحدث في هذا المجال يحيى بن حمزة العلوي عن الاستفهام في كتابه " الطِّراز " المتضمن لأسرار البلاغة، وغيرها من الدّراسات القديمة الّتي سأعرض لها جانبا خاصا من فصول البحث، ومدى صلة هذه الدِّراسات بموضوع الدِّراسة.

ثم تتابعت الدّراسات القّرآنية وحاولت الرّبط بين جهود المفسّرين والبلاغيين، فظهر هذا من خلال دراسة الشّيخ رشيد رضا في تفسير " المنار "، وابن عاشور في تفسير " التَّحرير والتَّنوير "، والتّفسير البياني لبنت الشّاطئ، ودراسة سيد قطب في " التّصوير الفني في القرآن "، التي أظهر فيها أن اللّغة وعاء للفكر والتّدبر، ثم جهده الكبير في " الظِّلال الّذي يعد كنزا أدبيا ثمينا، وذخيرة بلاغيّة رائعة يقف عندها المصنفون اليوم على اختلاف مشاربهم موقف الإجلال، والإكبار، فخلا الظّلال من الحشو والتّكرار، وحشر القاعدة البلاغيّة دون مبرر، فأعطى بذلك أفقا رحبا للأدب، وتفسيرا جديدا للقرآن تعدّى الظّاهرة اللّغوية إلى الظّاهرة الفنيّة الّتي هي منبع التّأثير وقوامه، ودراسة عبد العظيم المطعنيّ " التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم "، ففيها تتبّع صور الاستفهام في تسلسل مرتب ترتيب السّور في المصحف الكريم، وترتيب الآيات في كل سورة، إلا أنّها أكثرت من التَّكرار في شرح شواهد الاستفهام دون بيان الجوانب الأسلوبيِّة فيه.

ثم تتابعت الدِّراسات الأسلوبيَّة التي تناولت الجانب البلاغي للقرآن الكريم وغيره كدراسة أحمد بدوي " من بلاغة القرآن "، ودراسة عبد الفتاح لاشين " البديع في ضوء أساليب القرآن "، وحسني خليل " أساليب الاسقهام في الشعر الجاهلي "، فربط الباحث في دراسته بين التَّركيب والرؤيا والموقف، فحدد خصوصية الدِّلالة السَّطحية، والعميقة للبناء الاستفهامي في الشِّعر الجاهليّ من خلال عرض معطيات النَّمط التَّركيبية الّتي يتشكل عليها.

ووجد الباحث في طريق إكمال هذه الدَّراسة بعض الصعوبات تتمثل في جانبين: الأوّل: أنَّها تتعامل مع نصّ مقدس، وفصيح ليس من إنتاج البشر، فحد هذا التَّقديس من حرية التَّأويل للبنية العميقة للبناء الاستفهامي، فكان محور التَّأويل مقيدا بما يطرحه السِّياق حتى لا يخرج المعنى عن المقتضى العام، والثَّاني: عدم استطاعة الباحث الحصول على دراسة تناولت الاستفهام في القرآن الكريم ورد ذكرها في بعض بطون الكتب تحت اسم " أساليب الاستفهام في القرآن الكريم " للباحث (عبد الحليم فوفذكرت هذه الكتب أنَّ الدِّراسة قُدمت في جامعة الأزهر لنيل درجة الماجستير في عام (1957م)، ورغم هذه الصعوبات، فإنَّ الدِّراسة اكتملت لتشتمل على أربعة فصول، ففي الفصل الأوّل تناولت مفهوم الاستفهام عند اللغويين، والنّحويين، والبلاغيين،

والمفسرين على اختلاف أزمانهم، ومن خلال المفاهيم الّتي عرض لها الدَّارسون قديما وحديثا حددت أنواعه، وما يتضمنه من معان ودلالات.

وفي الفصل الثَّاني: تناولت أبنية الاستفهام في السّور المكيّة فقسمته إلى قسمين، القسم الأوّل:الاستفهام بالحروف، والثّاني: الاستفهام بالأسماء، وفي هذين القسمين قدمت لكل بناء من الأبنية بمدخل اشتمل على التَّعريفات، والقضايا الّتي أثيرت حولها، وانتهيت منه من خلال الشّواهد الدّالة أنَّ كل بناء من الأبنية الاستفهاميّة بشقيه الحرفي والاسمي له خصوصية دلالية تحدده تراكيب الجملة، والسّياق الّذي وردت في السّور المكيّة، وتتمركز هذه الخصوصيّة الدّلالية للبناء الاستفهامي بشكل عام بِخلَق ثنائية، وحركة في بنية العمل الأدبي، تجعله يقترب من مستوى التَّعبير الدّرامي.

أمّا الفصل الثَّالث من الدِّراسة فإنَّه يعالج الظَّواهر الأسلوبيّة في أبنية الاستفهام بشقيه الاسمي والحرفي، من تنغيم، وتقديم، وتأخير، وحذف، وتكرار، وتحول في الخطاب، فبيَّنت الدّراسة أن هذه الظّواهر الأسلوبيّة لها حضور كبير في سياق البنية الاستفهاميّة، وهذا الحضور مرجعه إلى ثنائية العلاقة في الأبنية الاستفهاميّة ما بين المتلقي، والمنشئ على حد سواء، فكشفت الكثير من الجوانب النَّفسيِّة ذات الصّلة بالمتلقي والمنشئ، وبينت الدِّراسة من خلالها أن الاستفهام في المقام الأوّل يتصل بالإنسان وقضاياه المركزية الّتي تتحكم بمصيره في الدنيا والآخرة.

أمّا الفصل الرّابع: فإنَّ الدِّراسة خصصته للموضوعات الّتي تمركزت فيها الأبنية الاستفهاميّة في السّور المكيّة، وبينت أن الموضوع المركزيّ يتصل بمحور العقيدة، فكثرت صيغ الاستفهام الّتي تُطرح حوله؛ لأنَّ القرآن في دعوته قلب موازين العبادة عند العرب فعندها ظهرت التَّساؤلات من المتلقي المنكر، ومن المنشئ المستنكر، حول الرُّبوبية وما يتصل بها من حقائق دالة، والمحور الثَّاني الّذي تمركزت فيه الأبنية الاستفهاميّة خصصته الدّراسة لموضوع المصير الأبديّ ـ الجنة والنّار ـ والمحور الثّالث: الرّحمة، والرّابع: الشّورى، والخامس: السّخريّة والاستهزاوبينت الدّراسة من خلال هذه الموضوعات أنَّ بناء الاستفهام في السّور المكيّة يمثل ثقة للمتلقي حينما يكون موجها إليه يجعله قادرا على الفهم والإفهام، وهذا يجعله جزءا داخلا في إطار العمل الأدبي، والبلاغي على حد سواء.

التمهيد :

جاء القرآن الكريم بأساليب متنوعة في توجيهاته، ووجوه خطابه نظراً لاختلاف المخاطبين في أحوالهم، ومستوياتهم، وتعدد الأغراض الّتي قصد إليها، والمواضيع الّتي عالجها، والحقائق المختلفة الّتي كشف عنها، ولهذا يجمع الباحثون على أنَّ الأسلوبيّة من أكثر المناهج الحديثة إثارة للاهتمام في دراسة النّص القرآنيّ، وتتبع ظواهره اللّغوية والبلاغيّة والعلميّة .....لإبراز إعجازه وتدبره . وكذلك في دراسة النّص الأدبيّ في كافة مستوياته واتجاهاته، وأغراضه الّتي يأتي عليها، ولهذا لا بُدَّ من الوقوف على هذا المنهج لنجعله مدخلا نلج به أبواب هذه الدِّراسة .

فقد جرت حول الأسلوبيِّة مناقشات عدة حاولت أنْ تستجلي موضوعها، وامتداداتها عبر حقلي اللغة والأدب، وأنَّ دراستها للنص القرآنيّ يجب أن تتم في المنطقة المشتركة ما بين هذين الحقلين، ولهذا يقول كمال بشر : " وحقيقة الأمر عندنا أنَّ علم الأسلوب ينتمي إلى مجاليهمجال الدِّراسات اللّغوية، وذلك بالنَّظر إلى الأسلوب على أنّه بناء أو هيكل لغوي مكونة عناصره من وِحْدات لغوية، جاءت منسوقة وفقا لمعايير لغوية على وجه من وجوه قواعد اللغة المعينة، ...أمَّا مجال الدّراسات الأدبيّة : فإنَّه ينفرد بخواص تعبيريّة مميزة لغويّة وغير لغويّة، وبوصفه نمطا خاصا من الكلام يعنى أوّلا بأغراضه الأدبيّة، والثّقافيّة، والاجتماعيّة، والنّفسيّة أيضا ..." [1]. وبهذا الطّرح والفهم تكون الأسلوبيّة في امتدادها الواسع بين حقلي اللغة والأدب، قد هيمنت في بعض عقود القرن الماضي ــ العشرين ــ على مجمل الإنتاج النّقدي، واللغّوي في الغرب، وَعَنَي بها عشرات المثقفين، من أدباء، وفلاسفة، ولغويين، وأسهم كثيرون في تقديم فهم لها أو التَّعريف بها، حتى تعددت مستويات التَّقديم المعرفيّ، وتعددت المفاهيم، فترك ذلك أثره في اختلاف مستويات الفهم فالمفاهيم الّتي وضعت للأسلوبيّة فيها من التّنوع والتّقارب الشّيء الكثير، مما جعلنا نكتفي في هذا المبحث بالفهم العام للأسلوبيّة، مع الاستعانة بالتّحديدات الّتي وضعها روادها [2].

---

[1] ــ بشر، كمال : **التَّفكير اللّغوي بين القديم والجديد**، مكتبة الشباب، الإسكندرية، ط1، 1998 . ص : 21 .

[2] ــ ينظر : مطلوب، أحمد : **الأسلوبيّة إلى أين**، بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثالث، وفي هذا البحث درس مفاهيم الأسلوبيّة، مع وجهات نظر أقطابها بشكل موجز .

وإذا كانت اللغة بناء مفروضا على الأديب من الخارج، فإنَّ الأسلوب " هو تلك الإمكانات الّتي تحققها اللغة، ويستغل أكبر قدر ممكن منها الكاتب، أو صانع الجمال الماهر، الّذي لا يهمه تأدية المعنى وحسب، بل يريد المعنى، ويطلبه بأوضح السّبل وأحسنها، وأجملها، وإذا لم يتحقق هذا الأمر فشل الكاتب، وانعدم معه الأسلوب." [1] وهذا يتفق مع الطّرح الّذي قدّمه عبد القادر عبد الجليل : " بأنَّ الأسلوب في عملياته ا لإجرائية، يبقى مساندا للتّطورات الّتي تحدث في ميدان الفكر الإنسانيّ فنا، باعتباره الطّريقة الّتي يسلكها العمل الفنيّ لكي يُظْهر مادته إلى الوجود الفعلي، وأدبا باعتباره الكيفيّة الّتي يستخدم بها المنشئ اللغة بشقيها المنطوق، والمكتوب استخداما خاصا لإنتاج الدّلالة المميزة .... وعلى هذا الأساس، فإنَّ الأسلوب باعتباره منجزا لغويا، فإنَّه رؤية الفكر، ورؤية المتلقي له، لذا حمل خاصيّة التَّعدد، وهو ينهض على مرتكزات بيانيّة ثلاثة: التّفكير، والتّصوير، والتّعبير" [2].

وهذا التّعبير الّذي ينادي به عبد القادر يمثل مقولة تعتمد على نظام الخلق الشّخصي، أي أنَّ اللّغة طاقة، وليست مخزنا لأسلحة مصنعة، ولا مجرد معجم، أو على حدِّ تعبير (كروتشه) كما يقول صلاح فضل : " اللغة ليست مقبرة لأجساد ثانوية محنطة،...بل الوحدة اللّغوية الحقيقية هي الشّكل الدّاخلي لبعض أجزاء ا لقول، وعلى الباحث اللّغويّ، والجماليّ النّاقد أنْ يُواجه هذا الشَّكل الدَّاخلي لتوضيح مداه في بنيته، ومعناه الّذي يتجه إليه..." [3].

أمّا مساحة الأسلوب، أو الأسلوبيّة فإنّها قد تقصر،وتطول تبعا لفلسفة المنشئ ومنطقه، والمتلقي، واللّساني، ورؤيتهم للع لاقة بين الفكر، واللغة، فالجهد الأسلوبيّ في كافة اتّجاهاته يُعنى عِناية خاصة بالتّلقي، ويمكن أنْ نتلمّس هذه العناية حتى في الاتّجاهات الّتي تبتعد

---

(1) ــ طحان، ريمون: **الألسنية العربية ــ النحو**، الجملة ، الأسلوب ــ دار الكتاب اللبناني، بيروت،ط1، 1972م. ج/116 ــ 117.

(2) ــ عبد الجليل، عبد القادر :**الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية**، دار الصفاء للنشر،عمان، ط1، 2002م. ص:112.

(3) ــ فضل، صلاح: **علم الأسلوب** ــ مبادئه وإجراءاته ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1985، ص: 36. وينظر: فضل، صلاح: **ظواهر أسلوبية في شعر شوقي**، مجلة فصول، المجلد الأول، عدد4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981 وينظر: فضل، صلاح: **علم الأسلوب**، وصلته بعلم اللغة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عدد الأسلوبية، المجلد الخامس، 1984.

عن القارئ، والقراءة، وهذا الاختلاف بين اتجاهات الأسلوبيّة حول المتلقي يأتي من خلال توظيف التّعابير، فالاتجاه الّذي يهتم بالمتلقي يسعى إلى استصفاء الأنماط التّعبيريّة لتحديد رصيد لغة من اللغات، أمّا الاتّجاه الّذي يبتعد عن القارئ أو المتلقي، فإنّه يباشر فرديّة تقوم على الحدث اللّغوي لإيجاد صلة وثيقة بين شخص المتكلم، وكلامه، بناء على أنَّ اللغة ظاهر يؤدي إلى باطن على مستوى الأفراد المستعملين لها ..." [1]. فالأسلوب يتوزّع بين اتّجاهين : القارئ، والمفهوم الّذي يختلف حسب الرّؤيا الّتي ينطلق منها المبدع، فهو جانب اجتماعيّ ذكره بارت أثناء حديثه عن اللغة، فيقول : " اللغة موضوع اجتماعيّ، فمن البديهي أنْ تُنْعت بخارج الطّقس الأدبيّ، أو ما قبل الأدب، فيكاد يكون الأسلوب في موقع ما بعد الأدب، وهو ظاهرة من نوع توالديّ، وأصل بيولوجي يربط مزاج الكاتب بلغته " [2]. وتبدو هذه الرّؤيا القبليّة، والبعديّة للأسلوب، واللغة أنّها تخضع لقوانين وتقلبات البعد النّفسيّ، والتّحرك الأنثروبولوجيّ، لتتعامل معها من خلال شفافيتها، فيكون بذلك خيارا داخل كتلة النّص.

ويطرح سعد مصلوح رؤية تدعو بطريقة غير مباشرة إلى ربط الأسلوب بمنشئه، وهي رؤية لسانيّة تؤكد حضور ثلاثيّة : الفكر، والتّعبير والصّورة، فيقول :" إنَّ الأسلوب اختيار، أو انتقاء، يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة، بغرض التّعبير عن موقف معين .... والأسلوب مفارقة، أو انحراف عن نموذج آخر من القول يُنْظر إليه على أنَّه نمط معياريّ..." [3]، فالأسلوب باعتباره اختيارا يأتي من خلال مجموعة من السِّمات الّتي يَعمل فيها المنشئ بالاختيار، أو الاستبعاد، باتباع طرق مختلفة في التّوزيع ليشكّل بها النّص، من حيث أنَّ المتغيرات الأسلوبيّة للنص، هي مادة غُفْل متاحة من جهة الإمكان العقليّ على الأقل، أمام جميع المنشئين ليعمل كل منهم بما أوتي من قدرة على التّصرف في قائمة البدائل اللّغوية المتاحة للمنشئ أثناء كتابة النّص ..." [4]، ومصلوح يعرض

---

(1) ــ صمود، حمادي: **الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة**، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1988م ص: 86.

(2) ــ فاير، بول ، وبابليون، كريستيان: **مدخل إلى الألسنيّة**، ترجمة: طلال وهبة، المركز الثقافي العربي، ط1، 1992م ص: 218.

(3) ــ عبد الجليل: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية: ص: 114 ــ 115. وينظر: مصلوح، سعد: **الأسلوب**، عالم الكتب، مصر،ط1، 1992.

(4) ــ ينظر: مصلوح، سعد: **في النّص الأدبيّ**، دراسة أسلوبيّة إحصائيّة، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعية، القاهرة، ط1، 1993م ص: 108 وما بعدها.

لرؤية الأسلوب، وحدوده وإمكاناته من زاوية فيزيائية، تقوم على قانون تسلط وحركة القوى، وردود أفعال الأشياء، فيقول : " الأسلوب قوة ضاغطة تتسلط على حساسيّة القارئ بواسطة إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام، وحمل القارئ على الانتباه إليها، فإذا غَفل عنها تشوه النّص،وإذا حلّلها وجد لها دلالات تمييزيّة خاصة، بما يسمح بتقرير أنَّ الكلام يعبّر والأسلوب يُبرز ..." [1]، فمصلوح يؤكد على حضور القدرة الصّياغية لدى المبدع في إنتاج الأسلوب المميز، الّذي يشد المتلقي إلى التّنصت إلى مؤشراته الـ كميّة، والكيفيّة، وهي تطرق أبواب الدّلالة على المستوى السَّطحي، والعميق لبنية النّص.

والاختيار والتَّوخي الَّذي طرحه مصلوح يكوّنان معا ما يمكن أن نعدّه نظيرا لنظريّة النّظم عند الجرجانيّ، لكن الفرق الأساسي بين الاتجاهين أنَّ النّظم عند الجرجانيّ يُعنى في الأساس باختيار الأفضل، والأكثر ملاءمة للمقام، وضمّه كذلك على طريق أنسب وأوقع في التَّأثير والتّعبير، في حين أن الاختيار، والضّم يعنى بالصّحة المطلقة من النّاحية النَّحويّة، وبهذا تكون وظيفة النّحو كما يقول كمال بشر : " البحث بالصّحة النّحويّة ... أمّا ربط الكلام بالمقام للبحث عن وجوه البلاغة، فهو يمثل درجة أعلى تدخل في الأساليب وعلوم النّقد الأدبيّ، وركيزة العمل في هذه العلوم هو علم المعاني ..." [2]. وعليه يكون الجرجانيّ قد ألحق الظّواهر اللّغويّة المختلفة من تقديم وتأخير، وحذف ومجاز بنظرية النّظم وجعل هذه الظّواهر إلى مبدأ الاختيارات التّرتيبية الّتي للمتكلم حق إنجازها . فاختيار المتكلم لترتيب دون ترتيب باعتبار الظّروف، والمقاصد الّتي يريدها – أي باعتبار نظام القيم – فينتج عنه نتائج الاختيار النّحوي، إذ يعود عدد الاختيارات الممكنة إلى أبنية اللغة بالذّات، ففي بعض الأحوال لا يكون هناك سوى بديل واحد كتقديم الفاعل مثلا، أو تأخيره، فالمتحدث يختار أبنية لغوية تخضع لقواعد نحويّة إجباريّة في صياغتها لا مفر من اتّباعها، لتظلّ بعد ذلك مجموعة إمكانيات التّعبير الاختياريّة المتعادلة دلاليا بشكل أو بآخر قائمة لدى المتحدث أنْ يمارس فيها اختياراته الأسلوبيّة خدمة لبنية النّص.

---

[1] – عبد الجليل: الأسلوبية، وثلاثية الدوائر البلاغية ص 115. وينظر: مصلوح: الأسلوب: ص37 وما بعدها.

[2] – بشر، التفكير اللغوي بين القديم والجديد: ص 35. وينظر: دي سوسير، فردناند: **محاضرات في علم اللسان العام** ترجمة: عبد القادر قنيني، الدار البيضاء، ط1، 1987 ص 165.

فالأسلوب الأدبيّ كما سبق ذكره "هو طريقة التّعبير " [3]، ليشمل كلَّ أنواع الأساليب على اختلافها وتعددها، ولكن هذا المفهوم لا ينطبق على أسلوب القرآن الكريم؛ لأنَّ شأن المفهوم أن يكون جامعا ما نعا، فأسلوب القرآن متميز بذاته عن كلِّ الأساليب المعروفة، كون المعاني الإلهيّة قد سُخرت للألفاظ تسخيرا، وجاء التَّأليف تابعا لها يسير في ركابها، فأنسب ما قيل في أسلوبه " أنَّه الطَّريق الخاصة الّتي انفرد بها القرآن في إفادة المعاني بالألفاظ " [1]، وحولهذا المعنى يقول الرّافعيّ : " إنَّ القرآن الكريم ينفرد بأسلوبه؛ لأنَّه ليس وضعا إنسانيّا البَتّة، ولو كان من وضع الإنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوبا من أساليب العرب، أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد ... ولقد أحسن العرب بهذا المعنى، واستيقنه بلغاؤهم، ولولاه ما أفحموا، ولا انقطعوا من دونه؛ لأنَّهم رأوا جنسا من الكلام غير ما تؤديه طباعهم، وكيف لهم في معارضته بطبيعة غير مَخلوقة...." [2].

وهذا المفهوم الّذي قدّمه الرّافعيّ نجد في طيَّاته الاختلاف ما بين أسلوب البشر، وأسلوب القرآن الكريم، من ناحية الكا تب، أو المتكلم، وغايته الّتي قَصَد إليها في كلامه وحديثه، واختلاف الأساليب بالنّسبة لهذه النَّاحية راجع إلى اختلاف شخصيات الكُتّاب، من حيث أذواقهم،ومواهبهم العقليّة، ودرجة انفعالهم، ونوع نظرتهم إلى الحياة، ومذاهبهم الّتي يدينون بها، وأثرها في توجيههم، وسلوكهم.

فدونما شك أنَّ لهذا وغيره أثراً في طبيعة التَّفكير، ونوع الإنتاج، الأمر الّذي يترتب عليه اختلاف الأسلوب من كاتب لآخر – كما سبق ذكره في بداية المدخل – حتى قيل الأسلوب هو الكاتب، فالموضوع الواحد حين يتناوله جماعة من الكُتَّاب، نرى أنَّ كلَّ واحد منهم قد امتاز بطابعه الخاص في الكتابة تِبْعا لِما يمتاز به عقله، وشعوره، وخلقه، وثقافته عن غيره، وبذلك يتحقق للأسلوب مِيزتان : ميزة عامة من حيث هو خطابة، أو شعر، أو كتابة، وميزة خاصة من حيث هو أثر لأديب ممتاز، والقرآن كلام الله الَّذي ليس كمثله شيء يتبيّنّ أنّ أسلوبه ليس كمثله شيء من بين جميع أنواع الأساليب المعروفة . فالقرآن جاء بأجمل المقاصد، وأسماها تلك الَّتي لم تجتمع في كتاب آخر سواه، فترتب على ذلك أنْ يكون أسلوبه مخالفا لأسلوب أيّ كلام سواه.

---

[3] – الشايب، أحمد : **الأسلوب**، مطبعة الاعتماد، مصر، ط2، 1945م ص : 32.

[1] – الحكيم، محمد السيد : **في إعجاز القرآن**، الأزهر، القاهرة، د ط، 1945م. ص : 89.

[2] – الرّافعيّ، مصطفى صادق : **إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة**، دار الفكر العربيّ، القاهرة ط8، د ت. ص : 184.

ويأتي أسلوب القرآن مخالفا لأيّ أسلوب من ناحية المخاطبين، فمن المعلوم أنَّ النَّاس مختلفون في طبقاتهم، وثقافتهم، ومذاهبهم، فمنهم الجاهل، والعالم، والأمي والمتعلم، والمؤمن والكافر، ومنهم البدائي، والمتحضر .... وعلى هذا الّذي يَحْسن لمخاطبة طائفة قد لا يحسن لأخرى، لذا فإنَّه يجب على كلٍّ متكلم أنْ يُراعي حال المخاطبين في كلامه، وإلاّ فإنّه لا يعتدّ به من جيد الكلام ومقبوله، وهذا يتفق ومفهوم البلاغيين للبلاغة حين قالوا :هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال "[1]، واشترطوا لبلاغة الكلام " أنْ يكون ملائما للموطن الذي يّقال فيه، والأشخاص الّذين يُخاطبون "[2].

ولهذه النَّاحية أثر كبير في اختلاف الأساليب، فإذا نظرنا إلى القرآن الكريم نرى تنوع أسلوبه في عهدي نزوله، فبينما يمتاز في العهد المكيّ بقصر العبارة غالبا، وقوتها؛ لأنَّه كان يخاطب قوما كفروا بربِّهم، واشتدوا في عِنادهم، ومحاربتهم لنبيّهم، وكثر فيه إيراد الحجج القوية، والبراهين السّاطعة، فإنّنا نجد من هذه النّاحية أنَّ أسلوبه في مخاطبته للمؤمنين فيه من الرِّقة، والعذوبة ما يضيء جوانح النَّفس، ويملؤها بهجة وسرورا، وقد امتاز في العهد المدنيّ بسلاسة العبارة، ونعومتها، وخلوها من القسوة، والشّدة، إذ إنَّ حاجة المخاطبين بعد قيام الدَّولة الإسلاميِّة إلى التَّنظيم، وتقرير الأحكام، وتفصيلها استدعت كلَّ ذلك، وحتى في خطابه للمنافقين، وكشف نواياهم السَّيئة قد تنوع أسلوبه، واختلفت لهجته عمَّا كان عليه أوّل العهد بالنُّزول، وكذلك فإنَّ الأسلوب الّذي خاطب به أهل الكتاب من اليهود وغيرهم، قد تميز بطابع خاص استدعاه لسان حالهم،وطبيعة علمهم، وتفكيرهم، وقد نصَّ بعض الأدباء والنّقاد على هذه النّاحية، وبيّنوا وَجّه الحكمة فيها، ومن هذا ما نقله الرَّافعيّ عن الجاحظ، فيقول : " إذا خاطب الله تعالى العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة، والوحي، والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل، أو حكى عنهم جعله مبسوطا ..."[3]، ثم بيَّن وَجه الحكمة في ذلك البسط بالنّسبة لليهود،

---

[1] ــ القزوينيّ: الخطيب صلاح الدين محمد(ت739هـ): **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب العالمي، بيروت، لبنان، ط2، 1989م. ج1 /80.

[2] ــ الجارم، علي ، وأمين، مصطفى: **البلاغة الواضحة**، دار المعارف، لبنان، ط2، د.ت. ص: 8.

[3] ــ الرَّافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ص 190.

فيقول : " إنَّ القرآن الكريم قد خاطبهم ــ بني إسرائيل ــ بما هو قريب من أسلوب الأدب العبرانيّ،وقد جرى القرآن عليه في أكثر خطابهم خاصة، ليعلموا أنّه وضع غير إنسانيّ، وليحسوا معنى من معاني إعجازه فيما هم بسبيله،كما أحس العرب فيما هو من أمــرهم، إذ كان أبلغ البلاغة في الشِّعر العبرانيّ، أنْ تجتمع له رشاقة العبارة، وحسن المعــرض، ووضوح اللفظ، وفصاحة التَّركيب، وإبانة المعنى، وتكرار الكلام، لكل ما يفيد التَّكــرار، وتوكيد ومبالغة، وإبانة ..." [1]. والملاحظ أنَّ القرآن الكريم في وجوه خطاباته المختلفــة، لم ينزل عن مستواه الرفيع في الفصاحة والبلاغة، ولم يتمكن أحد من الاعتراض عليه، أو توجيه اللوم نحوه من أي طبقة من الطبقات، أو فئة من الفئات، أنه أخــلَّ بناحيــة مــن النواحي التي تعرض لها، أو اختلف مع نفسه في شيء من الأمور التي عرضها، وهــذا في حدٍّ نفسه وجه من وجوه إعجازه، وخاصية من خواص لغة القرآن، وأسلوبه، فيحدثنا محمد دراز عن غايتين متباعدتين اجتمعتا في أسلوب القرآن الكريم، فيقــول : " خطــاب العامة، وخطاب الخاصة غايتان متباعدتان عند النَّاس، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالوضوح المكشوف الّذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضــونه لأنفــسهم فــي الخطاب، ولو أنَّك خاطبت العامة باللمحة، والإشارة الّتي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم مــن ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حقها كاملا مــن بيانك، أن تخاطب كلَّ واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى ... فهــو متعــة العامــة، والخاصة على السَّواء، ميسر لكل من أراد "[2].

والاستفهام من أساليب القرآن الكريم، بنيته طلبية، فتقدِّم صــيغة " اســتفعال" دلالــة الوضع في طلب الفهم، بأدوات مخصوصة، حيث فطــن لــه النّحويــون، والبلاغيّــون الأوائل، فقد عقد له سيبويه بابا خاصا، وتحدث عنه الفرّاء، والمبرد، والحيــدرة اليمنــيّ وغيرهم كثير[3]. وقد حاول عبد الحليم فوده كما يقول بعض الدّارسين استقصاء مباحــث

---

(1) ــ المرجع السابق : ص 190.

(2) ــ دراز، محمد عبدالله : **النبأ العظيم**، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1969م. ص : 106.

(3) ــ ينظر : سيبويه، عمر بن عثمان بن قنبر (180هــ) : **الكتاب**، تحقيق : عبد الســـلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1991،1م. ج2/53، ج3/228. وينظر : الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (ت207هــ) : **معاني القرآن**، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، الدار المصرية، القاهرة، ط2، 1980. ج1/ 23، 202. وينظر : الحيدرة اليمني : كشف المشكل : ج2/ 150.

الاستفهام في كتابه "الاستفهام في القرآن الكريم "، إلاّ أنَّ جانب الأسلوب لم يحظ فيه بأيـــة عناية، فاقتصر على ذكر أداة الاستفهام والشّاهد عليها [4] ...، والاستفهام ليس حالة طارئة على التّراكيب،بل هو داخل في نسيجه متفاعل معه،وليست دلالات جملة الاستفهام قاصرة على نوع أداة الاستفهام، أو ع لى نوع عناصره، وطريقة ترتيبها ، أو على رؤية الأديـــب أو الكاتب، وإنّما هي مرتبطة بذلك كلّه، ومتولدة عنه.

أمّا من حيث القيمة الفنية لأسلوب الاستفهام بعامة، فإننا نشير في هذا الصَّدد إلـــى أنَّ الاستفهام قد يكون حوارا مع النّفس، أو مع الغير، ولهذا فإنّه يخلق ثنائية، وحركة في بنية العمل الأدبيّ، تجعله يقترب من مستوى التّعبير الدّرامي " الّذي هو أعلى صـــورة مـــن صور التّعبير الأدبيّ "[1]، والاستفهام غالبا ما يتصل بموقف ينزع صاحبه إلـــى تحقيـــق كشف، أو يتصور أنّه يتوصل من خلاله إلى كشف يشرك المتلقي فيه، وينزع منه إقراره ضمنيا، ولهذا لا يطلب منه جوابا، وكأنّنا بالمستفهم قد طلب وصادر على المطلوب في آن واحد، والاستفهام مثلما يكشف عن موقف، يكشف أيضا عن نزوع الإنسان نحو التّعـــرف على نفسه وعالمه، وإلى الخروج من ضباب الحيرة لنور الحقيقة، أو يكشف عن نـــزوع نحو رؤية أوضح لنفسه، ولعا لمه، ولمجتمعـــه، وتجـــسيد لحيـــرة إزاء قـــضايا الوجـــود والمجتمع.

والاستفهام من ناحية أخرى يمثل ثقة في المتلقي، حينما يكون موجها إليـــه، أو هـــو يفترض عند المتلقي مستوى من الوعي، والصّدق يجعله قادرا على الفهم والإفهام، وهـــذا يجعله جزءا في كتلة النّص على حد تعبير (بارت)، بمعنى أن المنشئ حين يصطنع جدلا مع المتلقي، يكون قد أشركه في بناء المعنى إشراكا ضمنيا، ويكـــون قـــد أعطـــاه حـــقَّ النّقض، وهو أهم ما يميز الاستفهام عن غيره من الأساليب . والتَّجربة الأدبيّة، والبلاغيّة والأسلوبيّة من خلال بنية الاستفهام، تجربة نامية لأنّها تشد كّل أمامنا، وبمشاركتنا تجربـــة أكثر عمقا، وشمولا، فنجاح بنية الاستفهام في إبراز التّجربة، وإثراء النّص تـــأتي نتيجـــة لإمكانات هذا البناء من ناحية، وتوظيفه في السّياق توظيفا جيدا من ناحية أخرى.

---

(4) ـــ ينظر: بركة، عبد الغنى محمد سعد: **أسلوب الدعوة القرآنية**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، د ت، ص: 172.

(1) ـــ إسماعيل، عزالدين: **الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية**، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط2، 1978. ص: 278.

والاستفهام يتصل في المقام الأول بالإنسان، وقضاياه، فما الإنسان بـ غير تساؤل؟، وما الإنسان بغير محاولة استكناه الحقائق؟، وما قيمته بغير محاولة تجاوز تلك الضبابية التي تغشاه، وتحجب رؤيته، وتثير حيرته؟، " والحق أنَّ التّفكير ليس في أصله نفيا، أو إثباتا بل هو تساؤل واستفهام....

الفصل الأوّل :

مفهوم الاستفهام في الدِّراسات اللّغوية والنّحويّة والبلاغيّة وكتب التّفسير:

من المعروف أنَّ الدِّراسات العربيِّة بدأت مختلطة ــ ونقصده به عدم الفصل بين العلوم البلاغيه الثَّلاثة، أو الفصل بين علوم النّحو العربيّ ــ وأنَّ دائرة الاهتمام اللّغوي كانت واسعة، تضم إلى المعجمية ا لنّقد، والبلاغة، وغيرهما، ومن المعروف أيضا أنَّ الدِّراسات البلاغيِّة بدأت أوّل ما بدأت إشارات بلاغيّة في كتب اللغة، والأدب، والنَّقد.

وعلم المعاني من هذه العلوم، فهو فرع في البلاغة مهتمّ بتتبع خواص التّراكيب، وإليه تنسب جملة من المظاهر التّركيبيّة كالـ فصل، والوصل، والتقديم، والتأخير، والحذف، والزّيادة وفاعلية علم المعاني كما يقول محمد عبد المطلب :" لا تتصل باللّغة إلاّ بوصفها خلفية مثالية تمثّل الأصل، فتتسلط فاعليّتُه على الكلام بوصفه الإجراء التَّنفيذي للّغة "[1]. والسّؤال، أو الاستفهام من فروع علم المعاني، يشكل ظاهرة أسلوبيّة مهيمنة في لغة القرآن الكريم، ومفاهيمه، وقد ساير السّؤال مضامين القرآن الكريم بشكل عام، والسّور المكيّة جزء منه . وقد استوعب الاستفهام تفجيرات الدّلالة المنبثقة من شحنات التَّفاعل الحواريّ ما بين السّائل والمسؤول، والّـ ذي قام جلُّه بين أطراف متصارعة، وأقطاب متنافرة، ولا تخفى الطّاقة الإثاريّة، والتأثيريّة الّتي يفجرها الاستفهام، فهو وعاء لغوي تُفْرِغ فيه الأطراف المتحاورة مشاعرها، وانفعالاتها، مبرزا حضوره الأكبر في إنتاج دلالات النّص، وتقديم حيثيات المضامين الحوارية الدّاخلة في الاستفهام.

والتّنوع البنائيّ لتركيب الاستفهام في النّص القرآني يولد جماليّة التّعبير؛ لأنَّه مناط بتألّق التّركيب وجماليّته، وسبيله إلى ولوج عالم الأساليب الانفعاليّة، والتّعبيريّة

---

[1] ــ عبد المطلب، محمد: **البلاغة العربية قراءة جديدة**، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1997 / ص201.

والوجدانيّة، وهذا ما يعني الدِّراسة الأسلوبيّة، فهي تعالج الاستفهام بوصفه اختيارا بين بدائل من تراكيب نحويّة عديدة، وقد أثبت التّوظيف البنائيّ لهذا الاختيار هيمنته على سائر التَّراكيب النّحويّة الدّاخلة في علم المعاني، فكثيرا ما ترد أبنية الأمر، أو النّهي، أو التّمني في صورة هذا التّركيب لتشاركه، وتقوي الدّلالة العميقة الّتي يشير إليها في ثنايا التَّعبير ....

ولنا أن نتساءل عن علة اختيار الاستفهام، أو السّؤال من بين التّراكيب اللّغوية الأخرى ليكون القالب الّذي تتقولب فيه معظم الدّلالات التّعبيريّة؟ وقد التفت إلى هذه الظّاهرة الأسلوبيّة عدد من الدَّارسين قديما وحديثا، وبيّنوا ميزة جوهريّة من ميزات الاستفهام، تتمثّل في البعد النّفسيّ المكتنز في بنائه، والمتشكّل في مستويين، مستوى المرسل، ودلالة الاختيار في الاستفهام من بين البنى التركيبيّة الأخرى، ومستوى المتلقي، ومدى فاعلية الاستفهام دون غيره من هذه البدائل [1]. وهذا يعنى أنَّ التجاء أحد أطراف الحوار إلى الاستفهام، أو السّؤال من أجل تفريغ شحنته الانفعالية، أو لإنتاج شحنات انفعالية في نفس المتلقي ليس مجرد صدفة عشوائيّة، حتى وإن تغيّب الوعي الكامل في عملية الاختيار، فالاستفهام يكتنز وسائل تأثيرية تجسّم انفعالات السَّائل، أو توانراته، وتمارس فاعليتها في المخاطب، لا لكونه سؤالا أو استفهاما عن شيء بعينه، أو دالا على غرض معين، ولكن لكونه سؤالا فحسب، فالاستفهام يتفاعل مع نفس المخاطب قاطعا رتابة تلقيه للتَّراكيب الجاهزة، ومثيرا دهشته لتنشأ أقصى درجات التَّواصل بين أطراف المشهد الاستفهاميّ الحواريّ في النّص القرآنيّ المكيّ بشكل خاص، والقرآن الكريم بشكل عام.

---

(1) ـ نذكر منهم أبا هلال العسكري الذي أشار إلى دلالة التلطف بين السائل والمسؤول، والمنبثقة من بعض استعمالات السؤال لإثبات السؤال على الخبر. ينظر: العسكري، الحسن بن عبدالله بن سهيل (395هـ) **الصناعتين**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، مكتبة عيسى البابي الحلبي، ط1، 1952. ص445. والجرجاني في حديثه عن أثر السؤال الذي لا يتوفر للتراكيب الأخرى في دلالة الإنكار، وإشارته إلى البعد النفسي في كيفية تفاعله مع نفس المتلقي. ينظر: الجرجاني: أبو بكر عبد القاهر الجرجاني بن عبد الرحمن (474هـ): **دلائل الإعجاز**، تحقيق وشرح: محمود محمد شاكر،مطبعة المدني، القاهرة، 1984 ص119. وأحمد ماهر البقري الذي أشار إلى البعد النفسي بوصفه إحدى خصوصيات الاستفهام التي تميزه عن المألوف من أساليب النفي، فهو أقوى في دلالته النفسية من النفي الخبري. ينظر: البقري، أحمد ماهر محمود: **أساليب النفي في القرآن**، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، ط1، 1989 ص 287. ومحمد العبد في إشارته إلى القيم التأثيرية للاستفهام في شعر السّياب. ينظر: محمد العبد: **اللغة والإبداع الأدبي**،دار الياس العصرية، القاهرة، د ط، 1990. ص70 وما بعدها.

ولهذا نجد أنَّ بناء الاستفهام من الظّواهر الأسلوبيّة الّتي تستخدم لفهم النّص الأدبيّ، وقد درسها اللغويون، والنّحويون، والبلاغيّون، والمفسرون، ونبّهوا إلى بنائه عند دراستهم لكثير من الشواهد الشعريّة والنثرية، وبيّنوا بعض فوائدها ووظائفها[2]. كما أنّ دراستهم للنص القرآنيّ، والبحث في إعجازه قد دفعهم إلى البحث في مثل هذه الظّواهر الأسلوبيّة، خصوصا أنّه قد ورد في القرآن الكريم كثير من أبنية الاستفهام محاولين دراستها، وتفسيرها في ضوء علوم البلاغة، والتّفسير، والنَّحو الّتي كانت متوفرة لديهم[1]. فالاستفهام وما يرتبط به من وظائف يلتقي بكثير من الأنماط البلاغيّة للدّلالة على الطّلب، وبهذا الالتقاء "يكون القرآن الكريم قد عدَّد من أساليبه، ونوّع في طرق عرضه، حتى يسوق الحقائق مقرونة بالأدلة، ويعرض التّكاليف عامرة بالإقناع لتلقى قبولا كاملا، واستجابة تامة لدى النّفس الإنسانيّة"[2]. ولكي ندرك هذا البناء، وكيفيّة تفاعله، فلا بدَّ من الوقوف أوّلا عند مفهومه، وتطوّره في الدّراسات اللّغويّة، والنَّحويّة، والبلاغيّة، وعند المفسّرين.

1. 1: الاستفهام عند اللّغويين:

إنّ مصطلح الاستفهام من المصطلحات العربيّة الّتي شهدت حضورا كبيرا عند اللغويين، حيث تُجمع المعاجم اللّغويّة، وتبيّن أنَّ الأصل اللّغوي هو "طلب الفهم"، فقد جاء في العين للخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت175هـ) "فهمت الشّيء فهما، عرفته وعقلت، وفهمت فلانا، وأفهمته، ورجل فهيم، سريع الفهم"[3]. ويذكر أبو إسماعيل الجوهري (ت393 هـ) في الصحاح: "فهمت الشّيء فهما، وفهاميّة، علمته، وفلان فَهِمٌ، وقد استفهمني الشّيء فأفهمته تفهيما، وتفهّم الكلام، إذا فهمه شيئا بعد شيء"[4].

---

[2] ـ ينظر: القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (456هـ): **العمدة في محاسن الشعر وآدابه** تحقيق: محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1988: ج1 باب التفسير، ص: 621 ـ 628. ج2 باب الرخص في الشعر، ص: 1020 ـ 1025. 1306.

[1] ـ ينظر: ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم: **تأويل مشكل القرآن الكريم**، تحقيق وشرح: أحمد صقر، المكتبة العلمية، الدمام، ط5، 1981: ص 232 وما بعدها.

[2] ـ باظاهر، بن عيسى: **أساليب الإقناع في القرآن الكريم** ـ دراسات بيانية وفكريّة في القرآن الكريم، الأردن عمان، ط1، 2000: ص113.

[3] ـ الفراهيدي، الخليل بن أحمد (175هـ): **العين**، دار الكتب العلمية، د ط، د ت: مادة (فهم).

[4] ـ الجوهري، أبو إسماعيل بن حمّاد الجوهري (393هـ): **الصحاح في اللغة**، المركز العربي للثقافة والعلوم، د ط، د ت: مادة (فهم).

ويقول الرّاغب الأصفهانيّ (ت425هـ) في سياق ذلك: " الفهم مقدمة للعقل، فمن لا يعرف معنى الشيء فهما لم يتحققه عقله، وقد يسمى الفهم عقلا، وإن كانت مرتبته دون مرتبة العقل، فقوة الفهم أن يدرك الأشياء الجزئية، والعقل يدرك كليّاتها، ومعنى ذلك أنَّ العقل يعترف أنَّ العدالة حسنة، والظلم قبيح، والفهم يبين فيميز كلّ واحد من الفعل هل هو عدل أو ظلم، وقد يوصف بالفهم من لا يوصف بالعقل، كالحاذق في لعب الشّطرنج، وكل من يوصف بالعقل، فإنّه يوصف بالفهم "[1][2] أمّا صاحب القاموس المحيط الفيروز أبادي (817هـ)، فيقول في الأصل اللّغويّ للاستفهام: " فهم كفرح، فهما وفهامة، وفهاميّة علمه، وعرفه بالقلب، وهو فهيم سريع الفهم، واستفهمني فأفهمته...."[3].

وفي المعاجم اللّغويّة المعاصرة يرد الجذر اللّغويّ قريبا مما أورده السّابقون، ومنهم حسن ملكي في الهادي إلى لغة العرب، فيقول في شرح ذلك: "فهم يفهم فهما .... فهم الرجل المعنى من العبارة أو بيت الشِّعر أدركه بعقله، ووقف عليه بوضوح، فهو فاهم، والمعنى مفهوم ... ويقال: فهمت من فلان أنّك ستأتي إلينا اليوم، أي قال لي خبرا، ففهمت من الخبر أنّك كذا وكذا، ويقال فهمت كلامه، ولا يقال عرفت كلامه، ويقال: رجل ذو فهم أيّ يفهم سريعا بالطَّبيعة، وفهّم الرّجل تلميذه طريقته في الصّناعة بيّنها وشرحها له حتى يفهمها، أو حتى فهمها، ويقال هذا رجل إذا تكلم لا يفهِّم ..."[4].

ومن المعاني الّتي تقترب من جذر الفعل (فهم) في الدلالة المعنوية الجذر اللغوي للفعل (خبر)، فيقول صاحب اللسان: " خبرت بالأمر أي علمته، وخَبرت الأمر أخبره إذا

---

(1) ــ الرّاغب الأصفهانيّ، الحسين بن محمد (425هـ): **الذّريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق: محمد أبو اليزيد العجمي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط1، 1973: ص85. وينظر: الساريسي، عمر عبدالرحمن: **تعريفات الراغب الأصفهاني**، عالم الكتب الحديث، لبنان، ط1، 2004: ص 92.

(2) ــ ينظر الرازي، محمد بن بكر الرازي (660هـ): **مختار الصحاح**، تحقيق وشرح: سعيد محمود عقيل: دار الجيل، ودار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001:، فيقول: فيقول: ((إنَّ الفهم هو العلم بالشيء .... واستفهم فأفهمته، وتفهم الكلام شيئا بعد شيء)) مادة فهم. وينظر: ابن منظور: محمد بن مكرم الأنصاري (711هـ): **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، د ط، 2001م: فيقول: "... أفهمه الأمر، وفهّمته إيّاه جعلته يفهمه، واستفهمه سأله أن يفهمه، وقد استفهمني فأفهمته، وفهّمته تفهيما" مادة (فهم).

(3) ــ الفيروز أبادي، مجد الدين أبي الظاهر محمد بن يعقوب (817هـ): **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، د ط، 1993م: مادة: (فهم).

(4) ــ الكرمي، حسن سعيد: **الهادي إلى لغة العرب**، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1992م: ص: 450.

عرفه على حقيقته، فقال تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [5]، أي اسأل عنه خبيرا يخبره . . والخبر بالتّحريك، واحد الأخبار، والخبر ما أتاك من نبأ عمّن تستخبر، فيقول ابن سيده:الخبر النبأ والجمع أخبار، وأخابير ... واستخبره سأله عن الخبر، وطلب أن يخبره، ويقال تخبّرت الخبر واستخبرته،وتخبّرت الجواب واستخبرته، والاستخبار والتّخبر : السّؤال عن الخبر .... والخابر: المخبر المجرب، ورجل خابر وخبير عالم بالخبر ... وكذلك الذي يخبر الشّيء بعلمه ..." [1]. ويقترب من المعنيين السّابقين في الدلالة المعنوية أيضا الجذر اللّغويّ للفعل (سأل) فيقول الخليل: " سأل يسأل سؤالا، ومسألة، وجمعها مسائل....." [2] وفيه يقول الرّازيّ في مختار الصحاح : " السّؤال ما يسأله الإنسان، وقرئ قوله تعالى : ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [3] بالهمز، وسأله الشّيء ... وتساءلوا سأل بعضهم بعضا)) [4]. ويقول صاحب اللّسان: " السّؤال ما سألته، وسألته عن الشّيء استخبرته وعلمته...." [5].

وفي هذا السّياق وقف اللغويون والنّحاة والبلاغيّون، ففرّقوا ما بين الاستفهام والاستخبار من حيث الاشتقاق اللّغوي، والمعنى الاصطلاحيّ، والأسلوبيّ، فقالوا: الاستخبار يختلف عن الاستفهام؛ لأنّه يفيد معنى الطّلب [6]، ومن النّحاة من قد سوى بينهما، ومنهم ابن فارس فيقول : "الاستخبار طلب خبر ما ليس عند المستخبر، وهو الاستفهام" [7]، أمّا البلاغيون فإنّهم ساروا على طريق ابن فارس من حيث المساواة بين

---

(5) ــ سورة الفرقان: الآية 59.

(1) ــ ابن منظور: لسان العرب: مادة (خبر).

(2) ــ الفراهيدي: العين. باب السين واللام.

(3) ــ سورة طه: الآية 36.

(4) ــ الزازي: مختار الصحاح. مادة (سأل).

(5) ــ ابن منظور: لسان العرب: مادة (سأل).

(6) ــ ينظر: الأنصاري، بن هشام (761هـ): **أربع رسائل في النحو** ــ ومنها الإلمام بشرح حقيقة الاستفهام ــ، تحقيق عبدالفتاح سليم، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، د ت، 114 ــ 115 وينظر: ابن فارس، أحمد بن فارس (395هـ)، والرماني النحوي: **رسائل في النحو واللغة** ــ كتاب تمام فصيح الكلام لابن فارس، والحدود في النحو، للرماني، ومنازل الحروف للرماني، تحقيق: مصطفى جواد، ويوسف يعقوب مسكوني، د مكان للنشر، ط1، 1969 .الحدود في النحو: ص 42.

(7) ــ ابن فارس، أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا الرّازي (395هـ): **الصّاحبي في فقه اللغة**، وسنن العرب في كلامها، مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 1993، ص: 186.

الاستفهام، والاستخبار، فيقول الـ جرجانيّ"471هـ": " إنّ الاستفهام: استخبار، والاستخبار هو طلب من المخاطب أن يخبرك " [8]. أمَّا ابن يعيش فإنَّه يزيد على ما قدمه النّحويون والبلاغيّون من قبله، ويساوي ما بين الاستفهام، والاستخبار، والاستعلام، فيقول: "الاستفهام، والاستعلام، والاستخبا ر، بمعنى واحد، فالاستفهام مصدر "استفهمت"، أي طلبت الفهم، وهذه السّين تفيد الطّلب، وكذلك الاستعلام، والاستخبار فهما مصدرا "استعلمت" و "استخبرت"" [1]. ثم يواصل الحديث عن الاستفهام، وما يساويه في المعنى من أبنية، فيقول: "... وما يستخبر عنه فيجملة الاستفهام ي تعلق بمفرد في بعض صيغه، وفي صيغة الأمر يتعلق بنسبة مثبتة، أو منفية، ظنيّة، أو يقينية، ولذا فإن الاستفهام يكون عن إخبار، ولا يكون عن إنشاء وطلب " [2]. وذكر بعض النّحاة أنَّ بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرق، فقال بعضهم: إن الاستخبار يسبق الاستفهام، وذلك لأنَّك تستخبر فتجاب بشيء، فربما فهمته، وربما لم تفهمه، فإذا سألت ثانية فأنت مستفهم، فتقول: أفهمني ما قلته لي [3].

أمّا أصحاب علوم القرآن فإنهم يقفون بين حدّ التفريق، وحد المساواة ما بين الاستفهام والاستخبار، فيقول الزّركشيّ: إنَّ الاستخبار قد يكون تن بيها للمخاطب وتوبيخا، ولا يقتضي عدم الفهم، والاستفهام بخلاف ذلك " [4]. ونجد من يرد على أصحاب هذا الفهم، ويستعمل الاستخبار بمعنى الاستفهام الذي يقتضي عدم الفهم، ومنهم المبرد، فيقول: " إنَّ المستخبر غير عالم، إنّما يتوقع الجواب فيعلم به" [5].

أما المفسّرون ومنهم أبو حيان التّوحيدي النّحويّ ــ محمد بن يوسف ــ نجده يساوي ما بين الاستفهام، والاستخبار، ولذلك يرى أنَّ أكثر استفهامات القرآن الكريم لا تحتاج إلى جواب، فيقول في قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ

---

[8] ــ الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص165.

[1] ــ ابن يعيش، موفق الدين بن يعيش (643هـ): **شرح المفصل**، عالم الكتب، بيروت، ودار الطباعة، القاهرة د ط، د ت. ج8، ص 150، 151، 152، 153، 155.

[2] ــ ابن يعيش: شرح المفصل: ج8، 150 ــ 155.

[3] ــ ينظر: ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة: ص 186 ــ 187.

[4] ــ الزركشي، لبدر الدين الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية مصر، ط1، د ت. ج2/326.

[5] ــ المبرد، أبو العباس المبرد محمد بن يزيد (385هـ): **المقتضب**، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، ط1، 1386هـ. ج3، ص: 292.

مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾[6] " هذا الاستفهام لا يحتاج إلى جواب، وكذلك أكثر استفهامات القرآن؛ لأنّها من عالم الغيب والشهادة، وإنّما استفهامه تعالى تقريع "[7]. وعلى هذا لا يكون الاستفهام حقيقيا إلا إذا كان لفظه الظاهر موافقا لمعناه الباطن عند سؤالك عمّا لا تعلمه، فنقول: ما عندك؟، ومن رأيت؟ . وزيادة على هذه المعاني اللّغوية الّتي يخرج إليها الجذر الاستفهاميّ، نجد الجرجانيّ يضيف رأيا جديدا غير الّذي ساقه في الدّلائل كما يذكر أبو العدوس، وهذا الرّأي يبين أنَّ الاستفهام يشارك الشّرط في كونه كلاما معقودا على الشّك، فيقول: " وبينهما من المناسبة ما لا يخفى، ألا ترى أنّك إذا قلت: أضربْت زيدا ؟، كنت طالبا ما لم يستقر عندك، كما أنّك إذا قلت: إن تضربْ زيدا أضربْ، كان كلاما معقودا على الشك، من حيث أنَّ كلَّ واحد من الشرط والجزاء علَّة لصاحبه، وليس قصدك أن تثبت الضرب على الإطلاق "[1]. أمّا الباحثون المحدثون فإنّهم لم يخرجوا عمّا قاله السابقون حول الجذر اللغوي للاستفهام، ومنهم الباحث (يوسف أبو العدوس)، الذي يقول: " الاستفهام طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل "[2].

ومن هذه المفاهيم اللّغوية المتشعبة للاستفهام ترى الدّراسة أنَّ جملة الاستفهام،جملة تحويلية أصلها التّوليدي كان بمعنى الإخبار، والاستفهام معنى من المعاني الّتي يطلب به المتكلم من السّامع أن يعلمه بما لم يكن معلوما عنده من قبل، واستعلام ما في ضمير المخاطب حتى يتحصل مراد الاستفهام بالتّصديق[3]. وترى الدّراسة أيضا أنّ السّؤال أعم من الاستفهام؛ لأنَّ السّؤال بمعنى طلب العطاء، وهذا الطّلب قد لا يكون بألفاظ الاستفهام. فالاستفهام خصَّ عند أهل اللغة بطلب الفهم، والسؤال هو الصّيغة الّتي يطلب بها هذا الفهم، وقد تتعدى الصّيغة هذا المعنى ــ أي طلب الفهم ــ إلى معان أخرى ستقف عندها الدّراسة في حينها.

1. 2: الاستفهام عند النّحويين:

---

(6) ــ التوحيدي، أبو حيان النحوي: **البحر المحيط**، مصر، ط1، 1328هـ ج2، ص 418.

(7) ــ الجرجاني، عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني (471هـ) : **المقتصد في شرح الإيضاح**، تحقيق: كاظم بحر المرجان، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ط1، 1982. ج2، 1120.

(1) ــ أبو العدوس، يوسف: **البلاغة والأسلوبية** ــ مقدمات عامة ــ الأهلية للنشر، عمان، ص63.

(2) ــ المرجع السابق، ص: 63.

(3) ــ ينظر: عمايره، خليل أحمد: **في التحليل اللغوي** ــ منهج وصفي تحليلي ــ، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط1، 1987م. ص 105 ــ 106.

نشأ علم النحو وهو على صلة وثيقة بعلم المعاني، فكان للنحـــاة الأوائـــل عنـــايتهم الفائقة، بدراسة الكلام العربي، والوقوف على أساليب التعبير به ، والبحث فيما يعرض لها من تعريف، وتنكير، وتقديم وتأخير، وإضمار وإظهار ....، فعنايتهم أعطت معاني الكلام الرّونق من خلال البحث في ظروف القول، ومناسباته . فكان ذلك يقع ضمن اختـــصاص الدّرس النّحوي؛ لأنَّ النّحو في أصله يراد به القصدُ نحو كلام العرب، والوقوف على أساليب التّعبير به في سبيل الاقتدار على فهمها، والإفهام بها ... والاستفهام مـــن أبـــواب علم المعاني، لكننا لا نجد في المصنفات النّحويّة من خصَّ أسلوب الاستفهام بفـــصل، أو باب، ولا من وقف عنده وِقْفة مستقلة عدا ما تناثر من إشاراتهم إليها تناثر مـــسائلها فـــي مصنفاتهم، ولا يجمعها نظم، ولا يوحدها باب مستقل، ولعل مرجع ذلك إلى أنَّ الجانـــب الّذي شاع من أسلوب الاستفهام هو الجانب البلاغيّ (الأسلوبيّ)، بفضل العلوم التي قامـــت حول القرآن الكريم، وكون الاستفهام سمة بارزة في أســـلوبه، فالأســـلوب يجمـــع فـــي موضوعاته أغلب القضايا اللّغوية، والنّحويّة، والبلاغيّة، فهذه الموضوعات في تكاملها في البنية الاستفهاميّة، هو ما صرف النّحاة عن تناوله كقضية، أو ظاهرة، ولكـــن ذلـــك لـــم يمنعهم في الوقت نفسه من تداول باب الاستفهام، وسأحاول فيما يأتي رصد مواقف النّحاة المشهورين من ظاهرة الاستفهام من خلال بعض مصنفاتهم ..

1 ــ الاستفهام عند النّحاة القدماء:

الاستفهام عند النّحاة القدماء كما جاء عند معظمهم " هو طلب المتكلم مـــن مخاطبـــه أن يحصل في ذهنه ما لم يكن حاصلا عمّا سأله عنه "[1]. وليس مـــن الحقـــائق الجديـــدة القول إنّ: أوّل مصنف نحويّ وصل إلينا على الصّحيح هو الكتاب (سيبويّه ت180هـ) فسيبويه في كتابه لا يعلِّم قواعد العربيّة فحسب بل يعلِّم أساليبها، وطرقهـــا فـــي التّعبيـــر أيضا، فهو يحرص على الإحاطة بخصائصها اللغويّة والنّحويّة، لذلك نجده يدرّس أساليب

(1) ــ ينظر: سيبويه، عمر بن عثمان بن قنبر (180هـ): **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، القاهرة، ط1، 1991م. ج2، ص228، 277، 280. وينظر: السيوطي، جلال الدين السيوطي (911هـ): **الأشباه والنظائر في النحو**، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط1، 1975م. ج4، ص 70 ــ 74. وينظر: الجرجاني، علي بن محمد الشريف الجرجاني (816 هـ): **التّعريفات**، دار الشؤون الثقافية العامةبغداد، طبعة جديدة، د.ت ص:96. وينظر: الزركشي، بدر الدين الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، ط1، 1957. ج2، ص327 وما بعدها.

الكلام في الأمثلة، والنّصوص، يقفلا عند الصّحة، أو الخطأ فيها بل يتجاوز ذلك إلى البحث عن أسباب الحسن، أو القبح، والقوة، أو الضعف فيها..."[2].

وقد ذهب إلى أنَّ الاستفهام له الصدارة في الكلام، ولا يجوز تقدم شيء مما في حيزه عليه، فلا تقول " ضربت أزيد؟ "، وما أشبه ذلك، وهذه الصدارة من أجل أن تفيد فيه معنى الاستفهام، شأنها في ذلك شأن أدوات المعاني الأخرى؛ لأنّها إذا تقدم عليها شيء من الجملة فقدت الدّلالة على معنى الاستفهام [1]. ولم يبحث (سيبويه) زمن الفعل في الجملة الاستفهاميّة سوى زمن الفعل المضارع الواقع بعد أداة الاستفهام "هل"، وهو يرى أنَّ الفعل المضارع الواقع بعد "هل" يدل على الاستقبال لا على الحال، في حين أنَّ الفعل المضارع بعد" الهمزة قد يدل على الحال، فيقول : " إنَّ " هل " ليست بمنزلة (ألف) الاستفهام؛ لأنّك إذا قلت " هل تضرب زيداً فلا يكون أن تدّعي أنَّ الضرب واقع، وقد تقول : " أتضربُ زيدا؟ "، وأنت تدّعي أنَّ الضّرب واقع " [2].

ويتابع حديثه في أجزاء الكتاب عن المُسْتَفْهَم عنه، ويبيّن أنَّ المُستفهَم عنه لا يتعدّى أحد أمرين: الأوّل: الاستفهام عن النّسبة، ويكون بالاستفهام عن نسبة المسند إلى المسند إليه، أو عن مضمون الجملة، فإذا استفهمت المخاطب بقولك : " هل جاء زيد؟ " دلّلت بذلك على أنَّك تشك في مضمون الجملة، فأنت لا تستفهم عن المجيء وَحْدَه، ولا عن (زيد) وَحْدَه، وإنّما تستفهم عن صحة وقوع مضمون الجملة، أو عن صحة نسبة المسند إلى المسند إليه، والجواب عن هذا السؤال يكون بأحد الإجابتين (نعم) أو (لا).

والثّاني: الاستفهام عن المفرد، فإذا استفهمت المخاطب بقولك: " متى جاء زيد؟ " دلّلت بذلك على أنَّ مجيء زيد معروف لديك، فأنت تعرف نسبة المسند إلى المسند إليه، ولا تجهل إلاّ دقة مجيئه، فهو سؤال مطلوب فيه معرفة المفرد، وهو الوقت، ويكون الجواب عن مثل هذا السؤال بالنصِّ على ما تسأل عنه، فيقال : (أمس) أو ما أشبه ذلك [3]. ويعلل سيبويه اختصاص أدوات الاستفهام بالدخول على الفعل، بأنّها تشبه الأمر، وأدوات الشرط كونها لا تدل على وجوب، بل هي أدوات يطلب بها من المخاطب أمرا لم يستقر عند

---

(2) ــ ينظر: سيبويه، الكتاب، ج2، ص228، 277، 280.

(1) ــ ينظر: سيبويه: الكتاب، ج3، ص 169 ــ 170، 175، 179.

(2) ــ سيبويه: الكتاب: ج3/ 175 ــ 176.

(3) ــ ينظر: سيبويه: الكتاب: ج3/ 169، 170، 175، 179.

السائل، فهي تشارك أدوات الشرط في ا لدلالة على الاحتمال، وعدم الوجــوب، وبالتّــالي فأدوات الاستفهام لا تليها إلاّ الأفعال؛ لأنّ الأفعــال هــي التــي يمكــن أن تــدل علــى الاحتمال، بعكس الأسماء التي تدل على معان ثابتة قائمة، فأدوات الاستفهام في ذلك تشبه أدوات الشّرط، ولذلك يأتي جوابها مجزوما كجواب الشّ رط[4]. وسيبويه حين تحدث عــن الاستفهام في كتابه، وغيره من مباحث علم المعاني، فهو لم يكن يحسّها، أو يراها إلا على أنَّها مادة النّحو، أو داخلة في صميم معناه، وحين جاء عبد القاهر الجرجانيّ، بعده بــزمن طويل كان مدفوعا بهذا الإحساس نفسه، أو بهذه الرؤيا نفــسها، وهكــ ذا كــان ســيبويه مدركا تمام الإدراك ارتباط النّحــو بالمعــاني، ممــا جعــل النّحــو مــادة حيــة ترفــد المتحدثين، والمنشئين، بما يلزم حتى يخرج الكــلام ســليما دالا علــى المعنــى بأيــسر الطرق، وأدق الأساليب.

أما المبرد *(ت 286هـ) في كتابه المقتضب، فإنّــه ذكــر علــم الــ معــاني بــشكل عام، والاستفهام بشكل خاص، ويكاد يكون ذكره تكرارا لما عرضه سيبويه في كتابه، ولم يكن وقوفنا عنده إلاّ بسبب ملاحظة له تــدلنا بوضــوح علــى مــدى ارتبــاط النّحــو بالمعاني، وعلى مقدار عناية النّحاة بنظم الكلام، ومراعاة معانيه وقــد بــيّن المبــرد أ نَّ الاستفهام في القرآن الكريم يختلف عن الاستفهام في كلام البشر؛ وذلك لأنّ المُستفهِم غير عالم، إنّما يتوقع الجواب فيعلم به، والله عزَّ وجل منفيّ عنه ذلك؛ لأنّه تعــالى لا يــستفهم خلقه عن شيء، فالاستفهام في القرآن الكريم غير حقيقــي؛ لأنّــه واقــع، فمــن يعلــم يستغني عن طلب الإفهام، وبهذا الفهم يمكن أن نــؤول الاســتفهام علــى أنّــه للتّــوبيخ والتّقرير، فالله ــ عزَّ وجل ــ يستفهم عباده ليقررهم، ويذكرهم أنَّهم قد علموا حقَّ ذلــك الشّيء...[1].

---

(4) ــ ينظر: المصدر السابق: ج1/ 98 ــ 99، ج3/ 115.

* ــ هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسان بن سليم بن سعيد، ولد سنة (210هــ)، وتوفي سنة (286هــ)، فكان المبرد غلاما وسيما ظريف الطبع خفيف الروح، مليح الأخبار كثير الحفظ، فصيح اللسان، وله أشعار كثيرة، وكانت له صلات بشعراء عصره، ويروي عنهم أشعارهم له من المصنفات: الكامل، والمذكر والمؤنث، والتعازي والمراثي، وشرح لاميّة العرب، وإعراب القرآن، وطبقات النحاة البصريين. ينظر: الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت 643هــ): **تاريخ بغداد** ــ مدينة السلام ــ تحقيق: محمد مولود خلف، القاهرة، ط1، 1987. ج2/ 314. وينظر: ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج19/ 249.

(1) ــ ينظر: المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (385هــ): **المقتضب**، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، ط1، 1386هــ.ج3/ 292 وما بعدها.

ويذهب المبرد إلى أنَّ الاستفهام سياق فعليّ، وأنَّ الأصل في أدوات الاستفهام أن لا يليها إلا الفعل، إلاّ أنّهم قد توسعوا فيها، فاستعملوها مع الجملة الاسميّة، وقال في ذلك : " واعلم أنّه إذا اجتمع بعد حروف الاستفهام نحو : " هل " و " كيف " و"من" اسم وفعل، كان الفعل بأن يلي حروف الاستفهام أولى؛ لأنّها عندهم في الأصل من الحروف التي يذكر بعدها الفعل " [2]. ويقول أيضا : " واعلم أنَّ حروف الاستفهام كلها يقبح أن يصير بعدها الاسم إذا كان الفعل بعد الاسم، وخير مثال عليه أن تقول : " هل زيد قام؟ " و " أين زيد ضربته؟ "، فهذا لا يجوز إلاّ في الشّعر " [1]. وبهذا الفهم من المبرد نجده يؤسس لدراسة أساليب الكلام، والاستفهام من هذه الأساليب الإنشائيّة الّتي يؤسس لها في المقتضب.

أما ابن جني (ت392هـ)، في كتابه " الخصائص " فإنَّه يقدّم صورة واضحة لعناية النّحاة بنظم الكلام، وتأكيدهم ارتباط النّحو بالمعاني، ويبيّن أنَّ الاستفهام عارض في الأسماء فيقول : "الاستفهام عارض في الأسماء؛ لأنَّ الاستفهام وما أشبهه للحروف في الأصل " [2]ويذكر من أسماء الاستفهام "من " و" كم " و" أي " و" كيف " و" متى " و" أين "، ويوضح أنَّ هذه الأسماء بمنزلة "هذا " و" ذاك"، وقد نبّه على أن استعمال هذه الأسماء أدوات للاستفهام ربَّما كان طلبا للاختصار؛ لأن استعمالها يغني عن الكلام الكثير غير المتناهي في الأبعاد والطول فيقول : " ألم تسمع على ما جاءوا به من الأسماء المستفهم بها، والأسماء المشروط بها، كيف أغنى الحرف الواحد عن الكلام الكثير غير المتناهي في الأبعاد والطول، فمن ذلك :كم مالك ؟، ألا ترى أنَّه قد أغناك ذلك عن قولك : أعشرة مالك، أم عشرون، أم ثلاثون ... فلو ذهبت تستوعب الأعداد لم تبلغ ذلك أبدا لأنّه غير متناه.." (3).

---

(2) ــ المبرد : المقتضب، ج2/ 74 ــ 75.

(1) ــ المصدر السابق : ج2/ 74 ــ 75.

(2) ــ ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني(392هـ): **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، لبنان، د ط، 1986 .ج3/ 81 ــ 82.

(3) ــ ابن جني: الخصائص:ج1/ 83. وينظر: الأصول في النحو: ج2/ 139. والمقتضب: ج3/ 55. والأشباه والنظائر: ج1/ 29. وشرح المفصل: ج1/ 93 ــ 94.

ويشير ابن جني إلى عدم القياس في حذف أداة الاستفهام؛ وذلك لأنّ أدوات المعاني كما يراها جِيء بها اختصارا ونائبة عن الأفعال، ففي قولك :هل قام أخوك ؟ " قد نابت " هل " عن استفهم، فلو ذهبت تحذفها لكنت مختصرا لها هي أيضا، واختصار المختصر إجحاف به، ولكن مع أن القياس عندهم عدم جواز حذف أداة الاستفهام، إلا أن الشواهد تشير إلى حذف الأداة، وعلتهم قوة المعرفة بالوضع، فقالوا : بأنّ همزة الاستفهام قد حذفت في هذه الشّواهد لقوة الدّلالة عليها،فصارت القرائن الدّالة عليها كالتّلفظ بها، وبعضهم يقيس حذف همزة الاستفهام في الاختيار عند أمن اللبس ووجود ما يدل عليها، وحمل عليه قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ[1] ﴾ [2] ومن إشارات ابن جني نجد أسلوب الاستفهام حاضرا كل الحضور لديه، ولكنه لم يكن مستقلا، فإشاراته حول هذا الأسلوب توزعت على أدوات الاستفهام التي يأتي منخلالها، وهكذا يمكننا القول أن ابن جني قد أكد ارتباط النحو بالمعاني ،وعلى يديه تطورت دراسة تأليف الكلام، وأساليب التَّعبير تطورا كبيرا.

أما أحمد بن فارس (ت 395هـ)، فقد تحدث في كتابه (الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها)عن موضوعات كثيرة كالمجاز، والاستعارة، والحذف والزيادة، والإضمار، والتَّعويض، والتّأخير، والكناية، وحروف المعاني، وكان فصل معاني الكلام أهم موضوعات هذا الكتاب، إذ بحث فيه أساليب الخبر والاستفهام، والأمر، والنهي، والدعاء، والطلب، والعرض، والتحضيض، والتمني والتعجب، وقد حدد فيه المعنى الاصطلاحي لكل أسلوب وذكر المعاني المجازية التي يستعمل فيها .

ويرى ابن فارس أن الاستفهام هو " طلب الفهم"، وهو بمعنى الاستخبار، وقيل الاستخبار ما سبق أولا، ولم يفهم حق الفهم، فإذا سألت عنه ثانية كان استفهاما،ففسر ذلك بقوله:الاستخبار طلب ما ليس عند المستخبِر، وهو الاستفهام " [3]، وتابع حديثه وبين أنَّ هناك أدنى فرق بين الاستفهام، والاستخبار، وقال : " إنَّ الاستخبار تستخبر فتجاب بشيء ربما فهمته، وربما لم تفهمه، فإذا سألت ثانية فأنت مستفهم فتقول : أفهمني ما

(1) ــ سورة الشعراء: الآية 22.

(2) ــ ينظر: ابن جني : الخصائص: ج2/ 275 ــ 285. وينظر :ابن يعيش: شرح المفصل: ج2/ 15.

(3) ــ ابن فارس: الصّاحبي في فقع اللغة وسنن العرب في كلامها: ص: 186.

قلته؟، قالوا الدليل على ذلك أن الباريّ جل ثناؤه يوصف بالخبر، ولا يوصف بالفهم " [4]. ويذكر أنَّ الاستفهام لا يكون حقيقيا إلاّ إذا كان لفظه الظاهر موافقا لمعناه الباطن عند سؤالك عما لا تعلمه فتقول : "ما عندك؟، ومن رأيت ؟ "،ويشارك ابن فارس سيبويه في توضيح الفرق بين الاستفهام عن مضمون الجملة،والاستفهام عن تعيين المفرد [5].

أمّا ابن يعيش (ت643هـ)، في (شرح المفصل) فلم يدع أسلوب الاستفهام يمضي دون أن يكون له وقفة معه، ولكنَّه لم يخصه بمكان، وإنّما وقف عنده في أثناء حديثه عن الأدوات فيقول:"الاستفهام والاستخبار بمعنى واحد، فالاستفهام مصدر استفهمت أي طلبت الفهم، وهذه السين تفيد الطلب، وكذلك الاستعلام، والاستخبار ....، وما يستخبر عنه في جملة الاستفهام يتعلق بمفرد في بعض صيغه، وفي صيغة الأمر يتعلق بنسبة مثبتة، أو منفية ظنية، أو يقينية، ولذا فإن الاستفهام يكون عن إخبار، ولا يكون عن إنشاء، أو طلبٍ " [1]،والاستفهام كما بيَّن النُّحاة سياق فعلي يقتضي الفعل ويطلبه، وفي ذلك يقول ابن يعيش : " اعلم أن الاستفهام يقتضي الفعل ويطلبه، وذلك من قبل أن الاستفهام في الحقيقة إنما هو عن الفعل؛ لأنك إنما تستفهم عما تشك فيه وتجهل علمه، والشك إنما وقع في الفعل، وأما ا لاسم فمعلوم عندك، وإذا كان حرف الاستفهام إنما دخل للفعل لا للاسم ، كان الاختيار أن يليه الفعل الذي دخل من أجله "[2]، ولا يكتفي ابن يعيش بهذا العرض، ولكنه يفصل القول في الاستفهام من حيث التركيب الدلالي، والأسلوبي فيقول : " إن الاستفهام له صدر الكلام من قبل إنه حرف دخل على جملة تامة خبرية، فنقلها من الخبر إلى الاستخبار، فوجب أن يكون متقدما عليها، ليفيد ذلك المعنى فيها، .... وإذا تقدم شيء على الاستفهام خرج عن حكم الاستفهام " [3].

أما علة بناء أسماء الاستفهام فراجع لتضمنها معنى " الهمزة "، وفي هذه الحالة وجب البناء فيقول : " ليس الظّرف متضمنا معنى " في " فيجب بناؤه لذلك، كما وجب بناء نحو

---

(4) ــ ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة،ص : 186 ــ 188 .

(5) ــ ينظر : المصدر السابق : ص 186 ــ 188 .

(1) ــ ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي (643هـ) : **شرح المفصل**، عالم الكتب، بيروت، د ت . ج1/ 180 ــ 182 .

(2) ــ ابن يعيش : شرح المفصل : ج1 / ص81

(3) ــ المصدر السابق : ج1 / 81 .

" من " و" كم " في الاستفهام، ... ولا يجوز ظهور "الهمزة " مع "من" و" كم " في الاستفهام، فلا يقال : "أمن" ولا " أكم "، وذلك من قبل أن "من" و"كم" لما تضمنا معنى"الهمزة "صارا كالمشتملين عليها،فظهور الهمزة حينئذ كالتكرار " [4]،وقد فصل ابن يعيش القول في أدوات الاستفهام وبين معانيها وشروط بنائها في الجملة الفعلية والاسمية .

أمّا ابن هشام (ت761هـ)فقد وجه الاستفهام وقعّد وحدد المفهوم وقال : " هو طلب الفهم " [1]وبيّن في حديثه طرق أسلوبيّة الاستفهام، وقال : " إنَّ كل فعل يستفهم عنه لا يكون إلا مستقبلا " [2]، وقد وافق ابن هشام من سبقه من النّحاة، وبيّن أنّ المستفهم عنه لا يتعدى أحد أمرين : " الاستفهام عن نسبة، والاستفهام عن مفرد " [3]، وقد قسّم ابن هشام أدوات الاستفهام بحسب التّصور والتّصديق إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: ما يطلب به حصول التّصديق تارة، والتّصور تارة أخرى، وهو الهمزة، والثّاني : ما يختص بطلب حصول التّصور فقط، وهو " هل "، كقولك : هل حصل الانطلاق ؟، و "هل زيد منطلق؟ "، الثّالث: ما يختص بطلب حصول " التّصور" فقط، وهو بقية أدوات الاستفهام، وبيّن كذلك أنَّ بعض حروف الاستفهام تحذف في السِّياق وخاصة الهمزة، ولكنَّه وضع شرطا لذلك، وهو وجود قرينة لفظية تدل عليها، فيبقى كذلك معنى الاستفهام قائما في الكلام، وذلك أنَّ الأداة لا تقف وحدها قرينة في الجملة على إرادة المعنى، وإنّما تتضافر معها قرائن أخرى على إفادة ذلك المعنى، فإذا كانت القرائن الأخرى، بحيث تغني عن ذكر الأداة فلا تكون الأداة بمفردها مناط المعنى [4].

فمن ذلك أنّ التَّلازم الّذي بين " الهمزة" الّتي للتّسوية، أو للتّعيين، وبيّن "أم يجعل " أم " هذه قرينة على " الهمزة"، فيستغنى أحيانا عن ذكر " الهمزة " بقرينة ذكر " أم "، ويتم الاستفهام من غير أن تذكر الأداة[5]، ومع عدم وجود قرينة لفظية في

---

(4) ــ المصدر السابق : ج8 /155 .

(1) ــ ابن هشام، عبدالله جمال الدين بن يوسف (761هـ): **مغني اللبيب**، تحقيق:محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة المدني، القاهرة، ط1، د ت. ج1 /13 .

(2) ــ المصدر السابق : ج2/ 350 .

(3) ــ المصدر السابق : ج1/ 15 .

(4) ــ ينظر : المصدر السابق : ج1/ 14 .

(5) ــ ينظر : المصدر السابق : ج1/ 14 .

الكلام يمكن الاستغناء بقرينة " النغمة " عن ذكر أداة الاستفهام، والنغمة هي الإطار الصّوتي الذي تقال به الجملة في السّياق، فالجمل العربيّة تقع في صيغ، وموازين صوتيّة تنغيميّة ذات أشكال محددة، فالهيكل التّنغيمي الّذي تأتي به الجملة الاستفهاميّة، وجملة العرض، غير الهيكل التّنغيمي لجملة الإثبات، وهن يختلفن من حيث التّنغيم عن الجملة المؤكدة، فلكل جملة من هذه صيغة تنغيمية خاصة بها تعين على الكشف عن معناها النحوي، وهذا نلمسه في قول عمر بن أبي ربيعة:

ثم قَالوا تُحِبْها، قُلْتُ بَهْرا عَدَد الرَّمل وَالحَصى والتُّراب

فالنَّغمة الاستفهاميّة في قوله " تحبها " أغنت عن ذكر أداة الاستفهام فحذفت الأداة، وبقي معنى الاستفهام مفهوما من البيت [1]. أما الرّضي الاستراباذي (686هـ)، فقد بيَّن أنَّ الاستفهام هو طلب الفهم، وله الصَّدارة في الكلام فيقول: " وإنَّما وجب تصدر متضمن معنى الإنشاء؛ لأنَّه مؤثر في الكلام مخرج له عن الخبريّة، وكل ما أثر في معنى الجملة من الاستفهام، والعرض، والتَّمني، والتَّشبيه، ونحو ذلك، فحقها صدر تلك الجملة، خوفا من أن يَحمل السّامع تلك الجملة على معناها قبل التّغيير، فإذا جاء المغيِّر في آخرها تشوّش خاطره؛ لأنَّه يجوز رجوع معناه إلى ما قبله من الجملة مؤثرا فيها، ويجوز بقاء الجملة على حالها، فيترقب جملة أخرى يؤثر ذلك المؤثر فيها " [2]، وفي هذا الحديث يؤطر الاستراباذي إلى أسلوبيّة الاستفهام ودلالة التركيب، ويقول أيضا في نفس السِّياق: " كل ما يغير معنى الكلام ويؤثر في مضمونه، وكان حرفا فمرتبته الصّدر، وإنّما لزم تصدير المغيِّر الدّال على قِسم من أقسام الكلام، ليبني السَّامع في ذلك الكلام من أوّل الأمر ما قصد المتكلم ... " [3].

---

(1) ــ ينظر: ابن هشام: مغني اللبيب ج1/ 15 وما بعدها.

(2) ــ الرضي الاستراباذي، محمد بن الحسين نجم الدين (686هـ): **شرح الرضي على الكافية**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1983 ج2/ 97

(3) ــ الاستراباذي: شرح الكافية ج2/347.

الاستراباذي (ت911هـ) يفصّل القول في أدوات الاستفهام، ويضع لها القواعد الخاصة فيقول في " هل ": " إنّها دخيلة في معنى الاستفهام؛ لأنَّ أصلها " قد "..." [4]، وبهذا يكون الاستراباذي قد بحث أصول أدوات الاستفهام، وبيّن أنّ (من) تخص الاستفهام دون تأويل معنى اسم آخر، أو حرف آخر، كما هو الحال في حديثه عن " هل"، وبذلك يكون الاستراباذي قد حدد مفهوم الاستفهام وقواعد أسلوبه.

أما السّيوطيّ (ت911هـ) فإنّه لم يخرج عن دائرة الّذين سبقوه حول أسلوب الاستفهام، إلاّ أنّه انتهى إلى أنّ الاستفهام ليس فقط طلب الفهم من المستفهم، وإنّما هناك ما هو طلب إفهام المسئول فنراه يقول : " ولا بدع في صدور الاستفهام عمن يعلم المستفهم عنه؛ لأنّ طلب الفهم إما طلب فهم المستفهم، أو وقوع فهم لمن لم يفهم كائنا من كان" [1]، وبيّن أنَّ الاستفهام نوعان : حقيقي ومجازي، ويسمي البعض الاستفهام المجازيّ بالاستفهام البلاغي، ويتولد عن الاستفهام المجازيّ جملة من المعاني، ولكن هذه المعاني لا تعني بقاء معنى الاستفهام في كل أمر من الأمور [2]، ويقول كذلك : " الاستفهام المجازيّ ينشأ دون أن يقصد مُنشئه إلى طلب الجواب، وإن بقي احتمال الجواب داخلا في بنية الجملة؛ ..... ويقول أيضا : توسعت العرب فأخرجت الاستفهام عن حقيقته، أو أشربته تلك المعاني المجازيّة " [3].

وقد أورد السّيوطي للاستفهام المجازي اثنين وثلاثين معنى، أذكر منها " الإنكار والتَّوبيخ، والتَّعجب ...." [4]، وهذا العدد الّذي ذكره السّيوطيّ لمعاني الاستفهام المجازيّ يساعدنا في دراسة الاستفهام في ضوء الأسلوبيّة، ولكنَّ هذه المعاني الّتي ذكرها كما يقول محمد أبو موسى : " كثيرة لا يمكن الإحاطة بها، وإنّما يذكر العلماء منها ما يرشد إلى طريق تفهمها والوعي بها " [5]، ويتابع محمد موسى حديثه في هذا المقام، ويقول : " إنَّ ما تشيعه أداة الاستفهام أرحب وأدق من أن نحدده تحديدا تاما، وإن المعاني الّتي

---

(4) ــ المصدر السابق :ج2/ 373.

(1) ــ السّيوطيّ، جلال الدين عبد الرحمن السّيوطيّ: **الاتقان** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، صيدا بيروت، د ط، 1987. ج3/ 234.

(2) ــ ينظر المصدر السابق :ج3/ 234.

(3) ــ المصدر السابق :ج3/ 235 ــ 240.

(4) ــ ينظر : المصدر السابق :ج3/ 234.

(5) ــ محمد موسى: **دلالة التّراكيب دراسة بلاغية**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1987 . ص: 228.

يشير إليها السّيوطي، وهي بطبيعتها خفية، وهاربة لا نستطيع وضعها بإحاطة وسيطرة "[6]، وبهذا المفهوم الّذي يطرحه محمد موسى حول معاني السّيوطي للاستفهام، فإنّه ــ السّيوطيّ ــ لم يفرق بين الدلالة الفنيّة للتّراكيب، والدّلالة الموضوعيّة، فقد وضع قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [7] ، في إطار التّقرير فقط، وجعل قوله تعالى:﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (8)، في إطار التَّذكير فقط، ودلالة الآيتين فنيا تقع في إطار التقرير، أمّا من حيث المعنى فقد جاء قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ ، كما تقول بنت الشّاطى: " لبثّ الطّمأنينة في نفس الرّسول عليه السّلام، وتثبيت قلبه إلى ما أسبغ الله عليه من النعم " [1] ، وهي بذلك تخالف السيوطي في تحديد معنى الاستفهام. أما في قوله تعالى:﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، ففيها تذكير وزجر ووعيد وتوبيخ، فظاهر الاستفهام أنّه جاء إنكارا لعدم حدوث مقتضى الفعلين " أعهد " و " لا تعبدوا "، وفي هذا السياق نقلا عن حسني خليل، والذي أشار أن عبد العليم فودة في دراسة الاستفهام قد بين : " أنّ السّيوطيّ يقع فيما وقع فيه غيره من خلط بين المعاني الأصلية، والمعاني الفرعيّة، وقد جرَّه ذلك إلى تأصيل الفروع، وتثبيت المتشابه الّذي يمكن سلكه في نظام واحد "[2]، وبهذا يكون السّيوطيّ قد توسّع في مفهوم الاستفهام، وبيّن معانيه المتشعبة من خلال شواهد قرآنيّة، إلاّ أنّه في هذه الأمثلة والشّواهد خلط ما بين المعاني، كونها متقاربة في الدّلالة والمعاني، إلا أن السياق وما فيه من إشارات، وإحالات تشير إلى عكس ما ذهب إليه السيوطي في بعض المواطن لمعاني الاستفهام . . وتكاد تكون إسهامات النحويين في مفهوم الاستفهام رغم تغاير الأزمان متقاربة، إلا أن المتأخرين قد أضافوا للمتقدمين المعاني الدّلالية الّتي يخرج إليها الاستفهام، وهذه الإضافة جعلت لمفهوم الاستفهام عندهم عمقا أسلوبيّا. وعند السّيوطيّ نتوقف مع النّحويين القدماء لنصل بعده إلى النّحويين المحدثين، وكيف تناولوا مفهوم الاستفهام

---

[6] ــ محمد موسى: دلالة التراكيب ص 230.

[7] ــ سورة الضحى: الآية 6.

[8] ــ سورة ياسين: الآية 60.

[1] ــ بنت الشاطئ: التفسير البياني، ج1 /42.

[2] ــ محمود، حسني ، **أساليب الاستفهام، في الشعر الجاهلي**، دار المعارف للثقافة، الأحساء، ومؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 2001 ص: 14.

2 ـ الاستفهام عند النّحاة المحدثين:

من خلال البحث في مفهوم الاستفهام، تجد الدراسة أنَّ المحدثين لم يأتوا بإضافات كبيرة لما قدمه النحاة القدماء، إلاّ أنّنا رغم ذلك نجد بعض الإضافات عند بعضهم، وخاصة من ساير مؤثرات الدّراسات الغربيّة في النّحو العربيّ، أو الجملة كتركيب. فنجد مصطفى الغلايينيّ يبدأ حديثه في " الجامع" عن الاستفهام بذكر أسمائه، وشرحها مفصلة مع إيراد الشّواهد الوافية لكل اسم، ويتحدث عن أسماء الكنايات، فيقول: " هي ألفاظ مبهمة يكنى بها عن مبهم من عدد، أو حديث، أو فعل "[3]، مفصلا الكلام عن " كم " بنوعيها.

ومن الملاحظ عند الغلاييني أننا نراه يسير في تناوله للموضوعات على طريقة ابن هشام، فهو يلجأ إلى الاختصار، والإيجاز في عرض أسلوب الاستفهام. أما شوقي ضيف في كتابه (تجديد النحو)، فإنّه تناول عدة قضايا تتعلق بالاستفهام، فبدأ الحديث عن حرفي الاستفهام " الهمزة، وهل"، واعتبرهما أكبر أدوات الاستفهام؛ لأنّه يسأل بهما عن الجملة، بينما الأدوات الأخرى يسأل بها عادة عن كلمة لا عن جملة، وفي مواطن أخرى من الكتاب نجده يتعرض لمسائل بسيطة، وموجزة من مسائل الزّيادة، والحذف، والتّقديم والتّأخير الّتي تعتري جملة الاستفهام، ففي فصل التّقديم والتّأخير يؤطر الجانب الأسلوبيّ للاستفهام، فقال بوجوب تقديم المبتدأ على الخبر، إذا كان اسم استفهام، ووجوب تقديم الخبر كذلك إذا كان الخبر اسم استفهام؛ لأنّ الاستفهام من خلال أسمائه له الصّدارة في الحديث، ولهذا وجب التّقديم في الحالتين ممّا يولد حالة من التّنغيم يحسّها السَّامع من المتكلم[1].

أما خليل عمايرة فإنَّه متأثر بما أبدعه الغرب في مجال اللّسانيات، فيرى أنّ الجملة هي: " الحد الأدنى من الكلمات التي تحمل معنى يحسن السكوت عليه "[2]،.. ويقول:وهذا المفهوم يتضمن الجملة النواة، أو الجملة التوليدية: الاسمية والفعلية، ويتضمن كذلك الجملة التّحويلية: الاسميّة، والفعليّة، سواء كان فيها عنصر تحويل واحد أمْ كانت تتضمن غير واحد من عناصر التّحويل سالفة الذّكر، وبهذا تكون

---

(3) ــ مصطفى الغلاييني: **جامع الدروس العربية**، مراجعة: عبد المنعم خفاجه، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط18، 1986 ,ج1/ 145.

(1) ــ ينظر: شوقي ضيف: **تجديد النحو**، دار المعارف، القاهرة، ط2، د ت: ص 246 وما بعدها.

(2) ــ عمايره، خليل: **أسلوبا النفي والاستفهام في العربية**، ــ في منهج وصفي في التحليل اللغوي ــ جامعة اليرموك، د ط، د ت، ص: 7. وينظر في التحليل اللغوي: ص 105.

جملة الاستفهام جملة تحويليّة أصلها التّوليدي كان بمعنى الإخبار، وجملة الاستفهام كـذلك من المعاني الّتي يطلب بها المتكلم من السّامع أن يعلمه بما لم يكن معلومـا عنـده مـن قبل " [3].

وبهذا العرض نجد أنّ النّحاة قد درسوا أسلوب الاستفهام من خـلال أبـواب النّحـو المختلفة، لكن الجانب الذي حظي لديهم بالدّرس الموحد في هـذا الأسـلوب هـو أدوات الاستفهام، إذ لا يكاد يخلو مؤلف نحويّ من جمع لأدوات الاسـتفهام فـي بـاب واحـد ينتظمها جميعا، إلاّ من نهج منهم نهج المعاجم، فوزع الأدوات أيضا توزيعا "ألف بائيـا " كما فعل ابن هشام في " المغني" و" المرادي في الجنى الداني" ....

ومما سبق يتبين لنا ما يلي :

ليس هناك مصنف خاص، أو باب منفصل عند النّحاة في هـذه الظّـاهرة الأسـلوبيّة يرصد مسائلها بشكل منفصل .

ينظر أكثر النّحاة إلى الاستفهام على أنّه خدمة للمعنى، من خلال طلب الفهـم الّـذي يبحث عنه السّائل، أو المستفهم .

رصد النحّاة أساليب الاسـتفهام الّتـي يـأتي عليهـا، وبيّنـوا أنّ هـذا الأسـلوب له الصّدارة في البناء التّركيبي للجملة، فإن لم يكن كذلك، فإنّه يخرج مـن دائـرة هـذا الأسلوب .

لا نجد موقفا متحيزا عند النّحاة، من ظاهرة الاستفهام إنكارا، أو قبولا، ولكنهـا آراء ومواقف متناثرة في مـسائل يجمعهـا الاسـتفهام، حـسن إذا كـان ضـروريا لـدعم المعنى وإبلاغه، وبشع إذا خالف الطريقة، والأسس التي تعارف عليها أسـلوب الكـلام العربي .

وقف النّحاة القـدماء، والمحـدثون بدراسـتهم عنـد تـأليف الـ جملـة الاسـتفهاميّة وترتيبها، ولم تكن الأغراض الّتي تنشأ عن اختلاف الظّواهر التّركيبية للجملة الاستفهاميّة غنية لديهم، فلم يلحظوا منها سوى أغراض بسيطة، فمثلا في التّقديم، والتّـأخير اكتفـوا بغرضين هطلأهمية، والتّنبيه، ولهذا تجد الدّراسة أنّ النّحويين لـم يـستطيعوا لمـس الطّاقات الإبداعيّة للظواهر المختلفة الّتي تعرض لجملة الاستفهام، لأنّهـم نظـروا لتلـك الظّواهر من خلال إطار لا يتعدى حدود نظرية العامل، والحركة الإعرابيّة .

---

(3) ــ خليل عايره : في التحليل اللغوي : ص 105 .

1. 3: الاستفهام عند المفسّرين:

لقد عني المفسّرون في كتبهم بعلم المعاني، ومعاني الأ دوات، وخصّوها باهتمام بالغ يفوق عنايتهم بأحكامها النّحوية، فقد ألّفوا فيها مدخلا جوهريّا لمعرفة دلالاتها وظلالها، وأحد المنطلقات الأساسيّة في الكشف عن أسرار البيان، ومظهرا من الإعجاز في أسلوب التّنزيل الخالد، وكان هذا الاهتمام لدى الأوائل منهم النواة الحقيقية لنشأة هذا العلم، وبلغ عند اللاّمعين مرحلة ناضجة وصلت إلى درجة التّقعيد، والتّنظير، وغدت مرتكزا للاحقين من بعدهم، ينظر إليه بعين الإكبار والتّقدير .

وقد جليّ المفسّرون في شروحهم للآيات القرآنيّة معظم المعاني التي تؤديها الأدوات الّتي وقفوا ع ندها، فأوضحوا معانيها العامة، وصلاتها بالنّصوص، والدّلالات الفرعيّة الّتي تحملها، أو تتشربها، وعقدوا مقارنات ضافية بين هذه المعاني، فكشفوا الأصيل من العارض، وقابلوا بعضها بفوائد الكلمات الأخرى من أسماء وأفعال، وأثاروا عددا من المشكلات، والظّواهر الّتي تتعل ق بها، وقد استعانوا خلال ذلك بجهود النّحويين، واللّغويين والبلاغيين، والأصوليين، واستدلوا لآرائهم بالنّصوص، والقياس، والتّعليل، فأسفر تحليلهم، واستنتاجهم عن تمثّل حقيقي للمعاني النّحويّة والأسلوبيّة، وعن أهمية هذا الجانب في الكشف عن معاني القرآن ظاهرة، وغ امضة، وجدارته باحتلال مركز متميز ومستقل في الدّراسات النّحوية، والأسلوبيّة.

1 ــ الاستفهام عند المفسّرين الأوائل:

من خلال البحث والتّقصي تجد الدّراسة أنَّ أسلوب الاستفهام هو واحد من الأساليب الإنشائيّة التي تلقى حضورا كبيرا في مصنفات التفسير، ويراد به طلب الفهم، أو معرفة ما هو خارج الذّهن، وليس من أغراض التّفسير الوقوف المتقصّي، والمفصل لظواهر اللّغة، إلاّ أنَّ بعضها كان يقف عند كثير من القضايا اللّغوية، والأسلوبيّة الّتي يكون لها مساس مباشر بالنّص القرآنيّ، الّذي يراد به التّفسير والتّأويل، وتجلية جوانب الرّوعة منه، وهو ما جعل كثيرا من تلك التّفاسير مضان غزيرة لكثير من القضايا، والمسائل اللّغوية بصورة مبعثرة، ومتناثرة ....

ومن البديهي أنّ اللفظ المفرد منعزلا عن التّركيب لا يحمل في ذاته من دلالاته إلاّ صورة غائمة معلقة، ومتعددة الوجوه، فإذا استقرّ اللّفظ في التّركيب تحددت معالمه، واتّضحت وِجْهَته الدّلالية، وعلاقة اللفظ بما جاوره من الألفاظ في التّركيب، وأملاها السّياق الّذي جرت فيه تلك المفردات والمعاني، وهذا الاستقرار للفظ في التّركيب ولّد التّلوّن الأسلوبيّ للقرآن الكريم، والاستف هام من هذه الأساليب ... فإذا نظرنا في تفاسير القرآن وجدنا للسياق فيها اعتبارا، ومن طريف ما لاحظته أنَّ السّياق اللّغوي لأسلوب الاستفهام في التّفاسير سياق اجتماعيّ، قبل أن يكون سياقا نصيّا، ولهذا تلمست ظاهرة الاستفهام في كثير من تفاسير القرآن، فوجدت أنّه من الممكن تقسيم هذه المصنفات إلى قسمين بالنّظر إلى هذا الأسلوب:

الأوّل: المصنفات الّتي كان للجانب اللّغوي، والنّحوي والبلاغيّ حظٌّ وافر فيها،وحضور واضح.

الثّاني: المصنفات الّتي لم يكن للجانب اللّغوي حضور بارزٌ أو مميز فيها، وركزت تناولها في جوانب أخرى كالفقه، والأحكام، وأسباب النزول ....، ولا يخفى أنَّ أسلوبنا ودرسنا في القسم الأوّل، ولا يمنع هذا من وجود إشارات تخدمنا في بحثنا في القسم الثّاني، وقد تناثرت مسائل أسلوب الاستفهام في أثناء هذه المصنفات، وتفاوت مقدار وجودها من مصنف لآخر، ففي حين تكثر هذه الـ مسائل في بعضها، يكتفي بعضها الآخر بقليلها عن كثيرها، وبعضها بين هذا وذاك.

وقد عرض المفسّرون لأدوات الاستفهام، فأظهروا معانيها الأساسيّة، والفوارق فيما بينها، والمعاني البلاغيّة الّتي خرجت إليها، وتنبهوا إلى آثار ذلك في جماليات النّصوص وصلتها بقرائن المـ قام والمقال، وأهميتها في الكشف عن أسرار القرآن وخصوصياته في هذا الأسلوب الشّائق، الّذي يكثر فيه، وتتنوع فوائده في التّعبير والإثارة والتّأثير، فقد تحدثوا عن معاني "الهمزة " و"أم" و"هل" و"كم" و"من" و"ما" و"أين" و"أي" و"كيف" و"متى" و"أنى" ...وفصّلوا القول في المعاني التي صحبتها، وربطوها بالمعنى الكليّ للنص، وأخرجوها في لبوس متكامل، وقرنوها بما يضارعها في الأساليب الأخرى، ومثلوا لها وشرحوها، واختلفوا كثيرا في تقريرها، فامتزجت في توجيهاتهم

المعاني الأساسيّة بالفرعيّة، وتماست الدّلالات المختلفة، وعبّروا عنها بطرق مختلفة، ففرّقوا بعضها الآخر، ومزجوا فيما بينها في بعض الدّلالات والوجوه.

وأوّل ما يصادفنا ونلتقي به أبو زكريا الفراء (ت207هـ)، الذي يشير إلى أنّ الاستفهام هو طلب الفهم، ويتضح ذلك في المواضع الّتي وقف عندها، وبيّن في هذه المواضع خروج الاستفهام عن معناه الوضعي إلى معان مجازية، وإن لم يصرحْ هو باسم المجاز ففي قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1] يقول: " وهذا على وجه التّعجب، والتوبيخ لا على الاستفهام المحض، أي ويحكم كيف تكفرون "[2]، وبهذا الحديث يكون الفراء قد صرف الاستفهام عن موضوعه لضرورة أملته عليه أصول الاعتقاد، التي تمنع الأخذ بظاهر العبارة؛ لأنّ المستفهم في الأصل طالب من المخاطب إعلامه بأمر غير معلوم للمستفهم، وتعالى الله عن هذا علوا كبيرا؛ لأنّ علمه محيط بكل شيء، فتأويل الاستفهام هنا ضرورة من ضرورات التّنزيه، وسمة أسلوبيّة بارزة في اللغة العربيّة المنزّل بها القرآن الكريم، وهو مفيد للإنكار أكثر من إفادته للتّعجب، والتّوبيخ رديف الإنكار[1]. والمواضع الّتي تحدث فيها الفراء عن الاستفهام كثيرة، فيبيّن في كلِّ موضع حالة من حالات الاستفهام سواء أكان في حالته الطبيعية، أو المجازية[2]. ومعنى هذا أنَّ الفراء من خلال إشاراته حول الاستفهام، وما يتعلق به من معاني مجازية، قد مهد للدّرس البلاغيّ بكيفية دراسة أسلوب الاستفهام، ووضع المعاني المساعدة لهذا الأسلوب الاجتماعي.

أمّا أبو عبيدة (ت210هـ)، في مجاز القرآن، فإنه يؤسس لمنهج لغوي في مباشرة النصّ توظف فيه اللغة في خدمة الدلالة، وهتك حجاب المعنى، فحرص حيث كان الغموض حاصلا، أو محتملا، فيعرف بأسبابه المعجمية، أو الإعرابيّة، أو التّركيبية، أو البلاغيّة، وأن يخرج الكلام إلى الوضوح، والفهم في مستواه الأول، وهو مستوى

---

(1) ــ سورة البقرة: الآية 28.

(2) ــ الفراء، أبو زكريا الفراء (207هـ): **معاني القرآن**، تحقيق ومراجعة: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ط1، د ت. ج1/ 23.

(1) ــ ينظر: الزمخشري، جار الله محمود الزمخشري (538هـ): **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل**، ترتيب محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1995م ج1/ 126.

(2) ــ ينظر: الفراء: معاني القرآن. ج1/ 50، 202، 467.

التّفسير، دون أن يتخطّى ذلك إلى مستوى التّأويل، فأبو عبيدة سعى في مجازه إلى التّجرد من المبادئ الدّينية، والسّياسية الّتي يسقطها أصحاب الفرق على النّص .فلم يكن ناقلا بل كان مسؤولا يستنطق النّص، ولا ينطقه، فإذا نطق النّص ــ وخاصة في الاستفهام وأدواته ــ بأكثر من دلالة، وقف منها عند حدود الإخبار بها، ولم يرجّح منها إلا ما كانت القرينة اللغوية دالة عليه [3]. ومن هذا المنطلق نظر أبو عبيدة إلى الاستفهام على أنّه طلب ما هو غير مفهوم عند المستفهم، فإذا استعمل الاستفهام في غير هذا، فقد خرج به إلى غير وجهته، ومن الأمثلة التي يوردها على ذلك :" أنَّ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾... إنما هو إخبار من الله تعالى لرسوله عليه السلام، بأنَّ الكافرين لا يؤمنون في حالة الإنذار، أو ترك الإنذار، ولا ريب بأنَّ هذا خبر محض، وإن جاء في صورة الاستفهام ". والأمثلة كثيرة في هذا الباب، والذي يهمنا في حديث صاحب المجاز، هو الملحظ البلاغي في خروج الاستفهام عن معناه إلى غرض آخر، سواء أصاب أبو عبيدة في التخريج، أم أخطأ.

وقد اتسمت هذه المرحلة من التفسير، وخاصة عند الفراء، وأبي عبيدة، ومن عاصرهم بمجموعة من السّمات، والخصائص العامة الّتي يمكن أن نسميها مرحلة غياب المنهج العلمي في التّصنيف، ولقد كان هذا الأمر طبيعيا، ومتوقعا في تلك المرحلة المبكرة من حياة البلاغة، فالعلوم في نشأتها لا تتبلور لها مناهج محددة، ولم يكن هذا الأمر مقصورا على البلاغة وحدها، بل اتسعت هذه الظاهرة لتشمل كل العلوم العربية والإسلامية، بما في ذلك العلوم التي سبقت البلاغة إلى النشأة، وكان أبرز هذه السمات عدم الثبوت، واضطراب مدلولات المصطلحات، واختلاط القضايا البلاغية بموضوعات العلوم الأخرى، وعدم وضوح علوم البلاغة الثلاثة، وغيرها من الفروع، والعلوم الإسلاميّة....

أمّا الطّبريّ (ت310هـ)، فقد وضّح في مقدمة تفسيره، مثلما جرت العادة الغاية من إقدامه على مغامرة التفسير، ومفادها إدراك الحقيقة في النصِّ القرآني، وهي فيه ككل حقيقة واحدة، من نالها نال السّعادة في الدّارين، فالطّلب عند الطّبريّ دلالي تشريعي، وليس أدبي، أو بلاغي، أو لغوي، وبهذا يكون الطّبريّ قد جعل جلَّ همِّه

---

(3) ــ ينظر: الجويني، مصطفى الصاوي: **مناهج في التفسير**، الجيزة، الاسكندرية، ط1، د ت ص :417.

المعنى، إذ هو يحب أن يفهم المعاني الواردة في النصِّ على الصّورة الّتي يحب صـــاحب النّص أن تفهم، وذلك هو معناها الصّحيح الوحيد المفضي إلى السّلوك الــصّحيح، الّــذي عليه يتوقف الثّواب، والعقاب ...[1]. والطّبريّ في تفسيره كان جامعا لمـــا انتهـــت إليـــه الرّواية في عصره من أقوال، ينسبها التّابعون إلى الصّحابة، ويرفعونها إلى الرّسول عليه السّلام، وقد أصابها من التّضخم، والتّحريف، والابتكار، فأحوج هذا إلى عمـــل كعمـــل الطّبريّ[2] يحّصرها عددا، وسندا، ودلالة، ويفرز منها الأصلح، والأنسب، فيكون " جامع البيان سدّا منيعا حال دون تفاقم الانتحال..." [3].

والاستفهام من الظّواهر الأسلوبيّة، واللّغوية الّتـــي لفتـــت نظـــر الطّبـــريّ، فوقـــف عندها، وأشار إلى بعض أسرارها، فالاستفهام في مفهومه هو " الخبر "، من خلال أدوات الاستفهام، وتعابير محددة تخرجه عن دلالة الوضع . وأوّل المواضع الّتي لمَّح فيهـــا إلـــى خروج الاستفهام، أو الخبر عن معناه الحقيقي في قوله تعالى : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُون﴾ ، فقد أشار الطّبـــريّ إلـــى معنـــاه المخروج مرتين، فقال في الأول: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً﴾، " توبيخ مستعتب عباده، وتأنيب مسترجع خلقه من المعاصي إلى الطاعة، ومن الطلاقة إلى الإنابة" [1].

فهذا كما ذهب ابن جرير الطبري وغيره، خطاب من الله لنا معاشر الأحياء قبـــل أن نموت، ولذلك ردَّ ابن جرير رأي من قال : أنّه خطـــاب لأهـــل القبـــور بعـــد إحيـــائهم فيها، فيقول : " وأما وجه تأويل من تأوّل ذلك، أنّه الأمانة التي هي خروج الـــروح مـــن الجسد، فإنَّه ينبغي أن يكون ذهب بقوله : " وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً"، إلى أنّه خطاب إلى أهل القبـــور بعد إحيائهم في قبورهم، وذلك بعيد، لأنَّ التَّ وبيخ هنا توبيخ على ما سلف من إجرامهم، لا استيعاب، ولا استرجاع " [2]. وهذا الحديث الّذي يـــسوقه الطّبـــريّ يلـــزم مـــن رأى أنَّ

---

[1] ــ ينظر : الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (310هــ) : **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992 . ج1 / 35 ــ 78 .

[2] ــ ينظر : الحموي : ياقوت الحموي : **معجم الأدباء**، دار المأمون، ط1، د ت . ج18 / 42 .

[3] ــ الطبري : جامع البيان، ج1 /3 ــ 4 مقدمة الناشر .

[1] ــ الطبري : جامع البيان : ج1 / 225 ــ 227، 234 .

[2] ــ الطبري : جامع البيان : ج1 / 226 .

الاستفهام والسّؤال لأهل القبور، فهو وإن تضمن توبيخا، فإنّه نوع من العقاب على ما سلف، وفرّط من الإجرام، لا استيعاب ولا استرجاع فيه، وهذا كما قال بعيد؛ لأنَّ المراد من الآية الكريمة الاستدلال على عظم إنعام الله على النَّاس، وهدايتهم إلى الطَّاعة، والامتثال مع نصب العلاقة الدّالة على استحقاق الخالق المتفضل للإقرار بوحدانيّته، وعبادته وَحْده، وحسن الثَّناء على نعمه، وما ذهب إليه ابن جرير هو الصّواب، والله أعلم وقال في الموضع الثّاني : " كيف بمعنى التّعجب، والتّوبيخ، لا بمعنى الاستفهام،كأنّه قال: وَيْحكم كيف تكفرون بالله، وأنتم ذاهبون إليه؟ " [3]. وما فهمه الطَّبريّ من الاستفهام هنا صحيح، ولكنَّه غير واف؛ لأنَّ دلالة الاستفهام في الآية الكريمة على الإنكار واضحة، ويكون التّوبيخ الذيَّ نصَّ عليه هو وغيره من توابع الإنكار وروادفه، على أنَّ المراد بالإنكار فيه إنكار المواقع، أو المتوقع لا إنكار الواقع، الذي هو نفي محض.

ومن المواضع التي عرض لها في تفسيره قول الله تبارك اسمه حكاية عن الملائكة لمّا أخبرهم بجعل خليفة في الأرض : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾، فقال في تفسير أسلوب الاستفهام: " هذا استخبار من الملائكة لربها بمعنى أعلمنا يا ربنا أجاعل أنت في الأرض مَن هذه صفته..." [1].

فابن جرير يمنع في هذه الموضع خروج الاستفهام، ويؤثر التّأويل الذّاهب إلى إبقاء العبارة على ظاهرها بدون تأويل، وهذا الرّأي وجيه، لكنّه عاد فجعل العبارة مقيدة للاستعظام، وهو التّعجب، والدّليل على ما ذهبت إليه قوله : " وأمّا دعوى من زعم أنَّ الله جلَّ ثناؤه أذن للملائكة بالسؤال عن ذلك، فسألته الملائكة على وجه التعجب ..." [2]. وإذا مضينا معه في تفسيره عند كثير من المسائل الّتي عرض لها في أسلوب الاستفهام نجده يوجّه الاستفهام حسب المعنى العام للآية، ويتفق والمعنى العام للسّورة، فنظرته للاستفهام كانت حسب ورود الأداة أثناء التّفسير، فيحلل الآية،ويخرّج معنى الاستفهام حسب ما تقتضيه ضرورات المعنى، ولوازم التركيب، بالإضافة إلى تعليل بعض مواطن

---

(3) ــ المصدر السابق: ج1/ 227.

(1) ــ الطبري: جامع البيان: ج1/ 245 ــ 246.

(2) ــ الطبري: جامع البيان :ج1/ 246.

الاستفهام[3]. أما الزمخشري (538هـ)، فإنه امتداد للمدرسة الأسلوبيّة الجرجانيّة، فعمد إلى كتابي الجرجانيّ ـ " أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز " ـ وراح يتمثلهما في تفسير الكشاف، فكان بذلك إضافة كبرى إلى جهود الجرجانيّ، وبذلك يكون الزّمخشريّ في تفسيره النّواة الأولى لقاعدة التّصوير الّتي هي مدار العمل الأدبي وعماده.

والزّمخشريّ في حديثه عن أسلوب الاستفهام، بيّن أنّه أشد الأساليب الإنشائيّة تواترا في القرآن الكريم، وقد تعلقت همّته في بيان أغراضه البلاغيّة، فهو دال على "التّبكيت" [4] في قوله تعالى : ﴿وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾[5].

ودال على " الاستبطاء" [6] في قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾، ودال على "الاسترذال والاستحقار" في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾، وكثيرا ما دلّ الاستفهام في القرآن الكريم على التّوبيخ، والتّعجب والتّقرير، كقوله تعالى :﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ ، وفي قوله تعالى : ﴿ أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ ﴾، وغير هذا كثير في الكشاف عند الزمخشري.

وقد صدرت عن الزّمخشريّ في الاستفهام ملاحظات أسلوبيّة صالحة تشير إلى بعض الأدوار الفنيّة التّي يمكن لهذا الأسلوب أن يلعبها في التّركيب ، من ذلك أن يتكثّف استخدام الاستفهام بصورة غريبة دالة على غضب من الله شديد، وانفعال حاد، ورد ذلك في قضية كان لها على الله وقع شديد، وهي أن يتّخذ له من الملائكة بنات، فقال تعالى : ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ *أَفَلا تَذَكَّرُون *أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾، فلم يغب على الزّمخشريّ كثافة الاستفهام، فولّد الأسلوب الاستفهاميّ

[3] ينظر : الطبري : جامع البيان :ج1/ 262.ج3/ 155 . ج7/ 121 . ج8/ 39، 118 ....

[4] ـ الزمخشري : الكشاف :ج2/ 528 .

[5] ـ سورة إبراهيم : الآية 21 .

[6] ـ الزمخشري : الكشاف :ج3/ 302 .

القوة والانفعال، فقال في ذلك : " وهذه الآيات صادرة عن سخط عظيم، وإنكار فظيع، واستبعاد لأقاويلهم شديد، وما الأساليب الّتي وردت عليها إلاّ أنّها تنطق بتسفيه أحلام قريش، وتجهيل نفوسها، واستركاك عقولها، مع استهزاء، وتهكم، وتعجّب .

وقد فطن الزّمخشريّ إلى جانب هذا إلى الدّور الّذي يمكن أن يلعبه الاستفهام في فن الخطاب، فالمخاطب به في الظّاهر هو " شخصية مّن شخصيات النّص الدّاخلية، ولكن المخاطب يمكن أن يكون أيضا خارج النّص، وهو القارئ يورطه صاحب النّص فيما يريد أن يقنعه به من معاني، كان ذلك مثلا عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ .

فقال الزّمخشريّ في ذلك : " أَلَمْ تَرَ " تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب، وأخبار الأولين، وتعجب من شأنهم، ويجوز أن يخاطب به من لم يرَ، ولم يسمع؛ لأنَّ هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التّعجب " ، وقد تنبه الزّمخشريّ إلى دور الاستفهام في الأسلوب القصصيّ المسرحيّ، الّذي يحب النّظم القرآنيّ أن يصطبغ به أحيانا تشريعا، وتأثيرا، فلم يفته ما في هذه الآية القرآنية من تمثيل مسرحي يشمل وارالحوالسّؤال، والجواب من أجل غرض فنّي مقصود يفرضه السّياق : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ فيقول الزمخشري : " هذا الكلام خطاب للملائكة، وتقريع للكفار، وارد على المثل السّائر ـ إياك أعني، واسمعي يا جارة (*) "[1]، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾[2]، وفيه يقول الزمخشري : " إن الله يعلم أن الملائكة، وعيسى منزهون مما

(*) ـ يا أخت خير البدو والحضارة كيف ترين في فتى فزارة
أصبح يهوى حرة معطارة إياك أعني فاسمعي ياجارة

الأبيات لسهل بن مالك الفزاري، يخاطب أخت حارثة بن لأم، وكان قد سألها على أخيها فلم يجده فأنزلته وأكرمته، فرآها في غاية الجمال، والكمال، فأنشد ذلك .

[1] ـ الزمخشري : الكشاف :ج3/ 569 .

[2] ـ سورة المائدة : الآية 116 .

وجّه إليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير،والغرض أن تقول، ويقولوا، ويسألوا ويجيبوا، فيكون تقريعهم أشد، وتعبيرهم أبلغ، وخجلهم أعظم، وهوانهم ألزم، ويكون اقتصاص ذلك لطفا لمن سمع، وزاجرا لمن اقتصَّ عليه..." [3].

فالزمخشري في تفسيره الكشاف جعل القرآن كله مجالا للنظر في الإعجاز، إلا أنّه لم يأخذ الطّريق الّذي سار فيه المفسّرون من قبله، وهو شرح مفردات القرآن أو إعرابه، أو استخلاص الأحكام الشّرعية منه، أو بيان أسباب النّزول، فمنهجه يقوم على توظيف قدراته اللّغوية، والعقليّة، في تحليل الآيات القرآنيةّ ليظهر مواطن الجمال فيها، فهو لم يخرج في تفسيره عن الدّلالات اللّغوية بكلمات القرآن، ولم يتجاوز المضمون البيانيّ لآياته. وبهذا المنهج كانت له إشارات حسنة في الاستفهام، وهذه الإشارات ولَّدت بعض جوانب النّسق ا لنّفسي، والاجتماعي، مما جعله حافزا لبعض الدّراسات أن تبحث هذه الجوانب، كما هو الحال عند الباحثة فوز سهيل في كتابها " لغة الحوار في القرآن الكريم".

2 ـ الاستفهام عند المفسّرين المحدثين:

لقد بدأت الدّراسات القرآنية بعد القرن السّادس تدخل مرحلة من الرّكود والخمول، لم يعرف فيها المؤلفون غير التّرديد والتّكرار، أو تبسيط ما ورثوا من آثار في التّفسير دون إضافة تذكر، فلم نجد ما يستحق الذّكر في مضمار البحث القرآنيّ، وقد ظل هذا الوضع قائما حتى بدايات النّهضة الفكريّة، والعلميّة الحديثة، في أواخر القرن التّاسع عشر، وأوائل القرن العشرين الميلادي، وفي هذه المرحلة الحديثة عاش البحث القرآني مرحلة متميزة في تاريخه، وهي المرحلة المعروفة بالمرحلة التّطبيقية في التّفسير. فسيد قطب (ت1970 م) نجده يفسر القرآن تفسيرا أدبيا، وكان هذا التّفسير الأوّل الّذي عني بإبراز الصّورة الجمالية في القرآن، على الرّغم من وجود كتب أخرى حاولت استنباط هذه الصورة، وكشفها، وإبرازها إلى الوجود، كتفسير الكشاف للزمخشري، ودلائل الإعجاز للجرجاني.

لقد جاءت نظرية التّصوير الفني عند سيد قطب استكمالا لجهود الجرجانيّ؛ لأنَّ سيد قطب، قد صرح مرارا أنَّ الجرجانيّ كان على ضربة معول من اكتشاف هذه

---

(3) ـ الزمخشري: الكشاف: ج3/570.

النّظرية، الّتي ساهمت في الكشف عن مواطن الجمال في النص القرآني، وبيَّن فضل النّظرة الكلية للنص القرآني لإظهار مواطن البلاغة فيه، وقد تأثر كثير من المعاصرين بما قال، فأثره في الدّراسات البلاغيّة المعاصرة لا يمكن إنكاره، أو التقليل من شأنه[1]. فأدخل سيد قطب جميع عناصر الأسلوب في إطار التّصوير، فهو تصوير باللون والحركة، والنّغمة، والوصف، والحوار، والكلمات، والعبارات، والموسيقى، وكلٌّ هذه العناصر تتضافر على إبراز صورة من الصّور، تتملاّها العين، والأذن والحسّ والخيال والفكر، والوجدان، فهو يفكر عن طريق الصّورة، ويشعر عن طريق الصّورة أيضا. وتلك هي أسس نظرية سيد قطب في التّصوير الفني.

ومن خلال هذه النّظرية نجد سيد قطب ينظر للقرآن الكريم كوحدة موضوعية متناسقة متكاملة، فأدرك الرّابط العام، والخيط الدّقيق المتين الّذي يشدُّ جميع آياته وسوره بعضها ببعض بتناسق موضوعي، وفنيّ معجز، كما تجاوز الخلاف الحاد بين البلاغيين حول اللفظ والمعنى، وفي أيّهما تكمن البلاغة، وتوجه إلى القرآن مباشرة ليرى مكمن البلاغة فيه، فوجدها في المعنى واللفظ، والظلال، والسّياق، والأداء، والتّصوير.

وسيد قطب يطرق أسلوب الاستفهام من خلال وقوفه على الآيات القرآنية، وهذا الوقوف يسير وفق منهجية تفرضه حروف، وأسماء الاستفهام الّتي وقف عندها، فالاستفهام عنده يخرج لمعاني عدة لا يحدها سياق واحد بل سياقات مختلفة يفرضها المعنى الّذي يسير فيه أيضا بناء الاستفهام، فالاستفهام لديه متّسع الدّلالة، فيقول مثلا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾[1]، "الاستفهام سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته، المقطوع الصّلة بسنة الله وتدبيره، ثم هو سؤال من لا يرجو لله وقارا، ولا يتأدب معه الأدب اللائق بالعبد أمام تصرّفات الرّب"[2]. ولا يكتفي سيد قطب بهذا، بل يربط الاستفهام بسياق النّص، فيقول في ربط سياق الاستفهام

---

[1] ـ ينظر: عياش، ثناء نجاتي محمود: **القرآن في الدرس البلاغي المعاصر**، مخطوطة، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1996م. ص: 209.

[1] ـ سورة البقرة: الآية 26.

[2] ـ قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، دار الشروق، القاهرة، ط31، 2002م.ج1/ 50 ـ 51.

في الآية السّابقة " هنا يجيئهم الجواب في صورة التّهديد، والتحذير ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾، والله ـ سبحانه ـ يطلق الابتلاءات، والامتحانات تمضي في طريقها، ويتلقاها عباده، كلّ وفق طبيعته، واستعداده، وكل حسب طريقته، ومنهجه الذي اتخذه لنفسه .وهكذا المثل الّذي يضربه الله للناس " يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً " ... ممن لا يحسنون استقبال ما يجيئهم من الله " وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً " مما يدركون حكمة الله " [3]. وبهذا الفهم من سيد قطب يكون أسلوب الاستفهام من مقومات التّرابط النّصي في القرآن الكريم .

ويخرج الاستفهام عنده للتّعجب في قوله تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾،فيقول : " ألم تر إلى هذا الحال العجيب، حال الّذين وهبوا نعمة الله، ممثلة بالرّسول، ودعوة الإيمان، فاستبدلوا ذلك بالكفر، من خلال اتّخاذ الأنداد وعبادتها من دون الله عزّ وجل ". وبهذا يكون سيد قطب قد حدد إدراك الخصائص العامة لأسلوب الاستفهام، فالمفهوم لديه قاعدة التّعبير في الحوار، والطلب من قبل المستفهم .

أمّا عائشة بنت الشّاطئ، فقد حرصت على أن تخلص لفهم النصِّ القرآنيّ مستشفا لروح العربية ومزاجها، مستأنسا في كلِّ لفظ، بل في كلِّ حركة، ونبرة بأسلوب القرآن نفسه، محتكمة إليه وحده عندما يَشْتَجِر الخلاف على هدي التتبع الدّقيق لمعجم ألفاظه، والتنظير الواعي لدلالة سياقه، والإصغاء والتّأمل إلى إيحاء التّعبير لبيانه المعجز .

ولهذا تبنت بنت الشّاطئ فهم ما حول النّص، وفهم دلالات الألفاظ، وأسرار التّعبير، من خلال الاحتكام إلى سياق النص الوارد فيه، والتزام ما يحتمله نصّا وروحا، والمتتبع لما جاء في دراسات بنت الشّاطئ القرآنيّة، يلحظ انتفاعها بدراسات أصول اللّغة، من معاجم، وكتب فقه، وكتب اللغة، والتّفسير في خدمة هذا المنهج، ففي دراساتها عالجت بعض الظّواهر اللّغوية، ومنها الاستفهام الّذي ظهر في طيات حديثها أثناء تفسيرها للآيات، فهذه المعالجة تشرح معنى الاستفهام، وبلاغته حسب وروده في الآية، فتقول في معنى قوله تعالى :﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾" تأتي بلاغة الاستفهام من هذا الطّي المتعمد لتحديد نوع " الكبد "، على مألوف الإيجاز المعهود، وبخاصة في قصار السّور من العهد المكيّ، ثم يفاجأ السّامع بظواهر الكبد وعلله، في صورة استفهام تقريريّ، يحمل من الإنكار قدر ما يحمل من التّقرير القاطع

---

(3) ــ سيد قطب : في ظلال القرآن : ج1/ 51 .

الحاسم، فهنا وِقْفَة عند " كبد " منكرة، يذهب فيها الظن كلَّ مذهب، يليها الاستفهام المثير ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾، و" لن " تفيد تأبيد النّفي في حساب هذا الإنسان المفتري" [1]، ولا تكتفي بنت الشا طئ بهذا التّوضيح والشّرح بل تربط سياق الآيات، ودلالاتها بعضها مع بعض، فتقول في الآية التّالية للآية السّابقة من سورة البلد ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾: " عاد الاستفهام في الآية بكلِّ ما فيه من ردع وإنكار، يفاجأ المفتر بماله وقوته، وفي حسابه أن لم يره أحد، وقد عَدَل البيان القرآنيّ في الاستفهام الثّاني عن حرف النّفي " لن " الّتي في الاستفهام الأول، إلى حرف الجزم، والنّفي "لم"، والّذي يتصرّف إلى الماضي، فتقرر الآية أنَّ ماضي المفتري محسوب عليه محاط به، بعد أن أكّدَ في ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَد ﴾، أنَّ مصيره في يد القادر المحيط بما يعمل، لا تخفى عليه خافية، فمهد هذا الاستفهام للآيات التّالية بعده ..." [2]

وتسير بنت الشّاطئ في تفسيرها للآيات التي تشمل أسلوب الاستفهام، وتعمل على سابقة لم نجدها عند المفسرين السابقين، تتمثل بتأويل أدوات الاستفهام من خلال السّياق، فتقول في تفسير قوله تعالى : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرِ ﴾ ،" إن حرف "الزّاي " في لفظ " زرتم " أخرج الهمزة من الإخبار إلى الاستفهام، بمعنى التّوبيخ والتّقريع ... ولكن الخبريّة أوقع في الزّجر، وأبلغ في الوعيد " [1]، وتحاول بنت الشّاطئ أن تربط بعض المسائل النّحويّة، وتبيّن أثر الاستفهام في انحرافها عن القاعدة النّحويّة، فتقول: " إنَّ القرآن قلّما يتعلق بذكر مفعول ثان في أسلوب الاستفهام بـ " أرأيت " خطابا للمفرد، أو " أرأيتم " خطابا للجمع، وإنما يستغنى عن هذا المفعول، بتقرير يلفت إلى موضوع العبرة والنذير من عذاب الله " [2]، وتُمثِّل على هذا الحديث بآيات كثيرة منها، قوله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى *أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ

---

[1] ــ عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: **التفسير البياني للقرآن الكريم**، دار المعارف، ط6، د ت. ج1/ 179.

[2] ــ بنت الشاطئ: التفسير البياني للقرآن: ج1/ 180.

[1] ــ بنت الشاطئ: التفسير البياني للقرآن: ج1/ 195.

[2] ــ بنت الشاطئ: التفسير البياني للقرآن: ج2/ 28.

وَتَوَلَّى﴾[3]، فتقول: " لفت الاستفهام إلى ما هو جدير بالرّؤية، والبصر، والتّدبر، وأغنت عما تعلق به النّحاة من مفعول ثان مقدر، أو غير مقدر، يختلفون عليه ... "[4]. والأمثلة كثيرة عند بنت الشّاطئ حول أسلوب الاستفهام، وأدواته الّتي يسير في ركابها [5]. وبهذا الطّرح الّذي تقدمت به بنت الشّاطئ استطاعت أن تسير في أسلوبيّة القرآن، وتحقيق الغاية الّتي قصدت إليها من تطبيق هذا المنهج، الّذي اعتقدت، وآمنت به في فهم القرآن الكريم، ونجحت في ذلك نجاحا ملحوظا، ممّا هيأ لكتاباتها في هذا المجال أن تكون من خيرة الجهود في التّفسير الأدبيّ للنص القرآنيّ في العصر الحديث.

وبعد:

وممّا مرَّ يتبين لنا أن المفسرين لم يختصوا الاستفهام بحديث مفصّل مستقل ــ وفي الوقت نفسه ــ لم يتناسوه في مصنفاتهم، إذ تناثرت مسائله بأشكاله المختلفة في أثناء مصنفاتهم، ومنهم من أكثر الوقوف عند مسائله والإشارة إليه في كثير من التراكيب والمسائل، ومنهم من كان أقل وقوفا، وجوهر تناول المفسرين له كان يدور حول معاني الاستفهام المجازية الّتي يخرج إليها، ودورها في البلاغة وحسن النّظم. ومن الجدير بالذّكر أنَّ المفسِّرين وقفوا عند الاستفهام داخل التّركيب أكثر من وقوفهم عند المفهوم العام له، ولعل مردّ ذلك وقوفهم مع نصِّ القرآن آية آية، وتركيبا تلو تركيب، ولم يكن تفسيرهم على أساس قضايا، أو ظواهر لغويّة، وأساليب خاصة، بل على أساس المعنى العام الّذي يخدم النّص القرآنيّ.

1. 4: الاستفهام عند البلاغيين:

أما البلاغيون فقد كانت نظرتهم إلى الموضوع نظرة أسلوبيّة، يتضح ذلك من تقسيماتهم للأساليب العربيّة، " استفهام، ونفي، وتوكيد "، وقد قسّموا أنواع الأساليب إلى قسمين كبيرين: هما الخبر والإنشاء، ممّا قادهم هذا التّقسيم إلى ربط الكلام بمقتضى الحال، ومقتضى الحال هو مدار علم البلاغة، وعليه المعول، فيقول القزوينيّ في الإيضاح

---

[3] ــ سورة العلق: الآية 11 ــ 13.

[4] ــ بنت الشاطئ: التفسير البياني للقرآن: ج2/29.

[5] ــ ينظر: بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن: **الإعجاز البياني للقرآن**، ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، مصر، ط2، 1971. وينظر: بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن: **من أسرار العربية في البيان القرآني**، محاضرة ألقيت في جامعة بيروت، ثم نشرت في كتيب، 1971.

من خلال باب علم المعاني : " هو علم يعرف به أحوال اللّفظ العربيّ، الّتي بها يطابق مقتضى الحال "[1].

وقد وضع البلاغيون للتّفريق بين ضربي الإنشاء، والخبر قانونا عاما، هو معيار الصّدق، والكذب، فالكلام الّذي يحتمل مضمون الصّدق، والكذب أسموه خبرا، والكلام الّذي لا يحتمل صدقا، ولا كذبا، ولا يحسن أن يقال عنه ذلك أسموه إنشاء . وقسّم البلاغيون الإنشاء إلى طلبيّ، وغير طلبي، والطّلبي : " هو ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطّلب، وهو خمسة أنواع :الأمر، والنّهي، والاستفهام، والتّمني، والنّداء، وكل واحد منهما لا يحتمل صدقا ولا كذبا "، فهذه التّقسيمات من صنع علماء البلاغة، لتبين لنا أنَّ الاستفهام ضرب من أضرب الطّلب، أصله أن يكون معدوما في حال طلبه .

1 ـ الاستفهام عند البلاغيين القدماء :

إذا علمنا أنَّ موضوع الدّرس النّحوي، هو معرفة كيفية تركيب الكلام، تأكد لنا أنَّ علم المعاني، إنّما هو موضوع، أو مادة نحويّة، بل هو روح النّحو؛ لأنَّ دراسة تركيب الكلام تستند إليه، وتعتمد عليه، فالنّحويون ينظرون إلى الجانب اللفظي في المعاني، أمّا البلاغيون فإنّهم ينظرون إلى المعنى من خلال التّراكيب اللّغوية، ونبدأ بالجرجانيّ في هذا القسم؛ لأنّ الجرجانيّ أوّل من اعتمد على الذّوق الأدبيّ الخالص اعتمادا كليا في كلِّ ما قرره من أحكام في نظرية النظم، وهذه النّظرية الصّحيحة هي موضع اعتزازنا بتفكير الجرجانيّ، كونه بدأ بنظرية فلسفيّة في اللغة، ثم ينتهي إلى فن الذّوق الشّخصي الّذي هو مرجعنا الأخير في الدّراسة الأسلوبيّة..

والجرجانيّ (471هـ) من أكابر النّحويين، والبلاغيين في القرن الخامس الهجري سار في منهج لم يفصل النّحو عن البلاغة، بل جعله خادما للمعاني، فوجد النّحاة لا يعنون بتأليف الكلام ونظمه، ولا ينظرون فيما يتعلق به من الحذف والتّكرار، والإظهار، والإضمار، والفصل، والوصل، والخبر، والإنشاء ... فذهب بهم ذلك عن معرفة بلاغة القول، ومنعهم أن يعرفوا مقاديرها [1]. وهذا الوضع الّذي آل إليه النّحو العربيّ، دفع الجرجانيّ إلى ابتكار نظرية النّظم، وذلك بعد أن استوعب منهج

(1) ـ القزويني، صلاح الدين محمد (739هـ): **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب العالمي، بيروت، ط3، 1989 .ج1 / 84 .

(1) ـ ينظر : الجرجاني : ص : 139 .

النّحاة الأوائل في الدّرس النّحويّ، في محاولة منه لا لمجرد إحياء ذلك المنهج، بل لدفعه إلى مراحل متقدمة ومتطورة، وذلك بالتّأكيد على العناية بنظم الكلام . وأسلوب الاستفهام كان له حضور كبير عنده في كتابيه " دلائل الإعجاز " و " أسرار البلاغة "، من خلال حديثه عنه في باب التّقديم، والتّأخير، والحذف...[2].

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الجرجانيّ شأنه شأن من سبقوه وعاصروه، لم يحاول تقسيم البلاغة إلى علومها الثّلاثة المعاني، والبيان، والبديع، فهو لم يكن بلاغيّا ينهج منهج البلاغيين المتأخرين في التماس الحدّ الجامع المانع لكلِّ فن من فنونها، والعناية باستخراج الأقسام، واستيفائها، وطلب الشّواهد لكلِّ فن من فنونها، ولكلّ قسم من أقسامها [3]. وقد جانب عبد العزيز عتيق الصّواب حين عدَّ الجرجانيّ المؤسس لنظرية علم المعاني، والواضع لقواعده في كتابه " أسرار البلاغة "[4] ويبين يوسف أبو العدوس منهج الجرجانيّ في الاستفهام، وهذا المنهج يتضح له من خلال موضوع التّقديم والتّأخير، فيقول: " النظم هو الأساس في ترتيب أجزاء الاستفهام، وذلك أنَّ الاستفهام استخبار، والاستخبارهو طلب من المخاطب أن يخبرك، فيكون المعنى دالا من خلال ترتيب أسلوبه داخل البناء العام للاستفهام [1]. فالاستفهام عند الجرجانيّ كما أشار إلى ذلك الباحثون، هو طلب الفهم، والإخبار، ولذلك قدّم الجرجاني تمهيدا لدلالة الهمزة في الاستفهام الحقيقي، وقرّر أنَّ المسؤول عنه، أو المشكوك فيه يجب أن يليها فعلا كان، أو فاعلا، مثل : " أقلت شعرا ؟ "، فالسّؤال عن الفعل نفسه، وهو هنا قول الشّعر، ومثَّل: أأنت قلت هذا الشّعر؟ "، للسؤال عن الفاعل، فالّذي يلي أداة الاستفهام هو المسؤول عنه المشكوك فيه، وفهم من كلامه أنَّ السّؤال عن أحد الطّرفين " الفعل والفاعل "، يقتضي عدم التّردد في الآخر، ولهذا منع أن يقال: " أكتتبت هذا الكتاب؟ "؛ لأنّ

---

[2] ــ ينظر: طبانه، بدوي: **البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب**، دار المنارة، جدة، ط7، 1988م. ص: 208 ــ 209.

[3] ــ ينظر: المرجع السابق: ص 194 ــ 195.

[4] ــ ينظر: عتيق، عبد العزيز: علم المعاني: ص 25، 26، 35.

[1] ــ ينظر: أبو العدوس، يوسف: **همزة الاستفهام بين المفهوم النحوي والبلاغي**، مؤته للبحوث والدراسات، المجلد الثاني، العدد الثاني، 1987م. ص : 149 ــ 150.

البداية بالفعل تقتضي الشك فيه، سواء وقع، أو لم يقع، والإشارة إليه الواردة في السّؤال تقطع بأنّه موجود متحقق[2].

وقد تكلم الجرجانيّ، وبيّن الأصول في الاستفهام من خلال حديثه عن همزة الاستفهام، وخروجها عن دلالة الوضع، فيقول : " واعلم أنَّ هذا الّذي ذكرت لك في همزة الاستفهام، فهي للاستفهام المحض، قائم فيها إذا كانت للتّقرير، فإن قلت : " أأنت فعلت ذاك؟، كان غرضك أن تقرّره بأنّه الفاعل ..." [3]، فالّذي ذكره الجرجانيّ عن همزة الاستفهام أوّل مثال يخرج فيه الاستفهام عن دلالة الوضع، وما ذكره من أمثلة صالحة للحمل على الاستفهام المحض، المطلوب به تحصيل ما ليس معلوما عند المستفهم حال الاستفهام، والمدار في ذلك على القرائن، والأحوال، فإذا كنا نعلم أنَّ القائل يجهل الفاعل، كان الكلام استفهاما محضا، وإذا كنا نعلم أنَّه يعلم، فهذا دلالة على قرينة قوية أنَّ السّائل لم يرد أن يعلم الفاعل من هو؟ وإنّما أراد معنى آخر، والفرق جد كبير بين الحالتين، وقد دلَّ الجرجانيّ على ذلك الحديث بحكاية النّمرود في قصة إبراهيم في قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيم﴾[4]، فيقول :" لا شبهة في أنّهم لم يقولوا ذلك له، وهم يريدون أن يقرَّ لهم بأنَّ كسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقرَّ بأنّه منه كان، وكيف، وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم " أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا "، وقال هو عليه السلام في الجواب : " قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ "، ولو كان التّقرير بالفعل لكان الجواب فعلت، أو لم أفعل " [1]، فالّذي ذكره الجرجانيّ بيانا شافيا للمسألة فتقديم الفاعل، وإيلاؤه همزة الاستفهام دلَّ في وضوح على أنَّ المتكلم لم يسأل عن الفاعل، ولم يشك في وقوع الفعل، بل كان غرضه أن ينتزع من المخاطب ــ عليه السلام ــ اعترافا بأنّه هو الفاعل لا غيره، ولو كان شك في " الفعل " لقالوا :أفَعلت؟ بإيلاء الفعل همزة الاستفهام، فكان كلامه كلام من يوهم أنّه لا يدري أنَّ ذلك الفعل كان على الحقيقة، وإذا قال : "أأنت فعلت"؟، فهو يردد الفعل بينه، وبين غيره، ولم يكن كلام من يوهم أنَّه لا يدري، أكان الفعل، أم لم يكن[2].

---

[2] ــ ينظر : الجرجاني : دلائل الإعجاز : ص 112 وما بعدها.

[3] ــ المصدر السابق : ص113.

[4] ــ سورة الأنبياء : الآية 62.

[1] ــ الجرجاني : دلائل الإعجاز : ص 113.

[2] ــ ينظر : يوسف أبو العدوس : همزة الاستفهام بين المفهومين النحوي والبلاغي : ص 150 ــ 151.

ولمّا كان الاستفهام غير محض، أو غير حقيقي فإنّ الجرجانيّ يـ عقّب عليـه، ويبـين المعاني المجازيّة فيه، فيقول: " واعلم أنَّ الهمزة تقرير لفعل قد كـان ـ يعنـي تكسير الأصنام ـ وإنكار له لِمَ كان؟، وتوبيخ لفاعله" [3]، والتّقرير، والإنكار، والتّوبيخ من أظهر المعاني المجازيّة الّتي تستفاد من الاستفهام الخارج عن دلالة الوضع، و قد اجتمعت فـي هذا الموضع ثلاثة المعاني المشار إليها، ولا حـرج فـي قـرن التّـوبيخ بـالتّقرير، أو الإنكار، فكثيرا ما يلزم التّوبيخ كلاّ منهما . وبهذا يكون الجرجـانيّ قـد قـرن الإنكـار بالتّقرير، وهذا يحتاج إلى توجيه الأسلوب؛ لأنّ الإنكار نفـي، والتّقريـر إثبـات، فكـان حريا أن ينفصلا انفصال الضّدين، فلا يجتمعان في مكان واحد، ولكـن هـذا التّنـاقض يزول إذا أدركنا أنَّ الإنكار هنا ليس معناه إنكار وجود الفعل المقر بـه، وهـو واقـع لا محالة، بل المراد إنكار أن يجرأ الفاعل على مثل هذا الفعل، والفرق كبيـر بـين إنكـار "الواقع"، وإنكار الوقوع، فلا ينكر الواقع من حيث هو، وإنّما ينكر وقوعـه علـى مـن أوقعه، وهذا هو المراد من الجمع بين الإنكار، والتّقرير عند الجرجانيّ، وهذا الأسـلوب من طرق الاستفهام بالهمزة[4].

وفي حديث الجرجانيّ عن الاستفهام،لم يخرج عن معنى الإنكار، والـ تّقرير، والتّـوبيخ وهي معان كان قد لحظها بعض الرّواد الأوائل كـ " سيبويه "، وأبي "عبيدة" في مجـاز القرآن، إلاّ أنَّ الجرجانيّ اكتفى في حديثـه عـن هـذه المعـاني الّتـي يخـرج إليهـا الاستفهام، دون أن يسميها مجازا، ولا من أيّ نوع من أنواع المجاز، فـدلّت مثـل هـذه الشّواهد عنده على وعيه بالتّراث البلاغيّ، والنّحوي، ممّا يشير بهذا الطّرح إلى تـأطير مفهوم الانزياح التّركيبي في الألفاظ، ليفتح المجال أمام الباحثين واسعا بالبحث، والدّراسة في هذا المجال الأسلوبيّ.

أما السّكاكيّ (626هـ)فقـد درس الاسـتفهام بطريقـة حاصـر لجميـ ع مـسائله وقضاياه، فهو عنده ضرب من ضروب الطّلب، أو الإنشاء، فنصَّ على أدواته، وجعلهـا ثلاثة أنواع: ما يختص بطلب حصول التّصور، وما يختصّ بطلب حصول التّصديق، وما

(3) ـ الجرجاني: دلائل الإعجاز: ص 113ـ 114.

(4) ـ المصدر السابق: ص 114 ـ 116.

لا يختص بواحد منهما، وشرح كلا من التّصور، والتّصديق [1]. وتحدث عن المعاني الأصول لكلِّ أداة، وتحديد المسؤول عنه بها، وفرّع على هذا كثيرا من المسائل، مستشهدا بالنّصوص المأثورة أحيانا، وبالتّمثيل المصنوع أحيانا أخرى، غائصا في كلِّ مثال وراء دقائق المعاني، وخفايا الأسرار [2]. وإذا كان في بعض الأدوات خاصية تنفرد بها عن نظيراتها في المعنى أشار إليها، وعزاها إلى مصدرها إن كان القائل بها غيره [3]. ثم يعمد إلى بيان المعاني الّتي تخرج إليها هذه الأدوات، بمعونة الأدوات والقرائن والأحوال، وهذا ما نريد تسجيله عنده، فيقول: " واعلم أنّ هذه الأدوات ــ أدوات الاستفهام ــ كثيرا ما يتولد منها من المعاني بمعونة قرائن الأحوال" [4].

وهذا نصّ صريح قاطع يبيّن أنَّ أدوات الاستفهام كلّها، وليست الهمزة وحدَها ــ كما هو الشأن عند الجرجانيّ ــ تخرج عن دلالة الوضع فيستفاد منها معان ثانية، وتدرك هذه المعاني بالقرائن المصاحبة للكلام، ثم شرع السّكاكيّ في بيان هذا الإجمال وتفصيله، فكان مما قال من الشّواهد المصطنعة: " ما هذا؟، ومن هذا؟، لمجرد الاستخفاف والتّحقير، وما لي؟ للتّعجب..." [5]، فالسّكاكيّ بهذا العرض يريد بيان أنَّ تركيب " ما هذا ؟ "، يسأل به عن الحقيقة الّتي لم يحصل له العلم بها قبل السّؤال، فإذا علمنا أنَّ السّائل يعلم الحقيقة المسؤول عنها، كان سؤاله خارجا عن الأصل الموضوع من أجله جنس السّؤال، فنزّل نفسه منزلة الجاهل بالمسؤول عنه عنده، وهذا معناه تحقير المسؤول عنه، والاستخفاف بشأنه، وأنّه بلغ من الحقارة أن صار غير معلوم الشّأن، فهو صنو العدم، والخفاء، وهذا هو معنى التّحقير والاستخفاف الّذي أشار إليه السّكاكيّ. والتّحقير، والاستخفاف، والتّعجب إضافات جديدة عند السّكاكيّ لأسلوب الاستفهام الّذي وقف عنده الجرجانيّ على معاني: الإنكار، والتّقريع، والتّوبيخ.

والسّكاكيّ يؤطر إلى أسلوبيّة الاستفهام من خلال الشّواهد والأدلّة داخل تراكيب الاستفهام، فيقول في ذلك: "وصدور الفعل في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ

[1] ــ ينظر: السكاكي، أبو يعقوب يوسف ابن أبي بكر (ت626هـ): **مفتاح العلوم**، شرح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983 ص: 308.

[2] ــ ينظر: المصدر السابق: ص: 311 ــ 314.

[3] ــ ينظر: المصدر السابق: ص 313.

[4] ــ السكاكي: مفتاح العلوم: 313 ــ 314.

[5] ــ السكاكي: مفتاح العلوم: ص 314.

أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾[1]، عن القادر المتصرّف القوي، تعجب وتعجيب، وإنكار وتو بيخ..." [2]، فاحتمال هذا الشّاهد التّركيبي الّذي أشار إليه، مع اجتماع المعاني فيه مرده إلى أنَّ إنكار الإيمان مع رسوخ علاماته، وسطوع براهينه أمر يدعو إلى التّعجب من شأن الكافرين، وتعجيب النّاس منهم، وإنكار هذا الموقف المخزي عليهم مع توبيخهم، والسّخريّة منهم.

وتجد الدّراسة أنّ السّكاكيّ يضيف في تحليله لأسلوب الاستفهام معنى " التّقريع " وهو عنده بمعنى التّوبيخ، إن لم يكن مؤداه أشد إيلاما على المقرَّع [3]، ويضيف السّكاكيّ معنى جديدا لم يشر إليه الجرجانيّ، وهو " التّنبيه " على الضّلال، وقد وجَّه به الاستفهام في قوله تعالى : ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[4] [5].

ويضيف كذلك معنى " الاستبعاد "، مستشهدا على ذلك المعنى، بقوله تعالى :﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِين ﴾[6]، فيقول :" الاستفهام استبعاد الذكرى "[7]، وهكذا تجد الدّراسة السّكاكي بأنّه وسّع دائرة البحث في الاستفهام، مضيفا إلى ما كتبه الجرجانيّ ما لم يكن معروفا، ولا مطروقا عند علماء البيان، وإن كان عمل الجرجانيّ نسيجا فريدا من حسن العرض، وإمتاع الذوق، وإقناع العقل.

أما الخطيب القزوينيّ (ت 739هـ)، فإنّ صياغته، ودراسته للعلوم البلاغيّة أشبهت القانون العام، الّذي تعاقبت عليه المذكرات التّفسيرية لشرحه، والتّعليق عليه، واستنباط ما يمكن فهمه من قواعده، وأصوله الكلية، وفي الحقيقة أنَّ نعمة الله على الباحثين في علوم البلاغة، تتجلى في عمل الخطيب القزوينيّ بوضوح.

وفي بناء الاستفهام نجد القزو ينيّ قد أفاد من عمل الجرجانيّ، وتلميذه الزمخشريّ، وأبي يعقوب السّكاكيّ، وتمثّلها تمثّلا حسنا، ثم سكبها في " إيضاحه " عسلا، فلا غرو أن يتخذ اللاحقون من عمله عمدة لبحوثهم، وشروحهم لدقة عباراته، وصدق نقله، وصواب رأيه، فقد بدأ كالسكاكيّ بالبحث عن حصر أدوات

---

(1) ــ سورة البقرة : الآية 28.

(2) ــ السكاكي : مفتاح العلوم : ص 314.

(3) ــ السكاكي : مفتاح العلوم : ص 315.

(4) ــ سورة التكوير : الآية 26.

(5) ــ ينظر : السكاكي : مفتاح العلوم : 315.

(6) ــ سورة الدخان : الآية 13.

(7) ــ السكاكي : مفتاح العلوم : ص 315.

الاستفهام، والمعاني الأصول الّتي ترد منها، وقسّمها إلى أنواعها الثّلاثة، كما فعل السّكاكيّ[1]. ثم شرع في بيان المعاني الّتي تستفاد منها حال خروجها عن الاستفهام المحض، وقدم لهذا بقوله: "ثم إنّ هذه الألفاظ كثيرا ما تستعمل في معانٍ غير الاستفهام بحسب المقام ...."[2]، وهي عنده معاني كثيرة: ذكر منها "الاستبطاء"، و"التّعجب" و"التّنبيه على الضّلال" و"الوعيد" و"الأمر" و"والتّقرير" و"الإنكار" و"والتّهكم" و"والتّحقير" و"التّهويل" ....[3].

وبعض هذه المعاني لم يرد عند الجرجانيّ، والسكاكيّ، ومنها التّهويل، وقد مثل له القزوينيّ، بقوله تعالى، على قراءة ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[4]، فيقول: "قرأ ابن عباس بالاستفهام "مَنْ فرعون؟"، وقرأ غيره "مِنْ فرعون"، بالجر"[5]، والملاحظ على حديث القزوينيّ لهذا الشّاهد أنّه يوجه قراءة ابن عباس، فيقول: "قرأ ابن عباس بالاستفهام، لمّا وصف الله تعالى العذاب بأنه مهين لشدته، وفظاعة شأنه، فأراد أن يصور كُنْهَهُ فقال: "مَنْ فرعون" أي أتعرفون من هو في فرط عتوّه وتجبره؟ ...."[6]، ولكن كان بوسع القزوينيّ أن يستشهد بمثال خالص، وهو كثير في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾[1]، فإنَّ الاستفهام في هذا الموضع وأشباهها للتّهويل والتّعظيم، فوضع الظاهر موضع المضمر "أهول لها"[2].

ومن خلال الأقطاب الثّلاثة ـ الجرجانيّ، والسّكاكيّ، والقزوينيّ ـ تجد الدّراسة، أنّهم نصّوا على المعاني الثّانية الّتي يخرج إليها الاستفهام، إلاّ أنّهم لم يفصحوا عن التّسمية: أهي حقيقة؟، أم مجاز؟، وإذا كانت حقيقة فلم خرجت عن أصل الوضع؟، واحتاجت معانيها إلى القرائن، ومناسبة المقامات، وإذا كانت مجازا، أهي مجاز

---

(1) ـ ينظر: القزويني: الخطيب صلاح الدين محمد (ت739هـ): **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب العالمي، بيروت، لبنان، ط3، 1989م. ج1/ 228.

(2) ـ: القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة: ج1/ 234.

(3) ـ المصدر السابق: ج1/ 234 ـ 241.

(4) ـ سورة الدخان: الآية 30 ـ 31.

(5) ـ القزويني: الإيضاح: ج1/ 240.

(6) ـ المصدر السابق: ج1/ 240.

(1) ـ سورة الحاقة: الآية 1 ـ 3.

(2) ـ ينظر: الزمخشري: الكشاف: ج4/ 586.

عقلي أم لغوي؟، إلا أنّنا نجدهم متفقون على أنَّ لأدوات الاستفهام حـالتين : إحـداهما أن تجيء مستعملة في معانيها الوضعية لطلب الفهم، وتحصيل العلم بما ليس معلومـا عنـد المتكلم حال سؤاله بها، أي أنَّ المخاطب مطلوب منه جواب يحصل به إفادة المتكلم بأمر يجهله. والثّانية: خروجها عن دلالة الوضع، فلا يطلب المـتكلم بهـا حـصول مجهـول عنده، وفي هذه الحالة لا يطلب المتكلم من المخاطب أمرا يجهله، وليست الأسئلة الصادرة منه بحاجة إلى جواب.

بعد الأقطاب الثّلاثة بدأ طور جديد مـن أطـوار البحـث البلاغـيّ، وهـو طـور الشرّاح، وأصحاب الحواشي على التّلخيص، الـذين جـاءوا علـى أثـرهم، فوضـعوا التّقارير والتّعليقات والتّجريدات على أعمال الشرّاح، فحين بدأ هذا الطور لقـي أسـلوب الاستفهام وبناءة عناية الباحثين، وفي مقدمتهم سعد الدين التّفتازانيّ (ت791هـ) صـاحب المطول، والمختصر على التّلخيص، الّذي يكشف مـا فـي أسـلوب الاسـتفهام مـن غموض، فيقول: " إنَّ هذه الكلمات ــ أدوات الاستفهام ــ كثير ما تـستعمل فـي غيـر الاستفهام"[3]، والتّفتازانيّ لم يحقق بهذا التّعليق كيفية هذا المجاز، وبيان نوعـه، فحديثـه عنه، وخروجه إلى معاني مجازية، يعدّ إشارة محدثة، أوجدها التّفتازاني في المطول.

أما السّيد الشّريف الجرجانيّ، فإنّه يبين لماذا لم يحم أحد حـول نـوع المجـاز فـي الاستفهام الخارج عن الدّلالة الحقيقية، ثم اهتمَّ ببيان جهة التّحوّز في أسلوبه، ولكنَّه لم يبين نوع المجاز الّذي يخرج إليه، وهذا يظهر بجلاء من خلال حديثه، فقال : " المجـاز فـي الاستفهام، لم يحم أحد حوله؛ وذلك لصعوبة بيان علاقة المجاز، وكيفية المناسبة المجوزة له، ونحن نذكر في هذه المواضع ما يتضح به وجه المجاز فيهـا، وتـستعين بـه فيمـا عداها..."[1]. فظاهر من هذا الحديث أنَّ السّيد لم يكن ينوي تحديد نوع المجاز، وشـعبته الّتي ينتمي إليها في صور الاستفهام الخارجة عن دلالة الوضع؛ لأنّه لم يَعـدْ بـه، فإنَّـه كان صادقا فيما وعد به، فحاول مرات أن يوضّح مناسبة التّجـوز فـي الـصّور الّتـي وردت في كـلام الـسّعد، وهـذا دليـل مـن محاولاتـه، فيقـول : " مـن مجـازات الاستفهام: الاستبطاء نحو: كم دعوتك ؟، فالاستفهام عن عـدد دعاتـه يـستلزم الجهـل به، المستلزم لاستكثار عادة، أو ادعاء؛ لأنَّ القليل منه يكون معلوما، واستكثاره يـستلزم

(3) ــ التفتازاني، سعد الدين (791هـ): **شروح التلخيص**، دار السرور ، بيروت، د ط، د ت،ج2/ 247 .

(1) ــ الجرجاني، السيد الشريف: **حاشية السيد على المطوّل**، مطبعة عيسى البابي، مصر ص: 335.

الاستبطاء كذلك، أي عادة، أو ادعاء، فالاستفهام عن عدد دعاته إياه، يستلزم الاستبطاء بهذه الوسائط...."[2].

فالسّيد الشّريف حرص على جهة التّجوز، والمناسبة المصححة، ولم يبيّن نوع المجاز، ولا قرينته صراحة، والظّاهر من كلامه أنّ العلاقة هي اللّازميّة؛ كون كلامه صريحا في هذه الدّلالة من استعمال اللازم وإرادة الملزوم، فيبين من خلال قوله تعالى مجاز الاستفهام: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾[3]، فالمجاز حاصل من خلال جعل الجهل بزمن النّصر في الآية، بمنزلة الجهل بعدد مرات الدّعوة في المثال المصنوع: كم دعوتك؟.

وتحدث عن معنى الاستفهام الإنكاريّ، ومثّل عليه بمثال مصنوع "كيف تؤذي أباك ؟"، فقال: " الإنكار كذلك... وإنكار الشّيء بمعنى كراهته، والنّفرة عن وقوعه في أحد الأزمنة، وادعاء أنّه مما ينبغي أن لا يقع منه، ويستلزم عدم توجيه الذّهن المستدعي الجهل به، المفضي إلى الاستفهام عنه "[4]، ويضيف حول معنى الاستفهام الإنكاريّ، فيقول: " الاستفهام عنه يستلزم الجهل به، المستلزم لعدم توجّه الذّهن إليه المناسب لكراهته، والنّفرة عنه، وادعاء أنّه مما لا ينبغي أن يكون واقعا، وقسْ على هذا حال الإنكار بمعنى التّكذيب "[1]. والسّيد الشّريف سلك في توضيح مناسبة التّجوّز الوسائط الّتي تضمنها كلامه، مع كل صورة، وهي إذا لم تخطئ التّقدير في استعمال اللازم في الملزوم، وأقصد به الإطلاق، والتّقييد بأن يقال أطلق الاستفهام ثم قيده باستعماله في الإنكار، ولكن السّؤال الّذي طرحه السّعد من قبل عن نوع المجاز في هذه الظّاهرة، لم نظفر له على جواب لا في كلام السّعد نفسه، ولا في كلام السّيد شارح مطوله، فهو بحاجة إلى مجيب.

والمجيب عن سؤال السّيد الشّريف في ريادة هذا المجال، هو ابن يعقوب المغربي (1128هـ)، فأطلعنا في شرحه للتلخيص على نوع ذلك المجاز، فيما يشبه الإصرار، حيث كرر التّسمية أكثر من مرة، ولم يشرك معها غيرها، مثلما صنع غيره من بعده، فيقول: " إنّ هذه الكلمات الاستفهاميّة كثيرا ما تستعمل في مواضع أخرى غير

---

(2) ـ الجرجاني: حاشية السيد على المطول: ص: 335.

(3) ـ سورة البقرة: الآية 214.

(4) ـ الجرجاني: حاشية السيد على المطول: ص: 336.

(1) ـ المصدر السابق: ص 238.

الاستفهام، الّذي هو أصلها، فتكون في ذلك مجازا لمناسبة بمعونة القرائن الدّالة في المقام، كالاستبطاء، نحو قولك لمخاطب دعوته فأبطأ في الجواب "كم دعوتك ؟ "، فليس المراد استفهامه عن عدد الدّعوة لجهله بها، ولا يتعلق بها غرض، فقرينة الإبطاء واستثقاله مع عدم تعلق الغرض بالاستفهام، ومع جهل المخاطب بالعدد دالة على قصد الاستبطاء ... والعلاقة أنّ السؤال عن عدد الدعوة الذي هو مدلول اللفظ يستلزم الجهل بذلك العدد، والجهل يستلزم كثرته عادة، أو ادعاء أنّه لا يحصره الإدراك من أوّل وهلة، وكثرته تستلزم بُعْد زمن الإجابة عنه زمن السّؤال، والبعد يستلزم الإبطاء، فهو كالمجاز المرسل لعلاقة اللزوم من استعمال الدّال على الملزوم في اللازم "[2]، وهذا كلام ابن يعقوب، مع عبارات التّلخيص نقلناه بطوله؛ لأنَّ لنا فيه مطالب :

أحدهما : أنّه متأثر إلى حد بعيد بكلام السيد الشريف في حاشيته على المطول، والذي استشهدنا بفقرات منه فيما تقدم. وثانيهما : أنَّ ابن يعقوب هو أوّل من سمى المجاز في خروج الاستفهام، بأنه "مجاز مرسل"، ولا يقدح في هذه التسمية إتيانه " بكاف" التشبيه، في قوله : " فهو كالمجاز المرسل"

ثالثا : أنه سلك في توضيح العلاقة مسلك كثرة الوسائط، ليتوصل منها إلى تحديد نوع العلاقة، وهي كما مرَّ استعمال الدال على الملزوم في اللازم، وهذا مسلك شاع عند بعض الشرّاح، وهو أشبه بالبحث العقليّ الفلسفيّ منه بالبحث المجازيّ الأدبيّ، مع أنَّ غيره سلك مسلك الاختصار والإيجاز في تحديد علاقة هذا النّوع من المجاز . وطفق ابن يعقوب يطبّق منهجه هذا في أمثلة الاستفهام الخارج عن أصل الدّلالة الوضعية، ويحرص في مواضع منها على تسمية المجاز فيها، فنراه في قوله تعالى : " فأين تذهبون "، يتابع الأقدمين في معنى التّنبيه على الضّلال، فيقول : " هو مجاز مرسل من استعمال الدّال على الملزوم في اللازم... ثم يقول : فهو مجاز مرسل من استعمال اسم الملابسة فيما يلابسه باللزوم في الجملة "[1]، وأحيانا يسميه المجاز الإرساليّ، فيقول : " فاستعمل لفظ الاستفهام في الإنكار بهذه الملابسة المصححة للمجاز الإرساليّ بمعونة القرائن الحالية "[2].

---

[2] ــ ابن يعقوب المغربي، أبي العباس أحمد بن محمد بن أحمد : **مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح**، تحقيق : خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م. ج1/ 489 ــ 498.

[1] ــ ابن يعقوب المغربي : مواهب الفتاح، ج1/490 ــ 491.

[2] ــ المصدر السابق : ج1/491.

وبهذا الحديث، والبيان فإنّ ابن يعقوب هو أوّل من سمّى هذا النّوع من المجاز مرسلا، ولم يذهب فيه مذهبا آخر، وفي توضيح جهة التّجوز احتذى حذو السّيد الشّريف، وحديثه في العلاقة من خلال جهة واحدة، أي أنَّ خروج هذه الكلمات الاستفهاميّة إلى غير الاستفهام، مجاز مرسل متّحد العلاقة من استعمال لفظ الاستفهام بعد إطلاقه قيد الاستفهاميّة في المعنى المراد فيه، بمعونة القرائن من استعمال الملزوم في اللازم، وكان على غراره من الملابسات المتلازمة، ولو في الجملة، وممّا يؤخذ على المغربيّ ــ ابن يعقوب ــ في ذلك كثرة الوسائط الّتي يقدرها في وجه التّجوز وعلاقته، وبذلك يكون ابن المغربيّ هو أوّل من حدد نوع المجاز في الاستفهام.

أمّا الدّسوقيّ (1230هـ)، فإنّه تتبع في حاشيته أقوال التّفتازاني في شرح التّلخيص، وبعض أقوال شرّاح المختصر، والمعلقين عليه، ومنهم السّيد الشّريف، وحين تعرض الدّسوقيّ في حاشيته لموضوع مجاز الاستفهام، فإنّه وضعه في ثلاثة تفسيرات:

الأوّل أنّه مجاز مرسل، والثّاني: أنّه كناية، والثّالث: أنّه من مستتبعات الكلام، وممّا يجب الإشارة إليه أنّه يرجح المرسل، والكناية، وفي هذه التّوجيهات يقول: " إنَّ هذه الكلمات ــ الاستفهام ــ كثير ما تُستعمل في غير الاستفهام، أي الّذي هو أصلها، فيكون استعمالها في ذلك مجازا لمناسبة بين المعنى الأصلي، والمعنى غير الأصلي مع وجود القرينة الصّارفة عن إرادة ذلك المعنى الأصلي الّذي هو الاستفهام ....."[3]، ولا ريب أنَّ الدّسوقي متأثر هنا تأثرا واضحا بما ذهب إليه ابن يعقوب المغربيّ من قبل، من تسميته مجازا مرسلا، ويبدو من كلامه أنّه غير مقتنع بهذه التسمية اقتناعا كاملا. وهذه خلاصة أمينة وموجزة لمذاهب المتكلمين، والشرّاح في الاستفهام، ومعانيه الّتي يخرج إليها، فإنّنا نرى أنَّ أقرب التَّوجيهات الّتي يميل إليها الاستفهام هو المجاز الّذي علاقته الإطلاق والتّقييد، وهذه العلاقة ترددت كثيرا في كلام الشرّاح، ومقتضى كلام بعضهم، يوحي إلى أنَّ علاقة المجاز المرسل في خروج الاستفهام متحدة، وليست متعددة، وإن سلكوا فيها سلوك المخالفة في التّفسير من مثال إلى مثال، فما أيسر، وأوضح أن يقال: أطلق الاستفهام من معناه الّذي يفهم منه بدلالة الوضع، ثم أريد منه كذا، ولا نقتصر بهذا القول على خروج الاستفهام وحده، بل تدخل معه الصيغ الإنشائيّة الأخرى، الّتي أجمع العلماء على استعمالها في غير معانيها المتبادرة على الفهم بدلالة الوضع، فيكون بذلك أنسب

(3) ــ الدسوقي: حاشية الدسوقي على المطول: ج2/ 290.

المذاهب إلى الاستفهام المجاز المرسل من حيث الخروج عن المعنى، وأوضح علاقة في هذه الخروجات هي الإطلاق، والتّقييد، مع طاقة هـذه العلاقـة إلـى تقريـر الوسـائط المنصوص عليها عند الشّراح حين يراد تقريرها وإيضاحها.

2 ـ الاستفهام عند البلاغيين المحدثين:

أمّا جهود البلاغيين المحدثين في الاستفهام، فإنّها لا تقاس بجهود القدامى من حيث الوفرة، أو الجودة؛ لأنَّ القدامى بسطوا الحديث فيه، إلاّ أنَّ المحدثين أتوا بجديد يحسب حسابه في هذا الميدان الّذي يتّسع فيه القول جيلا بعد جيل، فالدّراسات الّتي تناولت أسلوب الاستفهام انقسمت إلى قسمين: الأوّل: الدّراسات النّحويّة المرتبطة بالجانب البلاغيّ، والثّانيّ الدّراسات البلاغيّة المتخصّصة.

فمن القسم الأوّل: نجد دراسة الطّاهر قطبي في بحثه " الاستفهام بين النّحو والبلاغة" يشير فيه إلى أنَّ أسلوب الاستفهام في الدّراسات النّحويّة، والبلاغية يمثل علاقة التّكامل، فنظر إليه على أنّه أسلوب تجتمع فيه الدّلالات النّفسيّة والجماليّة، من خلال خروجه عن معنى الاستعلام، إلى أغراض بلاغيّة كالتقرير، والإنكار وغيرهما [1]. ومن هذا القسم نجد كذلك دراسة الباحث يوسف أبو العدوس "همزة الاستفهام بين المفهومين النّحوي والبلاغيّ"، فبيّن فيه الدّور الّذي تلعبه في الكلام، والأساليب الّتي تأتي عليها، من خلال الإيجاب والنّفي، وتوصل في هذا البحث إلى نتيجة: أن لهمزة الاستفهام استعمالين، أحدهما: أن يكون المعلوم هو النّسبة، والمجهول هو المفرد، والثّاني: أن يكون المجهول هو النّسبة فيطلب بها معرفة النّسبة، وتسمى معرفة المفرد تصوّرا، ومعرفة النّسبة تصديقا، وبيّن البحث كذلك أنَّ الهمزة أوفر أدوات الاستفهام دلالة على المعاني البلاغيّة، فجاءت للإنكار بكلِّ أنواعه، وكثرت دلالتها عليه، وللتّشويق والأمر، والتّعجب، والتّقرير ...، وثمة نتيجة أخرى أشار إليها البحث، وهي جواز حذف همزة الاستفهام، وممّا يساعد على معرفة هذا الحذف التّنغيم في تمييز الأساليب بعضها عن بعض، وفي معرفة معنى الكلمة، أو الجملة حين توجد عدة معان محتملة، ويلعب دورا كبيرا في الدّلالة على الأسلوب الاستفهاميّ، أو نقل مشاعر المتكلم، وآرائه

(1) ــ ينظر: الطاهر قطبي: **الاستفهام بين النحو والبلاغة**، رسالة ماجستير مخطوطة في جامعة حلب، إشراف الدكتور: فخر الدين قباوة، جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، 1987م. ص: 8 ــ 9.

للمستمع، وبذلك يكون الباحث قد وقف على بعض أسرار همزة الاستفهام [1]. أمّا ياسر محمد خليل الحروب، فإنَّه بين في دراستهأنْظمة التَّركيب في جملة الاستفهام العربية " التّراكيب المختلفة للجملة الاستفهاميّة، و ما تنطوي عليه من دلالات وأغراض، وأوجه جمالية أفاضت على الأسلوب الاستفهامي وبناءه رونقا، وبهاء، وعمقا[2].

والقسم الثّاني من جهود البلاغيين نجده في الدّراسات البلاغيّة المتخصصة، وأول ما نصادف في هذا المجال دراسة أحمد الهاشميّ : " جواهر البلاغة "، التي يبيّن فيها مفهوم الاستفهام وأدواته، والمعاني الحقيقية للاستفهام، ثم المعاني المجازية له، الّتي تفهم من سياق الكلام ودلالته [3]. أما عبد العزيز عتيق في كتابه " علم المعاني" فإنّه ينظر للاستفهام على أنّه أسلوب متميز للخطاب والطّلب، يفرضه واقع الأدوات والقرائن، ومما ذكره من دقائق الاستفهام أن يكون للشرط، وهو في الحقيقة للجزاء، فمعالجة عتيق لهذا الأسلوب أشمل من معالجة الهاشميّ له؛ لأنّه زاد عنهم بكثرة الشّواهد، والمعاني المجازيّة الّتي تخرج إليها أدوات الاستفهام، وحديثه عن الحذف في هذا الأسلوب[4].

الفصل الثاني:

أبنية الاستفهام في السّور المكيّة:

2 . 1: القسم الأول: حروف الاستفهام:

يظهر لنا من الدِّراسات النّحويّة، والبلاغيّة وعلوم القرآن، أنَّ الاستفهام أسلوب من الأساليب الإنشائيّة، ويعني طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل، وفي هذا الحدّ يقول سمير استيتية" إنّه تحويلٌ لتركيب إخباري إلى استفسار، باستعمال أدوات خاصة، وتنغيم معين، أو الاكتفاء بالتّنغيم أحيانا "[1]، ويشير كذلك ويفصّل القول في بنيته

---

[1] ــ ينظر: أبو العدوس، يوسف: **همزة الاستفهام بين المفهومين النحوي والبلاغي**، مؤته للبحوث والدراسات، المجلد الثاني، العدد الثاني، 1987 ص: 141، 198 ــ 199.

[2] ــ ينظر: الحروب، ياسر خليل: **أنظمة التركيب في جملة الاستفهام العربية**، رسالة ماجستير مخطوطة، إشراف أهيف سنّو ، جامعة القديس يوسف، كلية الآداب، فرع بيروت، 1996 ص: 6.

[3] ــ ينظر: الهاشمي، أحمد: **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ط12، د ت، ص: 85 ــ 99.

[4] ــ ينظر: عبد العزيز عتيق: علم المعاني: ص: 104 ــ 121.

[1] ــ استيتية، سمير شريف: **الشرط والاستفهام في الأساليب العربية**، دار القلم، ، دبي، ط1، 1995م. ص 98.

فيقول :" هو فصل بين المفهومين الدّلالي، والتّركيبي، من أجل إبراز حقيقته التّركيبية الّتي تلتبس بحقيقته الدِّلالية"[2]، في حين يَحدّه الخُويسكي" بأنّه طلب الفهم بأداة مخصوصة"[3].

ومن خلال البحث نجد أنّ أغلب النّحاة درسوا الاستفهام موزعا على أبــواب النّحــو المختلفة، لكن الجانب الّذي حظي عندهم بالدّرس الموحد هو الأدوات، إذ لا يكــاد يخلــو مُؤلَّف نحويّ من جمعٍ لأدوات الاستفهام في باب واحد، وكذلك في مصنفات البلاغة، أما التّفاسير فلا نجد تحديدا نهائيا لمدلول الأداة اصطلاحا، ذلك أنَّ علوما كثيرة قد تَعــاورت هذا الجانب من أقسام الكلام، ولم تفصح التَّفاسير عن مفهوم يجلــو طبيعتهــا، ويرســم حدودها؛ لأنَّ المفسرين ينطلقون فـي تفاسيرهم من وِجْهَة نظر تطبيقية لا تسمح بعــرض أصولهم، وقلّما يقفون وِقْفَة المنظّر، وهذا يجعلنا نهتدي بآراء النّحاة، والبلاغيين في تحديد مفهوم الأداة في الاستفهام بشكل خاص، وبنائها وتراكيبها بشكل عام.

ففي المعاجم العربية يدور مفهوم الأداة حول معنى الآلة والوسيلة، فورد في الصحاح الأداة هي "الآلة، وجمعها أدوات "، و"أدوات الحرب سلاحها "، ومن المفهوم اللّغوي نجد أنَّ الأداة يراد بها الآلة الضّرورية الّتي يتوسل بها المرء إلى تحقيق ما يصنع. ويبدو أن هذا المدلول الحسّي قد تطوّر إلى معنى ذهني مجرد، ليدل على أنَّ الأداة " هي الكلمــة التي تستعمل للربط بين الكلام "[4]. فإذا كانت الأداة الآلة التي تقيم الحرفــة، فــإن الأداة الكلمــة التــي تقــيم الكــلام، وتــربط بــين أجزائــه، إضــافة إلــى وظائفهــا الأخرى في المفردات والجمل والأدوات منها ما يختص بالدّخول على الجمل، كــأدوات الاستفهام، والنّفي والعرض، والتّحضيض، ومنها ما يختص بالأفعال، ومنها مــا يــدخل على الأسماء، والأفعال معا.

والنّص القرآنيّ يدخل في نسيجه النصيّ هــذه الأدوات علــى اختلافهــا، وتنوعهــا الأسلوبيّ الّذي تأتي عليه، ليحصل للإنسان من خلالها على الاقتنــاع الــذّاتي المقــرون بالحجة، والبرهان في إطار الحوار الهادئ، والعميق في شتى موضــوعات الكــون ذات المساس بمصيره "[1]، فأدوات الاستفهام تلخص معنى الاستفهام الّذي تدخل من أجله على

---

[2] ــ المرجع السابق : 98.

[3] الخويسكي، زين الدين : **الجملة الفعلية منفية واستفهامية**، ج2/ 193.

[4] ــ الصحاح : مادة " أدو ".

[1] ــ فضل الله، محمــــــــــــــد حسين : **الحوار في القرآن الكريم**، دار التعاريف، سوريا، ط5، 1987 ص32.

الجملة، بدليل أنَّ الجملة الاستفهاميّة قد تحذف، وتبقى الأداة دالة عليها كقولنا عمَّ؟، ولِمَ ؟، ومتى؟، وأين؟، مكتفين بذكر الأداة عن إعادة الكلام في السياق النصي[2].

ولا تستغني جملة الاستفهام في السّياق القرآنيّ عن أداته، فإن حذفت دلت عليها القرائن المصاحبة للبناء، كالتّنغيم في الكلام، أو سياق التّسوية مثلا، بخلاف لغات أخرى حيث تستغني تماما عن الأداة [3]، ويكون التّمييز فيها بين الإخبار، والاستفهام من خلال التّخالف في ترتيب الكلمات "[4]، وهناك لغات أخرى تعتمد الأداة في الأسلوب الاستفهامي كاللاتينية، تماما كما هو الحال في اللّغة العربيّة [5]. وبهذا التّمييز لأسلوب الاستفهام في اللغة العربيّة عامة، والقرآن الكريم بخاصة نجد أنَّ الأداة هي الدّالة على معنى الاستفهام في الجملة ملفوظة كانت هذه الأداة، أو ملحوظة، والاستفهام في النّص القرآنيّ ينوّع أبنيته لإرضاء حاجات خاصة لدى الإنسان، وإشباعها، ولا يتحقق ذلك المقصد إلاّ من خلال إثارة اهتمام السَّامع بمخاطبة قواه العقليّة، والوجدانيّة، ويحرّك لديه حبّ الاستطلاع(6). وهذا إجمال لما سيأتي تفصيله لبلاغة هذا الأسلوب في السّور المكية، وقدرته على الإقناع، ومرونته في التّعبير والأداء، مما يجعل المعاني تتنوع حسب مقامات السّامعين، وحالات المخاطبين. وتنقسم أدوات بناء الاستفهام بحسب التّصور والتّصديق إلى ثلاثة أقسام هي: أوّلا: ما يطلب به التصوّر تارة، والتّصديق تارة أخرى، فيتعمق التّصوير، والتّصديق في بناء الهمزة، ثانيا: ما يطلب به التّصديق فقط، فيتمركز في بناء "هل". ثالثا: يطلب به التّصور دون التّصديق، وهو بقية الأدوات في البناء[1].

---

(2) ــ ينظر: سلوم، تامر سلوم: **نظرية اللغة والجمال**، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 1983 ص 88 ــ 89

(3) ــ ففي الإنجليزية (he has come) بمعنى جاء، و (has he come) بمعنى أجاء؟. وفي الفرنسية: (IL est venu) بمعنى جاء، و (EST IL VENU) بمعنى أجاء؟. برجستراسر: التطور النحوي: 163 ــ 165.

(4) ــ برجستراسر: **التطور النحوي**، ترجمة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، د ط، 1982 ص 165

(5) ــ المرجع السابق: ص 165. وينظر: الطاهر قطيبي: الاستفهام بين النحو والبلاغة، ص: 11.

(6) ــ ينظر: حفني، عبدالحليم: **أسلوب السّخرية في القرآن في القرآن الكريم**، مطابع الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط1، 1987. ص: 51 ــ 52.

(1) ــ ينظر: عثمان، عبدالفتاح عثمان: **دراسات في علم المعاني والبديع**، مكتبة الشباب المثيرة، القاهرة، ط1، د ت، ص: 89.

وهذه الأقسام الثّلاثة لبناء الاستفهام الّتي اصطلح عليها البلاغيون، تختزل الفجوات التّعبيرية بين الصّياغة، ومتلقيها، وقدرتها على التّعامل مع تضاريس النّص، فبنيته امتدادية تستوعب جميع التّنويعات الحساسة الّتي تولد الطّاقة الإنتاجيّة داخل الأبنية التّركيبية، لتتجاوز الدّلالة التّقريريّة إلى فضاءات دلالية تتعدد فيها الألوان، والأشكال، فيمنح المتلقي فرصة الإبحار خارج الحدود النّمطية، وهذا لا يتم إلاّ من خلال السّياق، والقرائن المصاحبة للأدوات الاستفهامية في توجيه البنى التّعبيرية في الأسلوب الاستفهامي، سواء أكان في التّحذير، أو التّوبيخ، أو التّقرير، أو التّعجب ... وغيرها من المواجد الإنسانيةوبناء الاستفهام يسجل أثناء نموه بعدين : الأوّل، البعد العميق، أو البنية العميقة، والّتي تتعلق بأحوال المنشئ، الثّاني : البعد الظّاهر، أو البنية السّطحية المتعلقة بأحوال المُنْتَج الصّياغي من وحدات لغوية، وأدوات مخصوصة لمرافقة الأسلوب الاستفهاميّ، فحركة الوحدات، والأدوات المصاحبة للأسلوب تتحرك وفق حركة المدرك الداخلي (الباطن) حيث أنَّ كلَّ تغيّر لا بدَّ أن يصاحبه تحوّل في عناصر البعد الظّاهر، بمعنى أن حركة العناصر السّياقية لا بُدَّ أن تكون في منطقة العمل المخصوصة لكلِّ نوع من أنواع الاستفهام لتتوازن معها إثباتا، أو نفيا . وفي البناء الاستفهاميّ تتجه حركة المنظور السّياقي في تقابل أسلوبيّ، عبر المستويين السّطحي والعميق : فيبدأ السّياق بالاتجاه من البنية السّطحية إلى البنية العميقة[2]، والشّكل التّجريدي التّالي يفسّر ذلك :

البنية السطحية (السّياق اللّغوي، مفردات البناء) ←———— البنية العميقة (محور السّياق اللّغوي)

وعلى هذا الاتجاه في حركة المنظور السِّياقي، ما بين البناء السَّطحي، والبناء العميق سيكون تحليل أبنية الاستفهام .

2 . 1 . 1: بنية الهمزة :

الهمزة هي الأداة الرّئيسة لبناء الاستفهام، فهي عند النّحاة " أمّ الأسلوب"[1] . فعمليتها البنائيّة، والدّلالية في النّص، تُطرح من خلال البناء الصّياغي للشّكل الخارجي، فسلطتها على الفعل تتمركز في زرع الشّك على محيط دائرته " أفعلت هذا ؟ "، أمَّا الاسم فإنَّ سلطتها تتمركز في الشّك حول محوره التّركيبي " أمحمد جلب الكتاب؟"[2]، فبنيتها بنية مرنة قابلة للتّشكل مع الجملة الفعليّة، والاسميّة، وفي هذا يقول شيخ النحاة : " حروف

---

(2) ــ ينظر : محمد عبد المطلب : البلاغة العربية قراءة أخرى : ص : 285 .

(1) ــ ينظر : سيبويه : الكتاب : ج2/ 128 . وينظر : الزمخشري : الكشاف : ج1/ 121 .

(2) ــ ينظر : محمد عبد المطلب : البلاغة العربية قراءة أخرى : ص : 285 .

الاستفهام لا يليها إلاّ الفعل، إلاّ أنّهم قد توسعوا فيها فابتدأوا بعدها بالأسماء "[3]، ولبنية الهمزة أيضا خصيصة الدّخول على الإثبات، والنّفي، والشّواهد القرآنية تدلّ على ذلك، فتحول الجملة التّوليدية سواء أكانت اسميّة، أو فعليّة إلى تحويليّة، يتحدد المعنى من خلال السّياق التّركيبي.

والّذي نثبته وتراه الدّراسة أنّ بنية الهمزة تدخل على الاسم، والفعل في السّياق النّصي على اختلاف أشكاله البنائيّة، فنتفق أسلوبيّا مع الطّرح الّذي أثبته أغلب النّحاة، والبلاغيين لهذا البناء. وبناءها لها دلالتها الخاصة المتبلورة من ترتيب ألفاظ الجملة، فبنائها مع الفعل الماضي يختلف في الدّلالة عن الحاضر، والمصدر يختلف عن اسم الفاعل ... هذا فضلا عن الهيئة الإعرابيّة التي ترد عليها عناصر ومفردات السّياق النّصي للبناء، فالمرفوع يختلف دلاليا عن المنصوب .... والبناء المنفي يختلف عن المثبت، والمنفي "بلم" يختلف عن المنفي " بلا "، وهما يختلفان عن المنفي بـ" لن"، وجميع هذه الأبنية تختلف عن المنفي بـ"ليس"، وبناء الجملة القصيرة يختلف عنه في الجملة الطّويلة، فكلما زادت متعلقات الجملة في البناء زاد التّركيب عمقا في الدّلالة، فيصبح المتلقي في بؤرة الحدث البنائيّ حاضرا بعقله ووجدانه . وهذا التّنوع البنائيّ لبنية الهمزة نجده قد وردت في السّور المكيّة على شكل ثلاثة أبنية أسلوبيّة رئيسة هي : أوّلا : بناء الهمزة مع الجملة الفعلية المثبتة، ثانيا : بناء الهمزة مع الجملة الفعلية المنفيّة، ثالثا : بناء الهمزة مع الجملة الاسميّة، ويتفرع منها مجموعة بنائية تمثل في مجملها ظاهرة أسلوبيّة تدعم إعجاز القرآن الكريم، وبلاغته.

أولا : بنية همزة الاستفهام مع الجملة الفعليّة المثبتة :

ورد هذا البناء في مائة وستين موضعا، ليشمل الأفعال الماضية، وتشكيلاتها المختلفة الّتي تأتي عليها، وكذلك أفعال المستقبل، وأبنيتها المختلفة، فتشكّل هذه الأبنية ظاهرة أسلوبيّة بلاغيّة تظهر لنا عند تحليل أبنيتها على النّحو التّالي :

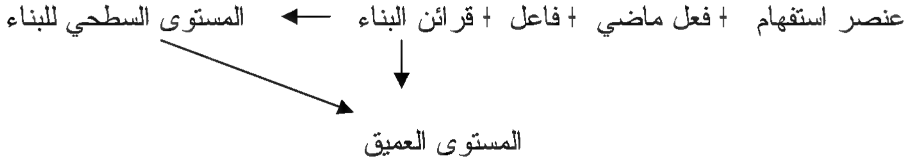
أ) ــ بناء الهمزة مع الفعل الماضي المثبت :

تشكّل هذا البناء في السّور المكيّة في خمسة وثمانين موضعا، أتت مختلفة من حيث المعنى الدّلالي، والسّياقي، وعند النّظر في أسلوبه الصّياغي يمكن تقسيمه إلى

---

(3) ــ سيبويه : الكتاب : ج1 / 99 . وينظر : قيس الألوسي : أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين،ص : 319 ــ 331 .

قسمين : الأوّل : الفعل الماضي المتصل بالهمزة، دون وجود فاصل بينهما، ويمثله الشّكل التّجريدي التّالي :



ويتشكل البناء من نمطين بارزين، الأوّل : الماضي الّذي يحمل دلالة الجمع، ليقدم للمتلقين مظهرا من مظاهر الاستدلال على وحدانيّة الله عزَّ وجل، من خلال تناسب الفواصل مع الحدث، والصّياغة اللّفظية للبناء، كما في قول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (1).



أصله التّوليدي : "رأيتم" يفيد معنى الرّؤيا والإخبار و " التّقرير "(2)، والبناء التّحويلي يساوي الشّكل التّجريدي التّالي :

فعل أمر" قل" + عنصر استفهام" الهمزة" + فعل وفاعل + جملة الشرط " إن جعل ...

فالشكل التّجريدي يبين تصدر فعل الأمر " قُلْ" للبناء، للإيذان بأهمية المقول للمخاطبين في الدّالين الوارد فيهما، فالرّسالة الّتي يحملها الفعل رسالة خاصة، يجب تبليغها للمتلقي فور تلقيها، ومواجهة من أنزلت بشأنهم ليجعلهم في حالة انتباه، وترقب للخبر الّذي سيلقى عليهم، فالخبر في الدّال الأوّل "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا " حمل في بؤرته الدّلالية معنى التّصور لصعوبة الحياة لو كانت ليلا بدون نهار، فالليل مظلم لا شمس فيه، ولا ضياء، والعين في الظلام لا تكاد ترى، ولكن الأذن في الليل السّاكن تسمع، ولهذا ختم الآية في البناء الأوّل، بالدّعوة إلى السّماع، وليس الإبصار " أفلا تسمعون " ليتناسب دلاليا وسياقيا مع بناء التصور (3).

---

(1) ــ سورة القصص : الآية : 71 ــ 72 .

(2) ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج20/ 209 . وينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج3/ 209 ــ 214 .

(1) ــ ينظر : فاضل السامرائي : **التعبير القرآني**، دار عمار، عمان، ط1، 1998 . 225 ــ 226 .

أمّا الدّال الثّاني من البناء فسياق حديثه عن النّهار، وتصور صعوبة الحياة لو كانت كلّها نهارا لا ليل فيها، فالتّصور يتمركز في وضوح الرؤيا، والإبصار في موجودات الكون، فناسب هذا المعنى الدّلالي خَتْم الآية بقوله " أفلا يبصرون "[2]، وثمة ملاحظتان أسلوبيتان في البنائين : الأولى : أنّهما مسوقان لغرضين جليلين يفصح عنهما البناء العميق للاستفهام، الأول: لفت الأنظار إلى مواطن الاعتبار في ملكوت الله، والثّاني : التّخويف، والتّحذير من الكفر بالله واهب المنن، ولهذا عقب السياق الأسلوبي للبناء على هذين الغرضين بـ" ديمومة اللّيل" و "ديمومة النّهار"، بقوله ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3]، والثانية : استخدام السياق " إنْ جعل " بدل " إذا جعل "؛ لأنّ المشروط فرضي تخيلي، غير كائن في أي وقت من الأوقات [4]، فناسبه حرف الشرط " إن " و الفعل الماضي " جعل"، وبه تكتمل الدلالة.

ومنه يأتي بدلالة التّقرير، لتتحرك في نطاق الوظيفة الإفهاميّة؛ لأنّ المتلقي له الحضور المهيمن في تشكيل الصّياغة النّصية، والدّلالية في البناء الاستفهاميّ، فالتّقرير يحمل المخاطب على الإقرار، والاعتراف بأمر قد استقرَّ عنده ثبوته،أو نفيه، وبهذه الدّلالة يجب أن يلي أداة الاستفهام الشّيء الّذي تقرره به كما هو الحال في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[5].

البناء ← أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ← جملة تحويلية أصلها التّوليدي:

أذهبت لتفيد معنى التّقرير والتوبيخ.

فالبناء تحرك في نطاق الإفهام، والتّصور كما يقول ابن عاشور : " إنَّكم استوفيتم ما لكم من الطّيبات بما حصل لكم من نعيم الدّنيا، ومتعتها، فلم تبق لكم طيبات بعدها؛ لأنّكم لم تعملوا لنوال طيبات الآخرة ، وهذا إعذار لهم، وتقرير لكونهم لا يظلمون "[1]، فالسّياق الأسلوبيّ رُتّبَ من خلال المفردات النّصية هذه الدّلالة العميقة، فالفاء المتصلة بلفظ اليوم

[2] ـ المرجع السابق : ص 226.

[3] سورة القصص : الآية 73.

[4] ـ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج3 /209 ـ 214. وينظر : سيد قطب : في ظلال القرآن : ج5/ 2707 ـ 2708.

[5] ـ سورة الأحقاف : الآية 20.

[1] ـ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج26/ 36.

أكدت عدم بقاء الرَّحمة، وحلول الجزاء السيئ عليهم، أمَّا إذهاب الطِّيبات، فهو لفظ مستعار ليتوافق دلاليا مع إذهاب المرء، وإبعاده عن مكانه، فالطِّيبات تذهب إلى أصحابها في الجنة، والمرء العاصي المنكر، يذهب في اتجاه معاكس للطيبات، وكأن دلالة الاستفهام مع الفعل " أذهب" أخذت تنتشر في اتّجاهين متعاكسين فرضهما البناء على الدلالة العميقة.

أمّا الشّكل الثّاني، أو الحالة الثّانية من نفس البناء فتشكّل من الماضي المفرد، فالتّصور، والتّصديق في بنائه يعتمد على رصد حركة المعنى بين السّطح، والعمق، ويعتمد كذلك على الإدراك الدّاخلي لطبيعة الأمر الخارجي، ومنه قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[2].

البناء ← قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ ← جملة تحويلية أصلها التوليدي:

خرق ← لتفيد معنى الإنكار، وهذا يساوي:

امتداد صياغي ← + عنصر استفهام + فعل وفاعل + قرائن البناء

↓

دلالة البناء العميق " الإنكار "

فالتّجريد البنائيّ يبين استخدام حرف العطف " الفاء" في قوله " فانطلقا " للإشارة إلى سرعة البدء في الانطلاق بعد الاتفاق الّذي تمَّ بين الاثنين، فآثر السّياق لتحقيق هذا المعنى لفظ "انطلق" على المشي للدّلالة على أنّهما جدّا في السّير، ولم يتراخيا فيه، أما لفظ " حتّى" يتفق، ويتماسك نصّيا مع الّذي سبقه ليبرهن لـ لمتلقي على وجود مسافة ذات بال بين الموضع الذي تمّ فيه الاتّفاق، وموضع رسو السَّفينة، وفيها يقول ابن عاشور : " حتى ابتدائية غاية في الانطلاق ... أي إلى أن ركبا في السفينة"[3] .

أمّا بناء الاستفهام " أخرقتهاقد أتى بعد الامتداد السِّياقي للحديث، والحدث ، ليكُونَ هناك مجالٌ لذهن السائل أنْ يسأل، فقال تعالى على لسان موسى : " قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ

[2] ــ سورة الكهف: الآية: 71 ــ 72.

[3] ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج15/ 110.

أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا "، ليفصل القولُ الحديثَ عمّا قبله، لوقوعه جوابا عن سؤال تولد بكل وضوح في المساحة الصياغية التي سبقت البناء .

أمّا البناء العميق الّذي يولده السّياق النّصيّ، فإنّه يأتي من القرائن الّتي تسلط عليه فعل "الخرق"ومنها قوله تعالى : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[1]، ليبين أنَّ الخرق كان بقصد إنجاء السّفينة من سطو الملك عليها، لأنّه كان لا يسطو على السّفن المعيبة، وبهذا تعين على السّياق النّصي أن يأتي بـ " اللام " في لفظ "لتغرق أهلها " للعاقبة[2] كما يقول الزّمخشري؛ لأنَّ العلة ملازمة للفعل المستفهم عنه، فالاستفهام هيأ مجالا كبيرا يجعل المنشئ، والمتلقي في حالة حوار ملؤه الانفعال، والدهشة .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[3] .

البناء ← أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ← جملة تحويلية أصلها التّوليدي :

جعل الآلة ....لتفيد معنى " الإنكار والتّعجب، والتّعجيب "، وهذا يساوي البناء التّجريدي التّالي :

امتداد سياقي " وعجبوا.." + عنصر استفهام + فعل ماضي + مفعول به + قرائن البناء ....

↓

تلازم دلالي

فالبناء بمساندة المصاحبات النّصيّة الّتي سبقته تتجه إلى تفسير النّص، وتقوية الإثارة النّفسية المتولدة من مفاصله، ونلمس مركزيتها في الفعل "عجبوا " الذي يحمل حقيقة الانفعال، وعدم التّصديق، فأمر الرّسالة، وصاحبها شيء غير متوقع بالنسبة لهم، ويتعارض هذا مع طموحاتهم الشّخصية، فحملتهم المفاجأة إلى التّحقير، والتّقليل من شأن صاحبها، فعبّر السّياق مصورا حالة الاندهاش، والمفاجأة باسم الإشارة " هذا "، وينقل كذلك قرب العهد بحوارهم مع صاحب الرّسالة، فيجعلنا نعيش الحالة الحواريّة ما بين المنكرين وصاحبهم .

فالامتداد الصّياغي، وطريق المحاورة أنتجت من البناء " أَجعل " دلالة الإنكار عند طالب التّصور ــ المنكرين ــ بجعل الأصنام إلها واحدا كما تخيله المنكرون، لكن

---

(1) ــ سورة الكهف : الآية : 79 .

(2) ــ الزمخشري : الكشاف : ج2/ 708 . وينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج2/260 .

(3) ــ سورة ص : الآية 4 ــ 5 .

دلالة الإنكار تسير عكس التّصور الّـذي تخيلـه المنكـرون، فالرّسـالة تبطـل عقيـدة الشرك، وتزرع عقيدة التّوحيد بـالله، فـآثر البنـاء الفعـل الماضـي " جعـل " علـى المضارع " يجعل " للإشارة لما يريده المتكلّم صاحب الرّسالة من عقيدة التّوحيـد، وممّـا عمّق دلالة الفعل كذلك لفظ " عُجَاب "، فاللّفظ رسّخ دلالة الجَعْل، وبيّن شدة تمكّنـه فـي إثارة " التَّعجب والتَّعجِيب "[1]، كون بناء " فَعّال كما يقول ابن عاشـور :" مـن صـيغ المبالغة في تصوير المعنى "[2] ويعمّق البناء من حيث اللّفظ التّوافق، والرّنين الـصوّتي في فواصل الآيات " كذّاب / عجاب / يراد / اختلاق[3].

والقسم الثّاني : من بناء الفعل الماضي مع همزة الاستفهام، يتشكل من وجود فاصـل يفصل الهمزة عن الفعل يتمثل بحروف العطف، ويمثله الشّكل التّجريدي التّالي :

عنصر استفهام + حرف العطف + الفعل الماضي + قرائن البناء .....

فالحروف تستعمل في ربط أجزاء الكلام، وتنسيقها " فهي تصوّر في أغلب أحوالهـا التّسلسل المنطقي بين الأحداث والقضايا، وتستخدم في الكلام الّذي يلعب فيه الزّمن دورا كبيرا"[4] وقد نبّه الجرجانيّ كما يقول محمد أبو موسى إلى أنَّ :"حروف العطف،وما شاكلها تشترك في إفادة الشّراكة بين المعطوف، والمعطوف عليه، ووراء ذلك فـروق تحـددها معاني كلَّ حرففوضعها الموضع السّليم في النّظم يمثل رأس الأمر في البلاغـة "[5].

فحرف العطف يُخْرِج الصّياغة من دائرة الدِّلالة الأحادية، إلى دلالات متعـددة، فيـ سمح بتوسيع دائرة التَّواصل مع النّص عن طريق التّأويلات المتعددة الّتي يسمح فضاء الصّياغة بإنتاجها، وبهذا نتفق مع البلاغيين في تأويل دلالة حروف العطف، ومع محمد ابو موسى .

وتتمركز بنية هذا الشّكل من حيث حرف العطف، في ثلاثة أساليب بنائية : الأسـلوب الأول يتمثل بالهمزة والفاء، ليختص بالسّؤال عن الدّلالة الكليّة، والجزئيّة، مكوّنا مرحلـة الإنتاج الدِّلالي، وهي مرحلة متأخرة تأتي في نهاية الأسلوب، حتى تنبعث منها الـدِّلالات التَّوليدية الجديدة للبنية، وتترك بؤرتها في ذهن المتلقي بالرِّفض، أو بالقبول، ومنه قولـه

---

[1] ــ الزمخشري : الكشاف :ج4/ 70

[2] ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج23/ 114 .

[3] ــ الزمخشري : الكشاف : ج4/ 40 .

[4] ـ الطرابلسي، محمد الهادي **خصائص الأسلوب في الشـــــوقيات** منشورات الجامعة التونسية، تونس، ط 1، 1981 ص : 508 .

[5] ــ أبو موسى، محمد : **دلالات التراكيب**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1987 . ص : 347 .

تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُون * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُون * لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُون ﴾ .[1]

البناء ← أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُون / أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي ← بناءٌ تحويلي أصله التوليدي : رأيتم ..... فقد جرى فيه التحويل بالزيادة والترتيب ليفيد معنى الرؤية والإخبار .

فالبنية السّطحية للشكل التّجريديّ تتشكل من "عنصر استفهام + عطف + فعل + مفعول به " لتُقَدم بنية عميقة نلمسها من قرائن البناء الاستفهاميّ ، المصاحبة له، فالبناء العميق تحرّك من مركزية البناء السَّطحي، وفي عمق السِّياق الإخباريّ ليعقد حوارا علميا محكما لبيان طلاقة قدرة الله، وبديع حكمته، وعجز المخلوقين، حوارٌ ينطق الجماد، ويحيي الموتى، ويبهر العقول، فتخرّ جاثمة أمام جلاله، وبديع صنعه ... فالاستفهام في بنيته العميقة حوّل السِّياق الإخباريّ، إلى سياق تقريريّ إنكاريّ، يبيّن أنّهم لا يستطيعون التَّحكم فيه، أو الحصول عليه، فالصِّياغة الأسلوبيّة مكّنت بؤرة التَّحول الإخباريّ من جانبين الأوّل : مجيء حرف العطف "الفاء" في صدر البناء " لتحرك الزّمن في الفعل الماضي لتمده حتى تبلغ به أوّل الزّمن في الفعل الذي يليه "[2]، ويبين محمد أبو موسى بعد هذا الشّرح الأسلوبيّ لوجود الفاء في البناء بشكل عام " أنّها للتعقيب بلا مهلة، أو للتعقيب، والاتصال بالأول"[3]، أما الجانب الثاني : مجيء الفعل "جعلناه" مرتين : مرة مع الزرع، ومرة مع الماء، وهو بمعنى "التّصيير والتَّحول"[4]، ففي المرة الأولى : اتصل بالفعل "اللام" " لجعلناه حطاما"، ولم تتصل به في المرة الثَّانية؛ لأنَّ الفعل في السّياق الأوّل يتسلط على تصور الجهد البشريّ في الحرث، فجيء باللام للتّوكيد، وأدخلت على الجواب لمناسبتها جهد الناس وكدهم من جانب، وتتناسب والإيقاع الصّوتي الذي فرضه البناء التّحويلي .

بينما كان الحديث في المرة الثَّانية عن إنزال الماء من المُزن، والنّاس ليس لهم جهد مبذول في ذلك، فلا هم يسوقون السَّحاب، ولا هم ينزلون منه الماء، وإنَّما يتم بأمره، ولذلك حذفت اللاّم من جواب الشّرط، فالجهد البشري في هذا السِّياق

---

[1] ــ سورة الواقعة : الآية 63 ــ 69 .

[2] ــ محمد موسى دلالات التراكيب : ص :344 .

[3] ــ المرجع السابق : ص : 344 .

[4] ــ الخالدي، صلاح عبد الفتاح : إعجاز القرآن البياني : ص 195 .

معدوم، فانعدم معه ذكر اللامّ في السّياق النَّصي [1]،وفي هذا يقول الزّمخشري : " إنَّ هذه اللاّم " لجعلناه حطاما" مقيدة للتّوكيد لا محالة، فأدخلت في آية المطعوم دون المشروب، للدّلالة على أنَّ أمر المطعوم مقدَّم على أمر المشروب، وأنَّ الوعيد بفقده أشد وأصعب؛ لأنَّ المشروب يحتاج إليه تبعا للمطعوم "[2]. وترى الدراسة أنَّ الخسارة في جعل الزرع حطاما أكثر من الخسارة في جعل الماء أجاجا، وحزن الناس على هلاك الزرع أبلغ من حزنهم عل ى جعل الماء أجاجا، لذلك كان فقد الزّرع، والثّمر أشد، وأصعب من فقد الماء، فأكّد باللام في الدّال الأوّل ، وأسقط السّياق اللام من الدّال الثّاني.

ويأتي منه استحضار صورة المُسْتَفهَم عَنْهُ في ذهن المُتَلقي، ليحكم عليه، وهو حاضر فيه، ليساعده على إدراك قيمة الحكم الّذي يحكم به عليه، ويمثله قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى * أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾[3].

البناء ⟵ أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي:

رأيتم اللات والعزى ليفيد معنى الإخبار والرؤيا. وهذا يساوي:

امتداد سياقي لقد رأى + عنصر استفهام + فعل وفاعل + مفعول به

فبنية الاستفهام تتحرك ع لى المستوى السَّطحي في بُؤرة " الرّؤيا المطلقة"[4]، وهي فَرْع من الدّلالة البصرية، والعلمية، وكلتاهما لها مدخل في التَّصور الدّلالي، والمتجه إلى حقارة الأصنام، فالرؤيا البصريّة تعطي الناظر إليها ـ الأصنام ـ أنّها كتل صماء لا تضر، ولا تنفع، ومن هذا تنبع دلالة الحقارة لهذه الأصنام، أمَّا الرُّؤيا العلميِّة فإنَّها تتفشى من إِعمال الفكر في واقعها بعقد مقارنة بين الضَّرر، والنَّفع الَّذي تقدمه هذه الأصنام، فتبين أنَّها والعدم سواء لا تنفع ولا تضر[5].

ونلمس في البنية الاستفهاميّة أسلوب المقارنة غير المباشر بين عظمة الله المطلقة في كلِّ شيء، وتكريمه رسول الله، وبين حقارة أصنامهم، فَحرَّك البناءُ أذهانهم حولها لتتضحَ

---

[1] ـ ينظر: فاضل السامرائي: التعبير القرآني: ص: 130 ـ 131.

[2] ـ الزمخشري: الكشاف: ج4/ 455.

[3] ـ سورة النجم: الآية 18 ـ 22.

[4] ـ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج27/ 108.

[5] ـ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام:ج4/178 ـ 180.

لهم تلك الفُروق الهائلة، وبالمقارنة يتجه المعنى إلى "التَّهكم والتَّقرير"[1]، التَّهكم من سفاهة عقول المشركين، وإقرار أن هذه الأصنام هي والعدم سواء.

ويرد هذا البناء بمصاحبة الامتداد الصّياغي الّذي يسبق البناء في الآية الواحدة، فيكون فيه المتلقي في بؤرة الحدث المستفهم عنه، ليقرع السّياق النّصي المتلقي بالحجج المقرونة بالمحاورة العقلية، فيترك الأمر له بالإجابة، فيقول تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[2].

امتداد صياغي ← فعل أمر ← بناء الاستفهام + قرائن البناء

↓ ↓ ↓ ↓

وَلَئِن سَأَلْتَهُم ← قُلْ ← أَفَرَأَيْتُم + مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ....

فالصّياغة المكانيّة الّتي سبقت البناء عملت بشكل مباشر على تهيئة المجال للمتكلم بالحديث، وطرح الأسئلة من خلال فعل الأمر "قلْ"، فالفعل شكّل هيمنة على البناء بالتّصدر، ومناسبته للهمزة، وبأهمية المقول، والاعتناء بتبليغه فور تلقيه، والمواجهة بها.

أما الفاء المتصلة بالفعل "أفرأيتم"، فهي من المعطيات الأسلوبيّة لتشكل في بؤرتها المكانية تفريع الاستفهام الإنكاري على جوابهم تفريعا يفيد محاجتهم على لازم اعترافهم بأن الله تعالى هو الخالق، وهذا تفريع إلزام على الإقرار، والنتيجة على الدليل، فعند إقرارهم بأنَّه خالق السماوات والأرض، يلزمهم أن يقرّوا بأنَّه المتصرف فيها[3]. وبهذا الإقرار يتولد لديهم تصوّر شامل يرشدهم إلى حقارة الأصنام التي يعبدونها، ويعرض عليهم الأدلة العقلية، والبصريّة، والعمليّة بعدم نفع الآلهة التي يعبدونها من دون الله تعالى[4]، فالعمق البنائيّ بهذا التّصوّر يتجه إلى تحقيق معنى "الإنكار"[5].

وثمة شكل آخر لهذا البناء يتمركز في دلالة المفرد، ليضع المتلقي في حالة حضور كامل، حضوره يمثل الشّاهد على قصة، وحكاية المستفهم عنه، كونه يمثل

---

[1] ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج27/ 108.

[2] ــ سورة الزمر: الآية: 38.

[3] ــ ينظر: الزمخشري: الكشاف: ج4/ 125.

[4] ــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج3/ 438 ــ 441.

[5] ــ سيد قطب: في ظلال القرآن: ج5/ 3054.

الضّدية، والكفر، والعناد، يقــول تعالى :﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَـيَنَّ مَـالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾[1] ويظهر البناء من خلال التّجريـد التّالي :

البناء الاستفهامي ← أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ←

البناء الاستفهاميّ بناء تحويليّ جرى التّحويل فيه بالزّيادة والتّرتيـب، ليفيـد معنـى الإخبار، والإخبار للجميع، ويرجح صاحب الكشاف أن يكـون للنبـي عليـه الـسلام [2]. فالصّياغة الأسلوبيّة تبسط للمتلقي أفق التّوقع للحدث من المشاهدة البَصر ية، فهي طريـق الإحاطة بالحدث، وفيها يقول ابن عاشور :" المُشاهدة من أقوى طرق العلم "[3]. والمشاهدة اقترن وجودها الصّياغي، والمكانيّ بحرف " الفاء " للتعقيب، لتبين للمتلقي، أو المخاطـب خبر قصة المعاند، وتتبع هذه القصة، شاركها في ذلك همزة الاسـتفهام، فاجتماعهمـا المكانيّ في السِّياق النَّصي فجّر حالة من الإثارة، والتَّطلع لدى المتلقي، لمعرفة المـستفهم عنه، واستحضار صورته في الأذهان ليحكم عليه، وهو ماثل فيها، فيتمكن المعنـى فـي النفس كلَّ تَمكن[4]. وهذا التَّمكن للمعنى في ذهن المتلقي يجعله " يتعجب "[5] من أمرهم.

ويأتي منه ما يبن أنَّ الهدى والشَّهوات الدَّنيئة، والملذات الحقيرة قد اسـتحالت إلـى صورة صنم يسجد بين يديه، ويركع له، وهذا المنحى الدلالي من أحـط أنـواع الكفـر وأغربها، ومنه قوله تعالى :﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[6].

البناء ← أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ ← بناء تحويلي يساوي الشكل التجريد التالي :

عنصر استفهام + حرف عطف + فعل ماضي وفاعل + قرائن البناء

---

[1] ــ سورة مريم : الآية: 77 ــ 78.

[2] ــ ينظر : الزمخشري : الكشاف : ج3/ 37 ــ 38.

[3] ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج16/ 76.

[4] ــ ينظر : المطعني التفسير البلاغي للاستفهام :ج2/ 288 ــ 292.. وينظر سيد قطب : في ظلال القـرآن : ج4/ 2319 ــ 2320.

[5] ــ أبو السعود، محمد بن محمد العمادي (951هـ): **تفسير أبي السعود ــ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القـرآن الكريم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بيروت لبنان، ط4، 1994. ج5/ 279.

[6] ــ سورة الجاثية : الآية: 23.

فالمستوى السَّطحي للبناء، يكشف اللِّثام عن وجه من وجوه الكفر، والعناد، وجهٌ بشع تجسّم فيه الكفر، والظَّلال حتى صار صاحبه يمثل الضّدية في نـاموس الكـون، فالإلـه المعبود هو الهوى، والشَّهوات الخسيسة، والقائد المطاع فيها الضَّلال، والَّسمع، والقلـب مطموسان، والبصر عليه غطـاء سَـميك مُحكـم الإحاطـة، وهـذا مـا أكـد معنـى التَّعجب، فالمصاحبات السِّياقية ممثلة في القرائن " فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ "عمقت المعنـى الدّلالي، فاستخدمت لذلك دلا لة الفعل المضارع " يهدي" لتنفي الهداية عن صـاحب هـذه الأخلاق في كلّ زمان، ومكان[1].

وممّا يلفت النَّظر في أبنية الجمع، والمفرد مع همزة الاستفهام، وخاصة مـع أفعـال الرؤيا " أفرأيتم / أفرأيتمجّيء الاسم الموصول معها، وفي متعلقاتها السِّياقيّة والأسلوبيّة ليدلنا في المستوى العميق للبناء على دلالة التَّعجب الّتي تنشرها همزة الاستفهام مع هـذه الأفعال هذا من جانب . والجانب الثّاني مجيء حرف العطف " الفاء " مع السِّياق ليعطـى النصَّ بُعدا، وعمقا يجعل المتلقي في حالة انتباه، وتركيز، ويعطي كذلك السِّياق النَّـصي تماسكا تتحرك فيه الأبنية، والقرائن بحرية، فينظر المتلقي إلى مفاصل النَّص فيجدها كتلة واحدة تساهم في تعميق الدلالات، وترسيخها على المستويين السطحي والعميق.

ومنه يأتي، ولكن من خارج مجموعة أفعال الرّؤيا، ليقدم البناء دلالـة تقابليـة بـين حالتين يعيشها الفرد ف ي واقعه، فيترك السِّياق مساحة نصيّة كافية للتفكـر فـي الحـالتين المتقابلتين، فيقول تعالى ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِـنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّـهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[2].

تتشكل الدِّلالة المَعنويَّة للبناء من ثلاثة أبنية أسلوبيّة من أصل واحـد يمثلهـا الـشّكل التَّجريديّ التّالي:

الدال الأول: ← أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ.......

الدال الثاني: ← أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ......

---

[1] ــ ينظر : ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج5/ 374 ــ 376.

[2] ــ سورة الأعراف: الآية: 97 ــ 98.

الدال الثالث : ⟵ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ .....

فالتَّجريد الشَّكلي للبناء يعمق دلالة عدم الأمن لا تأمنوا عذاب الله ..."، فـ" الهمزة " في الأبنية المكررة للاستفهام، و " الفاء " للعطف مع ترتيب الحدث الذِّكري، الَّذي يبعث دلالة التَّعجب من حالهم ؛[1] فقد قيَّد البناء على المستوى السطحي في الدوال الثَّلاثة التَّركيب النَّصيّ، لتتجه سلطته إلى الوقت الزَّماني الّذي يأتي فيه البأس " البَيات / والضُّحى"، من بين سائر الأوقات الزَّمانية، فهما من أكثر أوقات الغفلة عند سائر البشر، فتحركت بنية التَّعجب بهذه السلطة في نطاق الوظيفة الانفعالية، لتعبّر بمساحة سياقيّة، ومكانيّة كبيرة عن موقف المتكلم اتجاه هذا السلوك.

أمّا الشكّل الثّاني لهذا البناء ــ الهمزة مع حرف العطف، والفعل الماضي المثبت ــ فيأتي من خلال اقتران الهمزة بحرف العطف " الواو"، وقد ورد مرتين في سورة الأعراف من بناء واحد " أوعجبتم "، فينشر البناء حالة انفعالية تسيطر على مفردات النَّص، فتضع المتلقي في حالة شكٍ، ورَيبة، فيقول تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[2].

البناء ⟵ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ ⟵ بناء تحويليّ أصله التَّوليديّ:

عجبتم، ليفيد معنى الإنكار، والتَّهديد، والتّوبيخ من خلال السياق، وهذا يساوي البناء التَّجريدي التَّالي :

عنصر استفهام"الهمزة + حرف العطف " الواو" + فعل ماضي مثبت + فاعل + قرائن البناء

↓

ربط سياقي يخدم البناء

فالتَّحويل البنائي من هذا المستوى يشير إلى أنَّ أصل البناء يتكوّن من الهمزة، والفعل الماضي " أعجبتم"، فدخل عليه حرف العطف " الواو "، وفَصَل ما بين الهمزة والفعل ليعمق كشف الخطأ في شبهتهم، مستدلين ــ المشركين ــ بأنّه بَشَرٌ مثلهم، فقالوا :"أوعجبتم" [3]، وحقيقة العُجب الدّلالية أنّه انفعال نفسي يحصل عند إدراك

---

[1] ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج2 391 ــ 394 . وينظر : الطباطبائي، محمد حسين : **الميزان في تفسير القرآن**، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط1،1997 ص : 205 ــ 207 .

[2] ــ سورة الأعراف : الآية 67 ــ 69 .

[3] ــ تفسير أبي السعود : ج3 / 236 .

شيء غير مألوف خارج عن نطاق الواقع، فالمتلقي انبهر بالذِّكر، وحامله، فلم يسعه التَّصديق فلجأ إلى العناد، والتَّكذيب [1] أمَّا المُستَفهم عنه فهو من القرائن اللاّزمة للمساحة الصِّياغية، والدِّلالية لبناء الاستفهام، وقد تشكّل من قوله تعالى: " أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ "، فأسند مجيء الذِّكر إلى " ربِّكم ليحقق منه غايتين أسلوبيتين: الأولى: ليكوّن منه مجاز عقليّ علاقته المفعوليّة، والتَّقدير " أن أتاكم ربُّكم ذكرا "، فالمجاز العقلي يشير إلى تدفق الذِّكر، ووَفرته، وسرعة حصوله، لنشعر حيَاله أنَّه أتى بنفسه لإنذارهم، وهدايتهم. والغاية الثَّانية: يُحَقق، ويَكشف حالة المتكلم النَّفسيَّة، فالمتكلم يتودد ويتلطف في الخِطاب ليَستَميل قلوب المنكرين، ويُرغبهم فيه، ويقيم الحجَّة عليهم إذا أعرضوا،فالمقام السِّياقي للقرائن مقام تَفخيم،وتعظيم لله عزَّ وجل، وتَعجب من حال المنكرين [2].

أما الشَّكل الثَّالث لهذا البناء فيأتي من خلال اقتران الهمزة بحرف العطف " أم "، والفعل الماضي الَّذي يحمل صيغة المفرد، والجمع، فيقدم بنية استفهامية تنتقل من غرض إلى غرض آخر، وتعطي المنشىء مساحة صياغية كافية ليعبّر عمّا يريد داخل النَّص، وضمن حدوديَّة المعنى الدِّلالي للتَّركيب، فمن دلالة الجمع يأتي قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [3].

البناء ← أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ بناء تحويلي أصله التوليدي:

اتخذوا من دون الله آلهة، ليفيد معنى الإنكار، وهذا يساوي:

عنصر استفهام "الهمزة" + حرف عطف "أم" + فعل وفاعل + قرائن البناء

تنقل دلالي للبناء داخل السياق ← تلازم دلالي للبناء من خلال القرائن

فالاستفهام يشير إلى تصدر الهمزة، و " أمْ "البناء، فيقول الزّمخشريّ: " هذه " أم " المنقطعة الكائنة بمعنى بل، والهمزة قد آذنت بالإضراب عمّا قبلها، والإنكار لما

---

[1] ـــ ينظر: تفسير أبي السعود: ج3/ 236.

[2] ـــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام :ج1/ 382. وينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج8/ 150 ـــ 151.

[3] ـــ سورة الأنبياء: الآية: 19 ـــ 22.

بعدها، والمُنْكَر هو اتخاذهم آلهة من الأرض، موتى، فهذا أعظم المنكرات، بـأن ينـشر الموتى بعض الموات"[4].

ويسير على هذا النَّهج أبو السّعود، فيقول : الاستفهام حكاية لجناية أخرى من جنايات المشركين بطريق الإضراب، والانتقال من فن إلى فن آخر مـن التّـوبيخ .... ومعنـى الهمزة في " أم المنقطعة إنكارُ الوقوع لا إنكار الواقع "[1]. ويقول المطعني: " أبو السعود يقصد بإنكار الواقع أنَّهم لم يتخذوا آلهة من الأرض، وهذا غير مسلَّم بِهِ؛ لأنَّ المـشركين اتخذوا تلك الآلهة فعلا، فالبناء يشير إلى عكس ما ذهب إليه أبـو الـسُّعود مـن حيـث التَّخريج، فهو ينكر الواقع لا إنكار الوقوع "[2].

ثم جاء الألوسيّ وردما قاله أبو السّعود بيد أنَّه التمس حيلة بلاغية تُسوغ القول " بأنَّ الاستفهام لإنكار الوقوع، والإنكار مُسلط على لفظ " هم ينشرون "، أي على ادعاء أنَّ تلك الآلهة ستخرج الموتى من قبورهم يوم البعث "[3]. وترى الدِّراسة أنّ الأئمة الثَّلاثة تناسوا معنى التَّوبيخ، والتَّسفيه الَّذي يتفرع من الإنكار، وهو إنكار مُسلط على الواقـع مـع مـا يستلزمه من الصِّفات الزائدة بحسب المقام الدِّلالي؛ لأنَّ دلائل الذُّقول مع القول، تشهد بأنَّ الله عزَّ وجل واحد لا شريك له، ومن يدعي غير ذلك، يكفر بوجـود الله، أو يجعـل لـه شريكا، فهذا المعنى يسفه من يدعي آلهة مع الله . وينتشر في البنـاء الـصِّياغي معنـى الانتقال بين البرهان العقلي، والبرهان النَّقلي في عملية إبطال عقيـدة المـشركين، فقـدم السِّياق النَّصيّ البرهان العقلي على النَّقلي؛ لأنَّ العقل أعمّ مـن النقـل ، وأشـمل إلزامـا للمؤمنين في النقل في حياتهم الدُّنيوية، ونلمس معنى الانتقال بين النقل العقليّ ، والنقليّ من جانب فعل الأمر " قلْ " للإعلام بأهمية ما يرد بعده، وأنَّه رسالة خاصة يجب إبلاغها فور تلقيها لمن نزلت تلك الرِّسالة " هذا ذكر من معي، وذكر من قبلي"، فالرِّسالة إشارة إلـى دلائل التَّوحيد الَّتي جاء بها الرُّسل على مدى التَّاريخ النَّبويّ[4].

---

[4] ــ الزمخشري : الكشاف : ج3/ 106 .

[1] ــ تفسير أبي السعود : ج6/61 .

[2] ــ المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج2/ 349 .

[3] ــ الألوسي،شهاب الدين محمود الألوسي : **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق : محمود شكري الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط1، د ت ج17/ 30 ــ 31 .

[4] ــ ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج17/ 34 ــ 35 .

أمّا دلالة المفرد في هذا المستوى البنائي للاستفهام فإنَّها تتحرك في الصِّياغة اللَّفظيّة والمعنويَّة على المستويين السطحي والعميق، فتترك المجال للمتلقي بالتأمل ، وإعمال العقل بكلّ بنية معنوية يطرحها المنشىء.

ب) بنية الهمزة مع فعل المستقبل ــ المضارع ــ المُثَبت:

بنية هذا المستوى بنية ارتداديّة ما بين الماضي، والحاضر، والمستقبل، حيث يقدّم لنا سياقا بدلالات مختلفة يفرضها النّص، فالحاضر البسيط، صيغته " يفعل "، وحدثه قائم زمن المتكلم، أمّا الحاضر المستمر، فدلالة حدثه قائمة في زمن المتكلم، وبعده، وبهذا تتعدد دلالات الفعل المضارع مع بنية همزة الاستفهام، وغيرها من الأبنية التَّركيبية في الجملة العربيّة. وقد ورد هذا البناء في السّور المكيّة في خمس وسبعين موضعا، وجاء تركيبه الدّلاليّ في اتّجاهين أسلوبيين : الأوّل: بنية الهمزة مع الفعل دُون فاصل تركيبيّ. الثَّاني: بنية الهمزة مع الفعل بوجود فاصل تركيبيّ أسلوبيّ....

أولا: بنية الهمزة المتّصلة بالفعل المضارع دون فاصل تركيبيّ:

ويتشكّل هذا التَّركيب على نمطين أسلوبيين : الأوّل : الهمزة ودلالة الفعل المفردة، الثَّاني:الهمزة ودلالة الجمع مع الفعل المضارع . فالشّكل الأوّل يمثلة البناء التَّجريدي التَّالي:

همزة الاستفهام + فعل مضارع يحمل دلالة المفرد + قرائن الاستفهام

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾[1].

البناء ← أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ← بناء تحويلي أصله التوليدي:

حسب الإنسان ← ليفيد معنى الإنكار والنفي. وهذا يساوي البناء التَّجريدي التَّالي:

عنصر استفهام + فعل وفاعل + قرائن الاستفهام " جملة مصدرية "

↓

تلازم دلالي يؤكد معنى الإنكار والنَّفي...

فالتَّجريد البنائي للأسلوب على مستوى السَّطح التَّركيبي يحث على تجنيد كلِّ العقول لمناصرة عقيدة البعث، ليؤمن بها من أراد لنفسه سعادتي الدّنيا والآخرة، وإقامة الحجة من

---

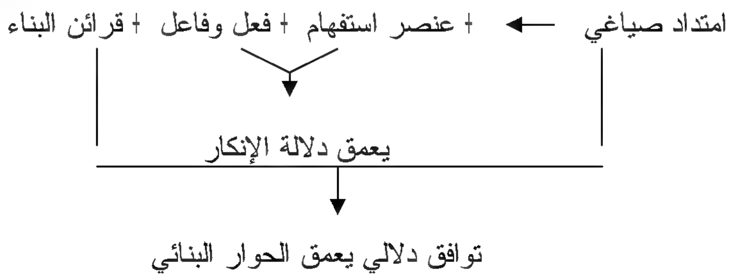
(1) ــ سورة القيامة: 36 ــ 39.

الله على من كذَب وأعرض، والمستوى السطحيّ يُعمق دلالة البنية الاستفهاميَّة، ويجعلها تتمركز في الفعل المضارع " يَحسب " ليعمَّ الإنكار في كلِّ الأوقات متى، وكيف وقع ذلك الحسبان[2]، والبناء النَّصيّ لِلأسلوب آثر لفظ " الحسبان" على الظَّن لخصوصية المعنى، فالحُسبان يَحمل معنى الظّن، ولكنَّه يزيد على مجرد الظَّن الاعتداد بالمعنى الّذي وقع عليه الحُسبان، أيّ تَعليق رَجاء، وأَمَل عليه لجلب نفع، أو دفع ضرٍّ، أو بعبارة أجمع أنَّ الحسبان يدْخِل الشيء الذي وقع عليه الظن، في حساب الظّان الحاسب، ويجري على مقتضاه سلوكه في الحياة إيجابا، أو سلبا، أمَّا الظَّن فقد يكون مجرد خاطرة لا صلة له بحسابات الإنسان العمليّة، يقول سيد قطب : " هي إحدى اللّمسات التَّوجيهية للقلب البشريّ كي يتلفت، ويستحضر الرَّوابط، والصِّلات، والأهداف، والغايات، والعلل، والأسباب الَّتي تربط، وجوده بالوجود كلّه، وبالإرادة المدبِّرة للوجود كلِّه "[1]. وبهذا السِّياق البنائيّ الأسلوبيّ يمسك الفعل المضارع بمفاصل النّص، والبناء، ويعمق دلالة الإنكار .

ويأتي منه ما يحمل دلالة التَّعجب المشوب بالإنكار، أو تعجب متفرع عن الإنكار، لينشر الدَّهشة في ذهن المتلقي، ويضعه في حالة ذهول من الحدث، فيقول تعالى: ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾[2].

البناء ← .... أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ← بناء تحويلي أصله التوليدي :

تلد ← ليفيد معنى " التَّعجب، والتعجيب، والإنكار ". وهذا يساوي البناء التجريدي التالّي :



فالبناء التَّجريدي يبين أنَّ الامتداد الصّياغي الّذي سبق البناء "قالت يا ويلتي " قد فصل الجملة عمّا قَبلها، للاستئناف البيانيّ، فيولد نصّيا على مستوى الدّلالة

---

[2] ــ ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج29/ 338 .

[1] ــ سيد قطب : في ظلال القرآن : ج6/ 3774 .

[2] ــ سورة هود : الآية : 72 ــ 73 .

معنى " التَّفجع، والتَّهويل والعُجب "[3]، ويجعل المخاطب، والمتلقي في حالة ذهول، وعدم تصديق، في لحظة سماع الخبر، فيجيب السَّائل على سؤاله لحظة سماع الخبر، دُون تريث "أألد وأنا عجوز ..."، فالمتلقي يضع إجابته المُتضمنة معنى الدَّهشة في سببين مقنعين بعرف البشر العجز، وكبر السن، وبهذه الإجابة نلمس الحضور الذِّهنيّ الكامل في لحظة المحاورة مع الملائكة، فالمتلقي لم يغبْ عنه واقع العجز، والكبر، بل جعله الأداة للإقناع، فالزَّوجين سلَّما أمرهم إلى الله في هذا الجانب . والعرب تستخدم في سياق دلالة التكاثر لفظ " إمرأة " بدل " زوجة "، و "بعل" بدل " زوج"، للدلالة على كلِّ زوجين لا ينجبان، أو أصاب حياتهما الزّوجيّة خلل ما، وفي هذا السّياق ورد لفظ " إمرأة " "وامرأته قائمة"، و " بعل " " وهذا بعلي شيخا"[1].

أمّا البناء الثَّاني " أتعجبين"، والَّذي امتدَّ إليه سياق البناء الأوَّل " أألد" جواب من الملائكة، يحمل دلالة الإنكار لتعجّبها باستبعاد ما تقوله الملائكة من أمر البشرى، ولهذا تسلط السِّياق البنائيّ على الا فعل المضارع " أتعجبين" لحدوث التَّعجب في زمن المتكلم، واستمراره بعده، وفجأة، ودون أيّ مقدمات يقطع السِّياق حالة الإنكار والتَّعجب، ويرشد المتلقي، ويبصّره بأنَّ أمر الله، وبشراه لا عجب منها [2]، يقول تعالى: ﴿رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾، فالفعل المضارع، والهمزة في الدَّالين عمقّا مركزيَّة الإنكار، وجعلاه يسير في اتجاه حواريّ، يشع منه عجز البشر أمام أمر الله في كلِّ الأوقات الماضيِّة، والحاضرة، والآتية.

ومنه ما يشتمل على ترديد أفعال تسبق بناء الاستفهام، لتعمق المعنى الدلالي، وتجعل المتلقي، أو المخاطب في حالة استنكار لما يطلب منه من فعل، والاستنكار أكده الاختلاف في تحولات الفعل الزَّمانية، الَّتي يفرضها السِّياق النّصيّ في التَّركيب، فيقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً﴾[3].

البناء ← ....أأسجد ← بناء تحويلي أصله التوليد:

أسجد ← ليفيد معنى الاستبعاد مع الانكار. وهذا يساوي:

---

[3] ــ المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام :ج4/111. وينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج11/ 297.

[1] ــ المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام :ج4/112. و ينظر: تفسير أبي السعود: ج4/ 225 ــ 226

[2] ــ المصدر السابق: ج4/ 111ــ 112. وينظر: تفسير أبي السعود: ج4/226.

[3] ــ سورة الإسراء: الآية: 61 ــ 62.

امتداد صياغي ← + عنصر استفهام + فعل وفاعل + قرائن الاستفهام " جملة صلة الموصول"

يعمق دلالة الاستبعاد، والإنكار.

فالتَّرديد الّذي سيطر على بعض مفردات النّص، يعمق دلالة السجود، ففعل الأمر "اسجدوا " يُضلّل جميع الخلائق بسلطة الأمر وقت خلق آدم، فكان التَّنفيذ وقت الأمر، مِمّا جعل النَّص في المستوى التَّركيبيّ أنْ يأتي بالفعل الماضي" سَجدوا "، ليدل على حدوث أمر السُّجود من الملائكة دون إبليس الَّذي أخذ يستفهم " أأسجد "، فالتَّركيب آثر الحاضر المستمر مع الهمزة، لبيان عدم سجوده حتى قيام السَّاعة، لدوام المعصية من عدم السُّجود، ونلاحظ أن ترديد الأفعال مع المصاحبات النّصية قد خلق جوًّا من الرَّتابة في النّص، من خلال تناوب الأزمان الثلاثة على البناء، إلى جانب الفائدة الموسيقيِّة المتشكّلة بسبب التَّرديد الزَّمانيّ، فيضع السِّياق الأسلوبيّ المتلقي على مرّ العصور، والأزمان في جوٍّ مماثل للجوِّ الَّذي عاشه النَّص القرآنيّ للقصة.

وبعد: نلمس في هذا البناء ــ المضارع ذو دلالة المفرد مع الهمزة دون فاصل ــ جانبين أسلوبيين، الأوّل: أنَّ المتكلم يملك سلطة التَّعبير بحريَّة عمّا يريد، فأعطاه البناء مساحة صياغيِّة في النّص تعمل على بلورة رأيه اتجاه الحدث، بمساندة المرجعيات النَّصيةالمصاحبة له، والثَّاني : البناء العميق في هذا المستوى يناقش قضايا تخص أخصَّ قضايا الوحدانيِّة. فالتَّعبير المفرد ولّد حالة من الانفعال لدى المتلقي، ولكنَّ هذا الانفعال لا ينسحب على المتلقي المفرد، وإنِّما يريد الموعظة في كلِّ الأوقات، ولجميع البشر.

أما الشَكل الأسلوبيّ الثَّاني لمستوى هذا البناء، فيتمركز في الفعل المضارع الذي يحمل دلالة الجمع، ليعبّر من خلالها عن قضايا تتصل بالخالق أوّلا، والخلق على جميع حالاتهم ثانيا، ويمثله البناء التّجريديّ التَّالي:

عنصر استفهام" الهمزة" + فعل مضارع، وفاعل يحمل دلالة الجمع + قرائن البناء....

البناء الاستفهامي

ويتشكّل المستوى البنائيّ لهذا الشّكل من جانبين : الأوّل أنْ يكون المتكلم جمعا والمخاطب مفردا، ليعمق في شبكة أبنيته الأسلوبيّة دلالة الحاضر الرّاهن، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُون﴾[1] .

البناء ⟵ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي :
⟵ نؤمن لك ⟵ ليفيد معنى الإنكار والاستبعاد .

فالتَّحويل في البناء التَّوليديّ يتحرك على مستوى السَّطح في بؤرة ردِّ القوم المنكرين على نوح عليه السَّلام، وأنَّهم لن يؤمنوا مادام أتباعه من أراذل القوم، وهم من السادة[1]، ويكشف عن وقوف المترفين أمام دعوات الإصلاح في كلِّ زمان ومكان، لاغترارهم بجاههم، وسلطانهم، وأموالهم، وأولادهم على كلِّ مبدأ يعارضهم[2] .

والتّحرك السّطحي للبناء التحويليّ مكَّن البنية العميقة له من مفردات السِّياق، وجعلها تخدم المعنى الدِّلالي للبنية، فجاء بالفعل الماضي :" قالوا " ليفصل الجملة عماً قبلها، ويؤذن بأهمية القول الّذي سينطق به قوم نوح عليه السَّلام، ولهذا جاء بصيغة الجمع، ليدل أنَّ مترفي القوم زمن نوح عليه السَّلام كُثر، فتوافق صياغيا مع القول إجابتهم بأسلوب الاستفهام بصيغة المضارع " أنؤمن "، دون غيره من الأفعال لإيقاع الإنكار على الحال والاستقبال، أي لا يكون منّا إيمان لك ما دام أتباعك، ومخالطوك هم أراذل القوم، ولهذا عُدِّى الفعل" أنؤمن " بـ" اللامّ " في لفظ " لك" لتضمّين الفعل" نؤمن " معنى الانقياد لنوح عليه السَّلام، ولا يكتفي السِّياق بهذا بل يصور عمق المبالغة في إنكار الإيمان فجاء بلفظ" اتَّبعك" . ودلالة الاتباع تبين علنيّة الرّسالة بالنّسبة للقوم المنكرين، من خلال رؤيتهم الأتباع يمشون بملازمة الدَّعوة دون تلكأ، أو خوف أمام ناظرهم . فالمصاحبات النَّصيِّة القبلية، والبعدية للبناء مكنت معنى الإنكار، والاستبعاد في السِّياق[3] .

أما الشّكل الأسلوبيّ الثَّاني للفعل المضارع من هذا المستوى، فإنَّه يأتي عكس البناء الأول، فيكون المتكلم في السِّياق مفردا، والمخاطب أو المتلقي جمعا، ليشكّل على المستوى

---

[1] ــ سورة الشعراء : الآية : 110 ــ 112 .

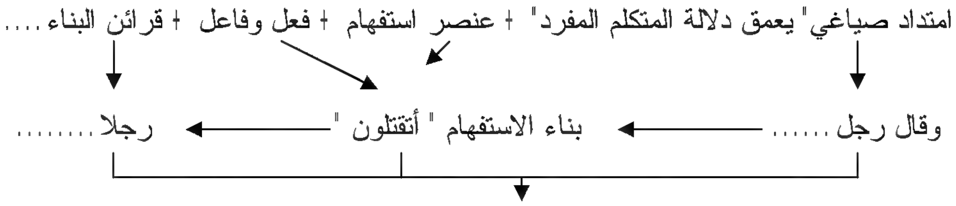
[1] ــ ينظر : الزمخشري : الكشاف : ج3/ 314 ــ 315 .

[2] ــ ينظر : سيد قطب : في ظلال القرآن : ج5/ 2707 ــ 2608 .

[3] ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج3/107 . والزمخشري : الكشاف : ج3/ 314 ــ 315 .

الصِّياغيّ للبنالالة الحاضر البسيط، بمعنى أنَّ الحدث قائم في زمن المتكلم "[4]، ومنه قوله تعالى ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[5].

البناء ← أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ ← بناء تحويلي أصله التوليدي :
← تقتلون رجلا ← ليفيد معنى الإنكار، والتحذير والاستقباح. وهذا يساوي البناء التجريدي التالي :



توافق دلالي يعمق صيغة المتكلم المفرد للحدث

فالاستفهام في البنية التَّجريدية استخدم الكثير من المصاحبات النَّصيِّة، الَّتي تعمق دلالة الإنكار، والتَّحذير، فأوَّلها : لفظ " رجل "، حيث ورد بحالة التَّنكير ليعظم دلالة الرَّجل المؤمن، وقدَّم النَّص لفظ " من آل فرعون " على لفظ "يكتم إيمانه"، لبيان جنس هذا الرَّجل، حتى لا يلتبس المعنى، ويتبادر إلى الذِّهن أنَّ الرَّجل يكتم إيمانه من آل فرعون، فالتَّقديم احتراس لطيف لدفع ما يتوهم أنّه هو المراد، فالمصاحبات النَّصيِّة بهذا الآليات الأسلوبيِّة من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، هيأت المجال لتعميق دلالة الاستنكار، واستقباح جريمة القتل لهذا الرجل المؤمن، فيقول ابن عاشور : " خطاب أتقتلون موجه إلى آل فرعون، فهو من يأمر بالقتل"[1].

ثانيا : بنية الهمزة الّتي فُصِل بينها، وبين الفِعل بحرف العَطف :

وفي هذا القسم نجد محمد حماده يذكر حرف العطف فيقول : " إنَّ حرف العطف " الواو" يخرج إلى مطلق الجمع، أمَّا باقي الحروف فإنَّها تُفيد مع الإشراك معاني أخرى فـ" الفاء" توجب التَّرتيب من غير تراخ، و " ثمّ" توجبه مع تراخ، و " أو" تردد الفعل بين

[4] ــ المنصوري، علي جابر : **الدلالة الزمنية للجملة العربية**، مطبعة الجامعة، بغداد، ط1، 1984 ص :93.
[5] ــ سورة غافر : الآية 28.

[1] ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير :ج24/ 183.

شيئين نجعله لأحدهما على الآخر، فإذا عَطفت بِواحدة فيها الجملة على الجملة ظَهرت الفائدة"[2] فحروف العطف تعطي النَّص تماسكا في البنية، والدِّلالة ، فهي من يُفصح عمَّا في نفس المتكلم، فلولاهم لاحتاج المخاطب إلى وحي يسفر عن الَّذي يريده المتكلم . فمن جانب الهمزة، وحرف الفاء العاطفة مع المضارع نجد قوله تعالى : ﴿ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾[3] .

البناء ⟵ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُون ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي :
تأتون السحر ⟵ ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يفيد الإنكار والزجر .

فالبنية السَّطحية للتّركيب الاستفهاميّ تبرز حركات التَّاريخ النبويّ، ومصارع المعاندين لله ورسوله، وزَيغ طبائعهم، وشرود بعضهم عن نداءات الحقِّ، والسَّير وراء الأوهام، وفيه يقول الزّمخشريّ : " إنَّ كلَّ من ادعى الرّسالة من البشر، وجاء بمعجزة، هو ساحر عند المعاندين، ومعجزته سحر "[1]، ويسير على هذا النّهج الدِّلالي للتّركيب أبو السُّعود، والألوسيّ، والبيضاويّ، والطّاهر بن عاشور[2] .

ومنه يأتي المتكلم بصيغة المفرد، والمخاطب بصيغة الجمع، فتكون الدّلالة العميقة متجه للمتكلم بالإيجاب بأنَّه عَبَدَ الله حق عبادته، والمخاطب الخاص بالسّلب كونه ترك عبادة الله عزَّ وجل، فيقول تعالى ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[3] .

البناء ⟵ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي :
تعبدون من دون الله ⟵ ليفيد معنى الإنكار، وهذا يساوي الشكل التجريدي التالي :
امتداد صياغي " قال " + همزة استفهام + حرف العطف + فعل وفاعل + قرائن البناء
↓
تلازم دلالي يخدم بناء الاستفهام

المستوى السطحي : قال " هو " مفرد ⟵ ⟶ أفتعبدون " أنتم " جمع

---

[2] ــ عبداللطيف، محمد حمادة : **ظواهر نحوية في الشعر الحر**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1990 . ص :118 .

[3] ــ سورة الأنبياء : الآية : 3 .

[1] ــ الزمخشري : الكشاف : ج3 / 100 .

[2] ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج2 / 341 ــ 344 . وينظر : تفسير أبي السعود : ج6 /54 . والألوسي : روح المعاني : ج17 / 8 ــ 9 . والبيضاوي، ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر السيرازي البيضاوي : أنوار التنزيل، وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، دار الجيل د ط، د ت ج2 /65 . والطاهر بن عاشور : ج17 / 10 ــ 12 .

[3] ــ سورة الأنبياء : الآية : 66 ــ 67 . [4] ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج2 / 381 ــ 383 .

فسياق القول بما لدى المـ تكلم من أمر يسيطر على السِّياق، فأتى بصيغة الماضي "قال" ليعظّم من شأن المتكلم كونه يحمـل رسـالة سـامية هادفـة، ويعمـم دلالـة المتلقـي "أفتعبدون" فيبين للمتلقي جانبين : الأول: سفاهة الّـذي يعبدونـه، فهـو لا يحـسّ، ولا يسمع، ولا يرى . والثّاني: يقوي دلالة الإنكار على عبادة هم متلبسون بها سـاعة توجيـه الخطاب إلى المنكرين، وهذه الدّلالة لا يفصح عنها إلاّ الفعل المضارع " أفتعبـدون" دون غيره، فلو جاء السِّياق بالماضي لجوَّز أنْ يكونوا عبدوها، ثم رجعوا عن عبادتها . فالنّظم الأسلوبيّ للبناء من خلال القرائن السَّا بقة، والتَّالية له يُعمق دلالة تعظيم أمر الرِّسالة الّتي نادى بها إبراهيم عليه السَّلام، فهو مَن يقهر المعاندين المُنكرين للرِّسالة، فلم يُسكِتوا لـه صوتا، ولم يقلِّصوا له ضلا ....[4]

ثانيا: بنية الهمزة مع الجملة الفعليّة المنفيّة:

ورد هذا البناء في ا لسُّور المكيّة في مائة وأربعين موضعا، ليشكّل ظـاهرة أسـلوبيّة يفرضها البناء الاستفهاميّ على التَّركيب . والنّفـي هـو الأصـل فـي أسـلوب عكـس الظّاهر، ولذلك سماه كثير من البلاغيين"نفي الشّيء بإيجابـه، أو بإثباتـه "[1]، وسـماه السّجلماسيّ إبدال السّلب، ووضعه موضع الإيجاب.... وهو نفي الشّيء بإيجابـه، فـإذا تأملته وجدت ظاهره إيجابا، وباطنه سلبا "[2]، وتعتمد بنية عكس الظّاهر، أو النّفي بـشكل خاص في إحداث أثرها الدّلالي، على عدد من الخصائص البلاغيّة، والجماليّة منها:

أوالإيجاز، وبنيته تأتي من خلال توفر فراغات نـصيّـ ة فـي النّفـي، قليلـة، أو كثيرة، متروكة بقصد للمتلقي، لكي يكون طرفا فاعلا في إتمام عملية الاتصال عن طريق القراءة المتدبّرة المنتجة للبنية العميقة . وقـد درس الـسكاكيّ شـواهد أسـلوب عكـس الظّاهر، في باب الإيجاز، منبّها بذلك إلى توافر هذه القيمة البلاغيّة فيه ، عن طريق نفـي اللاّزم، وترك المتلقي يتوصل إلى انتقاء الملزوم[3].

---

(1) ــ ينظر: القيرواني: العمدة: ج2/ 695. ابن أبي الاصبع، زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد : **بـديع القـرآن**، تحقيق: حفني شرف، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ص: 152. والسيوطي: الإتقان: ج3/ 230 ــ 231. **وشرح عقـود الجمان في علم المعاني**، والبيان، القاهرة، مكتبة الحلبي: ص : 134.

(2) السجلماسي، أبو محمد القاسم الأنصاري (ت 704هـ): **المنزع البديع في تجنيس أساليب البـديع** ، تحقيـق: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط1، 1980. ص: 299.

(3) ــ ينظر: السكاكي: مفتاح العلوم: ص: 157.

ثانيا: المبالغة: وهي سمة ملازمة للأسلوب، والنّفي جزء منه، وقد أشار إلى ذلك كثير من البلاغيين[4] وفي المبالغة قال الشَّريف المرتضي: "إنَّ للعرب فيما جرى هذا المجرى من الكلام عادة معروفة، ومذهبا مشهورا عند تصفّح كلامهم، وفُهِم عنهم، ومرادهم المبالغة في النّفي وتأكيده"[5]، وليست المبالغة في هذا الأسلوب إدعائية، أو مباشرة، وإنّما تتبع من استقراء البنية العميقة للصيّاغة، والنّظر في السِّياق الَّذي يُحِيط بالنَّص، فهي نتاج تعاون وثيق بين النَّص، والمتلقي، فالنّص ينبه المتلقي من خلال بنية مخالفة الاتجاه الدّلالي للألفاظ الأخرى في الصّياغة، أو مخالفة الحركة الذّهنية للمتلقي، أو مخالفة مقتضى السِّياق العام الّذي يحيط بالرّسالة، فالنّص والسّياق يتركا للمتلقي التّوغل في استبطان مدلولات الصِّياغة السّطحيَّة، مستعينا بالسّياق ومقتضياته، فيرتد بذهنه إلى المعنى المستكن في البنية العميقة، لتتعمق في نفسه المبالغة المقصودة من وراء هذا المعنى، وفي هذا الاتجاه يقول ابن أبي الاصبع: "والأصل المعتمد عليه في هذا الباب العلم بأنَّ العرب متى أرادت المبالغة التّامة في الشيء، قلبت الكلام فيه عن وجهه ليتنبه السّامع عندما يرد على سمعه كلام قد خولف فيه عادة أهل اللسان ..."[1].

ثالثا: تواصل المتلقي مع النص، وفيه تدخل الخصائص السّابقة الملازمة لبنية عكس الظاهر، في علاقة جدلية مع المتلقي، فهي تهدف إلى تحقيق تواصله مع النّص، وتفاعله مع معطياته، وهي نفسها تتحقق من اشتراك المتلقي في إتمام الفراغات النّصيّة؛ "لأنَّ عكس الظاهر لا يُظهر المعنى فيه للمتلقي للوهلة الأولى، ولا يتبين المقصود منه، إلاّ لمن يفكر، ويتأمل فيه ولا يكون الأسلوب قادرا على هذا العطاء المتنوع، إلاّ إذا كان في مكانة فريدة من أساليب العربيّة، وحينما يكون الأسلوب على هذه الصورة، يكون المتلقي شريكا فيه لا شركة صياغة، ولكن شركة بيان، وكشف، وبقدر ما يُبذل المتلقي من جهد

[4] ـ ينظر: القيرواني: العمدة: ج2/695. والسجلماسي: المنزع البديع: ص:229. والزركشي: البرهان في علوم القرآن: ج3/396. والسيوطي: الإتقان: ج3/231. وغيرهم.

[5] ـ الشريف المرتضي، علي بن الحسين بن موسى: **الأمالي " غرر الفوائد، ودرر القلائد**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب اللبناني، د ط، د ت. ج1/228.

[1] ـ ابن أبي الإصبع: بديع القرآن: ص 153.

يتحدد مقدار مُشاركته .،[2]ويذكر ابن الأثير أنَّ جماليات أسلوب عكس الظاهر ، تزيد بحدوث التّواصل بين أطراف عملية الاتصال الأدبيّ؛ لأنَّ هذا الأسلوب من أغرب ما توسعت فيه العربية[3].

هذا وتعتمد فنون الإيهام، والتّخييل ــ التّورية، والاستخدام، والتّوهم، والتّوجيه، وعكس الظّاهر ــ في تأثيرها الجماليّ، والفنيّ على نوع من العلاقات الذّهنية، يعرف باسم " الاستدعاء " أو " التّداعي "، وتتميز هذه العلاقة بطابع نفسيّ خاص، يدرك، ولكن لا يُحَاط بِوصفه؛ لأنَّه متّصل بأدّغال النّفس، وخفاياها، وهو المهيمن على تداعيّ المعاني البعيدة في الكنايات، وفنون الإيهام، والتّخييل....[4].

وتحليل عناصر عملية " التّداعي مبْحث ينتمي إلى التّحليل النفسيّ "[1]، فيفيد في معرفة أثر هذه الأشكال البلاغيّة في المتلقي، وانفعاله بها، ورصد مراحل الحركة الذِّهنيِّة، والنَّفسيِّة عند استقبال المتلقي لها . وبنية النّفي مع همزة الاستفهام في الجملة الفعليِّة، تُشكل نمطا أسلوبيّا بارزا، يظهر على ثلاثة أشكال من جانب حرف النّفي : الأوّل : النّفي بــ" لمْ"، والثَّاني : النَّفي بــ" لا"، والثَّالث : النفي بــ" ليس".

أولا : بنية الهمزة مع حرف النَّفي "لم" :

لقد تحدث النُّحاة، والبلاغيّون عن حرف الجزم، والنفي " لم"، فقال فيه ابن هشام : "إنَّ "لم" حرف جزم لنفي المضارع، وقلبه ماضيا "[2]، أمّا الهمزة التي تَدخل على البناء المنفي فيقول فيها المالقيّ الهْمزة اللاّحقة تصيّر الكلام تقريرا، أو توبيخا "[3]، وجاء في شرح الكافية قوله : " إذا دخلت الهمزة على النّافي فلمحض التّقرير، أي حَمل المُخاطب على أنْ يُقرَّ بأمر يعرفه، وهو في الحقيقة للإنكار، وإنكار النّفي إثبات"[4].

---

[2] زايد، أحمد محمد علي عبده **عكس الظاهر في ضوء أسلوب القرآن** ، ولغة العرب، القاهرة، دار الصحوة ، ط1، 1992 . ص :136 .

[3] ابن الأثير الجزري، ضياء الدين محمد بن محمد الشيباني **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** ، تحقيق : أحمد الحوفي، وبدوي طبانه، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط2، 1973 . ج2/ 248 .

[4] ــ ينظر : حسان، تمام : **الأصول**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1982 . ص : 343 .

[1] ــ كوين، جون : **بناء لغة الشعر** : ترجمة : أحمد درويش، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1993 ص : 151 .

[2] ــ ابن هشام : مغني اللبيب : ج1/ 277 .

[3] ــ المالقي، أحمد بن عبد النور (702هـ) **رصف المباني في شرح حروف المعاني** ، تحقيق أحمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دار العلم دمشق، ط2، 1985 . ص : 350 .

[4] ــ الاستراباذي : شرح الكافية : ج2/ 388 .

أمّا جواب ما دخل فيه حرف الاستفهام على النَّفي يَكون بكلمة " بَلــى" الّتــي تُفيــد الإضراب"[5] عن النّفي، وإثبات الحكم، ولو قلت " نَعَم " لكان تصديقا للكلام المنفي، وقــد يجيء في هذا مراعاة للمعنى، فيقول السّهيليّ : " إن أدخلت ألف الاستفهام علــى حــرف النّفي، فقلت " أليست الخمر حراما؟، فلا تقلْ في الجواب " نعم"؛ لأنّــك تكــون مــصدقا للكلام المنفي المُستَفهم عنه " بالألف" ولكن تقول : " بلى" إضرابا عــن النفــي، وإثباتــا للتّحريم، وهذا هو الأصل؛ لأنَّهم راعوا اللّفظ، وأجروا الكلام على ما كــان عليــه قبــل الاستفهام"[6].

وبنية الهمزة مع حرف النّفي " لمْ"، تقدّم دلالة سطحيّة، وعميقــة يفرضــها الــسّياق الأسلوبيّ في السّور المكيّة، ويتشكّل بناؤها من نمطين، الأوّل : الهمزة المتــصلة بحــرف النفي " لم "، والثّاني: الهمزة المنفصلة عن حرف النفي " لم " بوساطة حرف العطف.

فالنّمط الأوّل: نجد له أشكال أسلوبيّة مختلفة من حيث متعلقات البناء، والمــصاحبات النّصيّة له، فَمن هذه الأشكال أنْ يكون البناء متصدّرا بداية الآية، متعديا إلــى مفعــولين بوساطة الجملة الاسميّة الّتي تــسدُّ مــسدّهما، فيكــون المتحــدّث فــي بعــض حالاتــه مفردا، والمتلقي مفردا في السّياق جامعا في الدّلالة، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّــهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَــى أَجَــلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾[1].

البناء ← أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ← بناء تحويلي أصله التوليدي: ترى ولوج الليل والنهار ← ليفيد معنى الإنكار والتقرير. وهذا يساوي البناء التجريدي التالي:

همزة استفهام + حرف النفي" لم" + فعل مضارع متعدي وفاعل + جملة أسمية سدت مسد المفعول به.

فالسّياق البنائيّ على مستوى السّطح التّركيبيّ يُضيء مــواطن العِبْــرات، والعظــات المبثوثة في كون الله، فيلفت الأنظار إلى هذه الدّلائل مــن خــلال مــا يعتــري الليــل

[5] ــ الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (340هــ): **حروف المعاني**، تحقيق: علي توفيق الحمد، مؤســسة الرسالة، بيروت، ط1، 1984 ص: 6.

[6] ــ السهيلي: الأمالي: ص: 45.

[1] ــ سورة لقمان : الآية: 29 ــ 30.

والنَّهار، مــن أحــوال فـــي الطُــول، والقِــصر، والإتيــان والــذِهَاب [2]. فـالقرائن النَّصيِّة، والسِّياقيّة تعمل على تمحــور البنيــة العميقــة للرؤيــا، فالرؤيــا كمــا أجمــع الأئمة ــ الزمخشريّ، الألوسيّ، البيضاويّ ــ علمية في لفظ " ألم تــرَ"، وهــذا مُتنــاغم ومتسق مع إيلاج اللّيل في النّهار، و إيلاج النّهار في الليل، وعلى إحاطة علــم الله بكّــل شيء " فالهمزة دخلت على فعل منفي، فنفت ذلك النّفي، فعاد المعنى إثباتــا "[3]، ليقــرر حقيقة الولوج لليل والنَّهار، وممــا عمّــق الدّلالــة مــستوى تأسـيس الفعــل " يــولج" ومتعلقاته، فبقي الفعل ثابتا ليحرك بسلط ته الــسِّياقيّة المــصاحبات النَّــصيّة، وبحركــة المصاحبات تحرّكت أطراف التَّقابل، والتّــداخل فـــي المُــستويين الــسّطحيّ، والعميــق للبناء، فــ" يولجيشير إلى معنى الإدخال [4]. فإذا ربطناه بطرفي الليل، والنهــار، فإننــا ندرك أنَّ ثَمة تداخلا بين هذين الطّرفين، حيث يتدا خل اللّيل بالنّهار، فإذا تــداخلا تــشكَّل المستوى التَّأسيسيّ الأوّل من دلالة التّداخل الَّذي تسلط عليه البناء . أما المستوى التَّأسيسيّ الثَّاني للبناءفيتشكّل من خلال حرف الجر " في"، ليزيد الدّلالة تَجْلية وتوضيحا؛ لأنَّ سياقه التّركيبيَّ يشير إلى معنى دخو ل الطَّرف الأوّل " اللّيل " في الطّرف الثّاني "النّهار"، ويتوحد به، فلا نجد فاصلا حقيقيّا بين الطّرفين، وهذا في حدِّ ذاته دلالة عميقة على قدرة فاعــل متصرف بالأمور، وفيه كشف وإثارة إلى وضوح العلم، ورسوخه، فكأنه يُــري بـــالعين الباصرة عملية التّداخل لليل، والنّه ار، فالبناء الاستفهاميّ ولّد من قرائن البناء دلالة إنكار من لا يَرَ دلائل الوحدانيّة، ويقررُ أنَّ هذه الدَّلائل ثابتة للعيان، وفي كل الأوقات[1].

ومنه يأتي المتكلم مفردا، والمخاطب جمعا، والفعل متعديا بحرف الجرِّ، ليحقق مركزيّة دلالة التَّقرير في هذا المستوى البنائيّ، فيقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

فسياق البناء يلفت نظر الناس إلى آية من آيات الله في غيــر أنفــسهم، ليقــرر بــه المخاطبين من خلال فعل الرؤيا البصرية، ولا ينكر عليهم انتفاءها، ولهذا جــاء الــسياق

---

[2] ــ ينظر :ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج21/125 .

[3] ــ ابن عاشور :التحرير والتنوير : ج21/125 .

[4] ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج3/285 وينظر : لسان العرب : مادة " دخل " .

[1] ــ ينظر : الزمخشري : الكشاف : ج3/ 486 ــ 487 .

[2] ــ سورة النحل الآية : 79 .

النصي بلفظ " ألم يروا "، ليقلب للمتلقي دلالة الحاضر إلى الماضي، وبهذا القلب الـدِّلاليّ قرر حقيقة عدم التّفكر من قبل منكريّ الوحدانيّة لله[3].

ومما يلاحظ على أفعال الرؤيا " رأيت ــ يرى" أنَّها تأتي على أسـلوبين : الأوّل : أنْ يكون الفعل ماضيا مثبتا، وقد فصّلنا القول فيه في الجملة المثبتة . الثَّاني : أنْ يكون الفعـل للمستقبل منفيا، متعديا حينا بنفسه، وحينا بوساطة حرف الجر، ولكلٍّ تعدية من التَّعـديتين شرطا، أو علة بيانيّة يقتضيها السِّياق، فالتَّعدية المباشرة ــ تعدية الفعل بنفسه ــ مطـردة في كلِّ موضع كان متعلق فعل الرّؤيا فيه معنى لا ذاتا، ففـي سـورة الأنبيـاء، قولـه تعالى﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَـا مِـنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾[4]، نجد أن متعلق فعل الرؤيا علمـيّ عقلـيّ، "وهـو التصاق السَّماوات والأرض في بدء الخليقة "[5]، ولذلك عُدي الفعل بنفسه، ومـن حالاتـه قوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء﴾[1]، ومنه قوله تعالى :﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَاد ﴾[2].أمَّا التَّعدية غيـر المباشرة ــ تعدية الفعل بحرف الجرِّ إلى ــ مطردة أيضا في كل موضع كان متعلق فعل الرّؤية فيه ذاتا مادية محسوسة لا معنى عقليّا، ومنه قوله تعالى :﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا ﴾[3]، فمتعلق الفعل في هـذه الآية " ذاتًا" إلا كانت منزهة عن بقية الذَّوات الماديَّة المحسوسة لـذلك عُـدي الفعـل بوساطة حرف الجرِّ " إلى"، ومن حالاته قوله تعالى :﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَـادِلُونَ فِـي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُون ﴾[4] ،ومنه قول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْـرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[5].

وثمة شكل ثانٍ من مستوى النَّمط الأوّل ــ الهمزة مع حرف النّفي " لمْ " ــ يتشكَّل من الفعل اللاّزم، بعد امتداد صياغيّ يفرضه واقع النّص على البناء ليمثّل حلقة من حلقـات

---

(3) ــ ينظر : المطعني : التّفسير البلاغيّ للاستفهام :ج2 /206 .

(4) ــ سورة الأنبياء : الآية : 30 .

(5) ــ ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج:17 / 41 .

(1) ــ سورة إبراهيم : الآية : 24 .

(2) ــ سورة الفجر : الآية : 6 .

(3) ــ سورة الفرقان : الآية : 45 .

(4) ــ سورة غافر :الآية : 69 .

(5) ــ سورة إبراهيم : الآية : 28 .

الحوار ما بين أصحاب الحق، وأصحاب الكفر، فيُدْخل الحوار المتلقي في حالة اضطراب ليقررهم في نهايته بالحقيقة، فيقول تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[6].

البناء ⟵ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي :

أقول لكم ⟵ ليفيد معنى التقرير . وهذا يساوي :

امتداد صياغي" قال أوسطهم" + عنصر استفهام + فعل وفاعل " قل" + مقولة القول ...

↓

توافق دلالي يعمق معنى التقرير .

فبناء الاستفهام " ألم أقل لكم " للتّقرير بلا نزاع كما ذكر المطعنيّ، وابن عاشور[7] للتّنبيه، والتّذكير كذلك كما يفهم من كلام الزّمخشريّ[8]. فقول أوسطهم، وأعدلهم موقعا، وأصوبهم رأيا تذكير لما كان منهم، وتوبيخ لسوء فعلهم، ومسلكهم، ولهذا جاء السياق الأسلوبي "بالهمزة والنفي" مع الفعل المضارع دون غيره، ليقلب دلالة الفعل من الحاضر إلى الماضي، مذكّرا لهم، ومقررا سوء عملهم، فلجأ السِّياق النّصيّ لتحقيق هذه الدّلالة من خلال الامتداد السِّياقيّ " قال أوسطهم" الذي يسبق البناء، أما شبه الجملة " الجار والمجرور" لتشديد التّذكير، والتَّوبيخ، فتطلب ذلك من المتلقي النَّتيجة لهذا الحدث، وتحديد العمل من قبلهم، فآثر البناء لتحقيق ذلك الفعل المضارع" تسبحون" ليتوافق دلاليا مع قول التَّوبيخ، ويسير معجميا إلى استمرار هذا التَّسبيح في كلِّ الأوقات، أمَّا نَحويّا، وتركيبيّا فإنَّ السِّياق حذف مفعول " تسبحون" وهو لفظ الجلالة " الله " للإشارة إلى فضيلة التَّسبيح في نفسه، وأنَّ المُسبَّح لا يكون إلا الله سواء ذكر أم لم يذكر [1]، أما ظاهر النَّص من خلال المصاحبات النَّصيِّة لا يتجه إلى أهل الجنَّة المكذبين،وإنَّما يتجه كما تقول بنت الشّاطئ: " إلى إنذار من تصدَّوا لرسول الله بالتَّكذيب،والتَّحدي"[2].

[6] ـــ سورة القلم : الآية : 26 ـــ 29 .

[7] ـــ المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج4/ 287 . وينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج29 / 81 .

[8] ـــ الزمخشري : الكشاف : ج4 / 579 .

[1] ـــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج4/ 288 .

[2] ـــ بنت الشاطئ : التفسير البياني للقرآن الكريم : ج2/ 66 .

والشّكل الثّالث من المستوى الأوّل ــ الهمزة المتّصلة مع حرف النّفي ــ يــأتي مــع الفعل المبني للمجهول، ويكوّن هذا المستوى الأسلوبيّ بنية سطحية، وعميقة، تشير إلــى عدم أهمية ذكر صاحب الحدث في السِّياق النّصي، فيغني عن ذكره في الصّياغة اللّفظيّة الحدث، والقرائن المصاحبة للبناء، وهذا المستوى يمثله الشَّكل التَّجريديَّ التَّالي :

همزة استفهام + حرف نفي"لم" + فعل مضارع مبني للمجهول + نائب فاعل + قرائن البناء....

↓

توافق دلالي بتوثيق الحدث في السياق بوساطة المصاحبات النَّصية دون ذكر الفاعل.

وقد ورد هذا البناء في السُّور المكيِّة في موضع واحد، في قوله تعالى ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ[3]﴾.

فبنية الاستفهام "ألم يُؤخذ" تتحرَّك على مستوى السَّطح الصِّياغيّ للــنّص لتــشير أنّ المتكلم لا يريد الإخبار بل الاستفهام عن أمر وقع له، ولتحقيق المعنى أُجْرِى الاســتفهام كعنصر تماسك ليفيد مع النفي معنى التّقرير، والتّوبيخ [1]. وكلُّ صيغة على غــرار هــذا الأسلوب فهي للتَّقرير، وضابط هذه الــصّيغة أنَّ همــزة الاســتفهام، والنَّفــي يــساوي "التقرير"، ثم يضاف إليه من المعاني ما يناسب المقام، هذا في حالة دخول الهمزة علــى النفي مباشرة، أما في الحالة المعاكسة ــ دخــول النفــي علــى اللفــظ ــ فــإنَّ الأمــر مختلف، وهذا ما يمثله البناء الثاني من الآية نفسها :" أَفَلاَ تَعْقِلُونَ"، فحرف العطف ينبــئ عن مدخول آخر للاستفهام هو المعطوف عليه، سواء كان ذلك مذكورا، أو مقدرا ليعمــق في نهاية السياق دلالة الإنكار، والتَّوبيخ[2].

أمَّا النَّمط الثَّاني من البناء في هذا المستوى، يتولد من دخول الاستفهام علــى اللفــظ لوجود حرف العطف، فيقدم بنية عميقة ذات دلالات سيّاقيّة مختلفة يفرضها واقع البنــاء

(3) ــ سورة الأعراف : الآية : 169 .

(1) ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج1 /420. وينظر : ابن عاشور : التحرير والتوير : ج8/ 341.
(2) ــ المصدر السابق: ج1/ 420.

الاستفهاميّ، الّذي ورد فيه، ومن أساليبه توسط "الفاء" العاطفة بين الهمزة والنّفي، فيكون المتكلم يَعْلم ما قبل، وبعد الحَدَث، أمَّا المتلقي، فإنَّه يقف في زاوية حرجة يضعه فيها بناء السِّياق لعدم علمه بما يجري، ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[3].

البناء ← أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ ← بناء تحويلي أصله التوليدي :

يسيرون في الأرض ← ليفيد معنى التقرير . وهذا يساوي البناء التّجريديّ التّالي :

عنصر استفهام "الهمزة" + حرف العطف" الفاء" + حرف النفي "لم" + فعل وفاعل ....

↓

توافق دلالي يعمق دلالة النفي

فالبنية السّطحية للأسلوب تدلّل على معنى السّير في الأرض، دون الاعتبار بما فيها، وتحقق ذلك من جانب البناء " أَفَلَمْ يَسِيرُواْ "، فالهمزة و" الفاء" حققا مركزيّة المتلقي من الحدث، وهو السّير في الأرض للاعتبار، فالمعنى يُطرح من خلال السياق في إطار ذهني تقريريّ[4]، كون الشّك في نسبة الفعل مسلطا على فعل السَّير، أمَّا تصديق عدم السَّير من قبل المنكرين، فقد اعتمد على الإدراك الدَّاخليّ لطبيعة المتلقين الّذين يسيرون عكس اتّجاه المنكرين، فأطلق السِّياق مع هذا التَّصور لفظ " يسيروا" على غيره من الألفاظ لمناسبة المقام، كون دلالته العميقة تتجه إلى كثرة المشاهدة، دون الاعتبار منها[1]. ومنه قولة تعالى : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[2]. يشكل النَّسق النَّصيَّ للبنية السَّطحية للآيات بنائين : الأوّل اصطلاحي : "أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء"، والثَّاني : "كَيْفَ بَنَيْنَاهَا" صوريّ؛ لأنّ صورته صورة الاستفهام، ومعناه التَّأمل في كيفية بناء السَّماء[3]. وفي البناء الأوّل يقول أبو السّعود : " أغفلوا أو أعموا، فلم ينظروا إلى السَّماء فوقهم"[4]، وأبو السُّعود يَنحى هذا

---

[3] ــ سورة يوسف : الآية :109 .

[4] ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج12 / 128 .

[1] ــ ينظر : الألوسي : روح المعاني : ج13 /70 ــ 71 .

[2] ــ سورة : ق : الآية 5 ــ 7 .

[3] ــ المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج4 /144 .

[4] ــ تفسير أبي السعود : ج8 /126 .

المنحى ليبين أنَّ الاستفهام ليس إنكارا لما بعد حرف النّفي" ينظروا" بل للمحذوف المقدر الَّذي ولي الهمزة " أغفلوا". أمَّا حرف العطف"الفاء" فلمْ يترتب على المتعاطفين في السِّياق محظور لا لغة ولا بلاغة، بل إنَّ البلاغة تقتضي هذا العطف للتَّماسك النَّصي والدِّلالي.

فالمراد من النَّظر التَّأمل، والتَّفكير المترتب على النَّظر الحسيِّ، فالهمزة تتحرك سياقيا في دلالة التَّصوّر للواقع من جانبين: الأوّل من خلال الفعل "ينظر" الَّذي ولّد عند المتلقي تصوّر شمولي للأمر الخارجي" السّماء"، لكن هذا التَّصور لم يحدث في واقع الحياة العملية؛ لأنَّهم أنكروا قدرة الله عزَّ وجل في الكون، وتصرفه فيه، الثَّاني: من جانب حرف الجر" إلى" ليُعَدِى به فعل النَّظر النَّاظِر إلى ذات، وليس إلى معنى. فالتّصور الّذي يتحرك فيه الاستفهام مع النّفي شكّل بنية عميقة يتمركز ثقلها الإنتاجيّ في معنى التَّقرير، ويردف عليه إنكار عدم تفكرهم، واعتبارهم بتلك الدَّلائل النَّاصعة[5].

أما الشَّكل الثَّاني من هذا المستوى السَّياقي الأسلوبيّ فيتشكل من الهمزة و" واو " العطف، وحرف النَّفي "لمْ"، بعد امتداد سياقيّ يسبق البناء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾[1].

البناء ← أَوَلَمْ يَكْفُرُوا ← بناء تحويليّ أصله التوليدي:

يكفرون بما أوتي ← ليفيد معنى التقرير، وهذا يساوي البناء التَّجريدي التَّالي:

امتداد صياغي يسبق البناء + همزة الاستفهام + حرف العطف + نفي + فعل وفاعل ....

↙

تصور دلالي للبناء...

فالبنية السّطحية والعميقة لهذا المستوى البنائيّ، تتحرك في دلالة التَّصور الَّذي تهيمن عليه الهمزة، فالسِّياق يؤكد كفرهم وعنادهم، كون المتحدث عالما بما كان منهم من كفر وعناد، فالتَّصوير أوجد حالة حواريّة تتمثل في ثلاثة اتّجاهات: الأوّل: التَّقرير؛ لأنَّ الله عزَّ وجل يقررهم بسبق هذا القول، ليبطل احتجاجهم على رسول الله صلى الله عليه

(5) ــ ينظر الألوسي: روح المعاني: ج26/174 ــ 175.

(1) ــ سورة القصص: الآية: 48.

وسلم، في مطالبتهم إيّاه أنْ يأتيهم مثل ما أوتي موسى من المعجزات. الثّاني: إفحامٌ؛ لأنَّ شَهْرَ هذا السِّلاح في وجوههم يردُّ كيدهم في نحورهم، ويُلقمهم الأحجار في أفواههم، ويحيل نارهم إلى رماد. والثَّالث: تكذيب؛ لأنَّهم لم يريدوا بهذا القول التَّوصل إلى الإيمان، وإنَّما قالوه عنادا ومكابرة[2].

ثانيا: بنية الهمزة مع حرف النّفي " ليس ":

وبناء "ليس" المجردة عن الهمزة نجد له تمركزا كبيرا عند اللّغويين، والنّحويين، فيقول فيه صاحب مختار الصِّحاح: " هي كلمة نفي، وهو فعل ماض، وأصلها "لَيِس" بكسر الياء، استعملت بلفظ الماضي لنفي الحال"[3]، أما المعنى الدّلالي لــ"ليس" فنجده عند صاحب المعجم الكبير، فيقول: " لا أيس أي لا وجود، وأيس لفظ سام يدل على الكينونة والوجود"[4]، وجاء في مغني اللّبيب " أنَّ " ليس" كلمة دالة على نفي، وتنفي غيره بالقرينة الدَّالة"[5]، أما صاحب شرح الكافية، فيقول: " إنَّ " ليس" لنفي مضمون الجملة"[6].

فبنيةالهمزة مع ليس بنية تحويليّة في المقام الأوّل تتجاوز فيها الصّياغة دلالتها الأصلية لتنتج دلالات جديدة بمعونة قرائن الأحوال، وعملية التّوليد الدّلالي في هذه البنية الاستفهامية تمرُّ في ثلاث مراحل متتابعة، ومتداخلة فيما بينها، وهي التَّنبيه، والتّفاعل، والإنتاج، فالتّنبيه موجّه إلى المتلقي بالدّرجة الأوّلى لتأتي بعد هذه المرحلة، مرحلة التّفاعل ما بين الوظيفة الطّلبية " المتلقي" مع الوظيفة المرجعيّة" السّياق"،والوظيفة الأسلوبيّة" الصّياغة"،ومرحلتي التّنبيه، والتّفاعل تُهيئ السّياقإلى المرحلة الثّالثة: الإنتاج لينبعث منه الدّلالات التّحويلية الجديدة للبنية، وتتركّز بؤرتها في ذهن المتلقيأي حصول الصّورة في الذّهن، فتُلقي هذه الصّورة الدّلالة على البنية العميقة الّذي يفرضه الإنتاج، وهذه الإشارات البنيويّةلهذا البناء بخاصة، والاستفهام بعامة نلمسها عند الجرجانيّ أثناء حديثه عن الاستفهام، فيقول: " واعلم أنَّا وإنْكنا نفسّر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار، والتّقرير لينبّه السّامع حتى يرجع إلى نفسه، فيخجل، ويرتدع "[1]. فالتّنبيه عند الجرجانيّ يهدف إلى

---

[2] ــ المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام :ج3/198 ــ 200.. وابن عاشور: التحرير والتنوير: ج20/71 ــ 72.

[3] ــ مختار الصحاح: مادة " ليس".

[4] ــ المعجم الكبير: مادة" أيس".

[5] ــ ابن هشام: مغني اللبيب: ج1/ 293.

[6] ــ الكافية في النحو: ص: 296.

[1] ــ الجرجاني: دلائل الإعجاز : ص: 119.

الرّبط المحكم بين المتلقي، والصّياغة، والسّياق، لإثارة حركة الفكر، والحسّ عنده فيستوعبه بخفاياه.

وبنية الهمزة مع ليس وردت في السّور المكيّة في ستة عشر موضعا، في كلِّ موضع تتجه البنية إلى دلالات مختلفة، يتحكم فيها السّياق، والمصاحبات النّصية، إلاّ أنّها بنية ذات طابع حواريّ نلمسه في المستوى السّطحي للسياق، والصّياغة اللفظيّة، ويتشكّل المستوى الأوّل من هذا البناء، من الجملة الاسميّة، فيكون المبدأ اسما ظاهرا، والخبر شبه جملة، ومنه قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾[2].

البناء ← أليس الله بكاف عبده ← بناء تحويليّ أصله التّوليدي:

الله يكفي عبده، ليفيد معنى التّقرير، وهذا يساوي الشّكل التّجريدي التّالي:

عنصر تحويل يفيد الاستفهام + نفي "ليس" + جملة أسمية "مبدأ وخبر شبه جملة"

↙

نفي النفي إثبات " تعاكس دلالي يعمق بنية التّقرير.

فالسّياق أراد العناية بتوثيق الصّلة بين الخالق، وخلقه، فعمد إلى "ليس"، ثم أدخل الهمزة في صدر الجملة المنفية، لإفادة معنى "التّقرير"[3]، والتّسلية للنبي عليه السّلام، وتثبيته، فيقول الزّمخشريّ: " أُدخلت همزة الإنكار على كلمة النّفي، لتفيد معنى إثبات الكفاية، وتقريرها"[1]، وممّا عمق الدّلالات الإنتاجيّة المتفرعة من بنية التّقرير دخول حرف الجر "الباء" على خبر "ليس" ليقدم بدخوله فائدتين أسلوبيتين: إحداهما: تعود على المعنى، والأخرى على اللّفظ، أمّا الّتي تعود على المعنى، لتقوية الصّلة بين المسند إليه والمسند، أمّا الّتي تخص جانب اللّفظ فإنّ "الباء" عملت على منع نصب خبر ليس، مما منع التّطويل المكانيّ للصّياغة الأسلوبيّة بين كفاية الله، وبين من أراد الله كفايته، أمّا لفظ

---

[2] ــ سورة الزمر: الآية: 35 ــ 37

[3] ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج24/ 90 ــ 91.

[1] ــ الزمخشري: الكشاف: ج4/ 124.

الجلالة " الله" المتكرر في الدّالين الأوّل " أليس الله بكاف .."، والدّال الثّاني : " أليس الله بعزيز .."،أكّد تزين المهابة لله في قلوب المتلقّين، وتقوية دلالة التَّقرير[2].

ويأتي منه بنية تخالف المستوى الأوّل، وتشكّل المستوى الثّاني من جانبين : الأوّل : أنْ يسبق البناء الاستفهاميّ امتداد صياغيّ، والثّاني : يكون فيه خبر " ليس" شبه جملة مقدم على اسمها، ولم يتصل به حرف الجرِّ، فيقول تعالى : ﴿وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾[3] . ويتشكَّل هذا البناء من المستوى التّجريدي التَّالي :

البناء ← .... أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيد ....

امتداد صياغي ... + عنصر استفهام " الهمزة" + نفي " ليس" + شبه جملة" خبر مقدم" + اسم ليس مؤخر "رجل"

تعاكس دلالي بين سوء العمل، والرشد | تلازم دلاليّ من التّقديم والتّأخير في الجملة الاسميّة .

يعمق بنية التَّقرير .

فالشّكل التَّجريديّ للبناء يسير في ركاب الحوار ما بين لوط عليه السَّلام، وقومه أثناء مجيئهم إلى أضيافه، فخاطبهم لوط بالحسنى، مُرغّبا لهم ببناته بدل أضيافه، إلاّ أنَّهم أبوا النّصيحة، فلم تظهرْ عليهم معالم الاقتناع، والاستجابة، فصاح من غيظ وغضب، مستنكرا ومقررا، ويحكم " أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيد "، يعرف الحق، وينهى عن المنكر، ويحول بينكم وبين هذا الفسوق الَّذي تطلبون فالقضية كما يقول سيد قطب : " قضية رشد وسفه، إلى جوار أنها قضية فطرة، ودين ومروءة "[4]. فالمستوى السَّطحي بهذا التَّمركز الصِّياغيّ جعل المتلقي في حالة استثا رة، فالهمزة الّتي دخلت على البناء الاستفهاميّ " أليس" نفت النّفي، وجعلته إثباتا، لتفصح في العمق البنائيّ أنَّ لوطا عليه السَّلام أراد بهذا التَّعبير الغاضب أن يستنفر منهم رجلا يردعهم عن غيهم، ويكون عونا له على كفِّ شرورهم، فأخرج الاستفهام مُخْرَج التّقرير، حتى يستميله، ويستعطفه إلى التّساهل في شأن القوم الفاسقين. فبناء " ليس" نفْى الرّشد عن مجموع قومه، و "الهمزة " لإثباته لرجل واحد منهم غير معين، وهذا الأسلوب أشبه ما يكون بأسلوب الإلهاب، والتَّهييج[1]، يقول

[2] ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج3/ 436 ــ 438. والزمخشري : الكشاف : ج4/ 124 ــ 125.

[3] ــ سورة هود : الآية : 78.

[4] ــ سيد قطب : في ظلال القرآن : ج4/ 1914.

[1] ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج2/ 114.

فيه ابن عاشور : "هذا إغراء لهم على التّ عقل ليظهر فيهم من يتفطن إلى فساد ما هم فيه... فظهور الرَّجل الرَّشيد في الفتنة الضَّالة يفتح باب الرَّشاد لهم"[2].

والأبنية الأسلوبيِّة الَّتي تأتي من بناء الهمزة مع " ليس" تكاد تكون في المجالين السّابقين لكونهما يحملان دلالة عميقة تتمركز بؤرتها الإنتا جيّة في التّقرير، وما يتفرع عنها من معاني سياقيّة، ولكن مما يلاحظ في شواهد هذا البناء ـ أليس ـ أنها جاءت على صورتين : الأولى: أن يتقدم فيها الاسم على خبرها، وهذا هو الأصل السّياقي والنّحويّ، وقد التزم في الخبر جرّه بحرف الجرّ الزّائد لتوكيد نسبة المسند "خبر ليس" إلى المسند إليه " اسمها"، على وجه الإثبات، وليس على وجه النّفي، ولتثبيت هذا التّأكيد على السياق النّصيّ على إثبات صفة من صفات الله تعالى له في قوله تعالى : ﴿أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾[3]، وقوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[4]، والتّأكيد يولد إنتاجية الاهتمام بشأن الصّفات، وصاحبها على وجه الخصوص؛ لأنَّ هناك من ينكرها.

أمّا الصّورة الثّانية لهذا الأسلوب: فتتمثل في تقديم المسند "خبر ليس" على اسمها المسند إليه، لغرض بلاغيّ أيضا، ففي ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[5]، تقديم ذكر جهنم؛ لأنَّ المقام مقام تهديد، ووعيد فعجّل بما يروع ويخيف، فاقتضى ذلك تقديم الخبر على الاسم . ومما يلاحظ في المعنى العميق للبناء أن بنية التّقرير أبلغ، وأقوى من الخبر المجرد؛ لأنَّ التقرير يقوم على اعتبار أنَّ السّامع، أو المخاطب يُقرّ ويعترف بما يتضمَّنه السّؤال على وجه الإثبات، في حين أنَّ الخبر المجرد من هذا البناء ليس فيه ذلك الاعتبار، فبنية التقرير تُنبه المخاطب، وتستثيره بما يلقى عليه، فكأنّها تُخاطبه وتقول له : أتسمع؟ انتبه؛ فيستقر المعنى في ذهنه، ويثبت، وليس الحال مع الخبر كذلك، فقد يتنبه المخاطب لما يلقى عليه، وقد يغفل[1].

ثالثا: بنية الهمزة مع حرف النفي " لا ":

---

[2] ـ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج11/ 304.

[3] ـ سورة الأعراف: الآية: 172.

[4] ـ سورة القيامة: الآية: 40.

[5] ـ سورة الزمر: الآية : 60.

[1] ـ ينظر اللبدي، عبد الرؤوف سعيد **همزة الاستفهام في القرآن الكريم**، المكتبة الوطنية، د ط، د ت. ص:240 ـ 242.

يذكر النّحاة أنَّ " لا " حرف من الحروف الهوامل؛ لأنّه لا يترك أثرا على آخر الفعل الّذي يأتي بعده، ويدخل على الماضي، والمضارع، ويجمع النّحاة على أنَّه لنفي المستقبل[2]. ويذكر خليل عمايره رأيا له حول حرف النَّفي " لا"، فيقول: " إنَّ "لا" لمطلق النّفي، إلاّ إذا ورد في الجملة ما يقيد الزّمن ويوجهه .... فإذا دخلت على الفعل الماضي، وجب أن تكرر "[3]وهو عند المفسرين لنفي المستقبل عموما، كقولنا: لا أفعل غدا، ويرى بعضهم أنَّ هذه الدِّلالة مستمدة من الفعل المضارع بعدها[4].

ويدخل على حرف النّفي " لا" همزة الاستفهام، فيصبح البناء مركبا من " ألاّ"، ليختصَّ بالجملة الفعليّة، ويفيد بناؤه الصّياغي معنى " الحثِّ والتَّحضيض"[5]؛ وقد ورد البناء في ثلاثة وأربعين موضعا من السُور المكيّة، على نمطين بارزين يفيدان دلائل مختلفة يفرضها سياق البناء . فالنّمط الأوّل: يأتي من جانب الهمزة المتصلة بحرف النَّفي دون فاصل بينهما، ليقدم لنا بنية تتمركز دلالتها الإنتاجيِّة حول المتلقي الخاص والعام على حدٍّ سواء، كما في قولهتعالى : ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾[6].

فبنية السَّطح البنائيّ من خلال الامتداد الأفقيّ، تشير إلى أنّه استفهام تقرير لدخول الهمزة على حرف النّفي "لا"،ونفي النّفي إثبات، فيوسف عليه السلام يقرّرهم برؤيتهم إياه موفيا الكيل،محسنا وفادة الوافدين من غير أهل البلاد، وفي هذا المعنى يقول ابن عاشور: "إنه كان يُنزل الممتارين في ضيافته لكثرة الوافدين على مصر للميرة ..."[1]، ويشير البناء الحواريّ من مفاصل البناء إلى أوّل لقاء حدث بعد انقطاع طويل بين يوسف وأخوته .

---

[2] ــ ينظر: سيبويه: الكتاب: ج4/ 222. والمقتضب: ج2/ 335. ، وشرح المفصل: ج8/ 107.

[3] ــ خليل عمايره: أسلوبا النفي والاستفهام في العربية: ص: 103.

[4] ــ ينظر: الزمخشري: الكشاف: ج2/ 154. والرازي: ج15/ 235. والبيضاوي: 608.

[5] ــ المرادي، الحسن بن قاسم المرادي **الجنى الداني في حروف المعاني** ، تحقيق: فخر الدين قباوه، ومحمد نديم فاضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 2، 1983م. ص: 382والبرهان في علوم القرآن : ج4/ 235. ودراسات لأسلوب القرآن الكريم: ج1/ 128 ــ 130.

[6] ــ سورة يوسف: الآية: 59.

[1] ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج12/ 85.

فاللقاء مهّد للبنية العميقة بؤرة الإنتاج الدّلالي بمصاحبة القرائن أن يتصل المخاطب مع المنشئ من خلال الصّياغته اللفظية التي تفوح منها معاني الرّقة واللّين في قوله " ألا ترون"،ليستميل بها قلوبهم، ويرغبهم في العودة، ولتحقيق ذلك الهدف الذي يسعى إليه المتكلم، وضع السّياق الفعل المضارع "ترون" موضع الماضي " رأيتم" لاستحضار صورة الفعل بما يشتمل عليه من محاسن،ولطائف في المعاملة، فامتدّ السّياق التّركيبي للبناء من خلال هذه الدّلالة إلى توليد معمول الرّؤية من السّياق نفسه بقوله " أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ " للمبالغة في التّرغيب، وحسن الوفاء بالوعد، والرّؤيا التي يبرزها السياق بصريّة علميّة؛ لأنّهم رأوا ذلك بأعينهم، واستقرّ في مشاعرهم[2].

ومنه قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾[3].

فالاستفهام يسير في اتجاهين الأوّل التفخيم في قوله : " هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ"وفيه يقول الزمخشري : " تفخيم للحديث، وتنبيه على أنّه ليس من علم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما عرفه بالوحي ..."[4]. والثاني: تأتي دلالته الإنتاجية من قوله: " أَلا تَأْكُلُونَ"، ليفيد معنى "العرض"، فالهمزة، والنفي شكلا رغبة في حصول دلالة العرض أثناء دخولهما على المضارع، ليفيد كما قال ابن عاشور : " زيادة في الإكرام بإظهار الحرص على ما ينفع الضيف، وإن كان وضع الطعام بين يديه كافيا في تمكينه منه"[5]، والعرض مركز البنية العميقة في دلالة التّقرير، ليتسلط على ترك الأكل، ويتفرع عنه إنكار إعراضهم عن الأكل، مع التّلويح من قبل إبراهيم بالحثّ على الأكل، والوقوف على معرفة السبب الّذي حملهم عليه [1]أمّا النّمط الثّاني فيتشكّل من توسط حرف العطف" الفاء"، بين همزة الاستفهام، والفعل المنفي، ولا يكون هذا الفعل إلا مضارعا، فيأتي هذا البناء في أغلبه بعد امتداد صياغي مكاني يفرضه السّياق، فيكون البناء بمثابة التّنبيه، والتّذكير للمتلقي، ومنه قوله تعالى : ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ

---

[2] ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج2/ 132 ــ 133 . والزمخشري : الكشاف : ج2/ 465 ــ 466 .

[3] ــ سورة الذاريات : الآية : 25 ــ 28 . [4] ــ الزمخشري : الكشاف : ج4/ 391 .

[5] ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج27/ 25 .

[1] ــ ينظر : المطعني : التّفسير البلاغيّ للاستفهام :ج4/ 155 ــ 156 .

عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآ خِـرَةُ خَيْـرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ[2].

البناء ← أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ← بناء تحويلي أصله التوليدي:

تعقلون ← ليفيد معنى التقرير والتوبيخ، وهذا يساوي البناء التجريدي التالي:

امتداد صياغي ... + همزة استفهام + حرف العطف " الفاء" + عنصر نفي "لا" + جملة فعلية...

↓

اتجاه عكسي للدلالة " نعيم زائل الدنيا / نعيم مقيم الجنة

← →

فالامتداد الصِّياغيقَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ ....الَّذي سبق البناء يدلّل على أنَّه جاء تعقيبا على مواقف منكريّ البعث، واغترارهم بالحياة الدّنيا، فحط الله تعالى من شأنها، وحصر متاعها في اللّهو، واللّعب، ثم رفع من شأن حياة الآخرة . مما ولّد ضديّة بنائية ما بين الزّائل، والمُقيم، فالضِديّة أنشأت حالة من الاستنكار تمركزت في حرف العطف " الفاء"مصاحباته النَّصيّة، فيقول فيه أبو السُّعود : " "الفاء" للعطف على مقدر هو أتغفلون فلا تعقلون، أو ألا تتفكرون فتعقلون "[3]، فالعطف، والاستفهام مع حرف النّفي "لا" خلق حالة من الاستنكار لدى المتكلّم، واستنكاره يتسلط على عدم إعمال العقل في الموازنة بين الحياتين الدّنيا، والآخرة لوضوح الفرق بينهما لكلِّ صاحب عقل، وبصيرة. وفي البناء الصِّياغي للتَّركيب القَبليّ، والبعديّ تحول في استخدام الضَّمير، انتقل به المتكلم من الغيبة إلى الخطاب، ليقوي دلالة الإنكار، والحثّ، والتّرغيب، فأسهم هذا التّحـ ول عند المتلقي إدراك المفارقة المعنويّة، والإنفعاليّة الّتي سيطرت علي المتكلم، من خلال مخالفة مقتضى الظّاهر، فهو يقف أمام خيارين : خيار الإيمان، وفيه حياة أبدية، أو حياة الدّنيا وما فيها من متاع زائل[4].

ومنه ما يأتي في بداية الآيات دون امتداد سياقيّ لبـ ناء الفعل المضارع المتعدّي بحرف الجر "إلى"، ليشكّل حالة نفسيّة مثارة تصل إلى أقصى غاياتها لدى المتلقيّ الخاص والعام، فيتولد من خلالها بؤرة التّصور لما يحدث حول المتلقي، ومنه قوله تعالى: أَفَلا

---

[2] ــ سورة الأنعام: الآية: 31 ــ 32.

[3] ــ تفسير أبي السعود: ج3/126. [4] ــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام:ج1/ 300 ــ 301.

يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَت *وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ[1].

البناء أَفَلا يَنظُرُونَ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي:

ينظرون ⟵ ليفيد معنى الحث والتحضيض. وهذا يساوي:

عنصر استفهام + نفي + جملة فعلية + متعلقات البناء ......

فالبناء على مستوى الصّياغة متولد في بداية الآيّة دون أي امتداد سياقيّ يسبقه، وفي هذه الحالة يشكل دلالة مختلفة عمّا هو عليها في نهاية الآية، أو التّركيب الصّياغي، وفيه يقول سيد قطب: " يوجه الخطاب أنظار المخاطبين إلى تدبُّر خلقِ الإبل، وهي بين أيديهم، فلا تحتاج منهم إلى نقلة، ولا علم جيد"[2]

أما البنية العميقة التي يشكلها السّياق البنائيّ للاستفهام من هذا المستوى، نجدها تسير في اتِّجاهين متعاكسين اتّجاه العناد، وعدم التَّفكر، ممّا دفع المنشئ إلى الاستفهام بالهمزة وحرف النفي" لا "، ليتولد من الاتّجاه الأوّل دلالة الاتّجاه الثّاني المتمثل بالتّفكر في ملكوت خلق الله عزّ وجل، وهذان الاتّجاهان خلقا في النّص حالة قلق، وهيجان تتجه دلالتها إلى المتلقي السّلبي لتحثه على التّفكر، وهذا المعنى أخذ من خلال المصاحبات النّصيّة يتعمق دلاليا، ونلمح هذا من تقديم لفظ " الإبل " على ما ذكر بعدها ــ السماء / الجبال / الأرض ــ لشدة إلْفهم بالإبل، وسيرهم بها في الصحراء، والجامع بين هذه الدّلائل المختلفة الّتي امتد إليها السّياق النّصي، أنّها من آثار قدرة الله الباهرة في الخلق والتّصرف، وفيه يقول ابن عاشور: " المقام مقام استدلال على أنّهم محقوقون بوجوب النّظر في دلائل الوحدانيّة الّتي هي أصل الاهتداء إلى التّصديق بما أخبرهم به القرآن من بعث وجزاء "[3]. أما الجانب الأسلوبيّ الثّاني الّذي عمّق دلالة الحث والنّظر في البناء جاء عن طريق تعدية الفعل المضارع " ينظرون " بحرف الجرّ " إلى " لينبه المتلقي إلى إمعان النّظر، فيشعر النّاظر ممّا في المَنْظُور من الدَّقائق، فينتهي نظره عند انتهاء دلالة حرف الجر " إلى " لتتمكن الدّقائق من عقله، وقلبه كل تمكن، وهذا الانتهاء الدّلالي لفعل النّظر قيّد النّص بمجيء الكيفيات المعدودة، أو الحال في قوله: " كيف خلقت"، وكيف رفعت "و" كيف نصبت" ليزيد في دلالة التّنبيه في الحثِّ،

---

[1] ــ سورة الغاشية: الآية: 17 ــ 20.

[2] ــ ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ج6/ 3898.

[3] ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج30 / 269.

والتّحضيض على التّفكر في هذا الملكوت .وبهذا التّعمق الدّلالي يكون البناء حقق للمتلقي السّلبي معنى الحثّ،وإلى المتلقي الإيجابي زيادة الإمعان في التّفكر في هذا الكون[1].

ثالثا : بنية الهمزة مع الجملة الاسميّة :

الفعل كمامرَّ في البنى السَّابقة لإفادة الحدثّ ، والتّجديد،" والتّجديد في الماضي الحصول،وفي المضارع تكرار حدوثه مرة بعد أخرى "[2]، فالتّعبير بالجملة الفعلية فيه إخبار بالحدث والتّجديد، من غير إشعار بمبالغة ، أو توكيد، أمّا الأسماء فتدل على الثّبوت، والتّأكيد، فإذا قصد المُ نشئ مجرد الخبر أتى بالجملة الفعليّة، فإن أكد فبالاسمية ــ كما قال السّيوطي نقلا عن السبكي ــ لأنَّ الاسميّة تدل على ثبوت الحدث بالمطابقة، والفعلية تدل عليه بالتضمين، ومن هنا كان التعبير بالجملة الاسميّة أقوى من التعبير بالفعلية[3].

وهذا التّقسيم لا نميل إليه كثيرا؛ لأنّه يحمل دلالات قاطعة ،ومطلقة، وإنَّما هي محكومة بالسّياق الخارجيّ، والدَّاخليّ، فالتّحليل الأسلوبيّ لا يتحدث عن الأفضل، وإنّما عن الأنسب،فنجد لـ (العلويّ)رأيا في خطاب الجملة الاسميّة، ويبين أنّه يخرج إلى غرضين : الأوّل : الدّلالة على أنَّ الفاعل قد فعل ذلك الفعل على جهة الاختصاص به دون غيره، ويذكر على جهة الاستبداد . الثّاني : التّحقيق لتمكين المعنى في نفس السّامع، أو المتلقي، حيث لا يخالجه ريب، ولا يعتريه شكٌ[4]. أي أنَّ دلالة الخطاب بالجملة الاسميّة قد تكون للقصر ، أو التّوكيد، وللسِّياق مع الجملة الاسميّة أثر مهم في إنتاج جماليات أخرى لأنواع الخطاب الاسميّ . وهمزة الاستفهام الدّاخلة على الجملة الاسميّة كثيرة الدَّوران وبأشكال مختلفة في السّور المكيّة، لتشكّل ظاهرة أسلوبية في بناء الهمزة، فدلالة الشّك في مستوى هذا البناء، تتمحور حول الاسم على عكس الفعل الّذي تتمحور دلالته في نسبة الفعل إلى الفاعل، ومن هنا تأتي أسلوبية البناء، ويمكن تقسيم البناء إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي :

أولا : بنية الهمزة مع الأسماء الصريحة :

---

(1) ــ وينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج4 /358 ــ 360 .

(2) ــ السيوطي : الإتقان : ج2 / 317 .

(3) ــ السبكي : عروس الأفراح : ج1 /220 .

(4) ــ العلوي : الطراز : ج2 / 25 ــ 26 .

نجد من الشواهد أنَّ هذه البنية تشكل دلالة انفتاحية على النّص تعمق بؤرة الحوار ما بين المنشئ والمتلقي، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [1].

البناء ← أراغب أنت ← بناء تحويلي أصله التوليدي:

أنت راغب، ليفيد معنى الإخبار. وهذا يساوي البناء التجريدي التالي:

عنصر استفهام" الهمزة" + مبتدأ + خبر .....

فالتّحويل دخل على الجملة الاسميّة، فجرى صّياغيا بدخول الهمزة فأحدث التَّقديم والتَّأخير، فقدَّم السِّياق الخبر " أراغب" على المبتدأ " أنت "؛ لأنَّه محط الإنكار [2] وقد أفاد هذا البدء عمومية الإنكار، والتَّعجب في كل راغب عن آلهة أبي إبراهيم، وليس مقصورا على إبراهيم، ولو بدأ السِّياق بالمبتدأ " أنت " دون التَّقديم والتَّأخير لقلب الدِّلالة، وأصبحت تتجه إلى إبراهيم عليه السلام، مع جوازه لغيره، أي جواز الرغبة عن آلهة أبيه، فاسم الفاعل المقدم على المبتدأ نفى جواز الرغبة، بعدم الرغبة في آلهة أبيه [3].

ومنه ما تدخل فيه همزة الاستفهام على المبتدأ الَّذي خبره جملة فعلية، فيتشكَّل البناء بعد امتداد سياقيّ لتهيئة الصّياغة اللفظيّة للمنشئ بطرح استفهامه وفق دلالات التَّراكيب في النّص، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا * وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [4].

وهذا البناء أشبه بالاستفهام الصّوري ــ الشّكلي ــ لأنَّ بناءه السّطحيّ ردّد حُكما بين أمرين ترديدا " الشّر" و " الرّشد" ولم يرجحْ أحدهما على الآخر [5]، وهذا التَّرجيح فتح للمتلقي مجالا واسعا لإثارة التَّصور لديه، من خلال الدّليل العملي، والأسلوبي، فالعملي أنَّ الجنَّ لا تعلم عن هذا الوضع شيئا، فهو غير مألوف لديهم، ولتثبيت، وتأكيد هذه الدِّلالة استلزم صياغيّا الإتيان بالفعل المضارع المنفي " لاندري" دون غيره ليشمل النّفي، وعدم الدِّراية في كلِّ الأوقات. أما الأسلوبيّ فنلمسه من المصاحبات النّصية، فأسند السّياق لفظ "الرشد" إلى الاسم الجليل " ربهم "، وَعَدَلَ البناء عن إسناد " الشّر" إليه تأدبا مع الذّات

[1] ــ سورة مريم: الآية: 46.

[2] ــ تفسير أبي السعود: ج5/ 268.

[3] ــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام:ج2/ 274 ــ 276. والألوسي: روح المعاني: ج16/ 98.

[4] ــ سورة الجن: الآية: 9 ــ 10.

[5] ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام:ج4/ 303 ــ 304. وابن عاشور: التحرير والتنوير: ج29/ 214.

الإلهية، فجعله بحالة التَّنكير، لتهويل أمر الشرِّ من خلال الهمزة " أشر"، فاستدعى هذا المعنى تقديم لفظ " الشَّر" على " الرّشد" لِما كانت تعرفه الجن من ضلالات النَّاس قبل البعثة المباركة[1]. وتتشكّل بنية الهمزة مع " المصدر" للإنكار مع التّوبيخ والتّسفيه[2]، في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾[3].

البناء ← أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ← بناء تحويلي أصله التوليدي:

تريدون إفكا ← ليفيد معنى الإخبار المحايد.

فالاستفهام جملة تحويليّة، جرى التّحويل فيها بالزّيادة، والتَّرتيب لإفادة معنى الإنكار، مع التَّوبيخ، والتّسفيه، فالسّياق قدَّم المفعول به المصدر " إفكا" على فعله، ليمركز في ذهن المتلقي خبرا، فيه التّصور، والمبالغة في وصف عبادتهم بالقبح حتّى صارت هي الإفك نفسه، فتطلّب لهذه الدّلالة السّياقية تنكير لفظ " آلهة" مع الإفك لاستحالة وجود آلهة في الكون مع الله عزَّ وجل، فوجودها عند المنكرين من خلال الأسماء الّتي تُطلق عليها من قبلهم، يقول ابن عاشور: " التّنكير فيه دليل على جهة تجاوز معنى الفعل للمفعول"[4].

ومنه ما يأتي بعد امتداد سياقي للبناء، فيكون محط الإنكار مسلطا على مفعول به لفعل محذوف دلّت عليه القرائن النّصية، والسِّياقيّة، فيقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾[5].

البناء ← أبشر منا ← بناء تحويلي أصله التوليدي:

نتبع بشرا ← ليفيد معنى الإخبار. وهذا يساوي:

امتداد صياغي يسبق البناء + عنصر استفهام" الهمزة" +مفعولا به لفعل محذوف + جار ومجرور + نعت

↓

تعميق دلالة الإنكار بحذف الفعل....

---

[1] ـــ المصدر السابق: ج4/ 303 ـــ 304.

[2] ـــ ينظر: الرازي، فخر الدين بن ضياء الدين عمر (604هـ) **التفسير الكبير ومفاتيح الغيب** ، دار الفكر، ط3، 1985م. المجلد/ 15/ الجزء:29/ 158 ـــ 159. وينظر: البحر المحيط: ج8/ 345 ـــ 346.

[3] ـــ سورة الصافات: الآية: 84 ـــ 90. وينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام:ج3/ 375 ـــ 377.

[4] ـــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج23/ 54.

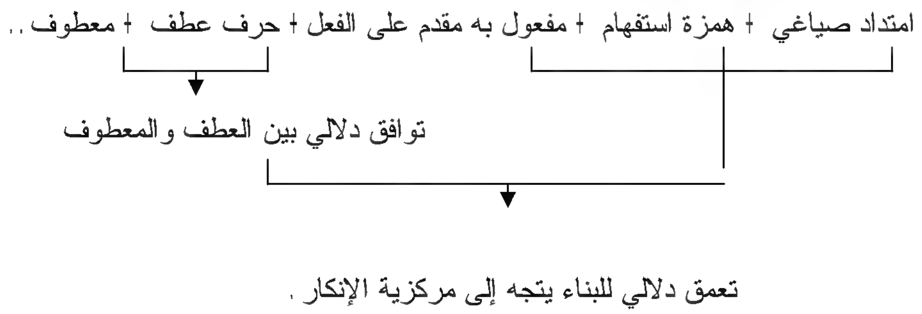
[5] ـــ سورة القمر: الآية: 23 ـــ 25.

فالتَّحويل البنائيّ للاستفهام جرى بالحذف، والزِّيادة، حذف فعل المفعول بـه ليـشير دلاليًا إلى معنى الإنكار [1]. والإنكار تولَّد من المصاحبات السِّياقيِّة، فالامتـداد الـصِّياغيّ الّذي سبق البناء وتشكَّل بفعل القول : " قالوا"عطف جملة على جملة، ليقدم العطف جانبين أسلوبيين: الأوَّل: أنَّ التّكذيب القلبيّ كان سببا في التّكذيب القوليّ السّلوكي . والثّـاني: أنَّ التّكذيب القّلبي السلوكيّ ظهر عليهم دون تباطؤ، أو تفكير . أمَّـا مـا بعـد الفـاء فـي مقولة القول ففيه تفصيل لإجمال الكذب، لتمكينه في نفس المتلقي، فالامتداد الصِّياغي هيَّأ للاستفهام مكانا في النّص دون ذكر معموله الّذي أثر فيه، فهو محط الإنكار، والتّـصور لدى المُستفهم[2]. فحذف الفعل جعل المتكلم في حالة توتر شديدة، انعكست علـى طريقـة حديثه، فالحذف للسّرعة في التّعبير عمّا في النّفس، وأبقى المفعول به للتّصور والإنكار.

وقد تدخل همزة الاستفهام على المفعول به الصّريح صياغيّا في النّص، لكن الدّلالـة الإنتاجيّة للاستفهام تتّجه للفعل نفسه في البناء، ومنه قوله تعالى : ﴿ثَمَانِيَـةَ أَزْوَاجٍ مِّـنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صادقين﴾ [3].

البناء ← آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ.... ← بناء تحويلي أصله التوليدي:

حرم الذكرين ليفيد معنى الإخبار. وهذا يساوي البناء التجريدي التالي:



فالتَّجريد البنائيّ للتّركيب يثبت أنَّ التّحويل جرى بالتّقديم، والتّأخير مـا بـين الفعـل ومفعوله، فقدم المفعول به على الفعل لأهمية دلالـة الإنكـار [4]. والإنكـار ينبثـق مـن التّحريم، فلو كان هناك تحريم لوقع على واحد من الأصناف المذكورة، ولهذا دخلت همزة الاستفهام على المفعول به، ولم تدخل على الفعل "حرّم" لإظهار غلط المشركين بطريـق

[1] ــ ينظر: تفسير أبي السعود: ج8/ 171. وينظر: الألوسي: روح المعاني: ج27/ 87 ــ 88.

[2] ــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام :ج4/ 198 ــ 200.

[3] ــ سورة الأنعام : الآية: 143.

[4] ــ ينظر: تفسير أبي السعود: ج3/ 193. وينظر : الألوسي: روح المعاني: ج8/41. والبحر المحيط: ج4/239.

برهـــاني، وهـــو مـــا يـــسمى فـــي أدب البحـــث، والمنـــاظرة إرخـــاء العنـــان للخصم، ومجاراته على ما يدَّعي، مع التَّدرج فـــي كـــشف نفـــسه، ليرجـــع هـــو إلـــى نفسه، ويتبين غلطه، فيرتدع، أو يؤمن بقيام الحجَّة عليه، فالبنـــاء يـــشير إلـــى مـــزيتين أسلوبيتين: الأوّلى، أنْ تفترض أنَّ الشَّيء قد وقع، ثم تأخـــذ فـــي استقـــصاء المظـــاهر الضَّرورية لوقوعه، فتنفيها واحدا واحدا، وينتهي هذا إلى نفي الفعل بالضَّرورة، وفي هذا إيناس وإقناع. والثَّانية: أنَّ مسلك المعنى فيه الاقتضاء واللـــزوم، وهـــو أبعـــث لحركـــة النَّفس، وأكثر إنهاضا للفكر، وتنشيطا له؛ لأنَّه يفيد نفي الفعل بطريقة الكناية، وإذا كانـــت وثبات الخيال من مظاهر أسلوب المجاز، فإنَّ حركة العقل ونشاطه على مدارج اللّـــ زوم من مظاهر أسلوب الكنايةفسياق البناء في الآية لم ينكر عليهم التَّ حـــريم الَّـــذي ادعـــوه ابتداء، بل يسلّم به، ثم طُ ولب الخصم بتعيين محلِّ التّحريم من الذَّوات المذكورة لإفحامـــه عن تعيين شيء منها، فإذا انعدم المحلّ الّذي يتعلق التَّحريم به، انعدم الحال، وهو التَّحريم نفسه[1].

وتشكل آخر يأتي من بناء الهمزة ،والأسماء الصَّريحة، يتمثل بوجود فاصل ما بين الهمزة، والاسم يمثله حرف العطف وخاصة " الفاء"، لأنَّها تحرك معنى الزّمن في البنـــاء من خلال المصاحبات النّ صيّة ومنه قوله تعالى :"يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْـــبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[2].

فالبنية السَّطحية للاستفهام تسوق لنا تبكيت أصحاب النَّار، فقد أنكروها فـــي الحيـــاة الدنيا،ثم هاهم يرونها رأي العين في الآخرة، وتمركزت الرّ ؤيا بلفظ الإشارة " هذا"، يقول في دلالته ابن عاشور: " المشار إليه قريب ــ نار جهنم ــ تومئ إلى أنَّ المنكـــرين قـــد بلغوها، وهم على شفاها "[3].أما المعنى الدّلالي للبنية العميقة فينبثق مـــن دخـــول همـــزة الإنكار على لفظ " سحر" فجعلها تتحول في موقعها السِّياقي من خبر بعد المبتدأ إلى خبـــر مقدم عليه، ليؤنّبهم الله على كفرهم بها قبل أنْ يدخلوها، فالمُخاطب الخاص بهذا الأسلوب في حيرة مطلقة، فإنْ قالوا : "هـــو ســـحر كـــذبوا ."،وإن قـــالوا : "لا ينـــصر كـــذبوا

[1] ــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام:ج1/344 ــ 349 والزمخشري: الكشاف:ج2/ 71.

[2] ــ سورة الطور: الآية: 13 ــ 16.

[3] ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج27/ 58.

كذلك"، شيكّل البناء في طرحه للحدث حالة فصل في حكم الإنكار، وربط دلالي ما بين الامتداد الصِياغيّ، وما بعد الامتداد مثَّ له حرف العطف " الفاء"، الَّذي مدَّ حركة الزَّمن من إنكارهم وجود النَّاروهم في الحياة الدّنيا، إلى زمن يوم القيامة برؤية تهم النَّار على أرض الواقع، وكأنّها طوت المسافات ، وانتقلت بالمنكر من واقع إلى واقع آخر، فالفاء، والهمزة جعلتا البناء التّحويلي يعمق دلالة إنكار قول المنكرين المكذِّبين بوجود نار الآخرة[1].

ثانيا: بنية الهمزة مع الأسماء المبنيّة:

إنَّ بنية الهمزة مع الأسماء المبنيِّة تُحدِث تحولات رأسية، وأفقيّة داخل السّياق، فالاستفهام يحرر الاسم المبني من ارتباطه الوضعيّ أحيانا، ويرده إلى الارتباط البنائيّ أحيانا أخرى، ومع هذا، وذاك فإنَّه يُحدث تغيرا في النّاتج الدّلالي لكلِّ بناء، ومع هذا التَّغير يتم استحضار طرفي الاتصال معا، وإضفاء طابع إيجابي على علاقتهما بالخطاب، وقد تكون الإيجابيّة مع أحدهما أكثر من الآخر، وبهذا يمكن اعتبار التّحولات ممثلة للسّياق الدّاخلي، فيرتبط بسابقه ارتباطا جدليا، على معنى أنَّ بينهما نوعا من تبادل التّأثير والتّأثر مع ملاحظة ضعف السّياق الخارجيّ في بعض التَّحولات، ليفرض السّياق الدَّاخلي سيطرته منفردا داخل بناء الهمزة، مع الأسماء المبنية ويتشكَّل هذا المحور الأسلوبيّ من الأنماط التّالية:

أ) الهمزة مع أسماء الإشارة:

يأتي النّصّ القرآنيّ يستخدم أسماء الإشارة كثيرا، وفي حالات دلالية مختلفة يفرضها البناء النَّصيّ على الأسماء، لربط مقاطع الآيات ومفاصلها مع بعضها ليستريح الذّهن والوجدان عند بداية الاسم، ثم ينطلق بعد الاستراحة طلبا للتَّصور، أو التَّصديق حسب الواقع البنائيّ للاستفهام، ومنه يأتي اسم الإشارة مفردا مذكرا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[2].

البناء ⟵ أهذا الذي يذكر آلهتكم ⟵ بناء تحويلي أصله التَّوليديّ:

هذا الذي .... ليفيد معنى الإخبار. وهذا يساوي البناء التَّجريدي التَّالي:

امتداد صياغي ... + همزة استفهام + مبتدأ + خبر .....

---

[1] ـــ ينظر المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج4/ 159 ـــ 161. والألوسي: روح المعاني: ج27/ 30.

[2] ـــ سورة الأنبياء: الآية: 36.

فبنية الهمزة مع أسماء الإشارة بنية تحويليّة جرى التّحويل من خلالها بالزّ يادة مع تيبترالجملة الاسميّة، ليفيد مع القرائن النّصية معنى التّعجب، والتّحقير . فالصّياغة الامتدادية عملت على زيادة العمق الدّلالي للبناء، فأدخل اسم الشّرط " إذا"، ليشير إلى تحقيق الجواب بإقرار وقوع الشّ رط من خلال لفظ "رآك"، فالكافرون حريصون كلّ الحرص على أ نْ يَسخروا من النّبيّ عليه السّلام، كلّما وقعت أبصارهم عليه، ولتعميق دلالة السّخرية استدعى بنائيا اسم الإشارة المفرد مع الهمزة "أهذا"، كون المُشار إليه قريبا من أبصارهم، ووجدانهم، وخيالهم، ولكنّ ه قرب العداء، والبغضاء، ليحطّوا من شأنه بتنزيل قُرب المكانمنزلة قرب المكان، فتجسّ د هذا بلفظ "آلهتكم"، الّتي يقول فيها الزّمخشري :هم عاكفون على ذكر آلهتهم بهممهم، وما يجب أنْ لا تذكر به "[1]. والبناء استحكم على أسلوبين : الأوّل: التّأدب، فظهر هذا بحماية الأوثان من قبل الكافرين، الثاني :إساءة الأدب على الرّحمن بالكفر[2].

ومنهما يأتي لإبراز حال أهل النار، وأهل الجنة، فيستخدم المستوى البنائي لهذا الأسلوب اسم الإشارة المفرد ليدل على مشار بعيد، ومنه قوله تعالى : ﴿ لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا * قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء وَمَصِيرًا ﴾[3]

البناء ← أذلك خير ... بناء تحويلي أصله التوليديّ:

ذلك خير ليفيد معنى الإخبار المحايد . وهذا يساوي البناء التّجريديّ التّالي :

همزة استفهام + اسم إشارة" مبتدأ " + خبر + قرائن البناء ...

↓

تلازم دلالي ما بين المشار إليه وقرائن البناء ...

فالبناء التّحويلي جعل التّلقي يتجه إلى معنى الإنكار لجانب، والتّ قرير لجانب آخر[4]، وتعمقت هذه الدّلائل السّياقية من خلال لفظ فِ عل الأمر " قلْ " لتدلّ من خلاله

[1] ــ الزمخشري : الكشاف : ج3/ 114 . ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير :ج17/ 48 .

[2] ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج2/ 361 ــ 363 .

[3] ــ سورة الفرقان : الآية 14 ــ 15 .

[4] ــ ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج19/ 22 .

بأهمية المَقول بعده، وضرورة المواجهة به، وإبلاغه فور نزوله، فحذف السِّياق شبه الجملة " لهم " المتعلقة بفعل الأمر للإيذان بصلاحية نشر الخبر من قبل المنشئ، ومواجهة كلِّ ملحد في كلِّ زمان ومكان ، فتطلّب سياقيا لتحقيق النَّشر السَّريع للخبر اسم الإشارة المتصل بالهمزة، ليحقق من خلاله إنكار خيريّة النَّار، وإقرار خيريّة الجنة ، فالهمزة واسم الإشارة ينفيان دلاليا مساواة النّار بالجنة، أو نفي اشتراك النَّار في الخيريّة مع الجنة، فخيريّة النّار بعيدة التَّصور في هذا المجال ، فتطلب مع هذه الدّلالة اسم الإشارة (تلك) للبعيد[1].

وقد يرتبط اسم الإشارة بالحوار ما بين أهل الخير ، وأهل الشَّر، فتكون دلالته النَّحويّة متّجة إلى أسلوب الجمع، فيتشكَّل سياقيا في بداية الآية دون امتداد صياغيّ ،ومكانيّ في الآية نفسها، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُون ﴾[2]. فالسِّياق آثر اسم الإشارة مع الهمزة في لفظ "أهؤلاء" لِقرب المكانة، فَتَناسب هذا مع المقام الَّذي يَسير معه المَعنى؛ لأنَّ هذه الإشارة حسيّة تتطلب إيقاع نظر المخاطبين للمشار إليه لتمكين الرّؤية من الرائي للمرئيّ، فإذا تمكن الرَّائي من المرئيّ حصل لديه إقرار بما يَرى[3].

ب) الهمزة مع الاسم الموصول :

ورد هذا البناء من هذا المستوى في مكان واحد من السّور المكيّة، وظهر في بنائه الأسلوبيّ توسط حرف العطف ما بين الهمزة والاسم ،ليثبت فيه المنشئ وحدانية الله، وتصرفه في الوجود عبر جميع الأزمان، ويمثله قوله تعالى : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ *وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4].

البناء ←—— أفمن يخلق .... بناء تحويلي أصله التوليدي :

من يخلق ←— ليفيد معنى الإخبار المحايد . وهذا يساوي البناء التَّجريدي التَّالي :

همزة استفهام + حرف عطف + اسم موصول + جملة الصلة

---

[1] ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج3/ 47 ــ 49 .

[2] ــ سورة الأعراف : الآية :48 ــ 49 .

[3] ــ ينظر : الزمخشري : الكشاف : ج2/ 103 .

[4] ــ سورة النحل : الآية : 16 ــ 18 .

تلازم دلالي

يعمق دلالة الاستفهام الإنكاري

فبؤرة البناء تتّجه إلى معنى الإنكار [1]. من خلال مصاحبات السياق "أفمن" ليعقد تشبيها بين طرفين على سبيل التّوهم، والإدّعاء خارج نطاق الـ قرآن، فجاء القرآن لنفي أنْ يكون بين الطّرفين صلة من خلال الاستفهام دون حرف النّ في الصّريح، لأنّ النّفي الصّريح أشبه بالتّلقين، أمّا النّفي المستفاد من الهمزة مع الاسم الموصول، فيحتاج إلى إعمال فكر. فالفكر، فيرالذّهما من يدرك هذا النفي، فيتمكن فيه كل التمكن [2]، وفي هذه الآلة يقول ابن عاشور: "ومن مضمون الصّلتين يُعرف أي الموصولين أولى بالآلهة، فيظهر مورد الإنكار" [3]، أمّا التّلقين فيهجم على النّفس هجوما من الخارج دون تحديد الموقف بالقبول، أو الرفض، لكن استنتاج النّفوس بعلمها، وعملها، و فكرها فلا سبيل إلى رفضه عندها، فإنكار المساواة بين الله عز وجل، وبين الأصنام في هذا السّياق، تطلب حكم العقل قبل الشّرع، فالعقل يفرق بين الطرفين تفريقا بدهيا [4].

ج) الهمزة مع الجملة الظّرفيّة:

وبنية الهمزة مع ظرف الزّمان المتضمن معنى الشّرط، يرد كثيرا في السُّور المكيّة، وبطريقة متشابهة أسلوبيّا، لكنّها تختلف دلاليا حسب مفردات النّص الّذي ترد فيه، إلاّ أنّ هذا البناء يعمق دلالة إنكار، واستبعاد البعث بعد الموت، وصيرورة الأجساد عظاما، ورفاتا، لما بين هذه الحالة الّتي وصفوها، وبين الحياة من تناف مطلق تخيلوه فرضه سياق الاستفهام، ويتعمق الإنكار في البناء الاستفهاميّ من تكرار بنية الهمزة، مع بناء لاحق للبناء الأول، ليتأكد بالبناء الأول البناء الثّاني، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ

---

(1) ـ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج13/ 99.

(2) ـ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج2/ 186 ـ 187.

(3) ـ المصدر السابق: ج13/ 99.

(4) ـ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج2/ 186.

إِنْ هَذَا إِلاّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِين .[5]

البناء الأول ⟵ أَئذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا ....

البناء الثاني ⟵ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ....

البناء الأول ⟵ أَئذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي :

تكون ترابا ⟵ ليفيد معنى الإخبار المحايد، وهذا يساوي البناء التجريدي التالي :

امتداد صياغي + همزة استفهام + ظرف زمان متضمن معنى الشرط + جملة أسمية .....

↓

تعمق دلالي ينكر ويستبعد البعث بعد الموت من قبل المشركين

↑

" أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ "

فالاستفهام في البنائين على اختلاف متعلقاتهما، بقوة الاستفهام الواحد، فالهمزة عملت في السِّياق تحويلا بالزِّيادة، والتَّقديم، ليفيد معنى الإنكار، ومذهب الأئمة فيه واضح، ولكننا نخالفه ونتفق مع المطعنيّ في طرحه بعد ذكره، فيقول الزمخشري : " تكرار حرف الاستفهام بإدخاله على " إذا " و "إن"، جميعا إنكار على إنكار،وجحود إثر جحود، ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه "[1]. أما الطّاهر بن عاشور فإنَّه يسير على نهج الزّمخشريّ، فيقول :" أتوا بالإنكار في صورة الاستفهام، لتجهيل معتقد ذلك، وتعجيزه عن الجواب بزعمهم، والتَّأكيد " بــ"أنَّ" صياغيّا لمجاراة المردود عليه بالإنكار "[2].

وإنّنا نتفق مع المطعنيّ فيما ذهب إليه في المعنى الدّلالي للاستفهام، ونخالف من أوّل تظاهره في الآية على أنَّه إنكار على إنكار من جانبين الأوّل : أنَّ الاستفهام في الآية ورد من جانب البناء الأوّل أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا ،"أما البناء الثَّاني : " أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ "، فهو تأكيد للبناء الأوّل، أوْ بدل منه، فالآية تتمركز فيها دلالة إنكار واحدة نلمسها من تراكيب الآية، فلو وقف على البناء الأوّل لكان البيان ناقصا لا يفهم منه إنكار قط، فإذا قلنا : " أَئِذَا

[5] ــ سورة النمل : الآية : 66 ــ 69 .

[1] ــ الزمخشري : الكشاف : ج3/ 368 .

[2] ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج19 / 298 .

كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا "، ووقفنا عند هذا المقدار من الآية فمن أين يفهم منه الإنكار حتى نطلق عليه الإنكار الأوّل، وإنَّما يَظهر الإنكار بضميمة " أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ "، وبهذا ينتفي معنى الإنكار الثاني كما زعم الزّمخشريّ[3].

أمّا الجانب الثّاني الّذي يَدعم ما نذهب إليه نلمسه من تخفيف همزة " إنَّ "، بتقدير أنَّ همزة الاستفهام لم تسبقها هكذا " إنَّا لمخرجون "لكان الكلام وا فيا، ودلالته على الإنكار أظهر من الشَّمس في رائعة النَّهار ونلمس في البناء المؤكد " أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ " شكلا أسلوبيّا كثر دورانه في القرآن الكريم، يتجسد بإيثار بناء اسم المفعول " مخرجون " بدل الفعل الَّذي لم يسمَّ فاعله، كناية عن أنَّ ذلك الإخراج محال ؛ لأنَّه ليس له فاعل في الوجود، فقد توصلوا بنفي الفاعل إلى نفي الفعل، وهو الإخراج، وهذا النَّوع من الكنايات حفل به النَّظم القرآنيّ، حسب المعاني الَّتي أرادها المحكي عنهم، ولا يلزم أن تكون الحكاية فيه بالألفاظ، والتَّراكيب البلاغيَّة دائما .

2 . 1 . 2 : بنية " هل " الاستفهاميّة :

وهي حرف استفهام لطلب التَّصديق الموجب، وقرينة الهمزة في كثرة استعمالها، فلا يستفهم بها إلاَّ عن مضمون الجملة، أيّ عن الإسناد الَّذي فيها، ولذلك لا يكون جوابها إلا "نعم" أو "لا" يُستفهم به على السَّواء عن مضمون الجملة الفعلية نحو : "هل قام زيد؟ "، وعن مضمون الجملة الاسميّة نحو : "هل عمرو قاعد؟ "، إذا كان المطلوب حصول التَّصديق بثبوت القيام لزيد، والقعود لعمرو[1].

وقد ذهب البلاغيّون إلى أنَّ "هل" قسمان : "بسيطة" ، و "مركبة"، فقال القزوينيّ فيها :"البسيطة : هي الَّتي يطلب بها وجود الشَّيء، كقولنا : هل الحركة موجودة؟، أمَّا المُركبة فهي الَّتي يُطلب بها وجود شيء لشيء، كقولنا : هل الحركة دائمة؟ "[2]، فالبسيطة

---

(3) ـــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج3/ 179 ـــ 182 .

(1) الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني النحويّ (384هـ) : **معاني الحروف**، تحقيق : عبدالفتاح اسماعيل شلبي، دار الشروق، جده، ط 2، 1981م ص : 102 . والمرادي، الحسن بن قاسم : الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق : فخرالدين قباوه، ونديم فاضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1983م . ص : 30 .

(2) ـــ القزويني : الإيضاح : ج1/ 133. السبكي، بهاء الدين أبي حامد أحمد بن علي السبكي (773هـ) **عروس الأفراح، في شرح تلخيص المفتاح**، تحقيق خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001م.: ج1/ 529 .

لبساطة المسؤول عنه فيها، فهي سؤال عن وجود الشّيء نفسه، أو عدم وجوده، أمّا المركّبة فتتجه دلالتها لتركيب المسؤول عنه فيها، فهي سؤال عن وجود الشّيء نفسه لشيء آخر، أو عدم وجوده، فالمعتبر فيه، وجود الحركة ودوامها [3]. إلاّ أنّنا نخالف القَزويني في ما ذهب إليه؛ لأنَّ البساطة والتركيب هما في المسؤول عنه، وليسا في " هل" وهذا ما نبه عليه السبكي بقوله : " البساطة والتركيب ليسا في "هل" بل في متعلقها" [1].

وبنية " هل" فيها إثارة إلى لفت الوجدان إلى التَّفكر، والغوص في الموقف، والبحث عن وجه الصَّواب، ثمَّ نجد سلسلة من التَّداعيات والرؤى تثار في القلب، والخاطر حول هذه الحقيقة الَّتي يطرحها البناء في دلالاته المختلفة الّتي يَرد عليها، فالبناء في صياغته يخدم الوظيفة الانفعاليّة، أو الإفهاميّة تبعا لضغوط السِّياق الخارجيّ، والداخليّ، فهي تحتاج إلى تمعن، وتدبّر في الصِّياغة، والسِّياق المحيط بها للوصول إلى مغزاها، والغرض منها؛ لأنَّ أكثرها سوانح وإشارات تكون مختفية، وملتبسة بنسيج النَّص، وتحتاج إلى مراجعة طويلة للبنية الكليِّة، والسِّياق العام . وبنية "هل" وردت في السُور المكية في ثمانية وسبعين موضعا، فاستعمل النّص البناء لإفادة التَّقرير مع الإثبات، أو التَّشويق إلى استماع ما بعدها من قصة أو خبر، وقد تأتي للتَّحدي والوعيد، وقد تكون للتَّعجيز مع التَّهكم، أو للتلطف في الطلب أو العرض . والأبنية التي تشارك هل يمكن تقسيمها إلى قسمين : الأوّل: بنية هل مع الجملة الفعلية، الثَّاني: بنية هل مع الجملة الاسميّة.

أوّلا: بنية "هل" الاستفهاميّة مع الجملة الفعليّة:

يكثر ورود بنية هل مع الجملة الفعلية ويتشكل البناء من حيث الزَّمن من جانبين دلالة الزّمن الماضي، ودلالة الزّمن الحاضر.

أ) دلالة الزّمن الماضي مع بنية "هل"، وهذا يساوي البناء التَّجريدي التَّالي:

وأوّل ما يطالعنا في بنية "هل" مع الفعل الماضي دلالة التَّشويق، وإثارة الذّهن نحو ما قبل المستفهم عنه ليتمكن المعنى في الوجدان كل التَّمكن، ومنه قوله تعالى : ﴿اللَّـهُ لا

---

(3) ــ ينظر: التفتازاني: شروح التلخيص: ج2/271 ــ 272.

(1) ــ السّبكي: عروس الأفراح:ج1/ 529. وقيس الألوسي: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين،ص:361.

إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى * وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى *فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى *إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[2].

فالبناء من المستوى الصياغي بناء تحويليّ، جرى التَّحويل فيه بالزِّيادة والتقديم والتأخيرللتشويق، يقول ابن عاشور : " الاستفهام مستعمل في التشويق إلى الخبر مجازا، وآثر النص "هل" في المقام لما فيه معنى التحقيق "[1]. وأسلوبية البناء تتحقق من قرائن مختلفة، نجد في مقدمتها حرف العطف " الواو" الذي يتصدر البناء، ليمكنَّ دلالة النص الإيحائية لربط ما تقدم على البناء بالبناء نفسه، وما بعده، فالعطف، والاستفهام بـ"هل" أحكما قبضتهما على الفعل الماضي "أتاك"، وسهلا أمامه مهمة الحديث، بأسلوب التشويق ليجعل المتلقي في حالة إصغاء تام لهذا الخبر، أو الحدث الّذي يحمله الاستفهام، فالتشويق يتمركز في بؤرة المفعول به، ولهذا قدَّمه البناء التّحويلي، وأخّر الفاعل" حديث " للإثارة التي تتبع الدّلالة، كونه حديثا عن الأمم السَّابقة، فدلالة التَّشويق تتطلب التَّقديم والتَّأخير في متعلقات البناء ليحكم السيطرة على الدِّلالة المركزيِّة، والفرعيّة للبنية الاستفهاميّة، وهذا الأسلوب قلَّ نظراؤه في غير القرآن الكريم . ودلالة التشويق تتسع دائرتها مع بنية "هل"، والفعل الماضي، فتصحب إلى جانبها دلالة التَّقرير في قوله تعالى:﴿فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ *هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ *فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[2].

فالبناء يتجه في دلالته السَّطحية إلى التّعريض بذكر قصة إبراهيم، فيقول الزَّمخشريّ في هذه الدِّلالة : " إنَّه تفخيم للحديث، وتنبيه على أنَّه ليس من علم رسول الله، وإنَّما عرفه بالوحي"[3]. أمّا ابن عاشور فيذكر : " أنَّ الخطاب وُجّه للنبيّ عليه السَّلام من أجل تسليته على ما لقيه من تكذيب قومه ... ويتبع ذلك تعريض بالسَّامعين حين يقرأ عليهم القرآن، أو يبلغهم بأنَّهم صائرون إلى مثل ذلك العذاب لاتحاد الأسباب "[4]، وحديث ابن

---

[2] ــ سورة طه : الآية : 7 ــ 10 .

[1] ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج16/ 101 . وينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج2/ 299 ــ 301 .

[2] ــ سورة الذاريات : الآية : 23 ــ 25 .

[3] ــ الزمخشري : الكشاف : ج4/ 391 .

[4] ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير :ج27/ 23.

عاشور يلتقي بالحديث الّذي ساقه المفسرون الّذين سبقوه، لكنّه يضيف على ما قالوه معنى التّفخيم لشأن الحديث، أو المستفهم عنه، تسلية للنبيّ عليه السَّلام، ووعيد السَّامعين من مشركي مكة.

أمَّا بنية العمق الدّلالي فإنَّها تتجه إلى معنى التَّشويق، والتَّشويق مدخل التَّسلية الّتي يتبناها المفسِّرون، فتولدت من مفردات النَّص، ولتحقيق تلك الدِّلالة في البنية العميقة آثر النَّص بنية "هل" دون غيرها، لتوكيد ما تفيده من تحقق المستفهم عنه، في تفخيم شأنه، وتشويقا للمخاطب ــ النَّبيّ عليه السَّلام ــ فالمخاطب يلتفت التفاتا تاما لسماع ما يقال من المنشئ، كون بنية " هل" صوتٌ لا يَقْصد لذاته، وإنَّما لما بعده، فهو تمهيد مثير للذِّهن، ومحرِّك للمشاعر، وطارد لشواغل السَّامع، ليقبل على ما يقال وقد صفا ذهنه، ووعي قلبه، فيتمكن المعنى في النّفس كل التَّمكن، وبهذا الأسلوب يكون المخاطب الخاص مشاركا فعالا في الخبر، بعد تلقيه ونشره للمتلقين، ومن هنا تتولد دلالة التَّقرير، فبؤرتها تنطلق نصيا من المستفهم عنه ضيف إبراهيم المكرمين "، كون لفظ "ضيف"جاء سياقيا مفردا أضيف إلى معرفة ليفيد العُموم المُطلق، وهذا العموم معلوم لدى المتلقين، ومقرين به بعد سماعهم الحديث من المتلقي الأول، وبهذا الأسلوب يكون التَّشويق للمتلقي الأوّل من الوحي للنّبيّ عليه السَّلام، والتَّقرير للمتلقي الثَّاني بوساطة النّبيّ عليه السّلام للمتلقين الّذين يسمعونه وقت إبلاغهم الخَبر، وبوساطة النَّص القرآنيّ للمتلقين الّذين يقرؤون النّص القرآنيّ بعد النّبيّ عليه السّلام.

ومنه يأتي بعكس دلالة التَّشويق إلى التّهويل لما يقع يوم القيامة، من أحداث تشيب لها الرُّؤوس، فالمتلقي الحقيقي ــ المُفَضَّع به ــ مُغيَّب عن البناء النَّصيّ، ليقوم مقامه ما يحيط به لانحطاط مكانته، وقد ورد ذلك في قوله تعالى : ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[1].

فالبناء الأوّل: " هَلِ امْتَلَأْتِ..." خطاب يتجه إلى النَّار من الله عزَّ وجل لا ليعلم مجهولا عنه ــ حاشا لله ــ بل لتخويف العباد من النَّار، والعمل على النَّجاة، فآثر السِّياق بنية "هل"مع الفعل الماضي " امتلأ" بعد امتداد صياغيّ سبقه، ليفسح المجال أمام البنية بالتَّمركز في بث الدّلالة، ليشعر المتلقي من خلالها إلى كثرة من ألقي في النَّار ساعة

[1] ــ سورة ق: الآية: 29 ــ 31.

يقال لها هذا الخطاب، فالمعنى يتّجه إلى بث الرَّهبة، والخوف لدى المتلقين، والخوف يزداد عندما يتيقن أنَّ النَّار لا تمتلئ بلْ تطلب المزيد حينا بعد حين، وقد تشكَّل هذا في البناء الثَّاني من خلال الفعل المضارع "تقول" ليحقق غايتين : الأوّلى : بيان قدرة الله عزَّ وجل في خلقه، ومخلوقاته، فهو يُنْطِق النَّار متى شاء، وحيث يشاء، والثَّاني : إنذار للعصاة من نار جهنم، وبيان حالها التي تكون عليها يوم القيامة، وأنَّها تطلب المزيد.

أما دلالة التَّقريع، والتَّفاوت فلها حضور كبير في سياق هذا البناء، لتولد نسقا حواريا يمثل الضّدية في مركز الحوار، وبؤرة الدّلالة، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾[1].

فالسِّياق البنائيّ للاستفهام سياق منطقيّ، يفرضه النّص على واقع الدّلالة الكليّة، والجزئيّة من خلال البنية السّطحيّة، فجرى في البناء التّحويل بالزّيادة، والتّأكيد والحذف، فهو سياق محاورة بين ضدين أصحاب الجنّة، وأصحاب النّار، والمحاورة تشكلت دلالتها من سياق الفعل الماضي " نادى" ليومئ ببعد المسافة ما بين الفريقين المتحاورين، واتّساع المكان لديهما، وحدث المناداة واقع، ومنظور لدى المتلقي ما بين أصحاب الجنَّة، وأصحاب النَّار، أكده تكرار لفظ " أصحاب " مع الفريقين، ليشكّل هذا التَّكرار حالة تقرير لدى السَّامع، ودلالة التّقرير المتمركزة عند المتلقي استدعت بنية "هل" دون الهمزة، لتتوافق دلاليا، وسياقيا مع فعل المناداة من جانب، وتنقل صدق الإجابة من أصحاب النَّار " بنعم " من جانب آخر، فالبنية حققت الواقع الّذي يسألون عنه، بتأكيد بعد المسافة ما بين أهل الجنَّة، وأهل النَّار، وعلو مكانة الفريق الأوّل، ودنو مكانة الفريق الثَّاني، وبهذا التَّفاوت تعمق معنى التَّقريع والتَّوبيخ.

ولا تقف بنية "هل" مع الفعل الماضي المبني للمعلوم، بل تتجاوزه إلى المبني للمجهول، لتقدم بمعيته معاني جمة يفرضها السّياق البنائيّ للاستفهام، منها " التّوبيخ/ التهديد/ الوعيد/ التقريع/ التهويل/ التهكم/ الشماتة..."، فالشّماتة مثلا تتمركز دلالتها بالحوار، ولكنّه حوار انتقالي بين حياتين متعاكستين : الأولى في الدّنيا، والثّانية : في الآخرة، فالحياة الأوّلى : يَسخر فيها الفجّار من أهل الصّلاح، وفي الثّانية: يسَخر أهل الجنّة

[1] ـــ سورة الأعراف: الآية: 43 ـــ 45.

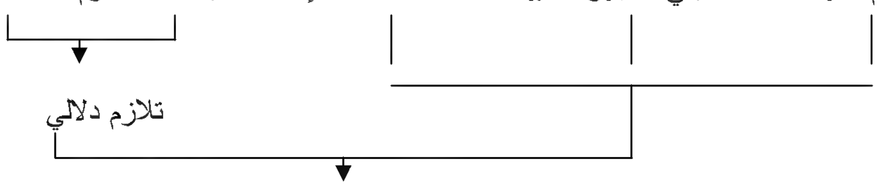
من الفجّار، وبهذا الحوار الانتقاليّ من بين الحياتين تتولّد دلالة الاستفهام بين الفريقين، لتشكّل حالة من التَّرقب بين المنشئ ــ المُستَفهم ــ والمتلقي، ومنه قوله تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[2] .

فالمستَوى السّطحي لبناء الاستفهام يشير إلى تحويل جرى فيه بالزّيادة، والحذف، والإبدال ليفيد معنى السَّخرية، والشّماتة، والتّفكه، والضّحك، فيقول الزّمخشريّ : " يضحكون منهم ناظرين إليهم، وإلى ما هم فيه من الهوان، والصَّغار بعد العزَّة، والكِبر "[1] . ولتحقيق المعنى الدّلالي المُشار إليه استدعى سياقيا بنية "هل" مع الفعل المبني للمجهول " ثُوِّبَ"؛ لأنَّ إثابة الكفار إثابة حسنة ليس لها فاعل في الوجود، فحُذف على إثر هذه الدِّلالة الفاعل وبُني الفعل للمجهول هذا من جهة، ومن جهة ثانية : أنَّ الثواب يجازى به عن فعل الخير ــ كما ورد في الصحاح[2] ــ وهو الأساس، واستعماله في الجزاء للتَّهكم والشّماتة. والخطاب بهذا الأسلوب موجَّه إلى غير معين، بل إلى كلِّ من يسمع ذلك النّداء يوم القيامة، ومن لطائف البناء الأسلوبيّة أنَّه استعمل في الجواب الفعل المضارع "يفعلون" دون " يعملون " لما في الفعل من معاني التّسرع، والفجاجة، والعشوائيّة، والعراء من المقاصد الشَّريفة، فيتفق دلاليا وجزاء الكفار، وإثابتهم على كفرهم نار جهنّم[3] . ومن بناء التّهديد والوعيد المصاحبة لهذا الأسلوب ــ الفعل المبني للمجهول ــ نجد قوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[4] .

البناء ← فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ← بناء تحويلي أصله التوليدي :

يهلك الله القوم الفاسقين، ليفيد معنى الإخبار المحايد، وهذا يساوي الشكل التجريدي التالي :

عنصر استفهام " فهل" + فعل مبني للمجهول " يهلك" + أداة استثناء " إلا" + نائب فاعل" القوم" + نعت " الفاسقون"



[2] ــ سورة المطففين : الآية: 34 ــ 36 .

[1] ــ الزمخشري : الكشاف : ج4/ 711 .

[2] ــ الصحاح : مادة " ثاب" .

[3] ــ ينظر :المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج4/ 351 وابن عاشور : التحرير والتنوير : ج30/ 191 ــ 192 .

[4] ــ سورة الأحقاف : الآية : 35 .

فالبناء التَّحويلي للسّياق يوجه دلالــة التّهديــد، والوعيــد للمتلقــي بطريقــة غيــر مباشرة، نستشعرها من أسلوب التَّعريض الّذي طرحه البنــاء، فتــشكّل التّعــريض مــن زاويتين: الأولىاستخدام الفعل المضارع الـ مبني للمجهــول "يُوعــدون" لــسبق العلــم بالفاعل، وهو "الله" عزَّ وجل، فالغرض منه وقوع الموعود به في نفسه دون افتقاره إلى تعيين فاعل محدد[1]. الثّانية: نلمسه من ثنايا الجملة القصريّة "لَمْ يَلْبَثُــوا إِلا سَــاعَةً مِّــن نَّهَارٍفالجملة قيدت السياق بساعة من نـ هار؛ لأنَّ النهَّار وقت حركة وانتباه، فــيحسّ فيــه الإنسان بالنّعمة إحساسا قويا، والتّعريض من هذه الزّاوية شكل مفارقة كبيرة ما بين حياة الكفرة في الدّنيا، وحياتهم في الآخرة، وهذه المفارقة أنتجت على مستوى الصّياغة أسلوب الاستفهامهَلْ يُهلك إلاّ القوم الفاسقو ن" لتحقيق واقع الهلاك للقوم الكافرين علــى ســوء عملهم[2]. وبهذا الطّرح الأسلوبيّ يكون المتلقي قد وصل إلى أعلى درجات التّصديق بواقع هلاك القوم الفاسقين يوم القيامة.

وبنية "هل" مع الفعل الماضي بحالتيه المبني للمعلوم، والمبني للمجهول، شكّلا لنا نسقا أسلوبيًا نكاد نخفيه يتمثل في جانبين : حديث البناء عن أخبار الأمــم الــسّابقة، وحــال الأنبياء معهم، والثّاني : حديثه عن يوم القيامة، وأحواله المقسومة على أهل الجنّة، وأهــل النّار، فالبناء قد عمّق لدى المتلقي حقيقة الأمم السّابقة، ويوم الآخرة.

ب) دلالة الزَّمن الحاضر مع بنية "هل":

وردت بنية الحاضر مع الاستفهام بــ "هل" ليشكّل دلالة سياقيّة تمــس حيــاة المتلقــي منذ انطلاق الحديث، وحتى قيام الــسَّاعة، فــالمتلقي فيــه ينقــسم إلــى قــسمين : الأوّل خاص، والثّاني عام: فمن جانب المتلقيّ الخاص نجد حوارا لطيفا يقــع بــين آدم عليــه السّلام، وإبليس في الجنة في قوله تعالى : ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّــكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى * فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَــا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[3].

البناء ⟵ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي:

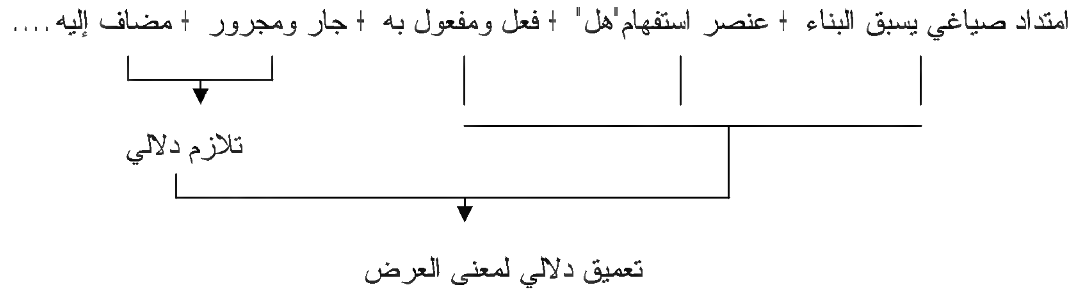
أدلك على شجرة الخلد، ليفيد معنى الإخبار، وهذا يساوي التجريد البنائي التالي:

---

[1] ــ ينظر: الزمخشري: الكشاف: ج4/ 305.

[2] ــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام:ج4/ 109 ــ 110.

[3] ــ سورة طه: الآية: 120 ــ 121.



فالتّحويل جرى في التّركيب الاستفهاميّ من خلال الزّيادة، والحذف، وإعادة التَّرتيب لإفادة معنى العرض، وفيه يقول ابن عاشور : "الاستفهام مستعمل في العرض "[1]، ودلالة العرض تتطلب بناء خاصا ليحدث التَّصديق، فاستعمل "هل" دون الهمزة؛ لأنَّها تفيد التَّحقيق مع الحوار، فإبليس الطَّرف الأوّل في المحاورة عليه من الله لعنة يصرّ على خداع آدم الطَّرف الثَّاني، وإيقاعه بالمحظور، فلمس في نفس آدم الموضوع الحسّاس "العمر" و " القوة"وآدم في الجهة المقابلة مخلوق له ميل فطريّ قليل التَّجارب، فالسِّياق مثّل ذلك بإضافة لفظ " شجرة " إلى لفظ " الخلد" ليزيد في عرضه لآدم، وعطف لفظ "ملك" على لفظ "شجر" لقصد التّدرج في الإغراء من الأخص إلى الأعم، أما تنكير لفظ "ملك" لتدل على تفخيمه، وتعظيمه بدلالة المقام، وبهذا النَّسق الأسلوبيّ يكون السِّياق عمق معنى العرض، والتَّدرج، والإغراء، لا مجرد العرض الَّذي أشار إليه ابن عاشور، فيقع آدم ضحية هذا الإغراء كونه المخصوص بالخطاب، دون إشراك حواء، فآدم بالنسبة لإبليس محط الإغراء، والأصل فيه، وحواء تابعة له، لما له عليها من قوامة [2]. ومنه يأتي بعد امتداد سياقيّ، فيكون البناء متّصلا بحرف العطف، ليخلق على مستوى الصّياغيّة اللَّفظية حالة من التَّماسك النَّصيَّ، لتشمل القبليّ، والبعدي لبناء الاستفهام، ممَّا يُسهم في تعميق بؤرة الحدث بأسلوب حواريّ يثير الوجدان لطلب المعرفة، والبحث وراءها بكلّ السُّبل المتاحة، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾[3].

البناء ← فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ← بناء تحويلي أصله التوليدي:

نجعل لك خرجا، ليفيد معنى الإخبار المحايد، وهذا يساوي الشّكل التّجريديّ التّالي:

عنصر استفهام"هل" +فعل وفاعل + جار ومجرور + مفعول به ....

---

[1] ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج16/ 195.

[2] ــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام:ج2/ 330 ــ 331. والزمخشري: الكشاف: ج3/ 90 ــ 91.

[3] ــ سورة الكهف: الآية: 94.

فالمستفهمون استفهموا بـــ " هل" دون الهمزة لرغبتهم الشّديدة في استجابة ذي القـــرنين ، فهي تفيد معنى التّصديق والتّحقيق، أما الهمزة فهي للتصور [4]، وتسلّط البنـــاء فـــي الصِّياغة على لفظ "خرجا" ليجسّد فيه معنى العرض الّذي عرضوه على ذي القرنين .

أمّا القسم الثَّاني من هذا المستوى فيأتي من دلالة العام، فيكون فيــه المــتكلم مفــردا والمتلقي عاما، بل جمعا ينكرون فيه وحدانية الله عزَّ وجل، ومنه قوله تعالى : ﴿وَقِيـلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ۝مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنـصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَـصِرُونَ ﴾[1]. فالـسِّياق الأسلوبيّ للتَّركيب أسند البناء إلى غير معلوم، فالخبر يطرح للتعلـق بمعرفـة القـول لا بمعرفة القائل، فآثر من خلال هذا الإسناد استخدام " هل" لتحقيق دلالة الإنكار، مما تطلب صياغيا مجيء الفعل المـضارع " ينـصرون " دون الماضـي؛ لأن سـياقه يخاطـب المشركين، وهم في أشد الحاجة إلى من يدافع عنهم حالا ومستقبلا[2].

ويأتي منه قوله تعالى : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْـلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُون ﴾[3]. ليحمل في طيات بنائه السَّطحيّ معـاني الرّقـة واللّطف، واللّين لِما تَشعر به المتكلمة نحو الطفل من إشفاق ورأفة، أما المستوى البنـائيّ التَّركيبي للاستفهام تتمحور مركزيَّته في لفظي " أهلٍ " و " بيت" النَّكرتين لتبعد، وتجهـل المتلقي صلتها بالطِّفل، حتى لا ينكشف أمرها، وأمر أمّها، وأخيها [4]، فأخرجت المتكلمـة الحديث مُخرج النّصح العام . ونلمس أنَّ مسألة القلق على موسى عليه السلام فـي بيـت فرعون، قد سرى أمره فـي المدينـة، ودلائلـه أنَّ أهـل فرعـون طلبـوا النّـصيحة من النّاس، فـدخلت أخـت موسـى مـع الـدّاخلين، وأبـدت نـصيحتها كمـا أبـدى غيرها " هل أدلكم "، فقرائن البناء آثرت مع هذا الإرشاد الّذي نطقت به أخـت موسـى استخدام الفعل " يكفلونه " على " يرضعونه"؛ لأنَّ الكفالة أعم من مجرد الإرضاع، فهـي تشمل القيام بكلِّ شؤونه، ورعايته بخلاف الإرضاع، فليس فيه إلا مجرد الإطعام، وهـذا

---

(4) ــ ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير :ج15/ 133 .

(1) ــ سورة الشعراء : الآية : 92 ــ 93.

(2) ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج3/ 102 . والألوسي : روح المعاني : ج19/ 102 .

(3) ــ سورة القصص : الآية : 12 .

(4) ــ ينظر : الزمخشري : الكشاف : ج3/383 .

يدل على لطف أخت موسى في العرض والطَّلب، وترغيب آل فرعون في الأخذ برأيها، مع ما يدل عليه المضارع " يكفلونه"من معاني تجدد الرِّعاية في حال ومستقبل " الطّفل "، ومما مكّن حرص المتكلمة على الرّعاية سياقيا الجار والمجرور في لفظ " لكم " لترقيق قلوب آل فرعون، وقبول ما تعرضه عليهم، لتأمين مستقبل أخيها، وهم لا يشعرون، وآثرت القرائن لتحقيق ذلك الجملة الاسميّة " وهم له ناصحون" على الفعليّة إشارة إلى شدة رغبتها في قبول عرضها، وإشعار آل فرعون بالاطمئنان على راحة " الطّفل"[1]وفي هذا يقول سيد قطب : " تلقفوا كلماتها، وهم يستبشرون، يودون لو تصدق، فينجو الطّفل "[2]، وقد كان من الله ما أراد .

ثانيا : بنية " هل " الاستفهامية مع الجملة الاسميّة :

يلجأ النَّص القرآنيّ إلى إيجاد لون من التَّأثير المتبادل بين التَّراكيب، ووحدات رسالته عن طريق التَّماس الدِّلالي بين الألفاظ المتجاورة، سواء أكان في البناء الفعليِّ للاستفهام، أو الاسميّ، مما يعمّق فاعلية الفيض الدِّلالي الَّذي تشعه اللّفظة الأولى على الثَّانية الّتي تجاورها، فيؤدي إلى حدوث إزاحة لدلالة اللفظة، أو تمازج بين اللفظتين، وفناء إحداهما في الأخرى، أو تحوير للمفهوم في معنى اللفظة الأولى، وصرفه إلى معنى آخر، واللّغة بهذه الاعتبارات تمثل نظاما خاصا يتصل بالأنسقة، و يخضع لاعتبارات تتحكم في علاقاتها . فمثلا السِّياق النّصيّ تقوم بين ألفاظه علاقات تعتمد على البعد الزّمني كخط مستقيم، يحفظ التَّوازن في عملية الكلام، ولا يتم هذا إلا بتنزيل كلِّ لفظة منزلتها من الصِّياغة،وهذا ما لمسناه في بناء الجملة الفعليّة مع بنية "الهمزة"،وبنية "هل" .

غير أنَّ هناك طبيعة تجاوريّة تهيئ لبعض الألفاظ أنْ تستقر في مكان محدد عن طريقه تتلون الدِّلالة بطبيعة إيقاعية مميزة، ولا يمكن أن تنفصل هذه الطّبيعة عن واقع النّص وقصده، ذلك أنَّ الأمر الّذي يدعوه إلى تقديم صياغته على نحو معين قد يتصل بزمن الصِّياغة فيسمى " الحال"، وقد يتصل بمحلها فيسمى " المقام "، والمقام يتصل بالعلاقات التَّجاوريّة بين الكلمات، والجملة الاسميّة في هذا البناء بما تحويه من أبنية، وألفاظ تمثل رأس الهرم بالعلاقات التَّجاوريّة للنَّص، مما يعطي للمعنى صفة

---

[1] ــ المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج3/ 191 ــ 192 .

[2] ــ سيد قطب : في ظلال القرآن : ج5/ 2680 .

التّداخل، من خلال المستوى الصّوتي، وربطه بالمستوى الدّلالي مع الأخذ بالاعتبار البعد المكانيّ، والزمنيّ لتتولد من البناء الاسميّ، والفعليّ جمالية التّعبير، وعمق الدّلالة[3].

والجملة الاسميّة مع بنية "هل" الاستفهاميّة تدخل في سياق السّور المكيّة، وبأشكال دلالية مختلفة يفرضها سياق البناء الأسلوبيّ المتعدد، فوردت البنية مع المبتدأ والخبر بأساليبه وأشكاله الّتي يأتي عليها من ظرف، وأسماء إشارة .... وفيها نلمس الحركة الذّهنية والانفعاليّة المتولدة عنها، عندما تبلغ الدّلالة العميقة أقصى غايات الإثارة، ويمكن تقسيم هذا البناء إلى أقسام وأبنية أسلوبيّة مختلفة:

أ) بنية " هل " مع الخبر المقدم على المبتدأ (شبه الجملة، والظرف):

وهذا البناء من أشهر الأنماط الأسلوبيّة، إلاّ أنّه يتنوّع بتنوّع حرف الجر المستخدم في السياق، فمنه بنية "هل" مع حرف الجر " على"، وقد ورد مرة واحدة في السّور المكيّة، في سورة النّحل، في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[1].

البناء ← فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِين ← بناء تحويلي أصله التوليدي:

البلاغ على الرسل، ليفيد معنى النفي، والإنكار، وهذا يساوي البناء التجريدي التالي:

عنصر استفهام "هل " + شبه جملة خبر مقدم "على الرسل" + أداة حصر "إلا" + مبتدأ مؤخر ....

البناء التّجريدي للاستفهام يشير إلى أنَّ بنية " هل " بنية تحويليّة، جرى التّحويل في البناء التّوليديّ، بالزّيادة، والتّقديم، والتّأخير لإفادة معنى النّفي، والإنكار، فابن عاشور يحدد ذلك ويقول : " الاستفهام بـ"هل" إنكاريّ بمعنى النّفي، ولذلك جاء الاستثناء بعده"[2]، ولتحقيق دلالة النّفي آثر البناء " هل " دون غيرها مع شبه الجملة، ليرد شبهة المشركين ويبطلها، فمهمة الرّسل من تمام كل رسالة سماوية.

ومنه ترد البنية الاستفهاميّة مع حرف الجر "من"، بعد امتداد سياقيّ في الصّياغة اللّفظية، وتشكّل هذا النّمط في سبعة مواضع أسلوبيّة تتشابه من حيث البناء، إلا أنّها تختلف من حيث الدّلالة المعنويّة، الّتي تأتي عليها في السّياق القرآنيّ، فيقول تعالى : ﴿قُلْ

(3) ــ ينظر :عبد المطلب، محمد: **جدلية الإفراد والتّركيب في النّص العربيّ القديم** ، مكتبة الحرية الحديثة، القاهرة، الطّبعة الأولى، 1984. ص: 119.

(1) ــ سورة النحل: الآية: 35.

(2) ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج13/ 119.

هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[3]. البناء التَّجريديّ:

الدال الأول ⟵ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ............

الدال المكرر الثاني ⟵ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ.......

فالبناء في الدالين المكررين ⟵ بناء تحويليّ، أصله التّوليديّ: الّذي من شركآئكم يهدي، ليفيد معنى الإخبار.

وهذا يساوي البناء التّجريديّ التّالي:

عنصر استفهام "هل" + شبه جملة خبر مقدم + مبتدأ "اسم موصول" + جملة فعلية....

فالبناء من المستوى السّطحيّ يتجه أفقيا نحو مواجهة عقيدة الشّرك من خلال فعل الأمر " قل " ليسحقها سحقا فوريا، فتطلب أسلوبيّا مع دلالة السّحق بنية "هل" ليؤذن باستقصاء التحقيق مع المخاطبين، لإزالة شبهاتهم في وقت القول، وبيان عجزهم، ولا يتم هذا البيان، والحسم الفوري إلا من خلال شبه الجملة " من شركائكم "، ليعم العجز كلَّ الشركاء فردا فردا، وفي كلِّ الأزمان، فاستخدم لهذه الدلالة الفعل المضارع في الدالين المكررين" يبدأ / ويهدي"[1]. أما بنيته العميقة لا تتعارض مع البناء السَّطحي، بل تتجه إلى انتزاع الأدلة من البديهيات المسلّمات، ليتسرب الحجاج إلى القلوب في رفق وإحكام، ويستثير المشاعر، والوجدانيّات فيحوّل خصوم الحقِّ إلى خصومة بينهم، وبين أنفسهم، فيعمق هذا معنى الإنكار، ويقرُّ لهم سفاهة أصنامهم الّتي يعبدونها[2].

ويمتدّ هذا المستوى البنائيّ من حيث الصّياغة، ليشمل أغلب موضوعات العقيدة في أغلب تشكيلاته الأسلوبيّة، فثمة أمثلة تدعو النّاس جميعا للإقرار بنعمة الله عليهم وشكرها، وتقريرهم بالله خالقا، ورازقا، ومنفردا بالألوهية، وأنَّ الإيمان بهذه الحقائق، لا مَصْرِف عنه ينصرف إليه، منكفر وعاند، فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا

(3) ــ سورة يونس: الآية: 34 ــ 35.

(1) ــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام:ج2/ 51 ــ 52.

(2) ــ ينظر تفسير أبي السعود: ج4/ 143 ــ 144. والألوسي: روح المعاني: ج11/ 113. والبحر المحيط:ج5/ 155 ــ 156 والرازي: ج17/ 92 ــ 93.

نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[3].

فالبناء يتشكل من قوله " هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ"، فيتحرك في نطاق الهيمنة المطلقة، هيمنة الصدارة، والمعنى، فالصدارة تتولد من دخول حرف الاستفهام "هل" على شبه الجملة "من خالق"، لاستغراق أفراد الجنس المنفي وشموله، فالخالق الذي يعبدونه "معدوم"، فجاء سياقيا بحالة التّنكير، ليطابق الواقع إذ لا خالق غير الله، وفي هذا السياق يقول ابن عاشور : " الاستفهام إنكاري في معنى النفي، لذلك اقترن ما بعده بحرف الجر "من"لتأكيد النفي، واختير الاستفهام بـ "هل" دون الهمزة، لما في "هل"من الدلالة على التحقيق والتصديق "[1]. ومصطلح (الانعدام) لم يسبق ذكره عند علماء البلاغة، بل هذا من مصطلحات المطعني الذي توافقه الدراسة؛ لأنَّ النَّفي والإنكار لا يكفيان في توجيه مركزية الاستفهام، فالبناء في كثافته الدلالية يتم التَّوصل فيه إلى المطلوب عن طريق المهارة العقلية، باستخدام الا ستنتاج المنطقيّ، حيث يتم تعميق التّداخل الدّلالي في هذا البناء عن طريق توجيه بؤرته الدّلالية، وتركيزها حول تراكيب، ومفردات لا يتوقعها المخاطب، ولا يريدها، كما أنّه يوجه السِّياق الاستفهاميّ الحواريّ نحو خدمة المتكلم باستخدام كافة الإمكانات، والمهارات ا لعقليّة، واللّفظية الّتي تؤدي في النّهاية إلى إقناع المخاطب، وتسليمه بما يريد المتكلم.

وثمّة مظهر يأتي منه هذا المستوى، يتمثّل بشبه الجملة الظّرفية، الّتي وردت في موضع واحد في السّور المكيّة، وخاصة مع ظرف المكان، ليقرع المخاطب بعد تمهيد يجعل فيهالنّهاضرا ، بتوجيه طلب إليه من قبل المتكلّم، فيقول تعالى : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّ نْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾[2].

البناء ⟵ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي:

العلم عندكم، فجرى التحويل بالزيادة، والترتيب لتفيد معنى الإخبار، وهذا يساوي:

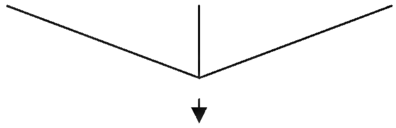
عنصر استفهام بـ"هل" + شبه جملة ظرفية" عندكم" خبر مقدم + حرف جرّ زائد + اسم مجرور لفظا" مبتدأ مؤخر"...

---

(3) ـ سورة فاطر : الآية: 3.

(1) ـ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج22/113 وينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج3/302.

(2) ـ سورة الأنعام: الآية: 148.



توافق دلالي

وبالتحّويل البنائيّ لجأ السياق في التّركيب إلى الصّياغة الفعلية، مصدّرًا البناء بفعل الأمر" قل "، ليفسح المجال أمام المتلقي، أن يكون حاضرا بعقله، ووجدانه لتلقي رسالة المتكلم ذات الأهمية الكبرى في مواجهة الخصم المعاند، فاستلزم صياغيا، وأسلوبيّا بنية "هل"الاستفهاميّة دون غير ها، لتشير إلى أنَّ المطلوب من الاستفهام يجب تحققه لدى الخصوم، وأنَّ المأمور بالقول ينبغي أن يشدد من خلالها على الخصوم، بالإتيان به، وهو دليل زعمهم، وأن لا يفرط فيه بغية إظهار عجزهم، فدخلت "هل" على ظرف المكان "عندكم"حتى لا يمتدَّ الاستفهام إلى بقية الجملة ، وينحصر مع الظرف في المبتدأ "من علم" لبيان عجزهم في الإتيان بأي أثر من آثار العلم، ولو كان تافها، وعجزهم عنه يستلزم من باب أولى، عجزهم عمّا له اعتبار من العلم [1]؛ ويوجّه ابن عاشور ذلك، فيقول : " إنَّ دخول "هل" على الظّرف "عندكم" موقع حسن؛ لأنَّ لفظ "عند " في الأصل تدل على المكان المختص بالَّذي أضيف إليه لفظها، فهي ممَّا يناسب الخفاء "[2]، والخفاء يتفق دلاليّا، وسياقيّا بخفاء حاجة العقل، وصواب الرَّأي، فالمكان الظَّرفي "عندكم" يضعهم في زاوية ضيقة من أمرهم، فالزَّمخشريّ يوجه هذا المعنى ويبين : " أنَّ قولهم محال أنْ يكون له نتيجة، وهذا من التَّهكم "[3]؛ إلاّ أنَّ الألوسيّ يزيد عليه بقوله : "إنَّما استوجبوا التَّوبيخ على قولهم ذلك؛ لأنَّهم يهزؤون بالدِّين"[4].

ب) بنية "هل" مع المبتدأ، والخبر محذوف تدلُّ عليه القرائن:

وقد ورد هذا المستوى البنائيّ في ستة مواضع من سورة القمر، وفيه يتم التَّوصل إلى الدِّلالة عن طريق المهارة اللَّفظية المصاحبة للسِّياق، بصرف الدَّوال إلى مدلولات أخرى لا يتوقعها المخاطب، وقد سمّاها الجرجاني "المغالطة"[5]؛ لأنَّ المهارة اللَّفظية واضحة عن طريق استغلال الوجوه الدِّلالية في اللفظ الواحد بربطه بدوال أخرى يسمح بها السِّياق

(1) ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج1 / 353 .

(2) ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج7 /112 .

(3) ــ الزمخشري : الكشاف : ج2 /74 .

(4) ــ الألوسي : روح المعاني : ج8 /51 .

(5) ــ الجرجاني : دلائل الإعحاز : ص 138 .

التَّحاوريّ، وبذلك يتم نقل اللفظ من حقل دلاليّ إلى حقل دلاليّ مختلف، مما يفجِّر الدَّهشة عند المتلقي، ومنه قوله تعالى : ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[6].

البناء ⟵ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي :

المدكر موجود، ليفيد معنى الإخبار، وهذا يساوي، التجريد البنائي التالي :

عنصر استفهام"هل" + حرف جر زائد + اسم مجرور لفظا"مبتدأ" + خبر محذوف...

يظهر من البناء التّجريديّ أنَّ الصّياغة البنائيّة بدأت بحرف الاستفهام "هل" مقترنا بحرف "الفاء"، ليمثل قيدا على تفريع ترك الآية السابقة، لتحقق مع "هل" معنى التَّقرير المتضمن الحثَّ على الاعتبار، ومعنى الاعتبار تعمق سياقيا من توسط حرف الجرِّ الزَّائد "من" بين أداة الاستفهام، والمُستفهم عنه من جانب، ويزيد في شدة الإيقاع في السَّمع لدى المخاطب من جانب آخر، لينشّط النَّفس، ويحرّك المشاعر، فاستلزم لتحقيق هذا الأثر النفسيَّ حذف الخبر من البناء؛ لأنَّ الدَّلائل الأسلوبيّة، والسِّياقية أغنت عن ذكره، لوضوح المعاني الدَّالة عليه، وإيجاز اللّفظ لتسريع التَّعلق به وحفظه [1]، وترك مساحة كافية للمخاطب للتَّأمل في مفردات النّص، ومَلْئِها بالتَّفكر والخشوع . وفي تكرار البناء في الآيات التَّالية له دلالة معنويّة نلحظها من مفاصل، وقرائن النسيج النصيّ المصاحبة ليهيّج، ويلهب النُّفوس، بخطاب ملؤه التَّودد إلى كتاب الله عزَّ وجل، ليؤكد من هذا حقيقة الاعتبار والاتِّعاظ[2].

ج) بنية "هل مع الضَّمير المنفصل، واسم الإشارة :

وبنية هذا المستوى تتحرك نحو المتلقيّ الخاص والعام، المذكور في الصِّياغة، فهو المقصود بالنَّاتج الدّلالي، للفت انتباهه إلى حالة الانفصام بين موقفه الباطني العميق " العلم بمضمون الرِّسالة"، وبين ردِّ فعله الظَّاهر، ليشكّل هذا الرّد مجالا واسعا للمنشئ في التَّشكيل الصّياغيّ الّذي يناسب قوة هذا الردِّ، ليحثّ المتلقي على المسارعة بالتّوفيق بين اعتقاده الباطنيّ، وبين ردِّ فعله الظّاهر، ومنه قوله تعالى : ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ

---

(6) ــ سورة القمر : الآية : 14 ــ 16 .

(1) ــ ينظر : الزمخشري : الكشاف : ج4/ 425 .

(2) ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج4/ 193 ــ 194 . والألوسي : روح المعاني : ج27/ 82 ــ 88 .

مَّعْلُومٍ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ[3] .

البناء ← هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ← بناء تحويلي أصله التوليدي :

أنتم مجتمعون، ليفيد معنى الإخبار، وهذا يساوي البناء التجريدي التالي :

عنصر استفهام "هل" + مبتدأ ضمير منفصل + خبر "اسم فاعل" مجتمعون ..

توافق دلالي ما بين الضمير المنفصل، واسم الفاعل

تعمق دلالي لمعنى الترغيب .....

تشكل البناء بعد امتداد صياغي قصصيّ، يطلب فيه فرعون المَشُورة من قَومه، واقتراح ما يرونه مناسبا لمواجهة موسى عليه السّلام، فدلت " الفاء" كما يقول ابن عاشور في قوله تعالى :" فجمع" : "على سرعة جمع القوم عقب بعث الحاشرين، حرصا من الشحرين، والمحشورين على تنفيذ أمر فرعون "[1]، فلفظ الجمع المتسلط على السَّحرة، عمل صياغيا على تهيئة المجال أمّا بناء الاستفهام بالظُّهور، لينسجم ويتماسك دلاليا مع البنية السَّطحيّة، والعميقة لحدث الجمع، الّذي أمَرَ به فرعون، لأنَّ البناء ابتدأ بالفعل الماضي المبني للمجهول " قيْل " ليركّز بؤرة الحدث على الفعل نفسه دون الفاعل، أي حدث القول للنَّاس، وبلوغ الدَّعوة إلى أسماعهم، فتطلّب هذا التَّمركز الدِّلالي بنية "هل" دون الهمزة، لتكشف لنا سرا من أسرار التَّاريخ من جانب، وتبين أنَّ دعاة فرعون كانوا يحرصون كلَّ الحرص في دعوتهم على تلبية النَّاس للدَّعوة من جانب آخر، فكل داع له طريقته الأسلوبيِّة في إقناع المخاطبين وحرصه على التَّلبية، ظهر هذا سياقيا من امتداد الاستفهام إلى الجملة الاسميِّة المكوَّنة من الضَّمير المنفصل " أنتم" واسم الفاعل "مجتمعون"؛ لأنَّ هذه الجملة وفي هذا الأسلوب أثبت دلالة على الحدث من الجملة الفعليِّة، وتتناسب مع المعنى الَّذي دلت عليه "هل"، وتُؤذن بوقوع الاجتماع بدرجة قويّة[2] .

---

(3) ــ سورة الشعراء : الآية 38 ــ 41 .

(1) ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج19/ 138 .

(2) ــ ينظر : المطعنيّ : التفسير البلاغي للاستفهام :ج3/ 90 . والزّمخشريّ : الكشاف : ج3/ 302 ــ 303 .

وثمة دلالة أخرى ينزع إليها هذا البناء، تتمثل في معنى التَّقرير، والحثِّ على الدُّخول في لواء عقيدة التَّوحيد، يمثله قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3]. فسياق البناء في هذا الشَّاهد سياق تَتَابعيّ يعرض التَّفاصيل الّتي يريدها المُنشئ دون أيّ مقدمات، يقمع المخاطب بالتّتابع بقوة الطّلب " فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ "، وفي دلالة الطّلب ظهرت بنية "هل" مع الضّمير المنفصل "أنتم" و اسم الفاعل "مسلمون"، لتوكيد حصول الإسلام لله بعد نصب الدّلائل الموجبة له، ويعمق دلالة التَّقرير من جانب القول دون النَّظر، فيقول الزّمخشريّ حول هذه الدِّلالة: " إنَّ صفة الوحدانيّة يصحُّ أنْ تكون طريقها السّمع"[4]، فالسّمع هيأ المتلقي وأثار وجدانه.

أمّا القسم الثَّاني من هذا المستوى فيأتي مع اسم الإشارة، ولم يردْ هذا النَّمط إلاَّ في موضع واحد في السّور المكيِّة، وذلك في سورة الأنبياء، ليقدم لنا صياغة بنائيّة قصصية حوارية،تنزع إلى معرفة موقف المخاطب من بؤرة الحدث، يقول تعالى :﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[1].

البناء ⟵ هَلْ هَذَا إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي:

هذا بشر، ليفيد معنى الإخبار، وهذا يساوي البناء التجريدي التالي:

عنصر استفهام" هل" + اسم إشارة " مبتدأ" + أداة استثناء + خبر ....

فالبناء الاستفهاميّ أجرى التَّحويل في الجملة التَّوليدية بالزِّيادة، والتّرتيب ليعمق سياقيّا ودلاليّا معنى الإنكار، والتَّعجب، يقول الزَّمخشريّ : " الاستفهام على سبيل الإنكار، أفتحضرون السِّحر، وأنتم تُشاهدون وتُعاينون أنَّه سِحرٌ "[2]، أمَّا أبو السُّعود فيقول: "هل بمعنى النَّفي، والهمزة " أفتأتون "للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام... والمعنى ما هذا إلاّ بشر مثلكم أيّ من جِنْسِكم، وما أتى به سحر، أتعلمون ذلك وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول .."[3]، فقوله كما يذكر المطعني : " يبين أنَّ بنية

---

[3] ــ سورة الأنبياء: الآية: 108.

[4] ــ الزمخشري: الكشاف: ج3/ 136.

[1] ــ سورة الأنبياء: الآية: 3.

[2] ــ الزمخشري: ج3/ 100.

[3] ــ تفسير أبي السعود: ج6/ 54.

"هل"المجازية تتمركز حول النَّفي، ويبيّن أن الألوسيّ لم يختلف عن أبي السّعود، فالاستفهام الأوّل " للنّفي، والثّاني : للإنكار "[4].

فوجهات النَّظر عند الأئمة متقاربة، فهم مجمعون على الإنكار للبناء الثَّاني "أفتأتون"، أمَّا البناء الأوّل : "هل هذا ..."، فورد على ثلاثة وجوه : الأوّل : أنْ يكون المراد منه النَّفي، وهو رأي أبي السّعود، والألوسيّ، وما يفهم من كلام الزّمخشريّ . والثَّاني : أن يكون للإنكار، وهذا رأي الطَّاهر بن عاشور، والثَّالث : أنْ يكون للتَّعجب، وقد عَزا هذا الرّأي الإمام الألوسيّ إلى أبي حيان، ولم يرتضه، بيد أنَّ أبا حيان لم يحمله على التَّعجب ابتداء، وإنَّما حمله على الإنكار، وجعل التَّعجب رديفا له، كما جعل التَّوبيخ رديفا للثَّاني، وبهذا التّحديد الّذي فصَّله المفسرون، يكون البناء قد قَصَر ذات النَّبيّ عليه السَّلام على صفة البشريّة، وطريقه النَّفي، بناء على أنَّ بنية "هل" تعمق معنى النَّفي، أو الإنكار ثمَّ الاستثناء[5].

2 . 2 : أبنية أسماء الاستفهام :

2 . 2 . 1 : بنية " ما " الاستفهاميّة :

ذهب النُّحاة وأهل البلاغة إلى أنَّ بنية " ما " الاستفهامية تكون للسؤال عن الجنس، فنقول: ما هذا ؟، بمعنى أيّ أجناس الأشياء هو ؟، فيكون جوابه : إنسان، أو فرس، أو ذهب، أو نحو ذلك، وتكون للسّؤال عن حال ما لا يعقل، وصفته، وللسّؤال عن صفات الآدميين، فنقول : "ما زيد ؟ "، فيقال : " جواد "، أو " بخيل " ...[1]، وفي بنية " ما " جعل البلاغيون [من] السؤال عن الجنس، والسؤال عن الماهية، والحقيقة، كقولنا : " ما الكلام ؟"، و " ما الاسم ؟"، و " ما الفعل ؟"[2].

---

[4] ـ ينظر : الألوسي : روح المعاني : ج17 / 8 ـ 9. النسفي، عبد الله بن أحمد النسفي [710هـ] **تفسير النسفي**، تحقيق : مروان محمد الشعار، دار النفائس، بيروت، ط1، 1996 .ج3 / 111 .

[5] ـ المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج2 / 342 ـ 343 .

[1] ـ ينظر : المبرد : المقتضب : ج2 /52، 296، ج3 /63، وينظر : ابن السراج،أبي بكر محمد بن سهيل بن السراج [316هـ] :**الأصول في النحو** : تحقيق : عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة،بيروت،ط 3، 1988 .ج2 / 135 . وينظر:الزجاجي، أبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجيّ [ت340هـ] :**مجالس العلماء**، تحقيق : عبد السلام هارون، الكويت، ط2، 1984 ص : 145، 167 .

[2] ـ ينظر : السكاكي : مفتاح العلوم : ص : 149 . والقزويني : الإيضاح : ج1 /230 ـ 231 . والتفتازاني : شروح التلخيص : ج2 / 273 ـ 281 .

ويرى محمد بن علي الجرجانيّ، فيما نقله عن النّحاة والبلاغيين " أنَّـه لا يجـوز أنْ يُسأل بـ" ما " عن الوصف، بل عن مسمّى اللّفظ، أو عن الماهية، ويبين أنَّ الوصف يقع في الجواب..."[3]، وذكر الجرجانيُّ في التَّعريفات أنَّ مهمة بنية " ما " الأدائيِّة، والسِّياقيَّة في البناء النَّصيّ تتَّجه إلى طلب التَّصوّر، والتَّصور لديـه " حـصول صـورة الـشَّيء في العقل، وهو إدراك الماهيّة من غير أن يحكم عليها بنفي، أو إثبات"[4]، إلاَّ أنَّها ـ بنية "ما" كما يقول محمد عبد المطلب : " تأتي لطلب شرح الدَّال الَّذي تتسلط عليه، أي شرح مدلوله أو كشف حقيقة الدَّال الَّذي تتسلط عليه "[5]. والحديث عن بنية " مـا " يلزمنـا الحديث عن بنية " ماذا" لأنّها في رأي النُّحاة في وضع واحد، وفيها كما بينوا مـذاهب أشهرها: أوَّلا : أنْ تكون " ما استفهاما بمعنى أيّ شيء، و " ذا " بمعنى الّذي. الثَّاني: أنْ تكون " ما " استفهاما، و" ذا " اسم إشارة، والثَّالث : أن تَكُون " ماذا " استفهاما، بمعنى أنّها كتلة لغوية واحدة، وهو الأرجَح[6].

وتدخل بنية " ما " على الجملة الفعليّة، والاسميِّة، والجملـة الاسـميّة تـشمل الاسـم العاقل، وغير العاقل، فإن كان عاقلا، فهو عن عموم ذلك الاسم، وإن كان غير عاقل، فهو لتحديد موضع الاستفهام، وتخصيصه، أمّا إذا دخلت البنية على فعل، فهو للاستفهام عـن الحدث ذاته، وإذا دخل حرف الجرِّ على بنية " ما " يفيد تحديد الموضع، وتخصيصه سواء كان هذا التَّحديد مكانيّـا، أو زمانيّـا، أو غيـره . وقـد وردت بنيـة " مـا " بـشكليها المجرد عن " ذا" والمتَّصل بـ" ذا " في السُّور المكيِّـة فـي اثنـين وثمـانين موضـعا مقسومة على الجملة الاسميِّة، والفعليِّة، ففـي الاسـميِّة جـاءت فـي ثلاثـة وثلاثـين موضعا، وبأشكال مختلفة، أمّا مع الفعليّة فقد وردت في تسعة وأربعين موضعا، ليـشكّل هذا الورود حالتين أسلوبيتين : الأولى: الاستفهام الحقيقي، والثانية : الاسـتفهام المجـازي الّذي يخرج إلى معاني مختلفة تشكلها الأبنية الأسلوبيّة الّـتـي تـأتي عليهـا، كالإنكـار والتّعظيم، والتّعجب، وغيرها ... ويراد به الاستفهام الّذي لا يقترن بجواب، أو لا يطلبـه صراحة، ومع ذلك يظل التّركيب متـضمنا احتمـال الجـواب، حيـث لا تفارقـه روح

---

[3] ـ محمد الجرجاني : الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ص : 107 .

[4] ـ المصدر السابق : ص : 59 .

[5] ـ محمد عبد المطلب : البلاغة العربية قراءة أخرى : ص 290 .

[6] ـ ينظر : ابن هشام مغني اللبيب، ج1 /300 ـ 301 .

الاستفهام، وفعاليته، فيكون السّؤال فيه من قبيل المجاز، ويسمّى تعدي الاستفهام عن حدود الحقيقة " إعناتا"[1]، وسماه ابن المعتز " تجاهل العارف"[2].

أ) بنية " ما " مع الجملة الاسميّة:

وبنية هذا المستوى بنية انتقالية انفعالية تتجه دلالتها إلى المتكلم، كونه ينفعل من الحدث الّذي أمامه، ويولد في نفسه حالة من الاستنكار، أو التّعجب ... وهذا المستوى يتشكل بطرق أسلوبيّة مختلفة وهي على النّحو التّالي:

1) توسط الاستفهام بين الجملة الفعلية والاسميّة، وبين الاسمين المتماثلين في اللفظ:

ويتشكّل هذا النّمط بعد امتداد صياغيّ أسلوبيّ يسبق البناء، ليقدم للبناء الاستفهاميّ مجالا كبيرا في المستو بين التركيبي، والمكاني للصياغة اللفظية لإثارة انفعال المتكلم، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾[3].

البناء ⟵ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي:

ربُّ العالمين خالق كل شيء، ليفيد معنى الاستفهام، والبناء التحويلي يساوي التجريد التالي:

جملة فعلية فعل وفاعل " قال فرعون" + اسم استفهام "ما" مبتدأ + خبر " رب " + مضاف إليه

↓

أسلوب حواري على طريق المناظرة يبدأ بالاستفهام

فالتّحويل البنائيّ الّذي أحدثته البنية الاستفهاميّة " ما " على مستوى السّطح التّركيبيّ أجرى المناظرة بين خصمين فرعون، وموسى عليه السلام، وجعل الدّلا لة الاستفهاميَّة تتجه للسّؤال عن جنس الرّب، حسب اعتقاد فرعون، وفي ذلك نجد للزمخشريّ قولا واضحا، يذهب فيه إلى احتمال أن تكون بنية " ما " سؤالا عن الجنس، ويحتمل أن تكون سؤالا عن الماهية، فيقول :يرّيد فرعون أيّ شيء رب العالمين ، وهذا السُّؤال لا يخلو إمّا أنْ يُرد به أيّ شيء، وهو من الأشياء الّتي شُوْهِدت، وَعِرِفت أجناسها في وقت

[1] ــ ابن الناظم،أبو عبدالله بدرالدين بن مالك الدمشقي(686هـ): **المصباح في المعاني والبيان والبديع**، تحقيق: عبدالحميد الهنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م ص:151.

[2] ــ ابن المعتز، عبد الله: **البديع**، منشورات دار الحكمة، دمشق، د ط، د ت. ص: 62.

[3] ــ سورة الشعراء: الآية : 23 ــ 25.

فرعون"[1]، ويقول كذلك :" والّـــذي يليـــق بحـــال فرعـــون، ويـــدلُّ عليـــه الكـــلام أنْ يكون سؤاله هذا إنكارا لأن يكون للعالمين ربّ سواه لادعائه الألوهية ..."[2]، ويقول سيد قطب : " فرعون يسأل سؤال المتهكم على القول، والقائل المستغرب للمسألة كلّها حتـــى ليراها غير ممكنة التَّصور، غير قابلة لأنْ تكون موضوع حديث "[3]. فالبنية السَّطحيّة في التَّركيب النَّصيّ، تشير إلى تعنت فرعون في مناظرة خصمه، وعدم النّـــزول إلـــى روح الأسلوب التَّناظريّ، الّذي يُدعم بالحجج كما فعل موسى عليه السّلام.

أما البنية العميقة فإنّها تتعمق من سير البنية السَّطحية، وتنقلها بـــين التَّراكيـــب الّتـــي شكلت البناء الاستفهاميّ، فأوّل التَّراكيب الّتي أسهمت في تشكيلها الامتداد الصِّياغي الّذي سبق البناء، وتمثل بالجملة الفعليّة "قال فرعون"، فظهر معها الفاعل لفظا صريحا ليمثـــل أوّل أطراف المحاورة، دون الإضمار، ليسجل السِّياق الحواريّ ضمنا جريمة إنكـــار ربِّ العالمين، وإلصاقها بفرعون، فهو من يتزعم القوم، والحديث، مع الطّرف الثَّاني، وبهـــذا الظهور للاسم الصَّريح بدأت بوادر المناظرة تتضح من طريقة الأسلوب الّذي اعتمده في طرح الاستفهام " وما ربّ العالمين "، ليلجأ فرعون من خلالـــه متعمـــدا إلـــى أســـلوب التَّنكير، والاستفهام عن غير العاقل؛ لأنَّ المُستَفهَم عنه في اعتقاده غير موجود، فـــسؤاله سؤال إنكار وكفر، وثاني التّراكيب الّتي تبين اتجاه الدّلالة العـ ميقة تتمركـــز فـــي حـــرف العطف " الواو" الّذي سبق البناء، فحرص السّياق من خلاله على ربط جـــرائم فرعـــون بعضها ببعض، وإنكارها عليه، فَعَطَفَ حرف " الواو" في السِّياق فُحْش مقالة فرعون بحق الله عزَّ وجل على سياق أقواله الأخرى الّتي سبقت البناء على مـــسمع النّـــاس، ليـ كـــشف للمتلقي أنَّ جرائم فرعون كثيرة بحقِّ الله، وأقواله الّتي تصدح بالفحش كثيرة أيضا[1].

ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الـــرَّحْمَنُ أَنَـــسْجُدُ لِمَـــا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[2] فالبناء الاستفهامي في بنيته السَّطحية والتَّركيبيّة داخل الـــسّياق جعل اسم الاستفهام " ما " يتوسط بين الاسمين المتماثلين " الـــرَّحمن "، ليـــدل الاســـم الأوّل، والمسبوق بفعل الأمر " اسجدوا للرحمن " على معنى الرَّحمة، فحـــق الـــرَّاحم أنْ

---

[1] ــ الزمخشري : الكشاف : ج3/ 298 .

[2] ــ المصدر السابق : ج3/ 298 .

[3] ــ سيد قطب : في ظلال القرآن : ج5/ 2592 .

[1] ــ ينظر : المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام : ج3/ 82 ــ 84 .

[2] ــ سورة الفرقان : الآية : 60 .

يُشكر، ويُسجد له، دلَّ على هذه الأحقية فعـ ل الأمر " اسجدوا"، لأنَّ السُّجود الَّذي يُشير إليه السِّياق النَّصي يتمركز في معنى الطّاعة وانقياد العبد إلى الخالق الموجـود، أمَّـا الاسـم الثَّاني بؤرة البناء الاستفهاميّ " وما الرّحمن " إنكار الرَّحمة للـراحم، مـع إنكـار عـدم وجوده، فسؤالهم بهذا الطّريقة عن غـ ير العاقل، مبالغة فـي إنكـاره، وجحـده، لينـسجم الأسلوب مع معنى التّجاهل الّذي أرادوه، فالمتكلم الّذي يأمر بالسّجود يسير باتجاه يعاكس الاتجاه الّذي يسير به المتلقي المنكر، ليشكّل البناء في عمقه الدّلالي ثنائية الحياة، الحـق والباطل.

ويأتي منه تكرار الاسم الأ وّل، والثّاني للتعّظـيم، والتّهويـل، دون امتـداد مكـانيّ للتّركيب، فيكوّن البناء الدّلالة الشُّموليَّة، ويَخْلِقُ جوّا أسلوبيّا يتميز بإيقاع الألفاظ لمناسـبة ثنائية الحياة، فيقول تعالى : ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَـشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[3].

البناء ← فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ
← وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ← بناء تحويلي أصله التوليدي:

أصحاب الميمنة أصحاب، وأصحاب المشئمة أصحاب ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يـساوي التَّجريد التَّالي:

مبتدأ أول + مضاف إليه + اسم استفهام مبتدأ ثاني + خبر المبتدأ الثاني + مضاف إليه

↓ ↓ ↓ ↓ ↓

أصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة

↓ ↓ ↓

توافق دلالي ← بناء الاستفهام ← توافق دلالي

ففي البناء التّحويليّ الأوّل، والثّاني في الدّا لين نلمس التّعاكس الدّلاليّ، والتّوافق اللّفظي ما بين سياق كلِّ تركيب على النّحو التّالي:

فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ← تعاكس دلالي ← وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ

↓ ↓

---

(3) ـ سورة الواقعة: الآية: 8 ـ 11.

توافق لفظي		تعاكس لفظي ودلالي		توافق لفظي

فالبناء في الدّالين أفاد التّقسيم، فصنّف في الدّال الأوّل أصحاب الميمنة، وهم أصحاب الجنّة من الجهة اليمنى واليُمن جهة عناية، وكرامة في العرف والعادة، واشتق من اليمن معنى البركة"[1]، أمّا الدّال الثّاني " أصحاب المشئمة "، فهم أصحاب جهة الشّؤم، وهو ضدّ اليمين، والشّؤم الضّر، وعدم النّفع "[2]، ويشير البناء التّركيبيّ كذلك إلى إظهار لفظي " أصحاب الميمنة " و " أصحاب المشئمة " بعد بنية الاستفهام، دون الإتيان بضميريهما؛ لأنّ مقام دلالة التّعجب، والتّشهير تقتضيان الإظهار، وعدم الإضمار، وبهذا التّركيب الأسلوبيّ للألفاظ يكون الاستفهام قد مكّن لدى السّامع قدرة التّمييز ما بين الحالتين على طريقة التّعجب، فالنّص حقق ذلك المعنى الدّلالي بحذف جواب الاستفهام في الدّال الأوّل والثّاني، ليترك للمتلقي حرية تصور الحالتين، ويذهب بخياله كلّ مذهب يستدعيه المقام[3].

ويتشكل منه نمط آخر يكون فيه اسم الاستفهام " ما " الذي يتوسط بين الاسمين متنقلا بين الآية السَّابقة والتَّالية له كما في قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾[4].

البناء ←—— القارعة * ما القارعة ....

امتداد صياغي يشكل الاسم الأول " القارعة " + اسم الاستفهام " ما " + الاسم الثاني " القارعة "

فاللفظ الّذي ورد فيه الاستفهام يفرغ في سمع المتلقي العام، والخاص شحنة هائلة من الخوف، والتّهويل، فهو أبلغ طريقة أسلوبيّة لوصف أهوال يوم القيامة، ومن هنا يصدم السّياق المتلقي، ليولد منه دلالة الاستغراب، والخوف، كون لفظ القارعة " من الألفاظ الجديدة في القرآن، جديدة على معنى يوم القيامة "[1]. وبهذا الأسلوب يلقي النّص صورة القرع، واللطم على المتلقي على حين غفلة، والموقف المعروض من خلال ترديد الفعلين "يكون" و " تكون "، في قرائن البناء، موقف هول ماديّ، يبدو النّاس في ظله ضئالا على كثرتهم، فهم " كالفراش المبثوث " في الاستخفاف، وتبدو الجبال الثّابتة، كالصّوف

(1) ـ ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج27/ 263 .

(2) ـ المصدر السابق : ج27/ 263 .

(3) ـ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام : ج4/ 216 ـ 217 .

(4) ـ سورة القارعة : الآية : 1 ـ 4 .

(1) ـ المبارك، محمد المبارك : **دراسة لنصوص من القرآن** ، دار الفكر ، بيروت، ط4، 1973 . ص 45 .

المنفوش تتقاذفه الرّياح الهوج، فمن تناسق الأسلوب البنائيّ، والدّلالي أنْ تُسمى القيامة بالقارعة، ليتسق الظلّ الّذي يلقيه اللفظ، والجِرْس الّذي تشترك فيه حروفه كلّها مع منظر النّاس كالفراش المبثوث، والجبال كالعهن المنفوش[2].

ب) بنية " ما " مع اسم الإشارة:

يتشكّل هذا المستوى من نمطين أسلوبيين : الأوّل دخول بنية " ما " الاستفهاميّة على اسم الإشارة مباشرة، دون مساحة صياغيّة إضافية، والثّاني : يتشكل أسلوبيّا بمشاركة المساحة الصّياغية، والمكانيّة مثلة بحرف الجرِّ الّذي يدخل على البناء . فمن النّمط الأوّل نجد قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[3].

البناء ⟵ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي: مبتدأ + خبر، والخبر مقدّر في الذهن ليس لنا أن نظهره. ليفيد معنى الاستفهام.

فالبناء التَّحويليّ يشير إلى معنى الزِّيادة والحذف، لإفادة معنى الاستفهام الإنكاري المتفرع عنه معنى التّحقير، والتَّوبيخ، فيقول الزَّمخشريّ : " الاستفهام تجاهل لهم، وتغابى ليحقّر آلهتهم، ويصغّر شأنها، مع علمه بتعظيمهم، وإجلالهم لها "[4]، أمّا أبو السّعود فإنّه يشير ضمنيًا في حديثه إلى معنى التَّوبيخ [5]. وعبّر السّياق أسلوبيّا عن هذه الدّلالة المعنويّة من خلال اسم الإشارة " هذه " الموضوع للمشار القريب " التّماثيل "؛ لأنَّ المقام يقتضي منه هذه الإشارة، فَقُرب الشّيء يقتضي ذكره، وحضوره في الذّهن هذا من جانب، ومن جانب آخر: أنَّ المقام يقتضي أنْ تكون هذه الإشارة قريبة ليحطَّ من شأن التَّماثيل " الأصنام" حطًّا نشعر معه فضاعة السُّخرية من قبل المُتكلم الإيجابي، فآثر السّياق لهذا المعنى لفظ " التماثيل " دون ذكر لفظ "الأصنام"ليقرر به حقيقتين : الأولى: حقيقة السُّخرية من ا لتَماثيل ومن يعبدها، وحقيقة أنَّها لا تضر، ولا تنفع، فهي مجرد صور وأشكال صنعوها، وصوّروها، وأنّها لا تتجاوز هذا الوصف السّلبي العقيم، فالأسلوب بهذه الدّلالة، والطَّريقة البنائيَّة يتجه إلى تجاهل العارف كما يقول المطعنيّ[1].

---

[2] ــ ينظر: الزمخشري: الكشاف: ج4/ 782 ــ 783.

[3] ــ سورة الأنبياء: الآية: 52 ــ 54.

[4] ــ الزمخشري: الكشاف: ج3/ 119.

[5] ــ ينظر: تفسير أبي السعود: ج6/ 72.

[1] ــ ينظر :المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 373 ــ 375.

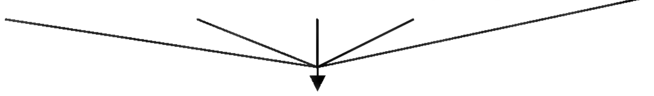
ومنه ما يأتي بعد امتداد صيـاغيّ، يكون المتلقي في حالة استعداد لما يُطرح عليه من أسئلة يقول تعالى : ﴿فَلا يَصدّنَكَ عَنْها مَن لاَ يُؤمنُ بِها واتَّبَع هواه فَتردى * وَمَا تِلْـكَ بِيَمِينِـكَ يَـا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾[2].

السِّياق الأسلوبيّ للاستفهام يَجْري في معنى التَّقرير، يقول الزَّمخشريّ : " ليريه الله عظم ما يخلقه، فيقلب الخَشبة اليابسة حيّة تسعى، ليقرّر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه، والمقلوب إليه، وينبّه على قدرته الباهرة ..."[3]ويذكر أبو السُعود : " أنَّ الاستفهام إيقاظ، وتنبيه لموسى عليه السّلام، على ما سَيبدو له من تَعاجيب "[4]، وبهذا الطَّرح الَذي يذكره أبو السُعود نقص عمَّا جاء به الزّمخشريّ، فالزَّمخشري كان أبين حديثا في هذا المجال، أما النَّسفيّ فيقول : " السّؤال للتنبيه لتقع المعجزة بها بعد التّثبيت، للتوطين لئلا يهوله انقلابها، والإيناس، ورفع الهيبة "[5]، وهذه المعاني الّتي ذكرها المفسرون تولدت من ذكر اسم الإشارة " تلك" المصاحبة لاسم الاستفهام لإزالة الإبهام والغموض، وبيانه أنَّه جنس من أجناس المؤنث الَّذي لا يعقل، ليـ عمق بهذه الدّلالة مركزيّة التَّقرير في السِّياق الدِّلالي للبناء، ويبين عظمة المعجزة، بانقلاب الشّيء إلى ضده في لمح البصر، فالبناء يومئ إلى حدوث شيء غريب، ولذلك أجاب موسى عن هذا ببيان ماهية المسؤول عنه جريا على الظَّاهر، ويؤذن بانكشاف حقيقة المسؤول عنه[6].

أمَّا النّمط الثَّاني لهذا الأسلوب فيتحقق من دخول حرف الجرِّ على البناء، ويتسلط على محور البناء المستفهم عنه، ليشكّل بدخوله بنية حواريّة منفتحة في احتمالاتها عند المتكلم السّلبيّ، فيقول تعالى : ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾[1].

البناء ⟵ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي : الرسول محمد، ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يساوي التجريد البنائي التالي :

امتداد صياغي ⟵ + اسم استفهام + حرف جرّ + اسم إشارة " خبر مقدم " + مبتدأ مؤخر ......



(2) ــ سورة طه : الآية : 17 ــ 20.

(3) ــ الزمخشري : الكشاف : ج3/ 55 .

(4) ــ تفسير أبي السعود : ج6/ 9 ــ 10 .

(5) ــ تفسير النسفي : ج3/ 80 .

(6) ــ ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج16/ 109 .

(1) ــ سورة الفرقان : الآية : 7 .

بناء تحويلي جرى بالزيادة والتقديم والتأخير ليفيد معنى الاستفهام.

فالمستوى السّطحي للتّركيب، يبين أسلوبيّة التّقديم، والتّأخير في مفردات النّص، فقدم شبه الجملة " لهذا"وفصل سياقيا ما بين حرف الجر " اللاّم " ومجرورها، وأخَّر سياقيّا لفظ " الرّسول "، ليقدم من خلالهما حالة حواريّة تصوّر جهل المتكلم السَّلبيّ، واستنكاره على الرَّسول الأكل، والسَّير في الأسواق، وفي هذا النَّسق الأسلوبيّ يقول الزَّمخشريّ :"وقعت اللاّم في المصحف مفصولة عن اسم الإشارة " هذا " خارجة عن أوضاع الخط العربيّ، استهانة وتصغيرلشأنه "[2]، فالزّمخشريّ بهذا الحديث يبين أنَّ سبب التّقديم لشبه الجملة تصغيرٌ لشأن النّبيّ في نظر المتكلم السّلبي، أمّا ابن عاشور فإنَّه يتجاوز بحديثه حرف الجر، ويركز على اسم الإشارة، فيقول : " إنَّ الإشارة بلفظ "هذا" في السِّياق يدل على حضور المشار إليه في ذهن المتكلم حاضر أمام نظرهم "[3]، ويقول كذلك:"الاستفهام تعجبيّ مستعمل في لازمة، وهو بطلان كونه رسولا، بناء على أنَّ التّعجب من الدّعوى يقتضي استمالتها أو بطلانها "[4]، فالمعنى العميق للاستفهام من خلال البنية السّطحيّة يتجه بهذا التَّصور إلى دلالة السَّبب كناية عن نفي المسبب، فجعلوا نفي المُسَبب كناية عن نفي الرِّسالة، وبالطَّريق البُرهانيّ، إلاّ أنَّهم أثبتوا الرِّسالة له لفظا من خلال قولهم " الرّسول "، مريدين إنكارها معنى وواقعا، فلم يذكروا لفظ الرّسول صراحة؛ لأنَّ ذكره يفوّت عليهم غرضهم في الاستفهام[5].

ويأتي منه لتصوير مشهد من مشاهد يوم القيامة، حين يتلقّى كل أهل الموقف سجلات أعمالهم الّتي قد موها في الحياة الدنيا، فيكون الاستفهام بمثابة وِقْفَة مع الذَّات، وكأن صوته الدَّاخلي ينكر عليه أعماله الَّتي لا سبيل إلى تجاهلها، ومنه قوله تعالى : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1].

[2] ـ الزمخشري : الكشاف : ج3/ 285 .

[3] ـ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج19/ 17 .

[4] ـ المصدر السابق : ج19/ 17 .

[5] ـ ينظر :المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام : ج3/ 44 ـ 46 .

[1] ـ سورة الكهف : الآية : 49 .

وفي بيان دلالة البناء أوجز أبو السُعود القول فذكر "إنَّ الاستفهام للتَّعجب "[2]، ونحا الألوسيّ منحى أبي السّعود، فقال : "الاستفهام مجاز عن التّعجب "[3]، فالعجب الّذي نشأ من بنية الاستفهام تولّد من دهشتهم، وتحيرهم من هذه الإحاطة، والدّقة الّتي لم يَعرفوا لها سببا؛ لأنَّ فراغ قلوبهم من الإيمان في الحياة الدّنيا أورثهم هذا الجهل الشّنيع، فيقول سيد قطب :"هذا هو سجل أعمالهم يوضع أمامهم، وهم يتملّونه، ويُراجعونه، فإذا هو شامل دقيق، خائفون من العاقبة، ضيقوا الصّدور بهذا الكتاب، الّذي لا يترك شاردة ولا واردة، ولا تَنْد عنه كبيرة، ولا صغيرة إلاّ أحصاها، فقولهم " مال هذا الكتاب لا يغادر" قول المحسور المغيظ، فهو لا يملك تفلتا، ولا هربا، ولا مغالطة..."[4].

ج) بنية " ما " مع شبه الجملة:

ومنه قوله تعالى : ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[5].

البناء ⟵ مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي:

الأصنام لا تنطق، ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يساوي التجريد التالي:

اسم استفهام " ما " مبتدأ + شبه جملة "لكم " خبر + حرف نفي + جملة فعلية ......

بناء الاستفهام بناء إنكاري بمعنى النّفي، يتضح من البنية التَّحويليّة، وقد تُوصل لهذا النّفي عن طريق الكناية؛ لأنَّ تركيب " مالكم " سؤال عن السَّبب، والسُّؤال عنه يقتضي عدم وجوده، وعدم وجود السَّبب يستلزم عدم وجود المُسبب، وهو الامتناع عن النُطق لمانع طارئ، يقول ابن عاشور : "الخطاب للأصنام على حقيقته، وهو تذكر كذب الّذين ألّهوها، وسَدَنوا لها وزعموا أنَّها تأكل الطَّعام الَّذي يضعونه بين يديها، ويزعمون أنَّها تكلمهم، وتخبرهم"[1]، يبيّن سيد قطب من خلال البناء حالة المتكلم النَّفسية، فيقول : " هي حالة معهودة أنْ يوجه الإنسان كلامه إلى ما يعلم حقيقته، ويستيقن أنّه لا يسمع، ولا ينطق، إنَّما هو الضّيق بما وراء الآلهة المزعومة من القوم وتصورهم السَّخيف"[2]، ومحط إنكار السَّائل يتمركز في الجملة الفعليّة " لا تنطقون "، فآثر لهذا التَّمركز دلالة الزَّمن

---

[2] ـــ تفسير أبي السعود: ج5/ 227.

[3] ـــ الألوسي: روح المعاني: ج15/ 291.

[4] ـــ سيد قطب: في ظلال القرآن: ج4/ 2274. وينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام:ج2/ 244 ـــ 247.

[5] ـــ سورة الصافات: الآية: 91 ـــ 93.

[1] ـــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج23/ 58.

[2] ـــ سيد قطب: في ظلال القرآن: ج5/ 2993.

الحاضر لسببين أسلوبيين الأوّل شمولية العجز عن النُّطق في جميع الأوقــات، الثَّــاني تحقيق التَّوازن الإيقاعيّ، والصّوتيّ بين فواصل الآيات التّالية والسّابقة[3].

ومنه قوله تعالى : ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْــرَ فَقَــالَ مَــا لِــيَ لا أَرَى الْهُدْهُــدَ أَمْ كَــانَ مِــنَ الْغَائِبِينَلأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾[4]، فبناء الاســتفهام يتماسك سياقيّا ودلاليّا مع المعنى العام للآيــة، ليــشير إلــى تفقــد الطّيــر مــن قِبَــلِ سليمان، وإِجَالَة النّظر بدقة في الأشياء لغرض يَقصده المتفقّــد، فيجــد أنَّ الهُدهــد قــد غاب، فيسأل عن سبب غيابه، فالتَّفقد فرض على التَّركيب الإتيان بالاستفهام ليتسلط علــى لفظ " مالي " دون غيره، لأنَّه استفهام نفي، أو إنكار عن السَّبب، ويكون المراد مــن نفــي السَّبب، أو إنكاره نفي المُسبب، أو إنكاره، فكأنَّه قيل لا سبب عنــدي يمنــع مــن رؤيــة الهُدهد، لو كان موجودا، فالنَّفي مُسلط على الوجود، يعنى أنَّ الهدهد ليس موجودا، وهــذا هو المعنى الكنائي الَّذي تُوُصل إليه بنفي السَّبب المانع من نفي الرُؤية، أو المــانع مــن إنكارها. ومحط الإنكار الَّذي سيطر على المتكلم تمركز في لفظ " لا أرى " إشــارة إلــى حضور عدم الرُؤ ية موصولا بزمن المُتكلم، وهو محط السُّؤال ســواء كــان للنفــي، أو الإنكار، وقرائن البناء تَجعــل الــسِّياق أكثــر تَرابطــا، وانــسجاما، فــأدرج الــسِّياق النَّصيّ أنَّ الغياب لم يخصْ الهُدهد وَحْدَهُ، بل صــاحبه غيــاب غيــره، فجــاء الــنَّص بقوله " من الغائبين " لبيان تلك الحقيقة الكليّة[5].

ب) بنية " ما " مع الجملة الفعليّة:

أ) الاستفهام عن الزّمن الماضي:

بنية هذا المستوى مع اسم الاستفهام " ما " بنية مغلقة، ومنفتحة في آن واحــد علــى جميع المتلقين، أما إغلاقها فيتمركز في بؤرة المتلقي الخاص، ليتبين عظمة الحدث، ومـ نه

---

(3) ــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام:ج3/ 378.

(4) ــ سورة النمل: الآية: 20.

(5) ــ ينظر تفسير أبي السعود: ج6/ 79. والألوسي: روح المعاني: 19/ 182.

قوله تعالى: ﴿ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾[1].

البناء ← وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ← بناء تحويلي أصله التوليدي:

أدراك ما سقر، ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يساوي التجريد التالي:

حرف عطف" الواو" + اسم استفهام "ما " + فعل ومفعول به + جملة استفهامية.....

↓

يفيد معنى الإنكار، والنفي......

فالبناء التّحويليّ أدخل اسم الاستفهام " ما " على الجملة التّوليديّة كعنصر زيادة، وحذف ليفيد معنى الاستفهام، والبناء التّجريديّ يفصح عن ذلك من خلال وجود حرف العطف "الواو" في صدر البناء ليعطف البناء الاستفهاميّ وسياقه، على الّذي سبقه للتّوسط بين الكمالين، والاستفهام في بنيته العميقة يتجه إلى معنى النّفي مـ تضمنا الإنكار، إنكار أن يكون للمتلقي وسيلة يَعرف بها حقيقة المُستفهم عنه ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾[2]. فبنية الاستفهام من خلال التَّركيب اللّفظي تفيد النَّفي والإنكار، أي لا علم عندك، ولا مُدرٍ يدريك؛ لأنَّ الأمر أ عظم من أن يحيط به علم عالم سوى الله عزّ وجل، ويضيف سيد قطب إلى معنى الإنكار والنفي معاني جديدة، فيقول: " البناء سؤال التَّجهيل، والتهّويل المعهود في القرآن، لإخراج الأمر عن حدود التَّصور، وحيز الإدراك البشريّ، فيأتي الجواب " نار حامية " كنبرة ختام، أو مفاجأة تعبيريَّة تمثل الحقيقة القاسية على المنكرين"[3] فالنَّاس جميعا يجهلون حقيقة القارعة، ولن يحصل العلم بها، عن طريق التّصورّ اللفظي البيانيّ، بل حين تدرك بالعين مجريات أحداثها على مسرح الواقع المحسوس يوم القيامة[4].

ويأتي منه ولكن بعد امتداد صياغي يعمق مدلول البناء الاستفهاميّ في الآية، فيقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ ﴾[1] فالامتداد الصّياغي الّذي سبق البناء تمثّل بتركيب النداء

[1] ــ سورة المدثر: الآية 25 ــ 30.

[2] ــ سورة القارعة: الآية 10 ــ 11.

[3] ــ سيد قطب: في ظلال القرآن: ج6/ 3961.

[4] ــ ينظر المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج4/385. والزمخشري: الكشاف: ج4/ 782 ــ 783.

[1] ــ سورة الانفطار: الآية: 6 ــ 8.

"يا أيها"، لتنبيه المتلقي تنبيها يشعر من خلاله بالاهتمام بما يلقى عليه من خطاب، فيقطع كلَّ الشّواغل لسماع الحدثما غرَّك بربك الكريم "، والّذي يقول فيه الزّمخشريّ: "الاستفهام تلقين للعبد حتى يقول غرّني كرم الكريم "[2]،أمَّا ابن عاشور فإنّه يقول"الاستفهام مجاز في الإنكار، والتّعجيب من الإشراك بالله "[3]، فالإنكار الّذي يقصده ابن عاشور، هو إنكار السّبب، وهذا الإنكار يستدعي إنكار المُسبب، وهو الاغترار والإعراض، ولتعميق هذه الدّلالة استدعى سياقيا، وأسلوبّيا إضافة لفظ "ربِّ" إلى ضمير المخاطب، ووصفه بالكريم، لتشديد الإنكار، والعتاب، والتَّرغيب في الحث على طاعة الله وترك الغرور.

وثمة مظهر ثان يأتي منه بناء الاستفهام مع الفعل الماضي يتمثل بالماضي المبني للمجهول، فيأتي البناء بعد امتداد صياغي، يكون فيه اسم الاستفهام محذوف الألف للخفة ومسبوقة حرف الجر،وحذف الفاعل من البناء، فيقول تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾[4]. فالبنية السَّطحيّة الّتي تتمركز في البناء، تبين أنَّ التَّركيب أخذ يغرس الإيمان في قلوب البشر، من آيات النَّفس البَّشرية لإقناعها دون قسرها عليه، ويتشكل مع الإقناع معنى التَّفكر في بداية خلق الإنسان حتى نهايته، وهذا ما نلمسه من مفردات التَّركيب الأسلوبيّة،فحرف " الفاء" المتصدرة للفعل المضارع المجزوم "لتفريع ما بعدها على ما قبلها، وترتيبه على المتلقي ترتيبا فكريّا يتناسب مع وجدانه، وعقله "[5]، ولفظ " النَّظر" مستعار لمطلق الإدراك، وسره تعميق التَّفكر، والإرشاد، وحسن التَّوجيه، وهذا في طبيعته السِّياقية يتوجه إلى لفظ " خُلِق " المسبوق ببنية الاستفهام بلفظ "ممّا" لتعميق معنى التقرير، والتذكير، والتنبيه، والاعتبار من كمال قدرة الله، وبديع صنعه، وحسن تدبيره[6].

ب) بنية " ما " مع الزَّمن الحاضر:

والاستفهام عن الزَّمن الحاضر من خلال بنية " ما " يتصل بحدث في الحال، أو الاستقبال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ

---

[2] ــ الزمخشري: الكشاف: ج4/ 702.

[3] ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج30/ 154.

[4] ــ سورة الطارق: الآية: 5.

[5] ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج30/232.

[6] ــ ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن: ج6/2878.

لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾[1].

البناء ⟵ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي: تعبد الذي لا يسمع، ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يتشكل تجريديا من الشكل التالي:

امتداد صياغي يسبق البناء ⟵ + حرف جر + اسم استفهام + فعل مضارع + قرائن البناء .....

↓

ليفيد معنى التقرير والتوبيخ....

فعنصر التَّحويل " لِمَ " أجرى في السّياق، والتّركيب التّوليديّ التّحويل بالزّيادة، والحذف ليفيد معنى الاستفهام على مستوى السِّياق العام، وتشكل المعنى بمساعدة القرائن القبلية، والبعدية للبناء، فالامتداد الصِّياغي الّذي سبق البناء يحمل دلالة النِّداء البعيد " يا أبت " إشارة إلى بُعْد المُنادى عن المُنادَي في المذهب، والاتّجاه، فإبراهيم المُنادِي مؤمن موحد، وأبوه ــ المُنادَى ــ كافر بالله مؤمن بالأصنام، فالمُنادِي يلجأ في خطابه إلى أسلوب الرِّقة واللّين مع والده [2]. وفي النِّداء يتمركز استحضار ذهن المتلقي من قبل المتكلم، لحثه على الاستماع بقلبه، وعقله، ووجدانه، لتعمّ منه الفائدة المرجوة، فبعد النداء وبمساحة صياغية ضيقة يشهر المتكلم قصده للمتلقي، فيستفهم "لم تعبد "، ليتسلط على نفي السَبب الّذي دعا أبا إبراهيم لعبادة الأصنام، ويبين أنَّ أبا إبراهيم ليس لديه سبب مقنع يحمله على عبادة الأصنام[3].

2 ، 2 ، 2: بنية " من " الاستفهامية:

---

(1) ــ سورة مريم: الآية: 41 ــ 43.

(2) ــ ينظر: الزمخشري: الكشاف: ج3/ 18.

(3) ــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج2/ 273 ــ 274.

ذكر النّحاة أنَّ بنية " من الاستفهامية تكون للسُّؤال عن النّاس [1]، أو للسُّؤال عن كلِّ ما يعقل[2]، أمَّا البلاغيّون فقد وافقوا النُّحاة في المعنى الّذي تَخْرُج إليه بنية "مَـنْ "، مـع بعض التَّعديلات في اتِّجاهها، فذكر السَّكاكيّ أنَّها للسّؤال عن الجنس من ذوي العلم [3]، أمَّا القزوينيّ فلم يسلّم بأنْ تكون بنية " من " للسّؤال عن الجنس، وقال بأنَّ الأظهـر فيهـا أنْ تكون سؤالا عمّا يَشْخص، ويعين المسؤول عنه من بين ذوي العِلم [4]، ويرى محمد أبـو موسى أنَّ بنية " من " يطلب بها تصور من يعقل"[5].

ونرى أنَّ بنية " من " بنية استفهاميّة تدخل على الجملة القائمة، لتنقلها إلى معنى جديد هو الاستفهام، من خلال حركتها المعنويِّة، ولهذا فهي تتحرك في نطاق الوظيفة الإفهاميِّة مصاحبا لها الوظيفة الانفعا ليّة، فتتجه بؤرتها الدِّلالية إلى المتلقي العـام، والخـاص مـع استحضار المنشئ، أو المتكلم في الدَّائرة الدِّلالية للبناء . وبنيتها من أكثر أسماء الاسـتفهام ورودا في السُّور المكيِّة، فقد تمثلت في سبعة وستين موضعا مختلفا، يليهـا فـي أغلـب استعمالاتها فعل عظيم باهر، مع فاعل متعين لا يُجحد، ومواضع الورود جـاءت علـى نمطين من الجمل : الاسميّة، فورد معها في تسعة وأربعين موضعا، والفعلية فـي بـاقي المواضع .

أ] ــ بنية " من " مع الجُمْلة الاسميّة :

نجد أنَّ البناء التّركيبيّ مع بنية " من المتصل بالجملة الاسميّة، يتوجه إلى متل ق بعينه لكنَّها في بعض شواهدها تتجاوز الصّياغة إلى متلق آخر خارج الـسّياق، لتنقـل بهـذا التَّجاوز مواصفات المتلقي الحاضر إلى متلق غائب . ليجعل المتلقي العام في حركة جدلية بين معطيات الصِّياغة السَّطحيِّة، ونواتج البنية العميقة . وبهذا تتشكل الجملة الاسميِّة مـع بنية " مَنْ " من الأنماط الأسلوبيّة التَّالية :

1] بنية " من " مع اسم التَّفضيل :

---

[1] ــ ينظر : سيبويه : الكتاب :ج4 /228، 233 . والمبرد : المقتضب : ج2 / 52 .

[2] ــ المبرد : المقتضب : ج2 / 52، 296،ج3 /63 .

[3] ــ السكاكيّ : مفتاح العلوم : ص 149 ــ 150 .

[4] ــ القزويني : الإيضاح : ج1 / 232 .

[5] ــ أبو موسى، محمد : دلالات التراكيب : ص : 205 . وينظر : لاشين، عبد الفتاح : **البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم**،دار المعارف، القاهرة، ط1، 1984م : ص : 180 . وينظر : قيس الألوسي : أساليب الطلب عند النحويين :ص : 389 ــ 390 .

ورد هذا التَّركيب البنائيّ وحده في السّور المكيّة في ثلاثة عشر موضعا [1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ ممَّن افْتَرَى عَلَى اللّه كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِه إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[2] .

البناء ← وَمَنْ أَظْلَمُ ممَّن افْتَرَى عَلَى اللّه كَذِبًا ← بناء تحويلي أصله التوليدي:

أظلم مخلوق الكاذب، ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يساوي التجريد التالي:

حرف عطف "الواو " + اسم استفهام " من " مبتدأ + اسم تفضيل " أظلم " + شبه جملة + قرائن البناء....

فعنصر التّحويل أجرى في بنية الجملة التّوليدية الزّيادة، والحذف السّياقي، لتسير البنية السّطحية للاستفهام من خلاله في مستوى أفقي يشير إلى افتراء الكذب على الله، والتَّكذيب بآياته[3]، والمعنى السّطحي ينبثق مركزه من تماسك التّراكيب في البناء، وبؤرته لفظ "أظلم" فينفي مع القرائن المصاحبة الزّيادة في الظّلم، بمعنى لا أحد أظلم منه، فهو ظالم واحد بلغ أقصى درجات الظّلم، وأنَّ ظُلم غيره أهون من ظلمه، وممّا مكن السِّياق هذه الدّلالة وجود حرف التّوكيد " إنَّ " المتصل بقوله تعالى " إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ"، وبهذا الأسلوب تتأصّل بؤرة الظلم في الكافر، لتصبح ملازمة له في كل وقت.

فالاستفهام في الآية ينشر الدّلالة المعنويّة بأسلوب عقليّ، فالظّلم تكرهه النّفس البشريّة في حياتها، ولهذا قدمه السِّياق على بقية أنواع الظّلم، وجاء به تركيبا على صيغة أفعل التّفضيل، حتى لا يبقى وراءه أيّ صيغة أشد بيانا من اسم التّفضيل، ثم ينشر بعد الاسم سبب الظّلم وبيانه، بالكفر / والكذب / وكتم الشّهادة / وإضلال النّاس / والإعراض.

ومنه يأتي ولكن من خارج دائرة اسم التَّفضيل " أظلم " ليعاكس الدلالة فيه، ويأتي لبيان أحسن النّاس قولا، وأصدقهم حديثا، فيقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[4]. فالواو الّتي سبقت بناء الاستفهام للاستئناف، وهو مسوق نصيّا، وأسلوبيّا لبيان أنَّ أحسن الأقوال هي الدّاعية إلى الله

---

[1] ــ ينظر: سورة الأنعام: الأية: 21، 93، 144، 157، والأعراف: 37، ويونس: 17، وهود: 18، والكهف: 15، والعنكبوت: 68، والسجدة: 22، والزمر: 32، والنجم: 52، وفصلت: 33.

[2] ــ سورة الأنعام: الآية: 21 ــ 22.

[3] ــ ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج6/ 50.

[4] ــ سورة فصلت: الآية: 33 ــ 34.

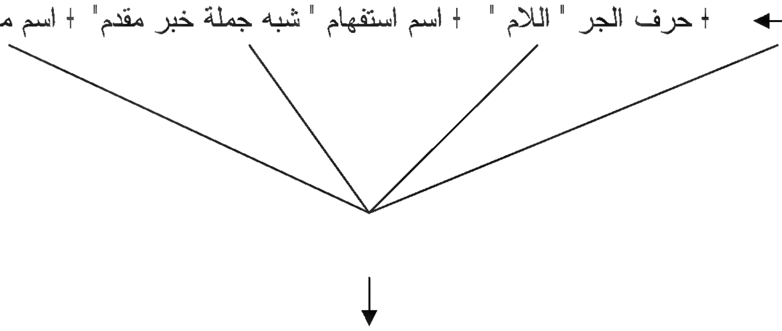
عزَّ وجل، واسم التَّفضيل " أحسن " لا يبين حسن الأقوال في الدَّعوة إلى الله، لأنَّ دعوة الله ليس فيها تمايز بل متشابهة في الهدف والرّؤيا، ولكن دلالته المعنويَّة تشير إلى أنَّ حُسْن الأقوال أَحْسن من حُسْنها، أي أحسن من حسن الأقوال الخارجة عن مجال الدَّعوة،ولهذا جاء تميزها في السياق النصي من خلال لفظ "قولاً"، ليربط الحسن بالقول[1].

2) بنية " مَنْ " مع حرف الجرِّ:

وفي هذا البناء من هذا المستوى يدخل حرف الجرِّ على اسم الاستفهام " من " ليستفهم به عن أمر عام يراد بهما توضيح مضمون ذاك الأمر المجهول، بإجابة عامة تقرّبه من الإبانة، أو التَّحديد، أو التَّخصيص [2]. ومنه دخول اللام على اسم الاستفهام " من "، فيقول تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[3].

البناء ← قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ← بناء تحويلي أصله التوليدي: الذي في السماوات والأرض لله، ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يساوي التجريد التالي:

امتداد صياغي ← + حرف الجر " اللام " + اسم استفهام " شبه جملة خبر مقدم" + اسم موصول " مبتدأ مؤخر"...



تتابع أسلوبي في مجال المحاورة الفردية، دون امتداد زمني ليفيد معنى التقرير ....

فعنصر الاستفهام دخل على البناء التَّوليدي، فأجرى فيه التَّحويل البنائيّ للتركيب بالزِّيادة، والتّقديم، والتَّأخير، والحذف ليفيد معنى الاستفهام، والاستفهام فيه صادر من متكلم واحد يسأل ويجيب لتبكيت المشركين، وإلجائهم إلى الإقرار بما يفضي إلى إبطال معتقدهم الشّركيّ، فكان الجواب عنه بلفظ الجلالة " لله "، لأنَّ السائل يريد بهذا الجواب إقرار المسؤول، لذلك لم ينتظر منهم الجواب، بل بادرهم بنفسه بالجواب [4]؛ لأنَّ السِّياق

---

(1) ــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج4/ 13 ــ 14.

(2) ــ ينظر: القزويني: الإيضاح: ص:ج1 /232.

(3) ــ سورة الأنعام: الآية: 12 ــ 13.

(4) ــ ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج16/ 30.

الأسلوبيّ من خلال حرف الجر " اللام "، واسم الاستفهام معه، سياق إبلاغ الحجة مقــدرة معه أسلوب المحاورة، ونلمس كذلك أسلوب التّتابع دون أن يكون هناك فاصــلٌ زمنـــيٌّ يفصل ما بين السُّؤال والجواب، والّذي ولّده تصدر حرف الجرِّ في البناء، ليولد في عمق الدِّلالة معنى التَّقرير للمخاطبين بملكية الله لما في السَّماوات والأرض.

ومنه ما يأتي في سياق المحاورة الواقعية ما بين المتكلم، والمخاطب، فالمتكلم يــسأل دون مقدمات، ويتولى نقل إجابة المخاطبين بعد مساحة مكانية بسيطه يتطلبهــا الأســلوب الاستفهامي، ومنه قوله تعالى : ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَــيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[1]، فالاستفهام في السّياق النّصي يتمركز حول مُلكيــة الأرض "، ومن فيها، فظهر هذا المعنى في الــسّياق للبنــاء التَّحــويلي مــن خــلال تقــديم شــبه الجملة " لمن علَى لفظ الأرض لغايتين أسلوبيتين : الأوّلى أنَّ المقرر به هو المالك الّذي كنّى عنه بـــ "من"، والثّانية: إرادة القصر، وهي من لوازم البناء، أي من الّذي يملكها دون غيره؟. ومن دواعي الأسلوب الاستفهاميّ في هذا النّمط أن يلي السّؤال الإجابة، ليخــتص بها الفعل المضارع " سيقولون لله"، للإشارة إلى سرعة حصول هذه الإجابة ممثلة بحرف السّين، سواء صرّحوا بها، أمْ لم يصرحوا وثمَّة ملاحظة أسلوبيّة نلمسها فــي التّر كيــب الّذي يسبق الإجابة ممثلا بقوله "إن كنتم تعلمون "، فالأسلوب يحمل فــي طيــات معنــاه الإثارة، والتّهييج، لحث المخاطب على الإجابة الصّحيحة، مــن خــلال تفجيــر طاقــات النّخوة، والحماسة، فيقذف بالحقِّ من قلبه على لسانه، وإنْ كان ذلك القذف غير مرغــوب فيه عنده[2].

3) بنية " من " مع الخبر الصَّريح المضاف:

ويأتي منه نمط يكون مضافا إلى الضَّمير، ليكون مرجع الضمَّير هو المخاطــب مــن قبل المتكلم، فيقوله تعالى : ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَــوَلَّى * قَــالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى *قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[3].

البناء ⟵ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي

ربكم الله ⟵ ليفيد معنى الإخبار والبناء التحويلي يساوي التجريد التالي:

امتداد صياغي ⟵ + حرف الفاء + اسم الاستفهام " مبتدأ " + خبر متصل بالضمير " ربكما"

---

1) ــ سورة المؤمنون: الآية: 84 ــ 85.

2) ــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج3/ 21 ــ 22.

3) ــ سورة طه: الآية: 48 ــ 50.

فبنية " من " دخلت على الجملة التَّوليدية، فأحدثت فيها الحذف، والزّيادة لتنقلـــه إلـــى معنى الاستفهام، ومعنى الاستفهام تغيَّب عند المفسِّرين في هذا الشّاهد،ولا نجد له ذكرا إلا شرحا لمعنى الآية وفق سياقها، والّذي يلوح لنا، ونتفق فيه مع (المطعنيّ) أن معنى البناء العميق يتمركز في دلالـــة الإنكـــار، والـــتَّهكم، فقـــول فرعـــون : " فمـــن ربكمـــا يـــا موسى؟"، إنكار لما قالاه له من قبل " إنّا رسول ربّك " بدليل إضـــافة لفـــظ " ربّ " إلـــى ضمير المخاطب المثنى " موسى وأخيه " لا إلى نفسه؛ لأنَّ نفسه لا تساعده على أن يعترف بأنَّ له ربًّا، حتى ولو فرضنا في مقام الاحتجاج، والنَّظر[1].

ومنه ما يأتي مضافا إلى الاسم الصَّريح، ليـــصوّر حلقـــات الـــصِّراع بـــين الحـــق والباطل، ويبين أنَّ لا إكراه في الدِّين، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفـــر، ومـــا علـــى الدُّعاة إلاّ قول الحقِّ من ربِّهم ، وتبليغ النَّاس ما نُزّل إليهم منه، فيقول تعالى : ﴿قُلْ كُـلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَـــنِ اهْتَـدَى﴾[2]. فالبنـــاء الاستفهاميّ وقرائنه يتفق في تصوير نتاج حلقات الصِّراع، فيقول ابن عاشـــور :" صـــيغة الأمر في لفظ " تربصوا " مستعملة في الإنذار، ويسمى المُتاركة، نتركك‍م وتربصكم؛ لأنّا مؤمنون بسوء مصيركم "[3]، وأسلوب المتاركة الّذي هيمن على التّركيب، تفرّع منه معنى الإعلام الّذي يتجه، ويتسلط على المخاطب الّذي أيقن سوء مصيره.

ب) بنية " من " مع الجملة الفعلية:

وبنية هذا المستوى تتركز في جانبين : الجانب الانفعاليّ، والجانب الإفهاميّ، فالجانـــب الانفعاليّ تنبثق بؤرته من المتكلم لتهيمن على رسالة النّص اللّغويـــة، والمعنويّـــة، فهـــي الوظيفة البارزة في الإسناد الخبريّ الّذي يتجه غرضه إلى لازم فائدة الخبر؛ لأنَّ المتكلم يهدف إلى التّعبير عن موقفه من الصّياغة الإخبارية الّتي يرســـلها، دون إعطـــاء أهميـــة كبيرة للمتلقي، أمّا الجانب الإفهاميّ فيتوجه إلى متلق مرتبكٍ متحير، تتسم حركته الذّهنيـــة بالتّردد اتجاه مضمون الحكم الّذي يوجه إليه، لذا تُرَدِّد الجملة الخبريّة مؤكدات أســـلوبيّة تقوي الحكم، وتثبته في ذهن المتلقي، وفي كلا الجانبين تتقدم الوظيفة الإعلاميّـــة النّفعيّـــة على الوظيفة الجماليّة، لتهيمن على التّواصل بين المتكلم والمتلقي.

---

(1) ــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج2/ 308 ــ 309.

(2) ــ سورة طه: الآية: 135.

(3) ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج16/ 212.

1) بنية " من " مع الفعل الماضي:

وفي هذه البنية تصطبغ الرّسالة النّصّية بهيمنة المتكلم، وتتجه للتّعبير المباشر عن موقفه، بلون من الانفعال حسب طبيعة الحدث، ويتجلى ذلك في طريقة النّطق بأسلوب يتناسب مع التّركيب السّياقي والمعنويّ، وأوّل مظهر أسلوبيّ يسجل لهذا المستوى البنائيّ مع الفعل الماضي ملازمتها إلى صيغة " فعل" بعد الفعل سأل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُون﴾[1].

البناء: وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بناء تحويلي أصله التوليدي: خلق الله السماوات والأرض ليفيد معنى الإخبار. والبناء التحويلي يساوي التجريد التالي:

امتداد صياغي يتمثل بالفعل " سأل" + اسم استفهام " من " + فعل ماضي على وزن " فعل" + مفعول به + مضاف إليه

تلازم دلالي — بناء الاستفهام

استفهام بمعنى التقرير

فالبناء التّحويليّ حذف الفاعل بدلالة القرائن، وزاد المبتدأ، وجعل الفعل يقع في مكان الاسم ليكون خبرا لاسم الاستفهام، ليولد بهذا التحّول التّركيبيّ دلالة التّقرير بالفاعل، فاستلزم سياقيّا، وأسلوبيّا تقديم خلق السّماوات على خلق الأرض؛ لأنَّ خلقها ورفعها أدخل في باب التّقرير الّذي من أجله سيْق الاستفهام، ثم عطف خَلْق الأرض على خلق السّماوات، لما في العطف من معاني الفخامة والعظمة[2]، والاستفهام يضيف إلى معنى التّقرير دلالة التّعريض بكفر المشركين فيقول ابن عاشور: " السّياق تعجيب من نقائض كفرهم، فكفروا بالله رغم هذه الدلائل الدّافعة على وجود الفاعل"[3].

والمظهر الثّاني لهذا البناء يتشكل داخل أسلوب سرديّ قَصَصِي دلَّ عليه سياق الآيات الّتي تسبق البناء، ثم الّتي تليه، فيقول تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِين فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِين﴾[4].

---

(1) ـ سورة العنكبوت: الآية: 61.

(2) ـ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج3/ 234.

(3) ـ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج20/ 198.

(4) ـ سورة الأنبياء: الآية: 57 ـ 59.

فالاستفهام يتولد من قوله " من فعل هذا "، ليتَّجه إلى معرفة الفاعل الّذي قام بالفعل، يقول أبو السّعود : " قولهم " من فعل هذا " على طريق الإنكار، والتّوبيخ"[1]، والظّاهر من البناء أنَّه للاستفهام الحقيقيّ المتضمن معنى الإنكار؛ لأنَّ القوم لم يكونوا يعرفون من قام بهذا العمل، فمعرفته أشدّ حضورا في النَّفس من الإنكار عليه .

2] ــ بنية " من " مع الفعل المضارع :

وبنية " من " تتصدر الفعل المضارع لتعمق دلالة الزَّمن العام، أو الأزليّ، إذْ غالبا ما تكون هذه الأفعال مسندة إلى الخالق عزَّ وجل، وكلّ الأفعال الّتي تسند إليه تعالى لا تتقيد بزمان ما لم يدل ع لى ذلك دليل، كخلق السّماوات والأرض، فمنه قوله تعالى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾[2] .

البناء ← قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ ....

← وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ ← بناء تحويلي أصلهما التوليدي :

يرزقكم الله من السماء والأرض / يخرج الله الحي من الميت، ليفيدا معنى الإخبار، والبناء التحويلي يساوي التجريد التالي :

عنصر استفهام + فعل مضارع + فاعل محذوف دلت عليه القرائن + مفعول به....

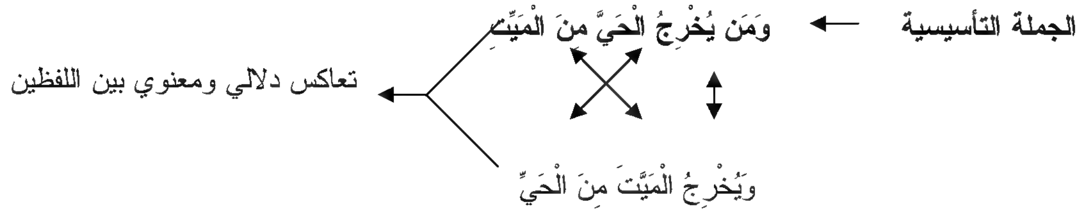
فالبناء التّحويلي أجرى في السّ ياق التّوليدي الزّيادة، والحذف، والتّقديم ليفيد معنى الاستفهام، فالبناء الأوّل يتجه في بنيته السّطحية للفاعل الّذي يتحكم في أمر الرّزق، فيقدم سياقيّا لمناسبة المقام لفظ " السّماوات " على الأرض لشدة احتياج النُفوس إليه، وأنَّه أصل الرّزق ممثلا بإنزال الماء، فاستلزم مع هذا التّقديم، والتّأخير، والحذف ذكر " السّمع والإبصار"؛ لأنّهما أكبر شاهدين على تمام النّعمة، وهما أظهر الحواس الّتي يكتسب بهما العلم، والمعرفة، ويحفظان الإنسان من أغلب الأضرار[3] .

[1] ــ تفسير أبي السعود : ج6/ 74 .

[2] ــ سورة يونس : الآية : 31 .

[3] ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام : ج2/ 45 . وتفسير أبي السعود : ج4/ 139 ــ 141 .

أمَّا البناء الثّاني فإنّنا نلمس فيه كما يقول فايز القرعان " دلالة الانبثاق "[4]، وقد تحققت هذه الدّلالة من مستوى تأسيس الفعل المضارع مع بناء الاستفهام، وقرائن البناء المصاحبة في السّياق التّركيبيّ، ويمثله الشّكل التّجريديّ التّالي :



فالحي ينبثق عن الميت، والميت ينبثق عن الحي في دورة مستمرة تنبثق فيها الحياة بالفيض الإلهي، والتَّكاثر وتعاقب الأجيال .

وثمة دلالة ثانية نلمسها، ونجدها في بناء "من" مع الفعل المضارع تتمركز في معنى الاقتتال، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾[1] .

فالتَّركيب البنائيّ يسير في معنى الحوار الدّيمقراطي، الّذي يمثل الرّأي، والرّأي الآخر، فالمتكلم في البناء الاستفهاميّ كما يقول سيد قطب : " يشعرهم أنَّ أمرهم يهمه، فهو واحد منهم، ينتظر مصيره معهم، فيجري حديثه مجرى النُصح لهم، المشفق عليهم، لعلهم يستمعون إلى تحذيره، ويأخذونه مأخذ الجد، والبراءة، والإخلاص "[2]. أما البنية العميقة في البناء الاستفهاميّ، فإنّها تتجه إلى معنى استقبال عذاب الله، إنْ لم يستجيبوا للدّعوة، والنّصح الّذي تفوه به الرّجل النّاصح بحضور فرعون، فالنّصح، والإرشاد ينشران دلالة إنكار وجود فاعل يدفع عذاب الله إن دهم قوما، ففي هذا يقول ابن عاشور : الاستفهام لإنكار أي ناصر ،"فالمتكلّم بهذا المعنى دمج حاله بحال القوم

[4] ــ القرعان، فايز : التقابل والتماثل في القرآن الكريم : ص : 341 .

[1] ــ سورة غافر : الآية : 28 ــ 30 .

[2] ــ سيد قطب : في ظلال القرآن : ج5 / 3080 .

[3] ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج24 / 187 .

المخاطبين، وظهر هذا الدّمج في لفظ " ينصرنا " ولفظ " جاءنا "، ليبرهن لهم أسلوبيا، وحواريا، وتركيبيا أنّه يأبى لقومه ما يأباه لنفسه من العذاب . فالمتكلم يربط مصيره بمصير قومه، لكن مصيره يعاكس مصيرهم كونهم معاندين، ومنكرين أمر الإصلاح.

2 . 2 . 3: بنية " كيف " الاستفهاميّة ":

بنية " كيف " من البنى الّتي يطلب بها الفهم، وهي عند النّحويين بمعنى " على أيّ حال"[1]، فإذا قلت : كيف زيد ؟ كان معناه على أيّ حال هو أصحيح، أم سقيم؟ [2] والأحوال أكثر من أنْ يُحيط بها محيط [3]، ويبين ابن هشام نقلا عن السِّيرافي أنّها اسم صريح لصحة إبدال الاسم فيها [4]، وحديث السَّيرافي الّذي أورده ابن هشام يتفق مع حديث ابن السّراج في المعنى الَّذي تخرج إليه بنية " كيف"، ويرى ابن هشام أنَّ (كيف) يمكن أنْ تكون مفعولا مطلقا، فقال: " وعندي أنّها تأتي مفعولا مطلقا أيضا"[5].

وقد وافق البلاغيون النّحويين في أنَّ بنية " كيف " للسّؤال عن الحال وحقيقته، فقال في هذا المعنى السّكاكيّ : " إنَّ " كيف" للسّؤال عن الحال، فإذا قِيل :كَيف زيد ؟ " فجوابه: صحيح، أو سقيم، أو مشغول، أو فارغ، ففي الجواب تنتظم الأحوال كلها"[6]، ويرفض السّبكيّ قول بعضهم بأن يُسأل بـ " كيف " عن الصّفات الغريزيّة لا الخارجية، فقال: " وفي كلام بعضهم أنّه يُسأل بها عن الصّفات الغريزيّة لا الخارجية"[7]، ويظهر لنا أنَّ بنية " كيف " تعدُّ من الأبنية التحويليّة التي تنتقل من البنية التّوليدية إلى البنية التّحويلية، لتعبر عن طلب الفهم، بأمر من المخاطب، وبهذا النّظر نخلص من الاضطراب الواضح عند النّحويين في تحديد بنية " كيف " الاستفهاميّة، ويظهر لنا كذلك أنَّ البنية يمكن أنْ نُدرجها في بعض شواهدها تحت مفهوم الاستفهام الصُوري،

---

(1) ــ سيبويه: الكتاب: ج4/ 233 وابن السراج: الأصول في النحو: ج2/ 136.

(2) ــ ينظر: ابن السراج: الأصول في النحو: ج2/ 136.

(3) ــ ينظر: المصدر السابق: ج2/136.

(4) ــ ابن هشام: مغني اللبيب: ج1/ 206.

(5) ــ المصدر السابق: ج1/ 205.

(6) ــ السكاكي: مفتاح العلوم: ص: 150. وينظر: القزويني: الإيضاح: ج1/ 233. والعلوي: الطراز: ج3/ 28.

(7) ــ السبكي: عروس الأفراح: ج2/ 537.

الّذي يشق طريقه خارج دائرة الاستفهام الحقيقي، والمجازي، وفي بعض مواطنها الدّلالية توافق دلالة الاستفهام الحقيقيّ، والمجازيّ، والسّياق يحدد ذلك، فبنية " كيف " تتحرك في نطاق الوظيفة الانفعاليّة؛ لأنَّ بؤرة الدّلالة تتجه في النّهاية إلى المتكلم، مع حضور الوظيفة الطّلبية في الصّياغة حضورا يكاد يكون مساويا للوظيفة الانفعاليّة.

وبنية " كيف " في السّور المكيّة التزمت الحضور مع الجملة الفعليّة دون الاسميّة، لمناسبة معنى الفعل لمعنى البنية الدّلالي، كونها تتحرك في الجانب الانفعاليّ الحركيّ، وقد وردت في السّور المكيّة في واحد وستين موضعا[1]، وفي هذه المواضع نلحظ أسلوبيا التزام " فعل النّظر " بدلالته الزّمنيّة المختلفة أغلب مواضع البنية؛ لأنَّ فعل النَّظر من لوازم معرفة الحال، وهيئتها، والبنية انقسمت مع الجملة الفعليّة من حيث الزَّمن إلى قسمين: قسم يحمل دلالة الماضي، وقسم يحمل دلالة الحاضر.

أ) بنية " كيف " مع الزّمن الماضي:

يتشكل الفعل الماضي مع بنية " كيف " من أنماط أسلوبيّة مختلفة يفرضها السّياق البنائيّ، ففي كلِّ نمط نجد دلالة مختلفة تخدم التّركيب، وتتوافق مع الدلالة السَّطحيّة، والعميقة للبناء الاستفهاميّ، ويمكن تقسيمه إلى ثلاثة أنماط أسلوبيّة هي:

أولا: بنية "كيف " مع " كان " + اسمها:

وهذا المستوى البنائيّ من أكثرها ورودا، فقد وردت في تسعة عشر موضعا، لتلفت المخاطب إلى مواطن العِبَر في الوجود، عبر زمنه الماضي، فساق السّياق النّصيّ للقرآن دلائل القرائن مختلفة، ومتنوعة حسب مقام ومعنى السّياق، فمن هذه القرائن الّتي نبه إليها المستوى: المكذبين/ المجرمين/ المفسدين/ الظّالمين/ المنذرين/الأمم السّابقة ....،ومنه يأتي بعد امتداد صياغيّ تسلط عليه فعل الأمر، ليعمق مواطن العبر، فيقول تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۞ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

[1] ــ ينظر: سورة الأنعام:الآية: 11 ، 24، 46، 65، 81، الأعراف:الآية: 84، 86، 93، 103، 129، يونس:الآية: 14، 35، 39،73، يوسف: الآية: 109، النحل: الآية: 36، النمل: الآية: 14، 51، 69، القصص: الآية: 40، الروم: الآية: 9، 42، 48،50، فاطر: الآية:43،26، 44، غافر: الآية: 5، 21، 82، الصافات:الآية: 73، 154، الزخرف:الآية: 25، إبراهيم:الآية: 24، 45، الفجر: الآية: 6، العنكبوت: الآية: 19، 20، الفرقان: الآية: 9، 45، الإسراء: الآية: 21، 48، ق: الآية: 6، مريم:الآية: 29، القلم:الآية: 36، الغاشية: الآية: 17، 18، 19 ، 20، الملك: الآية: 17، 18، نوح: الآية: 15، المدثر: الآية: 19، 20، سبأ: الآية: 45، القمر: الآية: 16، 18،21، 30، المزمل: الآية: 17، الكهف: 68، الفيل: الآية: 1.

قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ[2] .

البناء ⟵ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِين ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي:

⟵ كانت عاقبة المكذبين شديدة، ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يساوي التجريد التالي:

امتداد صياغي "قل ...." + اسم استفهام "كيف" خبر كان مقدم + فعل ماضي ناقص "كان" + اسم كان + مضاف إليه

فالنّسق البنائيّ التّحويليّ أجرى في سياق الجملة التّوليدية التّقديم، والتّأخير، والزّيادة ليفيد معنى الاستفهام، لينشر البناء في دلالته السّطحية أسلوب المحاورة ممثلة بفعل الأمر " قلْ سيروا "، فالمتكلم من خلاله يلفت نظر المخاطب إلى مواطن العِبرة في الحياة الّتي يعيشها على الأرض، فيطلب بصيغة أمريّة من المتلقي، أو المخاطب السّير فيها، فاستلزم نصيّا، وتركيبيا مع صيغة الأمر " سيروا " مجيء الأمر الثّاني " انظروا "، ليتوافق معنى النّظر مع دلالة السّير، ويهيئ المتلقي إلى تقبل الحدث بحضور العقل، والوجدان، فالسّياق يبين بهاتين الصّيغتين أنَّ بدء السَّير ناءٍ عن مكان الأحداث دلَّ عليه لفظيا، وسياقيا لفظ "ثمَّ" تحمله من معنى التّباعد ما بين نقطة بدء السّير، ونقطة بدء النَّظر للاعتبار، فـ " ثم كما يقول ابن عاشور تبين التّباعد في الرُّتبة "[1]، فرتبة التَّأمل، والنَّظر فوق رتبة مجرد السّير، ليتحقق منها معرفة عاقبة المكذّبين، إلاَّ أنّهم رغم سيرهم فيها لم يعتبروا مما مرَّ فيها من أحداث، ليشكّل المعنى السّطحي مركزيّة البنية العميقة، الّتي تتجه إلى معنى التّقرير، فالاستفهام بهذه الدّلالة المعنويّة يقرر المخاطبين بملكية الله لما في السّماوات والأرض، ويتعجب من مشركي مكة المُصرّين على العناد، والكذب، وعدم أخذهم بمتطلبات الحياة الجديدة الّتي فرضها عليهم الإسلام، و في هذا المعنى يقول سيد قطب: " السَّير في الأرض للاستطلاع، والتّدبر، والاعتبار لمعرفة سنن الله المرتسمة في الأحداث ... "[2] .

ومنه قوله تعالى فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِين فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[3] . فالاستفهام يلفت المخاطب من خلال هيمنة المتكلم النّصية، والدّلالية على إعمال الفكر، والتّأمل،

---

[2] ــ سورة الأنعام: الآية: 11 ــ 12.

[1] ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج6/ 29 ــ 30.

[2] ــ سيد قطب: في ظلال القرآن: ج2/ 1045. وينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج1/ 282 ــ 284.

[3] ــ سورة النمل: الآية: 51.

واستحضار كيفية هلاك القوم الماكرين ــ قوم صالح ــ ليصل في نهاية السّياق إلى الحال الّتي آلَ إليها القوم الماكرين، فالتّركيب ربط نصيّا، ودلاليّا السَّبب بالمسبب، فلم يترك للمتلقي مجالا يستحضر فيه غير دلالة الهلاك من خلال الإجابة السَّريعة الَّتي قدَّمها المتكلم على سؤاله "أنّا دمرناهم" ليضع المتلقي بوساطتها في حالة دهشة، وتوقف أمام هول الموقف المعروض عليهم.

ثانيا: بنية "كيف" مع الفعل الماضي على وزن " فعل ":

وبنية " فعل " في السِّياق التَّركيبيّ للاستفهام تولد في الذِّهن صورة الحدث الّذي مضى، وفق مدركات المتلقي، مع المحافظة على إطار الصُّورة الرَّئيسية، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءتُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[1].

البناء ← أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ ← بناء تحويلي أصله التوليدي:

ضرب الله مثلا، ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يساوي التجريد البنائي التالي:

امتداد صياغي استفهامي خارج بنية"كيف" + اسم استفهام "كيف" + فعل ماضي + فاعل + مفعول به.....

فالصِّياغة الامتداديّة الّتي سبقت البناء هيأت لبنية " كيف "مساحة مكانيّة واسعة في الصّياغة اللّفظية، لتشمل من خلاله موضوع الآيات بأسلوب المقارنة بين ضدين : الكلمة الطّيبة، والكلمة الخبيثة، وظهر هذا من جانب أسلوب التّوازي اللّفظي المحكم الّذي يمثله الشكّل التّجريديّ التّالي:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ

توازي بين التركيبين // ← تعاكس دلالي في التركيب وتعاكس لفظي

وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ

فالخير والشّر يسيران في خطين متوازيين لا يلتقيان عند نقطة واحدة، فالخير قائم منتشر متفشٍ في شتى جوانب الحياة، والباطل متقهقر أمام صولة الحق، فالبناء الاستفهاميّ أضاف إلى المقارنة أسلوب التّشبيه، فشبه الكلمة الطيبة تشبيها تمثيليا بالشّجرة الطّيبة في ثباتها، وامتداد نفعها، ودوام خيرها، فصاحب التّشبيه وصف أصل الشّجرة، بأنَّ جذورها ضاربة في عمق الأرض، ثابتة دون الشَّجرة نفسها للإعلام بدوام

---

(1) ــ سورة إبراهيم :الآية: 24 ــ 26.

حياتها، وإثمارها، ولتوكيد ذلك جمع السّياق بين تركيب " أصلها ثابت " و تركيب " فرعها في السّماء " مع الإيماء إلى رفع الكلم الطّيب إلى الله [2]" إليه يصعد الكلم الطّيب"، فالتّركيب يعمق واقع الحياة في شتى الجوانب.

ومنه يتسلط البناء على ظاهرة طبيعية يشاهدها النّاس في حياتهم، ليلفت الأنظار إلى آثار قدرة الله عزّ وجل في هذا الكون، فيقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا﴾[1]. فالتّركيب الاستفهاميّ بمصاحبة القرائن السّابقة، واللاّحقة يعمق مركزيّة الاعتبار للفت الأنظار، وربطها بالمسببات من جانب، والتّأمل فيما وراء الظّواهر من أسباب بعيدة هي منشأ الإيجاد، والإعدام، والحركة والسّكون من جانب آخر، والاعتبار يولد سياقيّا دلالة التّقرير لما تحمله من معاني التّوقف على آثار قدرة الله في الوجود.

ب) بنية " كيف " مع الزّمن الحاضر:

بناء هذا المستوى يرد مكيّفا بكيفية مخصوصة، تستلزم أنْ يكون الأمر الدّاعي ثابتا في الواقع، وتكون الحالة الذّهنية، أو النّفسية للمتلقي موافقة للواقع الفعليّ، فالمتكلم أو المنشئ يقف في بؤرة الحدث يراقب، ويوجه الإشارات للمتلقي ليجعله يتناغم مع الواقع من خلال كسر نسق سلوكه بسلوك آخر ينقلب إليه، ويرغبه المنشئ، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[2].

نجد في هذا المستوى من خلال البناء التحّويلي الزّيادة في التّركيب على مستوى الصّياغة التّوليدية تمثل بعنصر الاستفهام "كيف"، لبيان معنى الاستفهام من خلال مستويين: الأوّل المستوى السّطحي، وفيه يظهر المتكلمون المندهشون مما يحيط بهم من واقع يخالف العادة، والواقع، والفطرة، فنطقوا دون أي مقدمات بـ " كيف " لمعرفة الحال، بقصد نفيها عن تكلم الأطفال حديثي الولادة، فتطلب دلاليّا وسياقيا الإتيان بالاسم الموصول وصلته "نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا " لإخراج القضية مَخرج العُموم، أي أنّ

---

[2] ــ المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج2/ 177 ــ 178.

[1] ــ سورة الفرقان: الآية: 45.

[2] ــ سورة مريم: الآية: 28 ــ 31.

كلَّ من كان حديث الولادة " في المهد " يمنــع العقــل، والعــادة كلامهم،أمــا المــستوى الثّاني: يتولد من دلالة المستوى الأوّل وفيه يتعمق معنى التّعجب من إشارة مــريم إلــى الصّبي حتى يكلم هم، فكلامه بالنّسبة للواقع الّذي هم فيه مستحيل الحدوث فــي عــرفهم، ولكن الله عزَّ وجل يقرعهم بما فوق التّصور، وينطق من كان في المهد صبيا " قَالَ إِنِّـي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا "[3].

2 . 2 . 4: بنية " أين " الاستفهاميّة :

وهي من البِنى الّتي يُسأل بها عن " أيِّ مكان "[1]، وهي اسم مــن أســماء الأمكنــة المبهمة، يقع على جميع الجهات، وهذا المعنى وافقه البلاغيّون، يقــول الــسّكاكيّ : أمّــا أينَ فللسؤال عن المكان، فإذا قيل : "أين زيد ؟ "، فجوابه: في المسجد، في الشّارع، فــي البيت.... فيتنظم الأماكن كلّها "[2]، وبذلك يكون البلاغيّون قد جعلوها سؤالا عن تــصوّر حقيقة المكان، ونرى أنَّ بنية (أين) من بِنَى التّحويل البنائيّ تدخل على الجملــة التّوليديــة بقسميها الفعليّ، والاسميّ فتحولهما إلى معنى الاستفهام . وهي بذلك بنية استفهاميّة، وردت في السّورلملكيّة في عشرة مواضع، دون السّور المدنيّة [3]، لتفيد معنى الإنكار، والتّوبيخ واللّجوء إلى الله عزَّ وجل .

أ) بنية " أين " مع الجملة الاسميّة :

1 ــ مع الاسم الصّريح :

ومنه قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[4].

البناء ← أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ← بناء تحويلي أصله التوليدي:

شركاؤكم الأصنام ← ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يساوي التجريد التالي:

امتداد صياغي ← + عنصر استفهام " خبر مقدم " + مبتدأ مؤخر + ضمير متصل مضاف إليه + نعت " الذين "

(3) ــ ينظر : تفسير أبي السعود :ج5/ 263.

(1) ــ سيبويه: الكتاب: ج1/ 219 ــ 220، ج2/ 128، ج4/ 233.

(2) ــ السكاكي: مفتاح العلوم: ص: 150، وينظر: القزويني: الإيضاح: ج1/ 234.

(3) ــ ينظر: سورة الأنعام: الآية: 22، النحل: الآية: 27، القصص: الآية: 62، 74، وفصلت: الآية: 47، وغافر: الآية: 73، والأعراف:الآية: 37، والشعراء: الآية: 92، والقيامة: 10، والتكوير: الآية: 26.

(4) ــ سورة الأنعام: الآية: 22 ــ 23.

تلازم دلالي

بناء استفهام يعمق معنى تكذيب المشركين

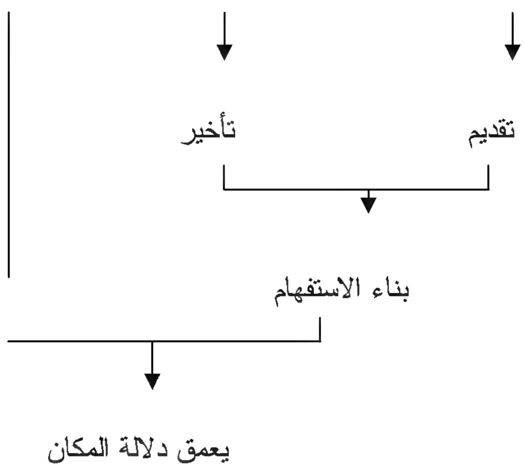
البناء النّصي للاستفهام في المستوى السّطحيّ يجعل المخاطبين متمركزين في مكان واحد أذلاء مقهورين، يوجه إليهم النِداء الرّهيب مِنْ قِبَل متكلم مهيمن على المَعنى والصِّياغة اللّفظية " أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ "، فيجعل الخطابُ المتلقين في حالة قلق، وخوف من المصير الّذي ينتظرهم من سبب شركهم بالله، فاستلزم سياقيّا، وأسلوبيّا لتحقيق هذا الواقع إضافة " لفظ " الشّركاء" إلى ضمير المخاطبين إضافة اختصاص؛ لأنَّ الّذين زعموا لهم الشَّركة مع الله في الألوهية، لم يكونوا شد ركاء إلاّ في اعتقاد المشركين، ليعمق البناء السّطحي بهذا الأسلوب معنى التّوبيخ، والتّكذيب للمشركين عمّا كانوا يزعمون[1].

2 ـ مع الاسم الموصول:

ومنه قوله تعالى : ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾[2].

البناء ← وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ← بناء تحويلي أصله التوليدي: تعبدون الأصنام، ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يساوي التجريد البنائي التالي:

امتداد صياغي ← + عنصر استفهام " أين" خبر مقدم + اسم موصول "ما " مبتدأ مؤخر + قرائن البناء



فالبناء التَّحويلي بمصاحبة القرائن القبليّة، والبعديّة، أحدث في البناء التّوليدي الزّيادة، والتَّقديم، والتّأخير، والحذف، فزاد بنية " أين " وجعلها خبرا مقدما، وأخَّر المبتدأ لمناسبة السّياق، فتطلب التّقديم، والتّأخير، والزّيادة حذف المفعول به " الأصنام " لدلالة

[1] ـ ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج6/ 52 ـ 53 .
[2] ـ سورة الشعراء : الآية: 91 ـ 93 .

القرائن عليها مع الفعل " تعبدون "كونه زيادة في الواقع لا يستحق الذّكر، فالمتكلم بهذا الأسلوب يوجه خطابه إلى متلق سلبيّ نادم على ما فرط في جنب الله، فيقول الزّمخشريّ :"يجمع عليهم الغموم كلّها، والحسرات "[3]، يقول ابن عاشور : " الاستفهام عن تعيين مكان الأصنام إنْ لم تكن حاضرة، أو عن عملها إن كانت حاضرة في ذلك الموقع، تنزيلا لعدمجدواها "[4]. فالاستفهام في البناء تسلط من خلال قرائنه على مكان الأصنام، دون الأصنام نفسها لينفي أنْ يكون لها مكان، ونفي المكان يستلزم نفي الكائن فيه، ليعمق السِّياق بهذه الدِّلالة معنى التَّهكم، والتَّوبيخ، والتَّقريع، والتَّبكيت لما عملوا . فالمعاني العميقة الَّتي يولدها البناء الاستفهاميّ كما بينها المفسّرون تتباين فيما بينها، فالزّمخشريّ يردها إلى التّحسر، والتَّغميم، وأبو السّعود يردّها إلى التّقريع والتّبكيت، وابن عاشور يرجعها إلى التّهكم والتّوبيخ [1]، ونرى أنَّ هذه المعاني الّتي تباين فيها المفسرون لتوجيه هذا البناء متولدة من دلالة التّقرير .

ب) بنية " أين " مع الجملة الفعلية :

وهذه البنية لم ترد إلاّ في موضع واحد، لتعمق بورودها في السياق دلالة المكان الّذي يذهب إليه منكرو البعث يوم القيامة، يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِا لأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[2] .

البناء ← فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ← بناء تحويلي أصله التوليدي :

تذهبون إلى نار جهنم، ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يساوي التجريد التالي :

امتداد صياغي + عنصر استفهام " أين " + فعل وفاعل " تذهبون "...

↓

بناء استفهامي يعمق دلالة الإنكار .....

(3) ــ الزمخشري : الكشاف : ج3/ 312 .

(4) ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج19/ 161 .

(1) ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام : ج3/ 101 .

(2) ــ سورة التكوير : الآية : 23 ــ 29 .

نجد من خلال البناء التّجريدي ّأنَّ الاستفهام يقع بين سياقين : السّياق الأول الامتداد الصّياغيّ الّذي يسبق البناء "وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ..... "، والثّاني: سياق توضيحيّ لما بعد الاستفهام يرتبط سياقيّا، ونصيّا مع المضمون العام للنّص إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِين"، وبهذا المكان السّياقي للاستفهام ينشر في البنيتين السّطحية، والعميقة معنى الإنكار المتولد دلائل الألفاظ، فحرف " الفاء" المتصل بالبنية " أين " لتفريع إنكار الذّهاب، وقطعا لكلّ الأعذار، ودلَّ على إنكار الذّهاب بإنكار المكان الّذي يمكن أنْ يذهبوا فيه، وإنكار مكان الشّيء يستلزم عدم وجود ذلك الشّيء، فحال المتلقين في هذا المقام حال مضطربة، فقد سُدَّت عليهم الطّرق من كلّ الجهات، فهم وقوف لا يستطيعون حراكا، فتطّلب صياغيّا، وتركيبيا مع هذه الدّلالة الفعل المضارع " تذهبون " ليعمَّ الإنكار كلَّ الأوقات[3].

2 . 2 . 5 : بنية " أنّى" الاستفهاميّة:

بنية " أنّى " الاستفهاميّة من البنى الّتي ترتدّ فيها الدّلالة إلى الذّات المبدعة، أو المنشئة لتعبّر عن انفعالاتها، ومشاعرها أوّلا، وترتد بؤرتها الدّلالية كذلك إلى الصّياغة ذاتها ثانيا، وقد ذكرها النّحاة، فهي عند (سيبويه) بمعنى " كيف و أين "[1]، وتكون بمعنى " من أين، "[2]وذكر بعض النّحاة لها معنى ثالثا يتمركز بـ " متى "، فيقول الزّركشيّ : " وتكون بمعنى " متى " كقوله تعالى: "أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير "[3]"[4]، ويرى الطّبريّ أنَّ بنية " أنّى " تكون بمعنى " من أيّ

(3) ــ المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج4/ 346.

(1) ــ سيبويه : الكتاب: ج4/ 235 والزركشي: البرهان في علوم القرآن،ج4/ 249.

(2) ــ الزركشي: البرهان في علوم القرآن: ج4/ 249.

(3) ــ سورة البقرة : الآية : 259.

(4) ــ الزركشي: البرهان في علوم القرآن: ج4/ 250.

جهة"[5] فأسقط بهذا الحديث أنْ تكون بمعنى " أين " أو " كيف " أو " متى ". وقد وافق البلاغيُّون النَّحاة والمفسِّرين في معنى " أنّى "[6].

وبالنّظر لما قدمه النّحويون، والمفسّرون نرى أنّ بنية " أنّى "قد تلحق بـ " كيف "في معناها، ونرى كذلك أنّها عنصر استفهام يدخل على الجملة الاسميّة، والفعليّة، فتحولهما لمعنى الإنكار، فهي من البنى الّتي تتحرك في بؤرة الصِّياغة لتثبيت وحدانية الله، وعظيم قدرته، مع إفادتها التّوبيخ لمن يشرك بالله، وممّا يلفت النّظر أنّها تشكلت مع الجملة الاسميّة في ثلاثة مواضع، ومع الجملة الفعليّة أربعة عشر موضعا [7]، جميعها تحمل دلالة الحاضر دون الفعل الماضي، وبهذا يمكن تقسيمها أسلوبيّا إلى بنائين : بناء الجملة الفعليّة، وبناء الجملة الاسميّة.

أ) بنية " أنّى " مع الجملة الفعليّة :

ورد هذا المستوى مع الفعل المضارع دون الحاضر، من خلال ثلاثة أساليب بنائيّة : الأوّل : الفعل التّام المبني للمجهول ، والثّاني : الفعل التّام المبني للمعلوم، والثّالث :الفعل النّاقص فمن دلالة الأسلوب الأوّل قوله تعالى : ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾[1].

البناء ⟵ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي :

يسحر الباطل عقولكم، ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يساوي التجريد البنائي التالي :

امتداد صياغي ⟵ + حرف ربط " الفاء " + عنصر استفهام " أنى " + فعل + نائب فاعل ......

تعاكس

الامتداد الصياغي يعاكس البناء الاستفهامي ⟵ // ⟶ بناء الاستفهام

[5] ــ الطبري : جامع البيان : ج3/ 29 ــ 32.

[6] ــ ينظر : السبكي : عروس الأفراح :ج1/ 538 ــ 540.

[7] ــ ينظر : سورة الأنعام : الآية : 95، 101، مريم : الآية : 8، 20، غافر : الآية 62، 69، الدخان : الآية 13، فاطر : الآية : 3، الزمر : الآية : 6، يونس :الآية : 32، 34، المؤمنون : الآية :89، العنكبوت : الآية : 61، يسن : الآية :66، الزخرف : الآية : 87، سبأ : الآية : 52، الفجر : الآية : 23.

[1] ــ سورة المؤمنون : الآية : 86 ــ 89.

فعنصر التّحويل " أنَّى " أجرى في البناء التّوليدي الزّيادة، والحذف ليفيد معنى الاستفهام، وبناؤه في مستوى ا لبنية السّطحية يشير إلى من ذهب رشده، وعصفت به الشّبهات عصف السّحر برشد الرّشيد، فاستدعى دلاليا وسياقيّا بنية " أنّى " لتضمنها معنى " كيف "، ليتعمق معها موضع الإنكار، ويتسلط المعنى على أمر مذموم تمثل بالسِّحر، فيقول ابن عاشور : " لفظ " السّحر" مستعار لترويج الباطل بجامع تخيل ما ليس بواقع واقعا"[2]، والتَّركيب يتوافق دلاليا مع هذا المعنى، فلفظ " السِّحر" ورد بصيغة المبني للمجهول؛لأنَّ سحر العقل في العناد ليس له فاعل متعين يمكن أنْ يُوجَّه إليه أمر السّحر، فجاء اللفّظ بصيغة المبني للمجهول.

ومن البناء الثّاني يأتي بعد امتداد صياغيّ، يعمل على بلورة الاستفهام وتعميقه دلاليا وسياقيا، ومنه قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾[3].

البناء ⟵ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي:
يبصرون إلى الحق، ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يساوي التجريد التالي:
امتداد صياغي ⟵ + عنصر استفهام " حال " + فعل وفاعل........

فالبناء الاستفهاميّ يأتي بعد امتداد سياقيّ طويل ليعقب على ما سبقه، ويربطه ربطا محكما ليجعل من النّص كتلة واحدة متماسكة، تمثل بحرف " الفاء" المتّصل بالبنية الاستفهاميّة، ليقدم سياقيّا، وأسلوبيّا جانبين : الأوّل يربط ما سبق البناء بالبناء نفسه، وبؤرة الرَّبط تمركزت بالفعل " استبقوا " ليسقط الرَّبطُ من لوازمه حرف الجرِّ " إلى "، وبعملية الاسقاط انعدمت معه الغاية عند المنكرين، ويبيّن حالهم بأنّهم يدورون حول أنفسهم لمعرفة الصّراط، ويركضون بحثا عنه فلا يهتدون إليه، فناسب هذه الحال سياق الاستفهام " أنّى يبصرون"أي كيف يبصرون، ومتى يبصرونه، الثّاني : تمثل بالجانب المعنويّ من الرّبط السّياقي لينكر عليهم الحال الّتي وصلوا إليها، فهم لا يبصرون، فقد طمست أعينهم من شدةغفلتهم[1]، فالمتكلّم في البناء النّصيّ يَعْرِض حال المنكرين يوم القيامة، وكيف تكون، ليضع المتلقي في مشهد الآخرة قبل حدوثه واعظا له بطريقة عقلية عاطفية، يمزج فيها ما بين العقل والوجدان.

---

(2) ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج18/ 91.

(3) ــ سورة يس: الآية: 65 ــ 66.

(1) ــ ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج22/ 258.

أما النَّمط الثّالث لهذا المستوى البنائي يتشكل من بنية " أنّى " مع الفعل النّاقص، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[2]. فهذا المستوى يعاكس بنا الفعل التّام من حيث المكان الصيّاغي للاستفهام، فالبناء الأوّل أتى في نهاية السّياق ليعقب عليه، أمّا هذا المستوى فقد ورد بعد مساحة صياغيّة بسيطة يأتي بعده التعقيب . فبؤرة الاستفهام فيه تتسلط سياقيّا ودلاليّا على معنى " عقر امرأته " و " كبر سنه"، ليستبعد من خلالهما أن يكون له ولد، فقدم سياقيّا، وأسلوبيّا سبب العقر على كبر السّن؛ لأنَّ الوصف بالنّسبة إليه مجهول، والسّبب الثّاني تأخر " الكبر"؛ لأنَّ زكريا أطنب في وصف حاله في مطلع السّورة نفسها، فحاله بالنِّسبة إليه معلومة، فلا داعي لتقديمها سياقيّا ونصيّا، أمّا حال زوجته فلا يعلم من أسباب عقمها أيّ شيء، ولهذا قدمه سياقيّا ونصيا، ليعمق البناء في المستويين السّطحي، والعميق دلالة استبعاد أنْ يكون له غلام في ظلِّ هذه الأسباب المقنعة [3]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[1]. فالاستفهام ينشر في دلالات التّركيب النّصيّ معنى النّفي، بأسلوب تحويليّ جرى بالزّيادة، والتّقديم والتّأخير، فالبناء ينفي أنْ يكون له ولد، فجاء النّفي بأسلوب برهانيّ يزيل كلَّ شبهة تثبت ما ذهب إليه المشركون، فخلق الكون من العدم ينفي نسبة الولد إليه "بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ "، فالولد يحتاج إليه المحتاج، ليكون عونا، ومالك الملك غني عمّا يدعون.

ب) بنية " أنّى " مع الجملة الاسميّة:

بنية هذا المستوى تشكلت مع الجملة الاسميّة في نطاق محدود، لم يتجاوز مواضع ثلاثة، تشابهت أسلوبيّا، واختلفت دلاليا، وقد تمركزت المواضع الثّلاثة في شبه الجملة، فتقدم الخبر على المبتدأ لمقتضيات أسلوبيّة يتطلبها المعنى الدلاليّ لكل تركيب، ومنه قوله

[2] ــ سورة مريم: الآية: 8.

[3] ــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام :ج2/ 269. والألوسي: روح المعاني: ج16/ 66 ــ 67. وتفسير أبي السعود: ج5/ 256 ــ 258.

[1] ــ سورة الأنعام: الآية: 100 ــ 102.

تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[2].

البناء ⟵ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي:

التناوش حالهم من مكان بعيد، ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يساوي التجريد التالي:

حرف عطف " الواو " + عنصر استفهان " أنى " خبر مقدم + جار ومجرور + مبتدأ مؤخر + قرائن البناء...

↓

بناء الاستفهام يعمق معنى الاستبعاد

فالاستفهام في دلالته السّطحيّة يصوّر المتلقين السّلبيين، وحالتهم الّتي تثير الدّهشة، فهم يسارعون للإيمان والإعلان عنه " قالوا أمنا "، إلا أنَّ السّياق النّصيّ يُسارع بالإجابة، وينفي صحة إيمانهم؛ لأنّ الوقت قد فات، فيقول ابن عاشور : " البناء مركب تمثيليّ يفيد تشبيه حالهم، وقد فرطوا بأسباب النَّجاة، بحال من يريد تناوش شيء من مكان بعيد"[3]. فالبناء يستبعد حدوث ما يريدون لبعد المسافة ما بين الطالب، والمطلوب، ليعمق معنى الاستحالة والتبكيت، والتّحسر، والتّسفيه لكل منكر.

2 . 2 . 6: بنية "أيّ " الاستفهاميّة:

"أيّ" الاستفهاميّة من البنى التّرجيحية التي يُتْرَك فيها مساحة صياغيّة يتحرك فيها المتلقي بالاختيار ما بين الإجابتين، يقول (المبرّد): " اعلمْ أنَّ " أي " تقع على شيء هي بعضه، لا تكون إلاَّ على ذلك في الاستفهام"[1]، وفصَّل النُّحاة القول في بنيتها، واتفقت أقوالهم بأنّها تُستعمل لمن يعقل، ولمن لا يعقل بحسب ما تضاف إليه؛ لأنَّها بعض مِنْ كل، فإنْ أضيفت إلى الزَّمان فهي زمان، وإنْ أضيفت إلى المكان فهي مكان، فإذا أضفتها إلى أيّ شيء فهي منه[2]، وقالوا بأنَّها مُعربة من بين أسماء الاستفهام، لعلة الحمل على

---

(2) ــ سورة سبأ: الآية: 50 ــ 52 .

(3) ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج22/ 103 .

(1) ــ المبرد: المقتضب: ج2/ 294، وينظر: سيبويه: الكتاب: ج4/ 233، والزركشي: الإتقان: ج2/244 ــ 245 .

(2) ــ السيوطي: الأشباه والنظائر :ج2/283، وشرح المفصل: ج7/44.

النَّظير، أو النَّقيض، أو عليهما، والنَّظير لها لفظ " بعض " والنَّقيض لها لفظ " كل "، وهما معربان، فأعربت حملا عليهما، أو على أحدهما[3].

ويرى الرّمَّاني أنَّ " أياذا"كانت استفهاما عمــل فيهــا مــا بعــدها، و لــم يعمــل فيها ما قبلها، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُــوا الــصَّالِحَاتِ وَذَكَــرُوا اللَّهَ كَثِيــرًا وَانتَــصَرُوا مِــن بَعْــدِ مَــا ظُلِمُــوا وَسَــيَعْلَمُ الَّــذِينَ ظَلَمُــوا أَيَّ مُنقَلَــبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[4]. فانتصبت " أيَّ " بــ" ينقلبون" ولا يجــوز نــصبها بــــ " ســيعلم "؛ لأنَّ الاستفهام يعمل فيه ما قبله للصّدارة "[5]. ولم يَخرج البلاغيّون عن دائرة النّحــويين فــي معنى " أي " الاستفهاميِّة[6]. ونرى أنَّهــا بنيــة اســتفهاميِّة لا غيــر، لقــصد التَّحــذير، والتَّخصيص، والاختيار بـ ين فريقين، فهي بنية ترجيحيّة، يقتصر أثرها على نقل الجملــة من الإخبار إلىالاستفهام، وقد وردت في السّور في ثلاثة وعشرين موضعا [7]، وفــي مواضعها أفادت التَّعظيم، والإنكار، والتّقبيح، والتّوبيخ، كما أفادت التّقرير بمعنــى طلــب الاعتراف، وقد لزمت في أبنيتها صيغة الإفراد والتّذكير، ولم يَشذَّ عن هذه القاعدة إلاّ آية واحدة من سورة لقمان، وقد وردت مع الجملة الاسميِّة أكثر من الفعليّة.

أ) بنية " أيّ " مع الجملة الاسميّة:

والجملة الاسمية تتشكل وفق مقتضيات النَّص مع " أيّ " من أبنية أســلوبيّة مختلفــة تصنّف على النَّحو التَّالي:

1ــ بنية "أيّ" مضافة إلى الضّمير، وخبرها اسم تفضيل، والبناء يساوي التّجريد التَّالي:

امتداد صياغي + عنصر استفهام " أي " مبتدأ + ضمير متصل + خبر " مشتق اسم تفضيل"

---

[3] ــ ينظر: الخشاب، أبو محمد بن الخشاب: المرتجل، تحقيق: علي حيدر، دمشق، ط1، 1972م. ص: 272.

[4] ــ سورة الشعراء: الآية: 227.

[5] ــ الرماني: معاني الحروف: ص: 160.

[6] ــ ينظر :السكاكي: مفتاح العلوم: ص: 150، والقزويني: الإيضاح: ج1 /232، وينظر: شروح التلخيص: ج2/283 ــ 285.

[7] ــ ينظر: سورة الأنعام: الآية: 19، 81، الإسراء: الآية: 57، والكهف : الآية: 7، 12، ومريم : الآية: 6، 73، والشعراء: 227، عبس: الآية : 18، الانفطار: الآية : 8، هود: الآية: 7، النمل: الآية: 38: الملك: الآية: 2، الأعراف: الآية: 185، الجاثية: الآية: 6، النجم: الآية: 55، المرسلات: الآية: 12، 50، غافر : 81، لقمان: الآية: 34، التكوير: الآية: 9، طه: الآية: 71، القلم: الآية: 40.

ومنه يأتي إلى تفسير، أو بيان الغاية، فيقول تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1].

البناء ⟵ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي: عملكم أحسن الأعمال، ليفيد معنى الإخبار.

فبنية " أي " أحدثت في التّركيب التّوليدي الزّيادة، والتّرتيب لعناصره ليفيد معنى الاستفهام، والاستفهام اشترك في بنيته نصيا المرجعية السّابقة، وتمركزت في الفعل "يبلوكم"، ليسير بعده البناء بأسلوب انفعاليّ " أيّكم أحسن عملا "، ليقيّد متعلق الابتلاء بأحسن الأعمال، ويعمق من خلاله دلالة التّفاوت في الأعمال بين المؤمنين من حسن إلى أحسن، فيقول الزّمخشريّ : "أصحاب أحسن الأعمال هم المتّقون، وهم الّذين استبقوا إلى تحصيل غرض الله من العبادة "[2]، فالتّفاوت في الأعمال الحسنة يعطي المتلقي شرف المكانة الّتي وصل إليها أصحابها، ونلمس فيه أسلوبيّة التّلطف من قبل المتكلم للسّامعين، واستدراجهم للعمل في دائرة الفضل الّذي يريده الله عزّ وجل.

2 ـ بنية " أي " مضافة إلى اسم معرفة، والخبر اسم ظاهر :

ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[3]. فبنية الاستفهام تنشر على المستوى السّطحي للبناء خيريّة، وحسن أحد الفريقين، وأسعدهم حالا في الحياة الدنيا، فالمتكلّم السّلبي في النّص أو المتكلِّمون تركوا مساحة مكانية للمتلقي، حتى يتم فيه تعيين الفريق المستفهم عنه، ليرجعوا إلى أنفسهم، ويبينوا أنّهم في خير مقام وحال، فتركوا المستفهم عنه دون تحديد ليثير في مفردات التّركيب هامشية التّوقع للمتلقي حسب إرادة المتكلم، فسلكوا معهم بهذا الأسلوب مسلك تجاهل العارف، حسب اعتقادهم، فرددوا الأحسنيّة، والخيرية بينهم وبين المؤمنين، وهم يعتقدون تفردهم بها، راجين أنْ يتفكر المؤمنون، ثم يعترفوا لهم بالخيريّة، والأحسنيّة انخداعا، ونزولا على مقاييسهم الفاسدة، بأنْ من كان أسعد حظا في الدّنيا كان أفضل حسب اعتقادهم[1].

---

(1) ـ سورة هود : الآية: 7.

(2) ـ الزمخشري: الكشاف: ج2/ 366.

(3) ـ سورة مريم : الآية: 73.

(1) ـ ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج16/ 73، والمطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج2/ 287 ـ 288.

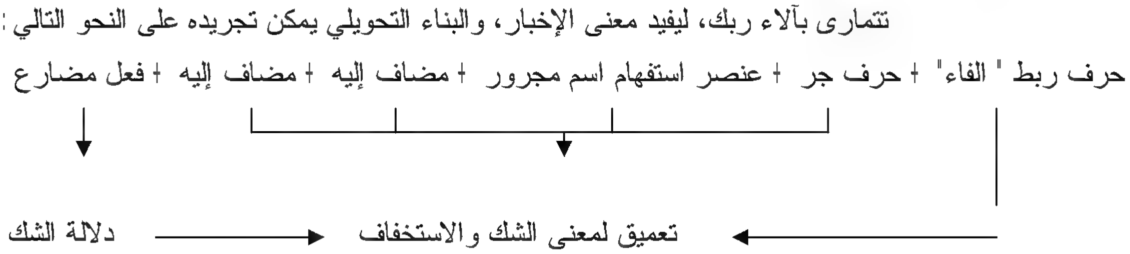
3 ــ بنية " أي " المسبوقة بحرف الجرّ، ومضافة إلى اسم نكرة:

ومنه قوله تعالى : ﴿قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾[2]. البناء بمعنى تخصيص مادة خلق الإنسان، من خلال أسلوب التَّحقير، فتطلب سياقيّا، وأسلوبيّا مع هذا المعنى تنكير لفظ " شيء"، ليتناسب المقال مع المقام، وبهذا يجري البناء في نطاق الإفهام من زاويتين : الأولى أنَّ خلق الإنسان بدأ من شيء حقير شبيه بالعدم المحض، ليدل دلالة كبيرة على وجود فاعل متصرف في كلِّ شيء،والثَّانية: يدلل ويبرهن على تقرير حقيقة الإحياء بعد الموت ــ البعث ــ ويعرّض بمشركي العرب الّذين أنكروه بعد الموت إلى حياة ثانية [3]. والسّياق النّصيّ للبناء يعمق كذلك معنى التّشويق، ولذلك قرن الاستفهام بالجواب على طريقة الإقناع العقليّ المباشر المستند إلى الدَّليل الماديّ " من نطفة خلقه فقدَّره "، وبالجواب زاد التّنبيه لدى المتلقي على دقة ذلك الخلق المتّصل بالإنسان ، فالبناء بهذا الطّرح يشكّل أسلوبا متناميا يبدأ من بؤرة صغيرة مثار الحدث، ثم يأخذ بالنّمو حتّى يصل التّركيب المصاحب للجواب إلى أقصى غايات الإثارة.

ومنه قوله تعالى : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكَ تَتَمَارَى * هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾[4].

البناء ← فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكَ تَتَمَارَى ← بناء تحويلي أصله التوليدي:

تتمارى بآلاء ربك، ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يمكن تجريده على النحو التالي:



بنية التَّحويل أحدثت في السّياق النَّصيِّ التَّقديم والتَّأخير، والزيادة، ليفيد معنى الاستفهام، فالزِّيادة في المستوى السّطحي للتركيب نشأت من الحرف المتصل بالبناء "الفاء" أولا:ربط السّياق الاستفهاميّ بما قبله من قرائن دلالة، ومتصلة بالمعنى تثير لدى المتلقي بؤرة الحدث، والثّاني : من المضاف إليه ليولد منه المفاجأة لدى المتلقي بعد الإثارة

[2] ــ سورة عبس: الآية: 17 ــ 20.

[3] ــ ينظر :المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج4/ 343 ــ 344.

[4] ــ سورة النجم : الآية: 53 ــ 56.

وتبين أنَّه منكرٌ لنعم الله تعالى [1]. فالبنية السّطحية تسير بهذا التّرتيب النّصيّ إلى المتلقي مباشرة في كلِّ زمان ومكان، ولهذا جيء بعنصر الاست فهام "أي " الّتي يطلب بها فرع، أو نوع متعين من جنس عام يحمل كلَّ فرد من أفراده خصائص الجنس، فالسُّؤال عن جنس غير موجود، وعدم الوجود ينفي الوصف عن ذلك الموصوف غير الموجود . وبهذا يتعمق معنى الإنكار المتَّجه إلى المنكرين، ويقرر عدم الشَّك في نعم الله تعالى الظَّاهرة للعيان.

ب) بنية " أيَّ " مع الجملة الفعليّة:

وهذا المستوى لم يرد إلاّ مرة واحدة، ومع دلالة الزّمن الحاضر البسيط، ليبين أنَّ بنية " أي" يُسأل بها عن الذّوات المطلقة، أو المقيدة، ومنه قوله تعالى : ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ * قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [2].

البناء ⟵ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ⟵ بناء تحويلي أصله التوليدي: يأتون سليمان بعرشها، ليفيد معنى الإخبار والبناء التحويلي يساوي التجريد التالي:

عنصر استفهام + ضمير مضاف إليه + جملة فعلية + جار ومجرور + قرائن البناء..........

يبين التَّجريد البنائيّ أنَّ عنصر التَّحويل دخل على البناء التّوليديّ، وأجرى فيه التَّبديل، والزِّيادة ليفيد معنى الاستفهام بمساعدة القرائن النَّصيّة، والدّلالية الّتي تَسير في المعنى، فالسّؤال تسلط على ذات مقيدة بالشّرط المعلن، وهي الذّات القادرة على القيام بالمطلوب " الإنس أم الجن "، وتولدت هذه القرائن من أسلوب الخطاب الّذي نطق به المتكلم " يا أيها الملأ . ليُعظم من خلاله المنادى، ويحدد الـ نابهين من الملأ للقيام بالمهمة التي يريدها المتكلم، وتحددت بعد امتداد سياقيّ لاحق للاستفهام مُتناغم مع المعنى بالذّات الّتي عندها عِلم الكِتاب.

2 .2 .7: بنية " كم " الاستفهاميّة:

---

[1] ــ ينظر: الألوسي : روح المعاني: 27/ 71.

[2] ــ سورة النمل: الآية: 37 ــ 39.

يرى النُّحاة أنَّها تكون للاستفهام عن عدد، ويكون تمييزها نكرة مفردا منصوبا[1]، وقد ذكر الاستراباذيّ أنَّ " كم " الاستفهاميّة تكون لعدد مبهم عند المتلقي، معلوم في ظنه عند المخاطب[2]، وحديث الاستراباذيّ لا ينطبق على " كم " الاستفهاميّة، بل يُجاري " كم " الخبريّة؛ لأنَّ " كمالاستفهاميّة يعلم معها المتلقي العدد المبهم، ويجهله المتكلم، ولهذا يخلط بعض النّحاة بين المفهومين، لكنَّ النّص القرآنيّ يأتي بـ "كم" الاستفهاميّة على لسان متكلم ينقل لنا ما حدث في الزّمن الماضي، ووافق البلاغيّون النّحويين في مفهوم كم الاستفهامية [3]. ونرى أنَّ " كم " الاستفهامية تدخل على الجملة الاسميّة، والفعليّة، وتعدّ عنصر استفهام لا غير، والبنية وردت في سياق السّور المكيّة في موضعين اثنين، سورة الكهف، وسورة المؤمنين، بخلاف ما ذكره السيوطيّ، الّذي ينفي وجود " كم " الاستفهاميّة في القرآن الكريم، ويؤكد ورود " كم " الخبرية"[4]، وكم الاستفهامية وردت على نمط واحد في الموقعين، تشكل من بنية " كم " وحذف التمييز بوجود الجملة الفعليّة بعده مباشرة، فيقول تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾[5].

البناء ← كم لبثتم بناء تحويلي أصله التوليدي

لبث أهل الكهف يوما أو بعض يوم في كهفهم، ليفيد معنى الإخبار، والبناء التحويلي يساوي التجريد التالي:

امتداد صياغي + عنصر استفهام + تمييز محذوف + جملة فعلية + قرائن البناء......

↓ ↓

حوار بناء الاستفهام

↓

حوار داخلي يرجع إلى دلالة الماضي

---

[1] ــ ينظر : سيبويه : الكتاب : ج2/ 156 ــ 175، ج4/ 228. و ينظر : الاسترابادي : شرح الكافية : ج2/ 96.

[2] ــ ينظر : الاسترابادي : شرح الكافية : ج2/ 96 ــ 97.

[3] ــ ينظر :التفتازاني : شروح التلخيص : ج2/ 285 ــ 286.

[4] ــ ينظر : السيوطي : الإتقان : ج2: 222 ــ 223.

[5] ــ سورة الكهف : الآية : 19.

فدلالة الاستفهام في المستوى السَّطحي تشكّلت من جوانب مختلفة فرضها السِّياق النَّصي، أوّلها : الامتداد الصّياغيّ الّذي سَبَق البِناء " بعثناهم ليتساءلوا..." فالامتداد بهذا الأسلوب صورة موحية بما دار بين أهل الكهف من تساؤل متداخل بعضه ببعض، وهذا هو شأن ما يحدث بين كل جماعة إذا أصابها أمر، والتَّداخل تمركز سياقيّا في لفظ " ليتساءلوا "، لينحصر في جماعة أهل الكهف وقت عزلتهم، فأثبته النَّص من خلال ظرف المكان المضاف إلى الضَّمير " بينهم "، ولم يكتف الامتداد الصِّياغي بنشر الحوار وبيانه، بل يضع المتلقي في حالة نفسية تجعله يتشوق إلى سماع الخبر، ويتطلع إليه بكلِّ شغف، ولهذا فصّل السِّياق ما بين بناء الاستفهام، وحالة التَّساؤل بجملة " قال قائل منهم..."، ليأتي بعده البناء مباشرة للسّؤال عن وحدات الزَّمن الّتي لبثوها في الكهف " كم لبثتم " على لسان متكلم مفرد من الجماعة، ليبادر السِّياق، ومن خلال قول جماعي يتولى نقله واحد من جهة أهل الكهف، بالإجابة عن وحدات الزّمن . فالإسناد جماعي للحديث، والمتكلم واحد، وهو من طرق المجاز الَّذي يضع العام فيه موضع الخاص باعتبار رضى الجميع بهذا القول السَّديد، والإقرار بتفرد الله بحقيقية الزَّمن الَّذي لبثوه.

2. 2. 8: بنية " متى " و " أيان":

بنية " متى " بمعنى " أي حين،"أو في أيّ زمان [1]، وهي اسم مبني للسّؤال عن الزّمان ليغني عن جميع أسماء الزّمان، والنّحاة جعلوا " متى " ظرف للزّمان؛ لأنّهم وجدوها سؤالا عن الأزمنة [2]، وقد وافق البلاغيّون النّحويين في أنَّ متى للسؤال عن الزّمن[3] ماضيا كان أ مْ مستقبلا. أمّا بنية " أيان" فهي عند النّحاة ظرف زمان بمعنى " متى "[4]، وفرّق النحاة بينها وبين " متى "، فذكر ابن يعيش أنّ " متى " أكثر استعمالا من " أيان "، وهي لكثرة استعمالها صارت أظهر من أيان في الزَّمان، وذكر كذلك أنَّ " متى تستعمل في كلِّ ز مان، و" أيان " لا تستعمل إلاّ فيما يراد به تفخيم أمره، وتعظيمه في النُّفوس [5]، وذكر الاستراباذي من الفروق بينهما أنَّ " أيّان " تختص

---

[1] ــ ينظر سيبويه : الكتاب :ج1/ 217 ــ 219، ج4/ 232 ــ 233.

[2] ــ ينظر : المقتصد في شرح الإيضاح: ج1/ 228.

[3] ــ ينظر : السكاكي: مفتاح العلوم: ص: 150. والقزويني: الإيضاح: ج1/ 234.

[4] ــ ينظر : سيبويه: الكتاب: ج4/235، والفراء: مجاز القرآن: ج1/ 234.

[5] ــ ينظر : ابن يعيش: شرح المفصل: ج4/ 106، السيوطي: الأشباه والنظائر: ج2/ 212.

بالمستقبل بخلاف " متى فإنّها تستعمل في الماضي والمستقبل [1]. وقد وافق البلاغيّون النّحويين في ذلك [2] ونرى أنَّ الـ بنيتين عنصران يفيدان الاستفهام للتّحويل البنائيّ، في الجملة الفعليّة والاسميّة.

أوّلا: بنية " متى " :

بنيتها من البنى الّتي يلجأ فيها التّركيب النّصي إلى الانفعال، واستباق ما يحدث، فيكون المتكلم متعجلا، وقد وردت في السّور المكيّة في ثمانية مواضع [3] تتشابه في الأسلوب، وخاصة مع اسم الإشارة، فلم ترد مع الجملة الفعليّة في أيّ موضع، فأغلب أساليبها تشكلت مع الجملة الاسميّة " متى هذا الوعد / متى هذا الفتح / " وخرج عنها أسلوب واحد ورد مع الضّمير المنفصل تمثل بقوله : " ومتى هو " ليفيد في جميع أساليبه دلالة الاستبطاء، الّتي يكون فيه المطلوب متوقعا، ولكن المتكلم يستعجل حدوثه لحرصه عليه، وشغفه به. ومن الأسلوب الأوّل مصاحبة البنية للضّمير قوله تعالى : ﴿قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [4].

البناء ← متى هو؟ بناء تحويلي أصله التوليدي: ←

مبتدأ + خبر محذوف، فلا يمكن تجسيده ليفيد معنى الإخبار.

فالبناء الاستفهاميّ بناء تحويليّ جرى التَّحويل فيه بالحذف، والزّيادة لإفادة الاستفهام عن الزّمن، والبناء تشكَّل من تراكيب أسلوبيّة تعمق الدّلالة الكليّة، فأوّل هذه التّراكيب الامتداد السّياقي الطّويل الّذي سبق البناء مثل المحاورة ما بين المتكلم، والمتلقي حول استبعاد البعث بعد الموت من قبل المنكرين له، ليطوي السّياق بأسلوب مثير للدّهشة والانفعال الزّمن، والمكان من تحت أرجل المنكرين ليلزمهم بالحجة القاطعة، ويقرعهم بها، فالسّياق يستدرجهم من حيث لم يحتسبوا، ويسير حسب رغباتهم حتى يضيق عليهم زاوية النّقاش، ويلزمهم بالحوار، فيقولوا على سجيتهم "متى هو ..." بأسلوب يظهر معه

---

(1) ــ ينظر : الاسترابادي : شرح الكافية : ج2/ 116 .

(2) ــ ينظر : السكاكي : مفتاح العلوم : ص : 149 . والقزويني : الإيضاح : ج1/ 234 .

(3) ــ ينظر : سورة الإسراء : الآية 51، والأنبياء : الآية : 38،والنمل : الآية 70، السجدة : الآية : 28، يسن : الآية : 48، الملك : الآية : 25، يونس : الآية : 48، سبأ : الآية : 29 .

(4) ــ سورة الإسراء : الآية : 50 ــ 51 .

الكبر والخيلاء، والاستهزاء، من خلال دلالة الفعل " سينغضون .." وقرائنه، فكل لفظ في هذا البناء حسب له حسابه فجاء متوافقا متماسكا مع الجملة، ومع السِّياق الإجماليّ.

والمظهر الثّاني للبناء تمثل بتكرار اسم الإشارة مع البناء، ليحدد المراد تحديدا ظاهرا، ويميزه تميزا كاشفا، وهذا التَّحديد قد يكون مقصدا مهمّا للمتكلم؛ لأنَّه حين يكون معنيا بالحكم على الحدث يمنحه مزيدا من القوة والتّقرير، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ * وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

البناء ⟵ متى هذا الوعد بناء تحويلي أصله التوليدي : ⟵

الوعد قريب، ليفيد معنى الإخبار، والبناء التوليدي يساوي التجريد التالي:

الوعد قريب = ⟵ الوعد + خبر محذوف

مبتدأ وخبر " جملة اسمية "

فعنصر التّحويل " متى " دخل على البناء التّوليدي، وأجرى في بنائه التّحويل بالزّيادة، والحذف، والتّقديم، والتّأخير ليفيد معنى الاستفهام عن الزّمن، وتشكل المعنى من ثلاثة جوانب أسلوبيّة، وسياقيّة : الأوّل: تمثل في الامتداد الصّياغيّ "ويقولون" ليمثل حرف العطف همزة الوصل ما بين السّابق واللّاحق ليتوافق دلاليا وسياقيّا، فعطف قولهم هذا على ما قالوه فيما قبل للإعلام بأنَّ هذا القول يتكرر منهم مرات، ويمكن القول إنّه استئناف مسوق لبيان موقفهم من الإيمان بالآخرة، وأنَّ هذا القول هو دأب الّذين كفروا ليانِ أنّهم لا يكفّون عن ترديده، والثّاني : البناء التّحويليّ، فالامتداد السّياقي هيأ للمتكلم مساحة مكانيّة للسّؤال عن زمن الوعد لنفي الزّمن عنه؛ لأنَّ الوعد بالنسبة لهم قد حدث، فنفي الزّمن يعني نفي الحدث، ليتعمق فيه دلالة الاستدلال بحسب التّصور، لا بحسب المقصود؛ لأنّ زمن قيام السَّاعة معلوم لله لا معدوم كما توهم الجاحدون، وبعد هذا الاستدلال يتولد الجاني الثّالث للأسلوب من خلال قوله تعالى : إنْ كُنتم صادقين " ليثير، ويلهب مشاعر الخصم، ويحثه بشدة على تحقيق مراد المتكلّم، فالاستفهام في هذا البناء يكشف لـ لمتلقي السّلبي والإيجابيّ في كل زمان ومكان حقيقة البعث بعد الموت لكلِّ مخلوقات الكون، ويبين حقيقة المنكرين الّذين يستبطئون حدوثه كَما تخيّلوا.

---

(1) ــ سورة النمل: الآية: 69 ــ 71.

الفصل الثالث

أنماط أسلوبيّة في البنية الاستفهاميّة

يظهر لنا ممّا سبق في الفصل الثّاني أنَّ الأبنية الاستفها ميّة في القرآن الكريم بعامة، والسّور المكيّة خاصة، تتميز بتحقيق أكبر قدر ممكن من التّناغم، والتّوافق بين الوظائف الثّلاث الرّئيسة في عملية الاتصال الأدبيّ داخل السّور المكيّة وهي : الوظيفة الانفعاليّة والطّلبية، والمرجعيّة، فالانفعاليّة تتمركز عند المتكل م، أو المُستفهم، والطّلبية ترتبط بالمتلقي الخاص والعام، والمرجعيّة تخصّ السّياق، وتظهر هذه الوظائف الثلاث تباعا في المستوى الصّياغي الأصليّ للبنية الاستفهاميّة، وفي المستويات الدّلالية التّوليدية الناتجة عن تفاعل الصّياغة مع المقام، ومقتضيات الأحوال....

والبناء العميق للاستفهام يتصل بالإفهام، والإفهام وظيفة مشتركة بين اللّغة الأدبيّة، واللّغة اليّومية المعتادة بكل أساليبها وأنماطها، لكن اللغة الأدبية تتجاوز الإفهام إلى تحقيق الإطراب، أو الوظيفة الجمالية باستخدام وسائل إيقاعية، وتركيبية مختلفة، وأشكال بلاغية متعددة في نسيج البناء الاستفهامي لجذب انتباه المتلقي إلى البنية الدّاخلية للرسالة الأدبية في السياق الاستفهامي، فيتحقق له عنصر الإطراب، أو لذة النص على حد تعبير (رولان بارت)[1]. والأساس الّذي يعتمد عليه الإطراب، أو اللّذة في البنية الاستفهاميّة متعدد المسارب في رصده لتحركات التّراكيب من البنية الأصلية إلى البنية السّطحية مع استجلاء الحركة الدّلالية الارتدادية للتّراكيب، فتبدأ البنية الاستفهاميّة بجميع أنماطها ومراحلها الأسلوبيّة، والدّلالية بالتّفصيلات الجزئيّة، وهي مرحلة تظل في منطقة الحقيقة، ثم تنتقل إلى مرحلة الدّلالية المجازية بمساعدة القرائن القبلية، والبعديّة داخل التّركيب، لتبدأ بعدها المرحلة الثّالثة، وهي مرحلة تكثيف الدّلالة المجازية، وزيادة فاعليتها عن طريق التّشكيلات اللّغوية، والأسلوبيّة الّتي تتعاور على البناء، أو تتّحد في نسيجه، كالتّنغيم، والتّقديم والتّأخير، أو التّرتيب المكانيّ، والزماني في البناء الاستفهامي، والحذف، أو البتر، وتحول صيغ الخطاب، والتكرار .... إلى أن تصل البنية الاستفهاميّة إلى مرحلة البنية السّطحية النهائية للصّياغة.

---

(1) ــ ينظر: بارت، رولان: **قراءة جديدة للبلاغة القديمة**، ترجمة: عمر أوكان، دار إفريقيا للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1994،ص:67 ــ 80.

3 . 1: أسلوبيّة النّبر، والتّنغيم في البناء الاستفهامي:

من المعــروف أنَّ للكــلام أغراضــا متعــددة فــي ضــوء طــرق الأداء للجمــل والعبارات، وفي البنية الاستفهاميّة نلمس هــذا الجانــب الأســلوبيّ ممــثلا بــالنّبر، أو التّنغيم، ليشكلا في السّياق النّصي دورا كبيرا في الوقوف على المعنى الدّلالي الّذي يشير إليه النّص، إذ هما في التّركيب بمثابة علامات التّرقيم من الكلام المكتوب، عونا للمستمع في فهم المراد، فالأداء الصّوتي للبنية الاستفهاميّة يختلف عن الأداء الصّوتي للتّعبير عــن التّعجب، وكذلك النّداء وكذا الأمر بالنّسبة لبقية أغراض الكلام من دعاء، وثناء، ونقل للأخبار وغير ذلك [1]، والحديث عن دور التّنغيم والنّبر في أداء المعنى القرآنــيّ بــشكل عام، والاستفهام بشكل خاص هو محور بحثنا ودرسنا في هذا القسم، إذ يُرجع كثير مــن الكتَّاب السرّ في عدم التّفاعل مع آيات القرآن لعدم الالتفات إلى هذا الأسلوب الأدائيّ في القراءة، مما يجعل المعانى تموت، وتتسطّح فيها العبارات [2].

---

(1) ــ تحدث علماء الصوتيات عن دور التنغيم والنبر في العربية فأشاروا إلى أنَّ :النبر : (Stress) و (Accent)، والتنغيم : (Intonation)، وللنبر ثلاثة أنواع: نبرة الكلمة، والجملة، والنبرة التقابلية، والنبر في السياق يختلف عن النبر في الكلمة، حيث تحكمه مطالب الإيقاع في السياق المتصل. وبينوا أن للنبر، والتنغيم وظائف نحوية، وذلك أنَّ النغم له دور في التفريق بين أسلوب وأسلوب من أساليب التراكيب، والدراسة تحيل في هذا المجال إلى كلام أحد اللسانيين ممن فصّل القول في ذلك، لما لهذا الكلام من حاجة في التفريق بين أنواع النغمات، حيث أشار بداية إلى ضرورة تحديد مصطلحات عدة متعلقة بالنغم فهي: أولا: شكل النغم إما صاعد، أو هابط، أو ثابت. ثانيا: مدى النغم: وهي المسافة بين أعلى نغمة، وأخفضها سعة وضيقا. ثالثا: اللحن: وهو مجموعة النغمات في المجموعة الكلامية على الصعيد الأفقي، رابعا: الميزان: وهو الأنموذج النغمي الذي يشمل المدى واللحن. وقسَّم الباحث المدى إلى ثلاثة أقسام: الأول: المدى الإيجابي: وهو الذي تصحبه إثارة قوية في الوترين الصوتيين، ونشاط في حركة الحجاب الحاجز، وإخراج الكمية الزائدة من الهواء ليستعمل في الكلام الذي تصحبه عاطفة مثيرة. الثاني: المدى السلبي: وهو المدى الذي لا يرافقه النشاط، ويستعمل في الحزن، وما أشبهه من عاطفة هابطة. المدى النسبي المتوسط: يتوسط المديين السابقين، ويستعمل في عكس العاطفي من الكلام.

أما الموازين فقد حدها تمام حسان بـــ" ستة " أمور نغمية في اللغة العربية على النحو الآتي: أولا: الإيجابي الهابط، ويستعمل في تأكيد الإثبات، وتأكيد الاستفهام، وأدواته : " كيف، أين ، متى ..." عدا الهمزة ، وهل. الثاني: الإيجابي الصاعد، والذي يستعمل في تأكيد الاستفهام بـــ" هل والهمزة". الثالث: النسبي الهابط: يستعمل في الإثبات غير المؤكد كالكلام الجاري في التحية، والنداء، وتفصيل المعدودات. الرابع: النسبي الصاعد: يستعمل في الاستفهام بلا أداة، أو بـــ" هل والهمزة" . الخامس: السلبي الهابط: والذي يستعمل في الكلام الجاري في الأسف ، والتحسر، والتسليم مع خفض الصوت. السادس: السلبي الصاعد: والذي يستعمل في التمني والعتاب مع نغمة ثابتة أعلى من التي سبقتها. ينظر: حسان، تمام: **مناهج البحث في اللغة**، الدار البيضاء ، دار الثقافة، د ط، 1979. ص: 198 ــ 200.

(2) ــ ينظر: عمر، أحمد مختار عمر: **دراسة الصّوت اللغوي**، عالم الكتب، القاهرة، د ط، 1997 ص: 162.

ولهذا فإنَّ من معاني التَّرتيل المطلوب أداؤها في النَّص مراعاة أغراض الكلام الَّـذي في ضوئها تتفاوت نبرات الصّوت انخفاضا وارتفاعا، وتغيرا في سياق الكـلام، ليحقـق دورا كبيرا في التَّوازن الصّوتي،إذ إنَّ الطّبيعة الإنسانيّة تأنف الكلام الّذي يكـون علـى وتيرة واحدة، ونبرة ثابتة مستقرة، فالنّفس مجبولة على حب التّنـوع، ليخلـق التّـوازن الصّوتي الّذي تترنم به الأذن هذا من جانب، ويحقق من جانب آخر جلب انتباه المتلقـي للحديث لينبهه من خلاله إلى المراد، وبالتّالي يترك أثرا في نفس المتلقي والقارئ على حدٍّ سواء، يمكن أن نصفه بالرّاحة النّفسيّة،أو بمعنى موسيقى الكلام (Musical Sound)[1]، ويمكن أن يقال عنه "الإطار الصّوتي الّذي تقال به الجملة في السّياق "[2]، فـالتّنغيم والنّبر هما من يترجم لنا المواقف الانفعاليّة الّتي تنطوي عليها مفردات الـنّص مراعـاة للظروف المؤدى فيها [3]،ومن علماء الأصوات من حدَّ النبر فقال : " هو جملة من العادات الأدائيّة المناسبة للمواقف المختلفة من تعجب، وسخريّة، واستفهام، وتأكيد، وتحذير، وغير ذلك من المواقـف الانفعاليّـة "[4]وبهـذا يمكننـا إدراك الـدّور الّـذي يؤديـه هـذا الأسلوب الصّوتي في المعاني، والتّراكيب إذ لكلِّ مقام مقال، لنفهم الوظيفة الدّلاليـة لـه من " خلال التّفريق بين المعاني أوّلا، ثم إبراز الحالة الانفعاليّة ثانيـا، إذ الكلمـة تنطـق بقالب نغمي معين فيكون لها معنى، وإذا ما تم نطقها بقالب نغمي آخر كـان لهـا معنـى آخر "[5]، فالقيمة الصّوتية تنبع من التّغير في نسبة ذبذبـة الـوترين الـصّوتيين " نتيجـة الارتفاع والانخفاض في الـصّوت، فتحـدث نتيجـة لـذلك هـذه الحركـات النّغميـة الموسيقيّة، وبذلك يكون التّنغيم بمثابة العنصر الموسيقي في الكلام "[6].

(1) ــ ينظر : أنيس، إبراهيم : **الأصوات اللغـوية**، مكتبة الأنجلو المصـرية، القاهرة، ط5، 1984 ص : 175 .

(2) ــ حسان، تمام : **اللغة العربية معناها ومبناها**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهـرة،ط2، 1979م . ص : 226 .

(3) ــ ينظر : الفيومي، أحمد عبد التواب : **أبحاث في علم أصوات اللغة العـربية**، دار السعادة، مصـر، ط1، 1991 ص : 186 .

(4) ــ مالميرج، برتيل :**علم الأصوات**، تعـريب : عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة، د ط، د ت ص : 209 . وينظر : ــ مالميرج، برتيل : **الصوتيات**، ترجمة : محمد حلمي هليل، المنظمة العربية للتربية، الخرطوم،ط1، 1985،ص :108 ــ 109 .

(5) ــ الغريب، أحمد أبو اليزيد علي : **التنغيم في إطار النظام النحوي**، مجلة جامعة أم القرى، السعودية، السلسة العاشرة، العدد 14،1996 . ص : 286 .

(6) ــ أحمد أبو اليزيد علي الغريب : التنغيم في إطار النظام النحوي : ص : 287 .

والعرب كانوا يعتمدون على الأداء في إفادة المعنى، وإبانة الغرض، ففطن لهذا ابن جنيّ في شرحه على تصريف أبي عثمان المازنيّ، حين قال : " أهل هذه اللّغة يَصلون إلى إبانة أغراضهم بما يصحبونه في الكلام فيما تقدم مثله، أو يتأخر بعده، وبما تدل عليه الحال، فإن لها في إفادة المعنى تأثيرا كبيرا "[1]، ومن طريف ما روى من الحوادث الّتي تؤكد دور التّنغيم في الوقوف على المعنى، ما ذكره أبو الفرج الأصفهانيّ في الأغاني، فقال: إنَّ "اليزيديّ سأل الكسائيّ بحضرة الرّشيد، انظر ! في الشعر عيب ؟، وأنشده بيت الشّعر :

لا يكونُ العَير مُهراً لاَ يَكُونُ المُهرُ مُهرُ

فقال الكسائي: قد أقوى الشّاعر، فقال له اليزيديّ : انظر فيه، فقال : أقوى، لا بدَّ أن ينصب المهر الثّاني على أنّه خبر كان، فضرب اليزيديّ بقلنسوة على الأرض، وقال : أنا أبو محمد الشّعر صواب، إنّما ابتدأ فقال : المهرُ مهرٌ، فقال له يحيى بن خالد أتتكنى بحضرة أمير المؤمنين، وتكشف رأسك، واللهِ لخطأ الكسائيّ مع أدبه أحب إلينا من صوابك مع سوء فعلك، فقال : لذّة الغلبة أنستني من هذا ما أحسن إليك"[2]. فالحادثة تثبت أن التّنغيم وَحْده هو الحكم، والفيصل في الوقف على صواب المعنى، فحمل الوقف على جملة " لا يكونُ " أن تأتي الجملة التّالية بمعنى جديد يجسد المتكلم من خلاله معانيه النّفسية، والانفعاليّة الّتي يريد إيصالها إلى غيره، فيلجأ المتكلم إلى تكثيف الصّوت على الكلمة الّتي هي موضع إسقاط الصّوت، وقد يصبح النبر نداء انفعاليا يجمل كلَّ معاني الكلام[3].

ونرى أنَّ أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم عامة، والسّور المكيّة خاصة لا يكتمل بناؤه، ويتحقق مراده إلاّ بطريقة الأداء والإلقاء، وهذا كثير في السّور المكيّة، لكن طريقة أدائه تكاد تكون واحدة في كلِّ بنية من أبنيته الـ مخلفة حسب المعنى العميق الّذي تخرج إليه دلالة التّركيب، فالنّبر والتّنغيم يرشدانا إلى مواطن حذف عنصر الاستفهام وخاصة الهمزة

---

(1) ـ ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني النحوي: **المنصف لشرح التصريف**، تحقيق: إبراهيم مصطفى، وعبدالله أمين، مطبعة الباب الحلبي، مصر، ط1، 1954. ج1 /2 ـ 4، 145.

(2) ـ الأصفهاني، أبو الفرج الأصفهاني: **الأغاني**، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت ، لبنان، الطبعة الثانية، د ت. ج20 /242.

(3) ـ ينظر: أبو السعد، عبد الرؤوف: **الأداء النفسي واللغة العربية**، دار النمر للطباعة والنشر، القاهرة، د ط، 1985 ص:427.

ليشكل التنغيم بذلك نبرا انفعاليا [Emotional Stress]، فمنه قوله تعالى : ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾[1] فالسِّياق يثبت حذف الهمزة من خلال قرائن مختلفة، أوّلها : الأداء القرائيّ الصوتي بأسلوب التّنغيم الانفعاليّ، الّذي تتمركز كثافته على لفظ " وَتِلْكَ نِعْمَةٌ ..."، فالتَّنغيم يشير إلى أنَّ اللفظ يصبح " أو تلك نعمة ؟ "، ليتوافق هذا الأداء مع قول الأخفش الأوسط (210 هـ) ويؤيده بن مالك فيما ذهب إليه [2]، والقرينة الثَّانية الّتي تثبت الاستفهام في هذا السّياق قول فرعون "وما رب العالمين؟ ...." لأنَّ السّائل في الحالتين في مقام انفعال فحذف الهمزة لوجود القرينة الدّالة، وأبقى الثّاني ليثبت السّياق الحالة الانفعاليّة الّتي عليها فرعون من أمر موسى عليه السلام.

ومنه يولد النّغم المرافق في الأداء الصّوتي مع وجود عنصر الاستفهام في التّركيب تحديد المعنى المراد من السياق النصي بدقة، ويجعل المتلقي في حالة متابعة للتَّركيب، والتَّراكيب المصاحبة كما في قوله تعالى : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[3]. ففي الأداء الصّوتي للسِّياق يستلزم إخراج الصَّوت مصاحبا له حركة في الرّأس على بنية الاستفهام، وأن يكون وقوفه على رأس لفظ " فاسقا "، ثم يبتدئ بقوله :"لا يستوون ..."، والقراءة بغير ذلك لا تقف بالمستمع على المعنى المطلوب، ليؤدي وظيفة التَّعجب، والإنكار المستفاد من البنية الاستفهاميّة، وسياقها، ليأتي قوله تعالى : " لا يستوون..." بمثابة الجواب السّريع على الانفعال النفسيّ الّذي ولده الاستفهام.

ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾[4]. وقوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلا

(1) ـــ سورة الشعراء : الآيات : 21 ـــ 24.

(2) ـــ استيتية، سمير شريف : **الشرط والاستفهام في الأساليب العربية**، دار القلم، دبي، ط1، 1995 ص : 99.

(3) ـــ سورة السجدة : الآيات : 17 ـــ 19.

(4) ـــ سورة الأنعام : الآية : 46.

تَسْمَعُونَ *قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ [1]. نلاحظ في الآية الأولى، والثّانية قوله تعالى :" قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ نغمة الصّوت المستوية حتى تصل إلى البناء الثّاني : " مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ..." وقوله "مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء ..." فعندهما يتغير الصّوت من قبل القارئ لطبيعة الانفعال، ويتجه بالصّوت إلى النّغمة الصّاعدة ليشعر المتلقي بالمعنى الدّلالي للاستفهام، والأمثلة كثيرة في هذا المقام تكاد تشمل جميع البناء الاستفهاميّ في السّور المكيّة، والمدنيّة على حد سواء.

ونجد في البناء الاستفهاميّ أنَّ طبيعة مخارج الحروف في القرائن المصاحبة له تتفق مع حالة الانفعال الّذي يتركه التّنغيم في البنية الاستفهاميّة، فعلى سبيل المثال لا الحصر الأحرف الحلقية، إذ تتصف هذه الأحرف بصفة الاتساع، فتشترك معها الفتحة في هذه الصّفة، فكلّ الأصوات الحلقيّة بعد صدورها من مخرجها الحلقيّ تحتاج إلى اتساع في مجراها بالفم، فليس هناك ما يعوق هذا المجرى في زواياه، ولهذا ناسبها من أصوات اللين وأكثرها اتساعا الفتحة كما بين ذلك علماء الأصوات [2]، فناسب هذا التّأصيل النّظري قوله تعالى: هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا ... [3]. والشّاهد ورد في الآية في لفظ "مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ .." المتسلط عليه الاستفهام، ليتوافق الاستفهام مع طبيعة، وصفة مخارج الحروف الحلقية في نقل حالة الانفعال لدى المتكلم.

ونرى أن النّغمة بمصاحبة القرائن في البناء الاستفهاميّ هي الّتي تحكم على المعنى وتطلعنا عليه، لما تتركه من أثر في نفس المتلقي . وأنتهز في هذا القسم المتواضع لأسجل أمنية لأصحاب الاختصاص ممن لهم علم بالأصوات اللّغوية أن يشتركوا مع أهل الاختصاص من الـ مفسّرين، ومعهم القراء المتقنون ليتمكنوا من الإشراف على إخراج إنموذجا لقراءة من هذا النّوع حسب أبواب النّحو العربيّ، وتتفق مع أساليبه الانفعاليّة الّتي يأتي عليها. ونرى كذلك أن التّنغيم في الأساليب العربيّة يعتمد عليه في توجيه

---

[1] ــ سورة القصص: الآية: 71 ــ 72.

[2] ــ أنيس، إبراهيم: **في اللّهجات العربيّة**، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ط4، 1973 ص: 170.

[3] ــ سورة الأعراف: الآية: 53.

الإعراب، وخاصة فيما ورد فيه أكثر من وجه إعرابي يجيء به الكلام مسبوقا وفق مقتضيات الأحوال، فلكل مقام مقال، وقالب تنغيمي خاص به.

3. 2: أسلوبيّة الحذف في البنية الاستفهاميّة:

لقد أحسَّ الإنسان بضرورة التعبير عن حاجته، وعن الأحداث التي تحيط به، وفي الوقت نفسه رأى صعوبة في ذكر تفاصيل لها، إذ يتطلب هذا مساحة كبيرة من الزَّمان والمكان السِّياقي لكلٍّ من المتكلم، والمتلقي، إضافة إلى ما يحدثه هذا التَّفصيل من ملل، وضجر... إلى غير ذلك، ولذلك توجَّهت اللّغات الإنسانيِّة إلى لون من الإيجاز عبر خاصية الحذف لبعضٍ من عناصر الكلام على مستويات كثيرة ليصبح "ظاهرة لغوية تشترك فيها اللغات الإنسانيِّة، حيث يميل النَّاطقون إلى حذف بعض العناصر المكررة في الكلام، أو إلى حذف ما قد يمكن للسَّامع فهمه اعتمادا على القرائن المصاحبة"[1].

ولهذا لقيت هذه الظّاهرة الأسلوبيّة في الكلام عناية كبيرة من لدن العلماء؛ قديما وحديثا، وهذا طبيعي، فالحذف ليس وليد عصرنا الحديث، بل ورد في العصور: الجاهلية وصدر الإسلام، والأمويّ، والعباسي .... إلى عصرنا الحالي، وكذلك في اللغات الأخرى، غير أنَّ المقام لا يسع لعرض وجوه الاهتمام هذه، وأيضا لا يسع لتتبع هذه الظَّاهرة من جميع جوانبها؛ لأنّنا مقيدون بموضوع محدد يدخل الحذف ضمن أساليبه.

فيدور المعنى اللّغوي، والاصطلاحي لمادة "حَذَفَ" حول القطع من الطرف خاصة، وحول الطرح والإسقاط[2]، وفي السِّياق اللّغوي قد يحذف من الكلام الحرف، أو المفردة أو الجملة، أو أكثر من ذلك، وبهذا لا بد من دلالة السّياق، وفحوى الكلام على هذا المحذوف، فإن لم يكن هناك دلالة عليه كان لغوا في الحديث، والكلام على حد تعبير العلويّ في الطراز[3]. فحديث العلويّ يبرر للمنشئ أسلوبيّة الحذف في مكانها المناسب ليحقق للنّص جماليات، وأغراضا مختلفة، مع هذا لم يترك أمر الحذف لمنشئ النّص ليفعل به ما شاء، بل وضعت ضوابط، وشروط تحكمه ممثلة بالإحالة، أو القرائن القبليّة

---

[1] ــ حموده، طاهر سليمان: **ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي**، الدار التونسية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، الطبعة الأولى،د ت ص:6. فعرض في كتابه لقضايا كثيرة متعلقة بالحذف. وينظر :فوز سهيل: لغة الحوار: ص: 347.

[2] ــ ابن منظور: لسان العرب: مادة "حذف". وينظر: الزركشي: البرهان: ج3/ 102.

[3] ــ ينظر: العلوي: الطراز :ج2/ 92.

والبعديّة، وفيها تحدث سيبويه، وبيَّن مهمَّتها في إباحة الحذف في كثير من أبواب، وأقسام كتابه[4]، وتحدث الفرّاء عن أهمية القرينة في تقدير المحذوف ، وذكر ابن جنيّ " أنّ الحذف لا يحدث إلاّ عن دليل عليه، وإلاّ كان فيه ضرب من تكلف علم الغيب "[1]، وقد ذكر ابن هشام شروطا ثمانية للحذف جعل أوّلها : " وجود دليل حالي ... أو مقالي ... أو صناعيّ ... "[2]، وتحدث الزّركشيّ عن هذه القضية وذكر أنَّ " من شروط الحذف أن تكون في المَذكور دلالة على المحذوف؛ إمَّا من لفظه، أو من سياقه ... وإلا لم يُتَمكن من معرفته، فيصير اللفظ مخلا بالفهم ... وهو معنى قولهم : لا بدَّ أن يكون فيما أُبقي دليل على ما أُلقي، وتلك الدّلالة مقالية وحالية "[3]، وقد ذكر السَّيوطيّ الشروط ذاتها الّتي ذكرها ابن هشام، وجعل أوّلها وجود الدّليل [4]، وتحدث محمد عبد الخالق عضيمة عن هذا الدّليل في مواضع كثيرة من دراسته لأسلوب القرآن الكريم [5]، وتحدث السّعران عن القرائن بالتّفصيل[6]، ويؤكد طاهر حمّوده أن القرينة تعدُّ من أهم شروط الحذف [7]، فحديث العلماء السابقين يجعلنا نقول أنَّ الحذف بطبيعته علاقة مرجعية لما سبق (Anaphoric) ... وأحيانا يكون الحذف مرجعيته خارجية (Exophoric)، والأخيرة تعتمد على سياق الحال الّذي يمدنا بالمعلومات الّتي تُسهم في تفسير الشَّاهد[7].

ونرى أنَّ العلماء ركزوا على المرجعية الدَّاخلية دون الخارجية للحذف؛ لأنَّه لا يتحقق التَّماسك النّصيّ من خلالها؛ لأنَّ أكثر الأماكن الّتي تتوفر فيها تلك المرجعيّة تكون على

---

(4) ــ ينظر : سيبويه : الكتاب : ج1/ 253، والأبواب هي : حذف الفعل مع الأمر والنهي : ج1/ 253، وحذف الفعل في غير الأمر والنهي : ج1/ 257، وحذف الفعل بعد الحرف : ج1/ 258.

(1) ــ ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جنيّ : **الخصائص**، تحقيق : محمد علي النجار، الهيئة المصرية، القاهرة، ط3، 1986م. ج2/ 362.

(2) ــ ابن هشام : مغني اللبيب : ج2/ 604 ــ 605.

(3) ــ الزركشي : البرهان : ج3/ 111.

(4) ــ ينظر : السيوطي : الاتقان : ج3/ 174 ــ 178.

(5) ــ ينظر : محمد عبد الخالق عضيمه : دراسات لأسلوب القرآن الكريم :ج1/ 447 ــ 469.

(6) ــ ينظر : السعران، محمود : **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي**، دار المعارف، مصر، ط1 ، 1962 ص : 337.

(7) ــ ينظر : طاهر سليمان حموده : ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ص : 103، 121.

(7) ــ ينظر : خطابي، محمد : **لسانيات النص** " مدخل إلى انسجام الخطاب"، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1991 ص : 22. وذكر كذلك أن الحذف على مستوى الجملة الواحدة لا يحقق التماسك النصي، بل يتحقق على مستوى أكثر من جملة.

مستوى الجملة الواحدة، الّتي ليس فيها مذكور في الغالب يدل على المحذوف، كي يُمَكّن فيما بعد تماسك المحذوف مع المذكور في السياق، ومن ثم فالمرجعيَّة الخارجية تكون على مستوى الجملة الواحدة، وبذلك نتفق مع قول محمد خطّابي الّذي ورد.

والمرجعيّة الدّاخلية ليس لها ذكر في البناء الاستفهاميّ، كون النّص القرآنيّ نصّا متماسكا موحدا في دلالته، لا ينفصل جزء عن جزء إلا بنظام محكم، والّذي ينطبق عليه المرجعيّة الدّاخلية لقوة إحكامها في تماسك النّص ما بين السَّائل، وجملة الجواب، ولتوضيح هذه القوة نضرب المثال التَّالي:

السؤال: هل صلى محمد الفجر ؟ الجواب " نعم صلى محمد الفجر

مرجعية داخلية سابقة

فإذا ذكرت الإجابة في البناء الاستفهامي كاملة ظهرت المرجعيّة، وظهر معها التّكرار أيضا، وظهر معها التَّماسك ما بين المذكور، والمحذوف على مستوى أكثر من جملة، فمن خلاله يتمكن المتلقي من ملء الفراغ الّذي تركه العنصر المحذوف على الجملة الأولى والثّانية.

فالمرجعيّة إذا كانت بين المحذوف والمذكور فهي داخلية لاحقة (Catapharic)، أمّا إذا كانت بين المذكور، والمحذوف على التّرتيب فإنّها تكون داخلية سابقة، أو لنقل إنّها مرجعية داخلية متبادلة، ومن ثم فمرجعية الحذف في البناء الاستفهامي قد تكون داخلية سابقة، أو لاحقة متبادلة، وذلك في الغالب على مستوى الجمل في السِّياق النّصي ليحدث التَّماسك ما بين المحذوف والمذكور[1].

ولتكتمل عناصر أسلوبيّة الحذف يلزمنا الحديث عن دور المتلقي المباشر؛ لأنَّه يمثل جانبا مهما من جوانب عملية التّكلم، فالنّص القرآنيّ خاصة، واللغة بشكل عام موجهة إليه كي يتفكر في جمله، ويُعْمِلُ فيه عقله، ومشاعره ليكتسب النّص حياته من خلاله، إذ هو الّذي يفك شيفرته، ويستخرج ما فيه من معانٍ، ودلالات حسب ثقافته، وأفقه، ومعرفته بعالم النّص، فالأفق تمكنه من إدراك ما في النّص من أفكار، ومبادئ، وجماليات، ويمكنه من ملء الفراغات الكامنة بين عناصر الكلم المختلفة، ومن هذا الجانب تبرز مهمة المتلقي قديما وحديثا، فيذكر مصطفى حميده :" أنَّ النُّحاة أقاموا صرح علم النَّحو العربيَّ على

(1) ــ ينظر: طاهر سليمان حموده: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ص: 103ــ 121.

دراسة "مهمة" المتلقي لا " مهمة " المتكلم، فاستنبطوا قواعدهم باستقراء الأداء الّذي يتلقاه المتلقي من النَّص"[2].

وقد احتلت وظيفة المتلقي مكانة عالية لدى العلماء المحدثين حتى تأسست في الثّلاثينيات من القرن الماضي نظرية التّلقي، وكان من أبرز معطياتها " أنَّ كلا من المعنى والمبنى ينتجان عن التّفاعل مع القارئ، فالقارئ هو إلى حدٍّ ما المبدع المشارك لا النّص نفسه... بل لمعله وأهميته وقيمته."[1] وهذا القول دفعه إلى التّوضيح أكثر، فقال : " إننا لا نكون مبالغين إذا قلنا إنَّ أهم الأدوار في استراتجية التّفكيك هو القارئ، وليس المؤلف، أو العلاقة، أو النّسق .... فالقارئ وَحْده الّذي يحدث عنده المعنى، ويحدثه، ومن دونه لا يوجد نص، أو لغة ، أو علاقة، أو مؤلف..."[2].

فسلطة منشئ النص، أو بمعنى آخر سير عملية التّكلم، والتّلقي في اتجاه واحد أصبح غير منطقي؛ إذ إن لغة الحوار بين الطَّرفين، بل بين الأطراف الثَّلاثة : المنشئ، والنّص، والمتلقي أصبحت هي السّمة الغالبة، وهذا الحوار وُصِف بأنَّه " ديالكتيكي بين القارئ والنّص، وبين الأسئلة الّتي يثيرها المتلقي، والأجوبة الّتي يقدمها النّص، وبين الإجابات الّتي لا يقدمها النّص، والأسئلة الّتي يثيرها المؤلف الجديد للنّص، ممثلا بسلطة المتلقي.."[3] فالمتلقي من خلال حديث المرايا المحدبة :هو الّذي يحكم على النّص، ويستخرج معناه، ويتفاعل معه، ويحكم على تماسكه، أو عدمه، ومن ثم " فالّذي يُقيِّم النّص المتلقي المُستوعب له، وهذا يعني أنَّ المتلقي شريك في تشكيل المعنى؛ لأنَّ النّص لم يُكْتَب إلاَّ من أجله وبقدر ما يقدّم النّص للقارئ يضفي القارئ على النّص

---

[2] ــ حميده، مصطفى : **نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية**، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، ط1، 1997 ص: 20 ــ 21.

[1] ــ حموده، عبد العزيز : **المرايا المحدبة " من البنيوية إلى التفكيك"**، عالم المعرفة، العدد 232، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، إبريل ، 1998 ص: 321.

[2] ــ المرجع السابق : ص: 327.

[3] ــ السابق : 327.

أبعادا جديدة قد لا يكون لها وجود في النّص .... وعلى هذا النّحو لا تتمثل حقيقة العمل الأدبيّ إلاّ من خلال تداخل المتلقي مع النّص..."[4].

فالتّأويل أو التّلقي وثيق الصّلة في النّص القرآنيّ منذ المرحلة الأولى لنزوله، ليجعله ينطق بمعانٍ قد تختلف من إنسان إلى آخر، نتيجة لطبيعة التّفاعل ما بين المتلقي، والنّص من جانب.. ولطبيعة كفاءة المتلقي، وتجاربه من جانب آخر، وبتطور تجربة القارئ "يتطور النّص"[1]، فالوسائل الّتي أتيحت لقارئ النَّص القرآنيَّ في صدر الإسلام غير الوسائل المتاحة للمتلقي في العصر الحالي، ومن ثمّ تطور فهم النّص بما يتلاءم مع هذه الوسائل، ويخدم النّص القرآنيّ الحافل بالإعجاز ليتماشى مع متطلبات هذه المرحلة الحضاريّة الّتي يعيشها العالم.

فالقارئ إذن يُسهم في إكمال فراغات النَّص، حيث أصبحت القراءة عملية " إعادة بناء الفراغات طِبقا لتصور القارئ ... فالقراءة تتم من خلال شعور الفرد والجماعة، وتراكم الخبرات، وبعد كل تراكم معرفي يأخذ النَّص أبعادا جديدة لم تكن مقروءة من قبل.... فالنَّص كائن حي في حالة سكون يبعث بالقراءة، فيحيا من جديد، وبأشكال جديدة تخدم المعنى الدّلاليّ العميق..."[2].

وإذا كان هذا يعبّر عن طبيعة العلاقة بين القارئ والنّص، وعن مهمة القارئ، فهل هذا ينطبق على أي متلق؟ أم هناك صفات له ؟، نجد أنَّ علم التَّفسير يضع شروطا للَّذي يتعرض للنّص القرآني، يعني وضع صفات للمتلقي، وقارئ النّص القرآنيّ، وهذا ما أكده المعاصرون، فتحدثوا عن " ضرورة وعي القارئ المعاصر بالأفق التّاريخي للمتلقي، والقارئ السابق، حتى يفهم كيف قرأ النص، ولماذا قرأ بالطَّريقة الّتي قرأ بها..."[3]، وهذا يدفعنا إلى القول بأهمية قراءة تفسير علمائنا السَّابقين الّذين تناولوا

---

[4] ــ إبراهيم، نبيلة: القارئ في النص " **نظرية التأثير والاتصال**"، مجلة فصول، الهيئة العامة للكتاب، مصر، عدد الأسلوبية، المجلد الخامس، العدد الأول، 1984 ص: 101 ــ 102. وينظر: فضل، صلاح: **علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة**، مجلة فصول، عدد الأسلوبية، المجلد الخامس، العدد الأول، 1984 ص: 47. فأكد على أن بروز الأسلوب لا يتحقق إلا من خلال المتلقي.

[1] ــ نبيلة إبراهيم: القارئ في النص: ص: 102.

[2] ــ حنفي، حسن: **قراءة النص" الهرمينوطيقيا والتأويل**"، مجلة البلاغة المقارنة، الجامعة الأمريكية، مصر، عدد8، 1988 ص: 11 ــ 12.

[3] ــ عبد العزيز حموده: المرايا المحدبة، ص: 324.

كتاب الله بالدِّراسة بعد قراءة متأنية؛ لأنَّ هذا يعدُّ مرشدا لمحلل أسلوبيّة النَّص القرآنيّ للاهتداء إلى المواضع الّتي يمكن أن تُملأ فراغاتها، وتستكمل العناصر المحذوفة فيها، هذا بالإضافة إلى السِّياق المقامي، والمقالي الذي يمثل مادة ثرية تمكننا من ملاحظة هذه العناصر، ومن ثم نهتدي إلى كيفية أدائها لمهمة التَّماسك النَّصيّ " فالسّياق يؤدي مهمة كبيرة في قراءة النّص، وتفسيره ... حتى يتمكن القارئ من التّعامل مع غير المعروف عن طريق المعروف "[4]، أي في ذهن المتلقي عبر الثّقافة الّتي كوَّنها حول هذا النّص، فعملية الدّخول إلى النَّص وقراءته دون الأدوات الواجب توافرها كالسِّياق، والأفق الواسع، وإدراك لغة النّص ... يؤدي في النِّهاية إلى عدم دقة هذه القراءة، ومن ثم عدم التَّمكن من إبراز وظائف الحذف، ففهم النَّص يؤدي كما يقول الزِّركشيّ : " إلى استنباط المحذوف "[1].

فموضوع الحذف من أهم وسائل التَّماسك الَّتي تبرز أهمية المتلقي، إذ هو الّذي يدرك عبر آفاقه الكثيرة مواضع الحذف، وكيفية قيامه بوظائفه البلاغيّة، والنّصيّة، فما هي أهمية الحذف في البناء الاستفهاميّ؟، وما قيمته؟، وكيف خدم مطلب السِّياق الاستفهاميّ؟ ، وما هي التَّراكيبأو الأدوات الّتي تحذف في التّركيب الاستفهاميّ؟ . وللإجابة عما سبق نبين أن مقام السؤال من أكثر المقامات مناسبة للحذف؛ لأنه أولا : يعجّ بلهفة السّائل التّائق إلى كشف المجهول، ومعرفة الحقائق، وهو في الثّانية صادر عن انفعال ثائر سريع يطوي من جوانب الكلام ما لا يحتاج إليه السّائل المنفعل، أمَّا ما يحذف في السّياق الاستفهامي، فيأتي على أشكال مختلفة يحكمها السّياق النّصي، والدِّلالي، يمكن أن نقسّمها إلى حقول :

3 . 2 . 1 : حذف عنصر الاستفهام :

عند النَّظر في أسلوبيّة حذف عنصر الاستفهام نجد أنَّ الهمزة هي البنية الوحيدة من بين سائر البنى الّتي تحذف اعتمادا على المرجعيات السابقة واللاحقة للبناء، أو يكون حذفها في اللغة المنطوقة مستوعبا من قبل المتلقي، لاعتماد المتكلِّم على أسلوبيّة النّبر أو التَّنغيم، أمّا في النّص المكتوب فإنَّ غياب النَّبر، أو التّنغيم قد يجعل من التَّركيب لغزا متأرجحا بين جانبي الخبر، والاستفهام، فمن القراء العارفين من يحاول استشفاف النّغم

(4) ــ المرجع السابق، ص : 323 . ويذكر أن بعض الباحثين قدموا مبادئ تحكم مهمة القارئ منها تاريخ الأدب، ومنها أفق التوقع الذي يساعد في فهم ردود فعل القراء للنصوص . ينظر : المصدر السابق، ص : 327 .

(1) ــ الزركشي :البرهان : ج3 / 105 .   (2) ــ ينظر : فوز سهيل : لغة الحوار في القرآن،ص : 350 ــ 351 .

المخبوء في النّص المكتوب اعتمادا على ما يتوافر من مرجعيات، وقرائن سابقة ولاحقة، فيرجح أسلوبيّة الاستفهام رغم حذف الأداة[2].

والنّص القرآنيّ كما هو معروف نصّ مكتوب ينبض بالحياة، والحركة، والحيويّة تُجسّمه الكلمات صورا مرئية، ومسموعة، جعلتنا في بعض المواقف النَّصية نرجح بنية الاستفهام رغم حذف العنصر الاستفهاميّ على الخبر، من خلال الأداء القرائيّ، ولهذا يتشكل حذف عنصر الاستفهام في السِّياق النَّصيّ القرآنيّ، وخاصة في السّور المكيّة بأشكال مختلفة أوّلها : أن يحتمل النّص الكِتابي بحذف العنصر أسلوبيّ الخبر، والاستفهام، لكن الأداء القرائيّ للنّص يرجح البنية الاستفهاميّة اعتمادا على القرائن، والمرجعيات الّتي تتوافر في السِّياق، ومنه قوله تعالى : ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[1].

البناء الذي حذف منه عنصر الاستفهام ← قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ......

↓

الجواب " نعم " ..

وفيه يقول ابن عاشور : " المعنى على الاستفهام، كما هو ظاهر الجواب بلفظ " نعم " وهمزة الاستفهام محذوفة تخفيفا ... ويجوز أنْ يكون المعنى على الخبريّة؛ لأنَّهم وثقوا بحصول الأمر لهم حتى صيَّروه في حيز المخبر به عن فرعون، وبهذا يكون جواب فرعون بـ " نعم " تقريرا لما أخبروا به ... "[2]. فالسِّياق النّصي يحمل في ثناياه كما أثبت ابن عاشور ثنائية الخبر، والاستفهام، فالخبر دون الاستفهام يؤدي في السِّياق مقصدا بلاغيا يتمثل في إثبات الأمر الكبير بإجابة على تقدير الغلبة التي هم واثقون منها.

أما حمل السِّياق على الاستفهام الّذي أغنى التّنغيم عن ذكر عنصره المحذوف، أقوى إثباتا من الخبر لسببين : الأول : وجود قرين المقال الظّاهر في قول فرعون " نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ " فجوابه يَشي بالاستفهام المكنون في مقولة السّحرة، والثّاني : تكرار مقولة السَّحرة في موضع آخر من السّور المكيّة، وخاصة في سورة الشّعراء، فيقول

---

(1) ــ سورة الأعراف : الآيات : 109 ــ113 .

(2) ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير، ج8 / 232 .

تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[3]. فتكرار الشّاهد وفي نفس السّياق يقوي احتمالية تمركز الاستفهام في السّياق الأوّل على الخبر. فحذف العنصر الاستفهاميّ ــ الهمزة ــ يحاكي الصّوت الجمعيّ الّذي حمل المقولة بتنغيمات متعددة الدّرجات، ومتنوعة الإيحاءات، فمن السَّحرة من أدّا ها بقوة الخبر، وثباته، ومنهم من أدّاها بتنغيم السّؤال الّذي يتسع ليشمل جميع تلوينات الانفعال وأبعاده [4]، فالقرآن ساق كلامه وفق ما تقتضيه حالات السَّامعين ومقامات المخاطبين، وقدَّر تعبيره أحسن تقدير من غير غموض، أو إبهام.

ويأتي حذف العنصر الاستفهاميّ ليـ تناسب الحذف، ويتوافق في دلالة خطاب أهل النار وإجابتهم، فيقول تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ * وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1].

أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ←—— البناء الاستفهامي الذي حذف منه عنصر الاستفهام ....

فحذف عنصر الاستفهام يسير في المستوى السَّطحي للبناء، وينشر دلالته من خلال قراءة مجاهد، وقتادة، وابن كثير، الّتي تبرز تنغيمه في الأداء الصَّوتي على شكل مدة طويلة في قوله تعالى: " آذهبتم طيباتكم "، أما قراءة ابن عامر فإنّها تثبت همزتين محققتين على لفظ " أأذهبتم طيباتكم "[2].

أمَّا في المستوى الدّلالي للبنية العميقة، فإنَّ حذف عنصر الاستفهام يتوافق مع الدّلالة الكلية للسِّياق من جانبين: الأوّل: يشمل المُتكلم ليشكِّل الاستفهام من خلال حذف عنصر الاستفهام مساحة مكانية تستوعب جميع الأبعاد الانفعاليّة الّتي يُريد السّائل، أو المتكلم إيصالها للمتلقي لما يتضمنه الحذف من تلوين في صيغة الخطاب [3]، والثّاني: التّركيب

---

[3] ــ سورة الشعراء: الآيات: 41 ــ 42.

[4] ــ ينظر: فوز سهيل: لغة الحوار،ص: 352.

[1] ــ سورة الأحقاف: الآيات: 19 ــ 21.

[2] ــ ينظر: الدمياطي، أحمد بن محمد بن أحمد (ت 1117هـ): **أتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر**، تحقيق: شعبان محمد اسماعيل، عالم الكتب، بيروت،د ط، 1997 ،ج2/392.

[3] ــ ينظر: فوز سهيل: لغة الحوار في القرآن، ص: 353.

البنائيّ: فالسّياق سياق ضياع للقوم المنكرين، فأضاعوا الطِّيبات، فتماشى مع هذا الضَّياع حذف الهمزة، ليشكّل في العمق الدّلالي توافق ما بين الحذف، وسوء المصير، لـ ما يـشكله الحذف من تسليط الضَّغط الصَّوتي على الفعل " أذهبتم "، وإبراز ما فيه من دلالة التَّوبيخ واللوم والتَّحسر، والإنكار [4]، وملاحقة المخاطب بها.

ومنه قوله تعالى قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [5].

البناء الاستفهامي الذي حذف منه عنصر الاستفهام ← آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ......

فسياق البناء من خلال الفعـل " آمنـتم "يتـضمن جـانبين: الأول سـياق الخبـر الممزوج بالإنكار ودلالة التّقريع، أي فعلتم هذا الفعل الشّنيع الّذي لا يليق بكم، وما كـان ينتظر منكم؛ لأنَّ المخاطبين صرّحوا بذلك وعلموه "[1]، والثّاني: الاستفهام، وهي الأرجح بقوة القرائن الدَّالة، فعمق الحدث يفصّل حالة المتكلم المنهارة، وتأجج غضبه أمام إعـلان السّحرة الإيمان بموسى عليه السّلام، فأخذ يتخبط أمام القوم، فظهر هذا من نبرة صـوته "آمنتم ..." الّتي حملت عباراته المرتجفة خوفا، وتعجبا من انقلاب أعوانـه فجـأة عليـه مؤيدين لخصمه، ولا يتحقق هذا المشهد المرتسم إلاّ من خلال البنية الاسـتفهامية الّـذي نقص عنصرها البنائي " الهمزة "، فالمتكلم لم يستطع مع هذه الحالـة الانفعاليّـة تكـوين تراكيب حديثه وفق قواعد الكلم المتعارف عليها، فـسُلبت منـه القـدرة علـى التَّعبيـر بأدق العبارات، فناسب الانفعال حذف عنصر الاستفهام، مع بقاء الأثر التَّنغيمي الَّذي يدل عليه.

ومن الأساليب ــ السياقات ــ الّتي يحذف فيها عنصر الاسـتفهام، أنْ يُغنـي اللّفـظ اللاّحق المشتمل على همزة الاستفهام عن ذكر الهمزة في اللفـظ الـسَّابق، ومنـه قولـه تعالى: وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّـنَ الْعَـالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [2].

---

[4] ــ ينظر: الزمخشري: الكشاف، ج4/ 297 ــ 298 وينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير،ج26/ 37. وينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن،ج6/ 3264.

[5] ــ سورة الأعراف: الآية: 123.

[1] ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير،ج8/ 239. وينظر: فوز سهيل: لغة الحوار في القرآن الكريم: ص: 353.

[2] ــ سورة العنكبوت: الآيات 28 ــ 29.

البناء الذي حذف منه عنصر الاستفهام ⟵ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا .....
البناء الثاني الدال على وجود العنصر المحذوف ⟵ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ .....

فالسّياق النّصي في الدّال الأوّل " إِنَّكُمْ..." أسقط عنصر الاستفهام [3]، لوجوده في اللفظ اللاّحق كما أثبت الدّمياطي، فقراءة الاستفهام في التَّركيب أثبت، وأقوى من قراءة الخبر، لما في الاستفهام في هذا المقام من قدرة على نقل انفعالات لوط عليه السلام النَّاتجة من تصرفات قومه، فالا نفعالات متلاحقة يوجهها للقوم لينتبهوا إلى قبح انحرافهم، لعلهم يخجلون، ويرتدعون على عكس دلالة الخبر، فالحذف في الدّال الأوّل ناسب حالة المتكلم الانفعاليّة من حيث سرعة توجيه الخطاب، فالسّرعة يناسبها الحذف، أمَّا الدَّال الثَّاني " أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ فيناسبه ذكر العنصر الاستفهاميّ من جانبين :الأوّل : لأنَّه مقام تأكيد لكبر الفاحشة، كون المتحدث وصل بانفعاله إلى أقصى غاياته، ممَّا جعله يفصِّل لهم سوء عملهم بكل راحة ،وحضور لمدركات العقل، فناسب هذا المقام ذكر الهمزة المحذوفة في السِّياق، أمّا الجانب الثّاني : فيتصل بالدّال الأوّل، ليدل الحرف المذكور على الحرف المحذوف الّذي سبقه ومهد له السِّياق، ليشكّل بذلك لحمة نصيَّة واحدة [1]، وبهذا الأسلوب يتناسب حذف عنصر الاستفهام مع المعنى الدّلالي والصّياغي ليخدم لغة القرآن وإعجازه [2].

3. 2 . 2: حذف بناء الاستفهام مع بقاء القرائن الدَّالة:

يظهر حذف بناء الاستفهام من السياق النصي مع بقاء أثره بمساعدة القرائن في القرآن الكريم عامة، والسّور المكيّة خاصة، ضمن أنماط أسلوبيّة مختلفة فرضها السّياق النّصيّ على البناء، فالنّمط الأوّل يأتي من جانب ذكر كلمة تدل على التَّركيب المحذوف ممثلا بـ" سأل ..." وما يتفرع منها من اشتقاقات، وتبين موضوعه من ذكر الإجابة المفصلة الّتي ينطق بها المتلقي، أي إنَّ القرينة السَّابقة لبنية الاستفهام المحذوف تحدّد ماهية التَّركيب ونوعه، بينما تشي القرينة اللّفظية اللاّحقة بمحور الاستفهام

---

(3) ـ الدمياطي، أتحاف فضلاء البشر،ج2 /227
(1) ينظر : فوز سهيل : لغة الحوار في القرآن الكريم،ص : 354.
(2) ـ ينظر : سورة الشعراء : الآية : 22. ويونس : الآية :81، وسورة الحجر، الآية : 54، وسورة يوسف : الآية :30، 90. وسورة الأنعام: الآيات : 75 ـ 78.

بموضوعه، ومنه قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾[3].

فالاستفهام كما يقول ابن عاشور : " سؤال تعنت لا سؤال استهداء، فكانوا يحيلون انقضاء هذا العالم، ويقولون فأين تكون هذه الجبال؟ ..."[4]، فابن عاشور في حديثه قدّر البناء المحذوف بمساعدة القرائن المصاحبة، فمنها يمكن لنا أن نُقدر المحذوف بقولنا:لماذا يحلّ بالجبال يوم القيامة؟ ؛ لأنَّ في الإجابة تفصيلا لوقوع فعل النّسف، فمرجعية السِّياق داخلية. وفي هذا النّمط حتى تكتمل أسلوبيته لا بدَّ من ارتباط الإجابة بمضمون الاستفهام، فكلاهما يشير إلى الآخر ويندمج معه، فلو غاب الاستفهام دلت عليه عناصر الإجابة، ليتحقق من ذلك عنصر التَّماسك النَّصي ما بين المذكور والمحذوف[5].

أمَّا النّمط الثَّاني لحذف تركيب السّؤال فيتمحور في الجانب الدّلالي للتركيب، ويتمركز في دلالة فرط الدَّهشة، والمفاجأة من قبل المتلقي، ومنه ما جاء في قول زوج إبراهيم في القصة التي دارت بينها، وبين الملائكة المبشرين، يقول تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾[1].

فالسِّياق في بنيته السَّطحية بمساعدة القرائن، والمرجعيات الدّاخلية، تبين أنَّه تساؤل المتعجب المندهش لا تساؤل المنكر الرافض[2]، فعند تأمل الظّروف المحيطة بالتَّركيب اللفظي للمتكلم ــ زوج إبراهيم ــ نكتشف التَّنغيم الّذي تجسمت فيه العبارة " قالت: عجوز عقيم"، وهو تنغيم يحمل في طيّاته دلالة الإنكار الممزوجة بالمفاجأة، والتّعجب، وفرحة حائرة، ويقول في ذلك سيد قطب : "الفرحة أنستها أمر المبشرين .."[3]، فالمفاجأة في حدِّ ذاتها صرخة انفعالية مثَّلتها القرائن الدَّالة من خلال لفظ " في صرة..."، وحركة انفعاليّة تمركزت في لفظ " صكّت وجهها ". فالانفعالات سريعة، ومتتابعة لفرط الدهشة، فنا سبها

---

(3) ــ سورة طه: الآية: 105 ــ 107.

(4) ــ ابن عاشور :التحرير والتنوير،ج16/ 181. (5) ــ ينظر: فوز سهيل: لغة الحوار في القرآن الكريم،ص: 363.

(1) ــ سورة الذاريات: الآيات: 28 ــ 30.

(2) ــ ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن: ج6/ 3383.

(3) ــ المصدر السابق: ج6/ 3383. (4) ــ ينظر: فوز سهيل: لغة الحوار في القرآن الكريم،ص: 358.

سياقيا وأسلوبيّا حذف تركيب الاستفهام، حتى يتماشى السِّياق وطبيعة المتكلم، فذكر البناء يُثقل على السِّياق سرعة الانفعالات المتتابعة من قبل المتلقي[4].

أمّا النَّمط الثّالث الَّذي يرد فيه حذف بناء الاستفهام فإنَّه يتشكل في دائرة أفعال الرُّؤيا "أرأيتم ــ رأيت ...". ليعكس الحذف من خلال دلالتهما حالة الألم، والغضب الّتي تسيطر على المتكلم، فتحول دون قدرته على إتمام مقولته، ومنه قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[5].

فالسِّياق في هذا النَّمط الأسلوبيّ حذف جواب " أرأيتم " لتدل عليه المرجعيات الدَّاخلية، بتقدير " أيصح لي أن آمركم بترك عبادة الأوثان ؟، ويقدر ابن عاشور المحذوف أيضا بقوله :" ماذا يسعكم في تكذيبي؟ لتحذيرهم ..."[6]، فالحذف لبنية السُّؤال حقق في المستوى الدِّلالي كسر توقع المتلقي الّذي يسير وصولا إلى نقطة استقرار تتمثل في ذكر جواب الشَّرط، ولكن هذا لم يحدث في السِّياق، فالمكان مازال شاغرا، لينطلق المتكلم إلى عبارة جديدة تاركا مقولته لنهاية مفتوحة يكمله المتلقي حسب اعتقاده . ومنه ما يدل على التّأدب في الخطاب بالابتعاد عن توجيه توبيخ مباشر إلى المتلقي لاستمالته، وشاهده ما جاء في الخطاب الّذي أمر الله به رسوله أن يوجّهه إلى أهل الكتاب، في قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1]. فالسِّياق حذف جواب " أرأيتم ..." على تقدير ألستم أضل النَّاس وأظلمهم؟ " ليحقق الحذف فائدة التَّعريض بالمتلقي دون توجيه الإنكار، والتَّوبيخ المستفاد من بنية السُّؤال المحذوف إليه مباشرة.

3. 2. 3: حذف بعض قرائن الاستفهام:

نلحظ في البنية الاستفهاميّة خصيصة حذف بعض القرائن، وخاصة الجملة الفعليّة التَّالية في التّركيب للبنية الاستفهاميّة، ليقدم الحذف في هذا المحور للمتلقي، والمتكلم على حدٍّ سواء الإيجاز مع الاختصار بوجود بعض القرائن الأخرى، وتتشكَّل هذا النَّمط على

---

[5] ــ سورة هود : الآية : 88.

[6] ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير :ج11/ 314.

[1] ــ سورة الأحقاف : الآية : 10. وينظر : فوز سهيل : لغة الحوار في القرآن الكريم،ص : 358.

شكلين أسلوبيين : الأول : في ردود الأنبياء على تكذيب أقوالهم وتهديدهم، فحذف السّياق من التّركيب كما في قوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام : ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾[2].

فالحذف طوى من السّياق جملة الحوار لعدم الحاجة بدلالة القرائن المصاحبة، فأصبحت الدّلالة العميقة للبناء مدركة عند المتلقي، فأبرزت تعجب شعيب[3] من تهديد قومه بتنغيم الاستفهام[4].

ومنه ما جاء في ردّ المرسلين على أصحاب القرية في قوله تعالى : ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[5].

فالسّياق التّركيبيّ للبناء الاستفهاميّ حذف جواب الشّرط من مقولة المرسلين المقدر بـ" تطيّرتم" المستشف من قول أصحاب القرية : " إنّا تطيرنا بكم "، مبرزا جملة الشّرط "إن ذكرتم" بتنغيم السّؤال لبيان الفارق بين الفعل الإيجابي الّذي يقومون به، وردّ فعل أصحاب القرية السّلبي عليه[1]. ومنه حذف الجملة الفعليّة التّالية للسّؤال في ردّ موسى عليه السّلام على تهديد فرعون، فيقول تعالى : ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾[2]. والجملة المحذوفة تقدر من خلال قرائن البناء بـ" أتسجنني ولو جئتك بشيء مبين "، ليقدم الحذف دلالة الإغراء لفرعون وإثارة فضوله للاستماع للمتكلم بكلّ شغف[3].

أما النّمط الثّاني فتشكل الحذف فيه على لسان ملائكة العذاب، ومنه ما جاء في ردّ الملك الموكل بإغراق فرعون حال إعلانه الإيمان، فقال تعالى : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ

---

[2] ـ سورة الأعراف : الآية :88.

[3] ـ ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير :ج8 /195 ـ 197.

[4] ـ ينظر : فوز سهيل : لغة الحوار في القرآن الكريم، ص : 359.

[5] ـ سورة ياسين : الآيات : 18 ـ 19.

[1] ـ ينظر : سيد قطب في ظلال القرآن : ج5 / 2962 وينظر : فوز سهيل : لغة الحوار في القرآن الكريم، ص : 359.

[2] ـ سورة الشعراء : الآيات :29 ـ 30.

[3] ـ ينظر : فوز سهيل : لغة الحوار في القرآن الكريم، ص : 359 ـ 360.

إلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾[5].

ومن خلال القرائن يمكن أن نقدّر الجملة المحذوفة بقولنا "أتؤمن ألآن / أتؤمنون الآن"، فحذف الجملة في المكانين يعكس ثلاثة جوانب: الأوّل: حالة غضب الملائكة وانفعالهم من القوم المعاندين الّذين لا يؤمنون إلاَّ بعد فوات الأوان، فقد حال الغضب، والانفعال من قبل المتكلم عن إدراج الجملة الفعلية الّتي تحوي فعل الإيمان "تؤمن / تؤمنون"، والثَّاني: تعطش الملائكة لتعذيب المعاندين، إثباتا للعذاب الّذي طالما أنكروه، ولم يعترفوا به إلا حين رأوه، أمَّا الثَّالث: فدلالته تتمركز في الجانب الصَّوتي، فأدَّى الحذف إلى تمطيط الصَّوت وإطالته ليحاصر اللفظ المتلقي بدلالة الرَّفض، والاستحالة مع بعث اليأس في نفس المتلقي السَّلبي بعدم قبول إيمانه في حالة دعوته، وما بعد الدّعوة، ونجد أيضا أنَّ لفظ "الآن.." يتناسب مع الحالة النَّفسية الَّتي يعيشها المتلقي، فكأن اللفظ أخذ يعيد عليه شريط حياته في فترة زمنيّة بسيطة[1]، ويعرف النّتيجة من تنغيم اللّفظ الَّذي تفوه به الملك الموكل أنَّ لا فائدة من إيمانه.

3. 2. 4: حذف الجواب، أو بعض متعلقاته في البنية الاستفهاميّة:

نجد في السّور المكيّة أنَّ السّياق القرآنيّ يعمد إلى حذف الجواب، أو بعض قرائنه اختصارا ووصولا بالبناء الاستفهامي إلى غايته مباشرة دون أن تفصله عنه عناصر مدركة ضمنا في ذهن المتكلم أو المتلقي، ليعمق الحذف دلالة عدم قدرة المجيب على إتمام إجابته خجلا، أو ألما، أو خوفا ...، فيتبلور من خلاله موقف المتلقي، أو المجيب على الاستفهام بحرف، أو أداة من أدوات الجواب "نعم / لا / كلاّ / بلى..."، لتكشف هذه الأدوات حال التَّلوين الصَّوتيّ الّذي يقدمه السّياق من جانب، وأحيانا يلجم السّياق المتلقي فلا ينطق بإجابة تاركا الاستفهام مفتوحا في احتمالاته الّتي يمكن أنْ يجيب عليها السّائل[2]، وعند تتبع أسلوبيّة حذف الجواب نجد أنّها تدور في أربعة محاور أسلوبيّة:

---

[4] ــ سورة يونس: الآيات: 91 ــ 92.

[5] ــ سورة يونس: الآية: 51.

[1] ــ ينظر: فوز سهيل: لغة الحوار في القرآن الكريم، ص: 360. وينظر: الزمخشري: الكشاف: ج2/ 339.

[2] ــ فوز سهيل: لغة الحوار في القرآن الكريم، ص: 360.

أولا: أبنية استفهامية حقيقية تطلب تعين شيء محدد، وتوضيحه، فتأتي الإجابة من المتلقي لتقتصر على تحديد، وتعين الشّيء للمتكلم، لتراعي نفسية المتلقي المتعطشة للإجابة، فاقتضى مع هذا التعطش الحذف؛ لأنَّ المتكلم لا تعنيه التَّفاصيل بل الوضع العام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[2]. والتَّقدير " أي أنزل الله خيرا ...". وقوله تعالى: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[3]. أي قال ربّنا الحق.

ثانيا:حذف بعض متعلقات الإجابة مع الأسئلة المتكررة الّتي يوجهها الخالق إلى البشر لإقامة الحجة عليهم؛ لأنَّ المتلقي غير معني بالتَّفاصيل، وإنَّما بالتَّسليم المطلق دون نقاش، فيتناسب مع طبيعة الأسئلة المكررة الاختصار، والحذف في المتعلقات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[1]. والتقدير " أي بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا ...."[2].

ثالثا: حذف بعض متعلقات الإجابة مع الأسئلة الّتي يوجهها السّائل العليم " الله " لرسوله الكريم، ليقوم بتوجيهها إلى خصومه من الكفار، والمعاندين للإقرار بالحق، ومركزية الاستفهام، أو الأسئلة تدور في هذا النَّمط حول قدرة الله المطلَّقة، وسيطرته على كل ما في الكون، فيتبع السِّياق الأسئلة الصَّادرة بإجابات مؤكدة لا يخرج المتلقي عن حدودها تتمثل في كلمة واحدة دالة في العمق الدِّلالي على إرادة السَّائل تتجه إلى لفظ الجلالة " الله " فيقول تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ

---

(3) ــ سورة النحل: الآية: 30. وينظر: فوز سهيل: لغة الحوار في القرآن الكريم،ص: 362.

(4) ــ سورة سبأ: الآية: 23.

(1) ــ سورة الأعراف: الآية: 172.

(2) ــ ينظر: فوز سهيل: لغة الحوار في القرآن الكريم، ص: 362.

أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[3].

ومن خلال القرائن نقدر المحذوف من الجواب بقولنا: " خلق السماوات والأرض الله..."، فالحذف تولد من تلاحم السؤال بالجواب؛ لأنَّ السّائل، والمجيب هو الله، فما ذكر في الجواب كان تتمة للاستفهام، ليقدم الحذف في هذا المحور جوانب أسلوبيّة مختلفة: أولّها: تسليط الضّوء على الإجابة الوحيدة الّتي تبرز المفارقة الواضحة بين يقين الكفرة، وممارستهم الفعليّة، فما يقولونه لا يتوافق مع ما يفعلونه على أرض الواقع. الثّاني: أنَّ الرسول يلقن من قبل المستفهم المهيمن " الله "السّؤال والجواب، فيكون بهذا الأسلوب الرّسول المستفهم، والمجيب في الوقت نفسه، وفي هذه الحالة يتناسب الحذف مع المقام؛ لأنَّ السؤال والجواب يتوافقان ليتمم أحدهما الآخر، ويلاحق المتكلم المخاطب ليثيره بكيفية لا يؤديها أسلوب الخبر[4].

رابعا: الحذف بعض قرائن الاستفهام مع الأسئلة الّتي توجه إلى أهل جهنم، ليمزج السِّياق السّؤال، بالإجابة المختصرة ويجعلهما كتلة نصية واحدة، ويعمق بهما كذلك دلالة الإنكار، والتّوبيخ، والتّهكم، والتّحسر للمتلقي المباشر مسببا له السِّياق الألم والنّدم، وهذه الحالة الانفعاليّة الّتي يعيشها المتلقي لا يستطيع إتمام إجابته، فيبحث عن أقصر الإجابات لانشغاله بشيء أهم من إتّمام أركان الخطاب ليختصره بجملة دالة على وضعه النّفسي، ومقنعة في الوقت نفسه للمتكلم، فيقول تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّة أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمين﴾[1]. والتقدير: أي نعم وجدنا ما وعدنا ربنا حقا[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلَالٍ﴾[3].

---

[3] ـ سورة الزمر: الآية: 38.

[4] ـ ينظر: فوز سهيل: لغة الحوار في القرآن الكريم،ص: 361 من هذا النمط سورة سبأ: الآية: 24، والمؤمنون: 86 ـ 87.

[1] ـ سورة الأعراف: الآية: 44.

[2] ـ ينظر: فوز سهيل: لغة الحوار في القرآن الكريم، ص: 362.

[3] ـ سورة غافر: الآية: 50.

وبعد : فإننا نجد في أسلوبيّة الحذف في البناء الاستفهاميّ القضايا التّالية :

أولا أنّها تقفز بالمتلقي من مشهد إلى آخر تطوي من خلاله الزّمان، أو المكــان، أو كليهما، متجاوزا الأسلوب التفصيلات ليضع المتلقي في مواجهــة الحــدث، يــشهد مــا وقع، وما جرى في هذا الموقف، وكأننا واحد ممّن حضره، أو شاركوا فيه.

ثانيا تجد أنَّ الحذف في البناء الاستفهاميّ يحقق حضور المتلقي في السِّياق من خلال قوة التّأويل، والتّخيل للموا قف الّتي يتخللها ليجعل المشهد، أو الحدث صــورة مــسموعة ومرئية، دون تدخل ملازم بالسَّرد أو الوصف، فيشعر المتلقي بأنَّه يعيش في بؤرة الحدث يسمع الشّخوص تتكلم عن ذاتها دون وسيط، فيحدد المفقود من المــذكور فــي التَّركيــب النَّصيّ.

ثالثا يساهم الحذف في البنية الا ستفهاميّة في عملية الإقناع مساهمة فعالة بما له مــن خصائص أسلوبيّة وبيانيّة، ليتناسب السّياق من خلاله مع طبائع النُّفوس الّتي قد يلازمهــا في بعض الأحيان الملل، والسَّآمة مع طول الكلام، ومن هنا استغنى القرآن عن الكثير من الألفاظ، واكتفى بالدّلالة عليها من السِّ ياق، ليُخرج الكلام في أبهى صوره وأحسن تــأليف مع الوفاء بحق المعنى، ليتحقق له التَّأثير المطلوب.

3 . 3: أسلوبيّة تحول الخطاب في البنية الاستفهاميّة:

يعدّ تحول الخطاب في السِّياق الاستفهاميّ عدولا " انحرافا " عن مبدأ المطابقة الّــذي التزمه النّحاة واللّغويون، وتتمثل المطابقة في ضمير " المتكلم/ المخاطب/ الغائب"، وفــي العدد، والإفراد، والتّثنية، والجمع، وفي زمن الفعل " الماضي/ المضارع/ الأمــر" كمــا تتمثل في التَّذكير والتّأنيث، والتّعريف والتّنكير، وهذه المطابقة في الخطاب اللغوي تعــد المستوى المثالي الّذي ينته كه " تحوّل الخطاب " بوصفه ظاهرة أسلوبيّة تتميز " بالعــدول من أسلوب في الكلام إلى أســلوب آخــر مخــالف لــلأوّل "[1]، وبــذلك يمثــل تحــول الخطاب "خاصية بارزة في حركة الصِّياغة موضعيا، حيث تتحوّر اللّفظة في موضــعها

---

(1) ــ العلوي: الطراز :ج1/ 132.

تحوّرا غير مألوف يفرز دلالة فيها كثير مما لا يتوقعه المتلقي، وفيها كثير من إمكانات المبدع في استعمال الطّاقات التّعبيريّة الكامنة في اللغة"[2].

وفي البنية الاستفهاميّة بقدر ما يراعى حال المتلقي في أسلوب تحول الخطاب بتنشيطه وإزالة السّآمة عنه، وتنبيهه ــ بنقل الكلام من صيغة إلى صيغة أخرى ــ إلى وجوه من الحُسن لا بدَّ أنْ يعيها. فإنَّ تحول الخطاب مَدين بما فيه من قيم بلاغيّة إلى الحضور الواضح للمنشئ الَّذي يهدف إلى إيصال الرِّسالة إلى المتلقي بكل ما فيها من قيمٍ جمالية، فينحرف بالأسلوب عن نمط الأداء المألوف المعتاد ليحقق ما يريده من أهداف يعجز عن توصيد لها التَّركيب العادي، ويمثل تحول الخطاب في سياق البنية الاستفهامية في السور المكيّة نازعا نفسيا يوحي بتضارب الأشياء والأحداث، وتداخلها في العقل الباطن للمنشئ، فيكون تحوّل الخطاب هو التَّمثيل اللّغوي لهذا النّزوع النَّفسيّ عند المتكلم، والمتلقي في آن واحد.

ومفهوم تحول الخطاب أشمل من مفهوم الالتفات كما هو واضح من كلام جمهور البلاغيين، ليقع مفهوم الالتفات ضمن قسم من أقسام تحول الخطاب، ورغم ذلك فالمفهوم يدور في اللغة، والاصطلاح تحت معنى التَّحول، والتَّحول عند العرب يخرج إلى معنى الانصراف من جهة إلى أخرى[3]، وقد ربط (ابن الأثير) بين المعنى اللّغوي والاصطلاحيّ لمعنى تحول الخطاب، فقال: "وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه، وشماله فهو يقبل بِوجْهَه تارة كذا، وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النّوع من الكلام خاصة؛ لأنَّه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة أخرى، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض..."[1]، وقد جعله ابن جنيّ من أبواب "شجاعة العربيّة"[2]، فابن جنيّ أراد بأبواب الشّجاعة كما بينه عبدالله عليوةليلا على حدة ذهن البليغ، وتمكنه من تصريف أساليب

---

[2] ــ محمد عبد المطلب: جدلية الإفراد والتركيب، ص: 163 ــ 164.

[3] ــ ابن منظور: لسان العرب، مادة "لفت"

[1] ــ ابن الأثير: المثل السائر، ج2/ 167.

[2] ــ ابن جني، **المحتسب**، تحقيق: علي النجدي ناصف، وآخرون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ،د ط، 1386هـ، ج1/ 145. فذكر عند توجيهه لقراءة الحسن في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ البقرة الآية: 281، حين قرأها "يرجعون" بياء مضمومة. وأبواب الشجاعة في العربية عنده، فعد منها: "الحذف/التقديم والتأخير/ الحمل على المعنى" ينظر: الخصائص: ج2/362.

كلامه كيف شاء، كما يتصرف الشّجاع في ساحة الوغى بالكرِّ والفر ..."[3]، وحدَّه سعد الدين التفتازاني بقوله: " هو انتقال الكلام من أسلوب التَّكلّم، والخطاب، والغيبة إلى أسلوب آخر غير ما يترقبه المتلقي، أو المخاطب ..."[4]فالتّفتازاني من جمهور البلاغيين الّذين يشترطون الانتقال من صيغة إلى صيغة أخرى بعد التَّعبير بغيرها كي يتحقق التَّحول في الخطاب، وهذا المفهوم ضيق لا ينطبق على تحول الخطاب بشكل عام بل يخص جزءا منه، وخاصة الالتفات، إلاّ أنَّ هذا لم يبق دون تفصيل بتوسيع مفهوم التّحول ليشمل الالتفات، وغيره من أ شكال الخطاب الّتي تندرج تحت مفهومه، وعلى رأسهم ضياء الدين ابن الأثير[5]، والتّنوخيّ[6]، والطّوفيّ[7]، وابن النّقيب [8]،ونجم الدين بن الأثير [9]، والعلويّ الّذي لخص أقوالهم في توسيع مفهوم التحول، فقال : " هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأوّل، وهذا أحسن من قولنا : هو العدول من غيبة إلى خطاب، ومن خطاب إلى غيبة؛ لأنَّ الأوّل يضم سائر الخطاب، والحدّ الثَّاني مقصود على الغيبة، والخطاب لا غير "[1]، والتَّحول بهذا المفهوم يتسع لصور مخالفة مقتضى الظاهر ليشمل الضَّمائر بجميع أشكالها، والعدد، والإفرا د، والتثنية، والجمع، وزمان الأفعال، وفي النّوع التّذكير والتّأنيث، وبذلك يكون التَّحول أشمل من الالتفات كما ذكر العلوي فيما سبق والسَّبكيّ[2]، ويذكر عبد الواحد علاّم وجاهة رأي السَّبكيّ؛ لأنّه من كبار الشّرّاح، فيسهم

---

[3] ـ عبدالله عليوه: بلاغة الالتفات والتغليب، دار الأرقم، الزقازيق، ط1، 1993، ص: 10.

[4] ـ السعد التفتازاني: المطول، مطبعة أحمد كامل، 1330هـ، 131.

[5] ـ ينظر: ابن الأثير: المثل السائر، ج2/ 167 ـ 186.

[6] ـ التنوخي، محمد بن أحمد بن عمرو التنوخي، **الأقصى القريب في علم البيان**، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1327هـ، ص: 45 ـ 46.

[7] ـ الطوفي، سليمان بن عبدالقوى البغدادي(ت 716هـ)، **الإكسير في علم التفسير**، تحقيق: عبدالقادر حسين، مكتبة الآداب، ط1، 1977، ص: 140.

[8] ـ ابن النقيب، أبو عبدالله محمد بن سليمان البلخي(698هـ): **مقدمة تفسير ابن النقيب في علم المعاني والبديع وإعجاز القرآن**، تحقيق: زكريا سعيد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1995، ص: 202 ـ 213.

[9] ـ ابن الأثير الحلبي، نجم الدين أحمد بن اسماعيل: **جواهر الكنز**، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الاسكندرية، د ط، د ت،ص: 119 ـ 125.

[1] ـ العلوي: الطراز، ج2/ 132.

[2] ـ بين السبكي هذا الرأي، ولمّح بإمكانية قبوله، وإدخاله في مفهوم الالتفات الشمولي، أو تحول الخطاب ليكون أشمل، فقال: " ومنهم من يجعل الالتفات نقل الكلام من حالة إلى حالة أخرى مطلقا، ويذكر أن ابن النفيس جعل منه

رأيه إسهاما في جمع تلك الألوان البلا غيّة المتناثرة تحت مصطلح واحد، بدلا من تـشتيت أذهان الدّارسين، بمصطلحات كثيرة لفنون فرعية، يمكن أن يوحدها فن بلاغـي شـامل نصطلح عليه تحول الخطاب [3]. وعند النّظر في البنية الاستفهامية في السّور المكيّة، نجد أن أسلوبيّة تحول الخطاب قد أسهمت إسهاما في تماسك ا لصّياغة النّـصيّة، والتّركيبيـة لجلب الانتباه، وتركيزه في جوانب إدراكيّة تمسُّ المتلقي بشكل مباشر، وهـذا الأسـلوب تشكل على محاور مختلفة في البنية الاستفهاميّة داخل السّور المكيّة:

3. 3. 1: تحول ضمائر الخطاب في نسيج البنية الاستفهاميّة:

ركز علماء اللّسانيات منذ زمن بعيد انتباههم على فئة من الإشارات، الّتي لا تحتـوي على مضمون مرجعيّ، ولكنَّها تشير إلى الشّيء، أو إلى الشَّخص المعني بحسب مكانتـه في عملية التَّوصيل، والّتي سماها (جيسبرسن) تغيّرات السّرعة...، وسماها (بنفينست) المؤشّرات، وتبنّى (ياكوبسون) المصطلح الأوّل، ووضع من ترجم هـذه المـصطلحات عوضا عنها روابط الوصل .... وتعدّ الضّمائر الشّخصية أهم روابـط الوصـل؛ لأنّهـا تميز الأشخاص موضوع الخطاب بموجب أدوارهم ضمن عملية الإيصال الأدبي، باعتبار أنَّها تجعـل المرجـع تناوبـا بـين المنـشئ، والمتلقـي، وتتناسـب مـع الوظـائـف الثلاثة: المرجعيّة، والانفعاليّة، والإدراكية [4].

والتّحول في الضّمائر في البنية الاستفهاميةّ يكسر عملية التّوصيل مـا بـين الـنّص والمتلقي؛ لأنَّه يحدث اهتزازا في مرجعية الضَّمير علـى المـستوى الـصِّياغي للبنيـة السَّطحية، فيتنبه المتلقي لذلك بإع ادة الاستقرار للضَّمير في المستوى العميق للبنية، وإذا لم يتنبه إلى هذا العدول عن مقتضى الظَّاهر حدث خلل لديه في مرجعية الـضَّمير، وفقـد تواصله مع النَّص، وقلَّ بالتَّالي انفعاله به، وإدراكه لمراميه، وجمالياته، كما يتيح تحـول الضّمائر في البنية الاستفهاميّة حر ية كبيرة في إضفاء الحيوية على تراكيب النّص بـشكل عام وبناء الاستفهام بشكل خاص، من خلال تعدد زوايا الرؤية؛ لأنَّ بنية تحول الخطـاب في سياق الاستفهام تسُهم في خلق " الفجوة: مسافة التوتر " في جـسد الـنّص، وتمـنح

طريق فصاحة التعبير، وجعل غيره من الانتقال من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع ..." ينظر: السبكي: عروس الأفراح: ج1/ 373 ـ 380.

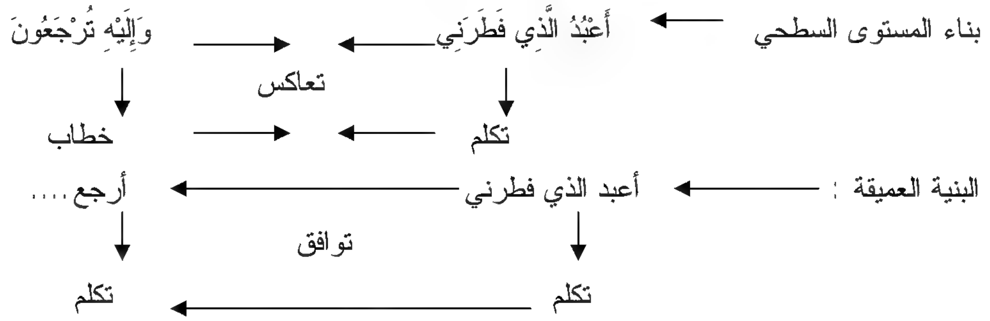
(3) ـ ينظر: علام، عبد الواحد: **البديع المصطلح والقيمة**، مكتبة الشباب، القاهرة، ط1، 1989، ص: 9.

(4) ـ ينظر: بيير جيرو: **الأسلوب والأسلوبية**، ترجمة:منذر عياشي،مركز الإنماء القومي،بيروت،د ط،د ت ص: 65.

المتكلم حرية كبيرة في المناورة [1]، وعند رصد أسلوبيّة تحول الخطاب في الضمائر داخل نسيج البناء الاستفهامي، يمكن لنا أن نضعه ضمن أشكال مختلفة يأتي عليها :

1 ــ التحول من صيغة التّكلم إلى صيغة الخطاب :

ومنه ما جاء في قوله تعالى : ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِــيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِــضُرٍّ لاَّ تُغْــنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ﴾[2]. فإذا رصدنا حركة الــصِّياغة اللّفظيــة فــي شــكل تخطيطي تكون على النّحو التّجريديّ التّالي :



بدأت الصِّياغة اللّفظية لبناء الاستفهام بضمائر التَّكلم " مالي / أعبد / فطرني "، الّتي تميل إلى الّذات المتكلمة الحريصة على المصلحة وجلب المنفعة، ثم جاء الانتقال إلى ضمير الخطاب " ترجعون "، ليفيد التّلطف في توجيه المتلقين الخاصين بالنسبة للمتكلم، وإعلامهم بتوحد مصيره مع مصائرهم، وتنبيههم إلى أنَّه مثلهم في وجوب عبادة من إليه المرجع والمآل. فسياق التَّحول للضمائر داخل النَّسق الاستفهاميّ دفع المتلقي إلى متابعة حركة الصِّياغة في مستويين : الذّاتية الفردية، ومستوى المصير المشترك، وهما ينتجان من عملية العدول عن مقتضى الظّاهر، وهذان المستويان المختلفان ظاهريا يتحدان في البنية العميقة لدى المتلقي عندما تؤول الضمائر إلى صيغة واحدة " تكلم / تكلم ".

2 ــ التّحول من ضمير الغائب إلى صيغة التّكلم :

ومنه قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[1]. وعند

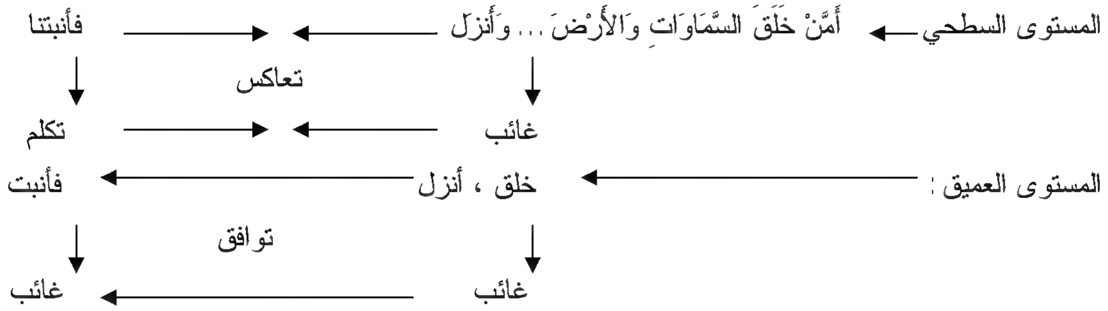
---

[1] ينظر : علي، عواد : **نهر المجرة " مختارات من شعر البياتي "**، هيئة قصور الثقافة، سلسلة آفاق الكتابة، القاهرة، العدد السادس، 1998، ص : 13.

[2] ــ سورة ياسين الآية : 21 ــ 23.

[1] ــ سورة النمل الآية : 60.

رصد الصِّياغة اللّفظية للاستفهام في البنية السَّطحية، يتــشكل معنـــا الـــشّكل التّجريـــدي التالي :



بدأت الصِّياغة النّصية في هذا المستوى بعد البنيـــة الاســـتفهاميّة بـــصيغة الغائـــب "خلق /أنزل" تتابعت أحداثه على الواقع الفعلي للصِّياغة، و صيغت الغياب الّتي هيمنت على البنية السّطحية لم يكن من باب التّهميش الصّياغي، ولكنه غيـــاب المهـــيمن علـــى الصّياغة بدليل أسلوب الحصر الّذي تمثل به فعل الخلق، والإنزال بالذّات الإلهية، ليجيء بعد ذلك التّحول من صيغة الغائب إلى صيغة التكلم " أنبتنا "؛ ليؤكد التّحول أهميـــة هـــذا المقطع في بيان عظمة المقدرة الإلهية غير المتناهية في الخلق، والتّجديـــد لاســـتمرارية الحياة وديمومتها، مما يعمق بعد التّأكيد تنبيه المتلقي إلى استجلاء مظاهر القدرة الإلهيـــة في عملية الإنبات، والخلق، فالمستويان السّطحي، والعميق للتّحول في السّياق الاستفهاميّ يتحدان في العمق الدّلالي، ويظهران سرَّ الامتنان على الخلق، بتخصيص القدرة المطلقـــة الّتي لا يدخل تحتها أحد من المخلوقات . ومنه قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْـــفَ مَـــدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا﴾[2] .

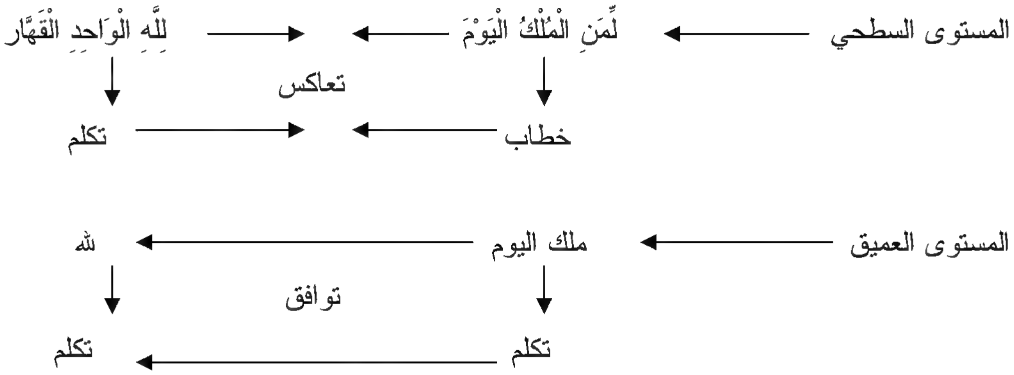
3 ـ التَّحول من ضمير الخطاب إلى صيغة التَّكلم :

ومنه قوله تعالى : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَـــشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[1] . وعند رصد الحركة الـــصياغية لتحـــول الخطـــاب فـــي البنيـــة الاستفهامية داخل النسق النصي لهذا المستوى ندرك الشكل التجريدي التالي :

---

[2] ـ سورة الفرقان الآية : 45 .

[1] ـ سورة غافر الآية : 15 ـ 16 .



وفي هذا المستوى نطالع في السِّياق بنية السؤال، والجواب بعد فناء الخلق، فاستلزم نصيا، وتركيبيا صيغة الخطاب " لمن الملك اليوم "، ليجسم من خلاله دلالة التَّقرير بالملك، ويوضح حالة الانفعال لدى المتلقي العام الّذي يسمع بالحدث قبل وقوعه، ثم يأتي بعد ذلك التَّحول إلى صيغة التّكلم دون امتداد صياغي ليقطع أفق التّوقع بالإقرار بالفاعل من خلال المخاطب نفسه بلفظ " لله ". فالتّحول في الخطاب داخل النّسق الاستفهاميّ، حول حركة الصِّياغة من الخطاب التّجريدي، الّذي يقرُّ بالمالك الحقيقي في لحظة ينهار فيها كلّ شيء أمام القوة المهيمنة المطلقة، إلى التّكلم ليضفي على السّياق الاستفهامي حضور الذّات، ودخولها في بؤرة السّياق، ويوقف المتلقي على تطور المشهد الّذي سينتهي إليه الكون وما فيه.

ومنه قوله تعالى : ﴿قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ ا لْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[2]. فالسّياق النّصي تحول في خطابه من صيغة المخاطب " لكم الملك " إلى صيغة التكلم " فمن ينصرنا" ليتناسب هذا التّحول مع دلالة التعّبير عن وحدة المصير، الّذي سيحيق بهم إنْ لم يستجيبوا لدعوة موسى عليه السَّلام، مظهرا ولاءه لقومه، والتّصاقه بهم،وحرصه على مصلحتهم، مدرجا نفسه بالتّحول الصّياغي مع المجموع الّذي يوحي إليه أسلوب الخطاب.

3. 3 . 2: تحول صيغ الأفعال في البنية الاستفهاميّة:

عند النَّظر في الجملة العربية نجد النّحاة قد قسموها باعتبار الزَّمن خارج السِّياق إلى ثلاثة أقسام، فيقول سيبويه : " لما مضى ، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع"[1]وتميل أغلب آراء النّحاة القدماء إلى احتواء بنية الأفعال في اللغة العربيّة على زمن ذي طبيعة صرفيّة ثابتة، أي أنَّ الزَّمن فيها يستند إلى مفهوم محدد " هو أن الصيغ

---

(2) ــ سورة غافر الآية: 29.

(1) ــ سيبويه: الكتاب،ج3/ 9.

الصَّرفية للأفعال الّتي يتمثّل فيها الزّمن تمتدُّ إلى عمق النِّظام النَّحوي، فصيغة الماضي خارج السِّياق هي ذاتها داخل السِّياق، وكذلك صيغتا الحاضر، والمستقبل"[2]، ونجد أنَّ الدِّراسات الحديثة ترى إدخال ما يعرف بالزَّمن النَّحوي[3]، وهو اكتساب صيغ الأفعال وظائف مغايرة في السِّياق، أو دلالات زمنية جديدة نتيجة تفاعلات السِّياق، والملابسات، وقرائن الأحوال، فيقول (بييرجيرو): "للحاضر معنى يـ تجلى في الإشارة إلى اللحظة الحاضرة للإيصال، ينتج عن نسق التّعارض للحاضر، فيجعله قابلا للتّعبير عن الماضي، مثل " حاضر السَّرد "، وعن المستقبل مثل " الحاضر التّنبؤي "، وعن كلّيّ الزّمن ... والسّياق هو الّذي يَنْفُذ فيه أثر هذا المعنى، أو أثر هذه القِيم..."[4].

ويكشف التَّحول في صيغ الأفعال في البنية الاستفهاميّة في القرآن الكريم بعامة، والسّور المكيّة بخاصة عن تصادم الأزمنة على مستوى البنية السّطحيّة، مما يدفع المتلقي إلى الانتباه والتّفاعل مع النّص، ومحاولة إعادة التّوافق بين صيغ الأفعال، وأزمنتها من خلال إعادة التّرتيب في البناء العميق للاستفهام، والتّحول في صيغ الأفعال في البنية الاستفهاميّة ينتج صورا من التّعبير العدوليّ عن الأصل المثاليّ للمطابقة وهي:

1 ــ التّحول من صيغة المضارع إلى صيغة الماضي:

ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ *أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[1]. فالحركة الصِّياغية لهذا المستوى تتشكّل على النّحو التّجريدي التّالي:

المستوى السطحي: ← يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
← وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ← ← وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي...

---

[2] ــ المطلبي، مالك يوسف: **الزمن واللغة**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1986، ص: 29.

[3] ــ ينظر: تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص: 240.

[4] ــ بييرجيرو: الأسلوب والأسلوبية، ترجمة منذر عياشي،ص: 75.

[1] ــ سورة لقمان الآيات: 28 ــ 31، وينظر: سورة ياسين الآية: 47.

تعاكس

ماضي ← ← حاضر " مضارع "

المستوى العميق : يولج الليل في النهار ← يسخر الشمس والقمر ....

توافق

حاضر" مضارع" ← حاضر " مضارع "..........

المستوى التَّجريدي للسِّياق النَّصي للبناء الاستفهاميّ في الآيات يشير إلى سيطرة الزّمن الحاضر " المضارع " من خلال الفعل " يولج " على مستوى الصِّياغة اللفظية، فبدأ أسلوب الاستفهام الصّياغة اللفظية بفعل الرؤيا " ترى " ثم الجملة الاسميّة " أن الله " ليتم من خلالهما استحضار جميع المشاعر والحواس لرؤية المشهد، وتمكين الأذهان من تتبع أمر الظَّاهرة الكونيّة بكل شغف، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال الفعل المضارع " يولج "فإذا اكتمل تصور الذِّهن طبيعة الظَّاهرة من كلّ جوانبها في المستوى الصِّياغي، تحوّل الخطاب بعدها، ودون سابق إنذار ليقطع على المتلقي هذا التَّصور إلى صيغة الماضي " وسخَّر " ليعمق من خلاله استمرارية الظّاهرة، وأنَّها لا تزال تسير جنبا إلى جنب في رحم الحاضر، والمستقبل ليتم التَّأكيد على حدوثه، والتّحقق من وقوعه، ليقرر المتلقي بعدها حقيقة التَّصرف المطلقة في الكون وما فيه، ويشير التَّحول في صيغ الأفعال في السِّياق الاستفهاميّ كذلك إلى الامتنان في تسخير كل ما في الكون لخدمة الإنسان .

2 ـ التَّحول من صيغة الماضي إلى المضارع :

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ ﴾[2] .

المستوى السطحي للتركيب ← أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي ← وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا ←

نجد في هذا المستوى أنّ السِّياق النَّصي للبناء الاستفهاميّ بدأ بصيغة الماضي "أكذبتم" لتهيئة المجال أمام الصِّياغة لتوجيه أدوات التَّعذيب الّتي يقرع بها السِّياق المخاطب منكرا عليه أعماله، ليتحوّل السِّياق بعدها إلى صيغة المضارع " لم تحيطوا " لتثبيت دلالة الإنكار على المتلقي ملهبا مشاعر الحسرة، والنَّدم، واليأس في نفوسهم، مولدا من صيغة التَّحول صراعا داخليا عنيفا قد يؤوّل إلى صراع داخلي يحطم الذَّات، فالتَّحول رغم ذلك

---

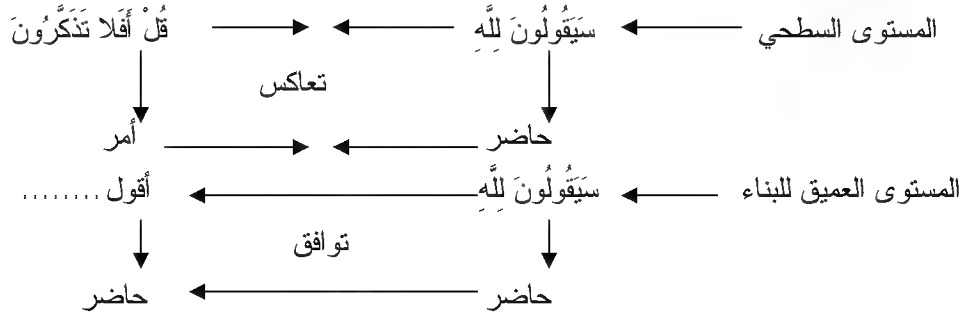
(2) ـ سورة النمل الآيات : 83 ـ 85 .

يذكرهم بجريمتهم الّتي أدّت بهم إلى هذا الموقف المشحون بالحسرة، ومما زاد الأمر سوءا على المتلقي تكرار الاستفهام " أمّاذا "، والّذي شحن الخطاب بشحنة إنكار إضافية نابعة من توالي الأسئلة.

فبنية التّحول ما بين الصّيغتين جسّدت تصادم الأزمنة على مستوى الصّياغة السّطحيّة للتّوافق في الدّلالة في المستوى العميق " فوقوع الصّيغ المتغايرة في مستوى تركيبيّ واحد يعني تفريغ صيغة ما دون غيرها من الزّمن، فتشير إلى وجه من وجوه دلالتها الحديثة...."[1]، وتصادم الأزمنة في السّياق التّركيبيّ عمّق المعنى الدّلاليّ عن طريق تحوير زمن الإخبار عن الحدث الماضي المنقطع " أكذبتم " إلى صيغة المضارع الدّال على الحال " لم تحيطوا "، ولما كانت الأحداث كلها حدثت في الماضي، فإن المتلقي يستطيع إحداث تو افق بينها في البنية العميقة، مما يزيل حدة المفارقة الزمنية بينهما عن طريق الرجوع بزمن الإخبار إلى صيغة الماضي.

3 ـ التّحول من صيغة المضارع إلى صيغة الأمر:

ومنه قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾[2]. ويتجسد هذا المستوى في البنية السّطحية للتّركيب الاستفهاميّ بالشّكل التّجريديّ التّالي:



فالبناء التّجريديّ يبين أنّ الإجابة الاستفهاميّة في السّياق النّصيّ تتحرك في دلالة الزّمن الحاضر، أو ما يعرف بـ " حاضر السّرد لأنّها واردة في سياق حكا ية قصة النّبي عليه السّلام مع المعاندين، ليهيمن على الصّياغة طرفان متباعدان صاحب الرّسالة وما يمثله من واقع، وقومه المنكرين وآلهتهم المزعومة، فبدأت الصّياغة التّركيبية للإجابة بالفعل المضارع " سيقولون لإفادة أنّ الله هو المتفرد في الوجود، رغم وجود فعل

(1) ـ مالك المطلبي: الزمن واللغة، ص: 71.

(2) ـ سورة المؤمنون الآيات: 84 ـ 85.

الشِّرك عندهم، لتتباعد من خلاله الأقوال مع الأفعال من قبل المعاندين، وتتسع الهوة بينهما، فيكون الانتقال إلى صيغة الأمر " قلْ .." أمرا حتميا لبيان المفارقة ما بين القول والعمل، فهم يؤمنون بالقول، ويكفرون بالعمل.

فالصِّياغة التَّحويليَّة للأفعال جسّدت المخالفة لمقتضى الظاهر بين تصادم الأزمنة للأفعال، ببيان مواقف الطَّرفين المتباعدين عن طريق التَّحول في الخطاب ما بين صيغة المضارع والأمر، والّتي تصرُّ الصّيغة الأولى في السّياق النّصي على توضيح تشريف مقام البنية الاستفهاميّة " الله،"وبيان قوته وعظمته، ثم العدول عنها إلى صيغة الأمر " قل "، لبيان حقارة وتفاهة من يكفر ويعاند مقام التّشريف في الصيغة الأولى، فالتّحول في صيغ الأفعال صورَّ مقولات الأطراف المتحاورة، وجسّد فيها واقع الفعل الّذي هي عليه، كأنّها واقع أمام نظرنا رغم حدوثها في القصة والخبر في الزّمن الماضي.

ونخلص من ذلك أنَّ تحول الخطاب في صيغ الأفعال في جميع الصّور داخل البنية الاستفهاميّة، يحدث اهتزازا في مرجعية الضَّمير للأفعال، على المستوى السَّطحي للصِّياغة اللفظية والتَّركيبيّة، يوهم المتلقي بتعدد الأصوات في الصّياغة اللفظية، وهنا يتم إدخال المتلقي كطرف مهم في إتمام دلالة التّحول الخطابيّ في صيغ الأفعال، ليعيدها إلى الوحدة، والاستقرار في البنية العميقة، كما أنَّ بنية التّحول في صيغ الأفعال تقتضي غالبا حذف بعض الدّوال لإبراز عمق النّ قلة الصِّياغية مما يحفز عنصر التّخيل عند المتلقي، ويدفعه إلى محاولة إعادة المحذوف لتكتمل الدّلالة، ونجد أيضا أن المفارقة الزّمنية بين صيغ الأفعال في البناء الاستفهامي تؤّول من قبل المتلقي إلى توافق في المستوى العميق للبناء عن طريق الاستمرار الزَّمني الّذي يحل محلّ الصّدام والافتراق.

3. 3. 3: تحول الخطاب في بنية العدد في السِّياق الاستفهاميّ للسّور المكيّة:

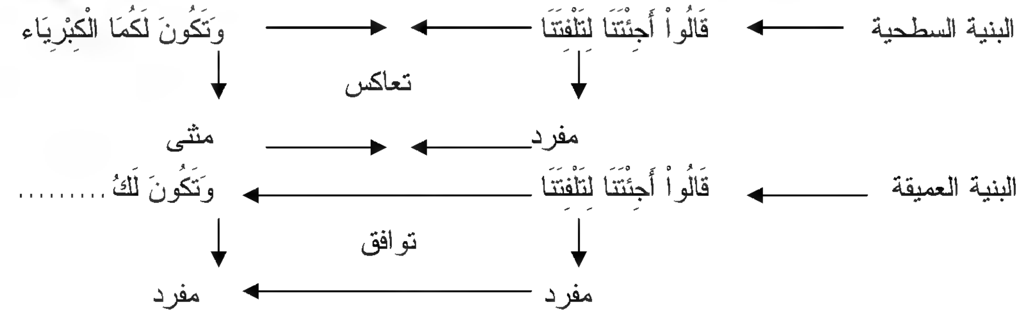
ذكر السَّبكيّ، والسيوطي أنّ تحول الخطاب في العدد ينقسم إلى قسمين : الأول الانتقال من التّعبير بصيغة الإفراد، أو التّثنية، أو الجمع إلى التّعبير بصيغة أخرى منها مع بقاء المعنى المراد بكل صيغة على وضعه الأصليّ، فتتحقق فائدة تحول الخطاب بين هذه

الصّيغ ,والثّاني :التّعبير بإحدى صيغ المفرد،أو المثنى،أو الجمع،والمراد معنى الصِّيغة الأخرى[1]،ونلاحظ أن النَّوع الأوّل يتوافر فيه معنى التّحول ,وهو الانتقال من صيغة إلى أخرى، ولكن لا يبرز فيه عنصر المفاجأة كثيرا، أو التَّوغل في مخالفة مقتضى الظَّاهر؛ لأنَّ كلَّ صيغة تظل ثابتة في معناها اللّغوي، وبذلك يقترب تشكيل البنية من بنية تلون الخطاب، والتّفنن فيه . أمّا الثّاني: فلا انتقال فيه من صيغة إلى أخرى، وإنّما يعبر فيه بصيغة مكان صيغة أخرى، فيتحقق بذلك عنصر المفاجأة الصِّياغية الّتي تخالف مقتضى الظَّاهر، وبذلك يقترب هذا القسم من مفهوم التّحول الخطابي.

وفي هذا القسم ــ التّحول الخطابيّ في بنية العدد ــ سنمزج بين شواهد النّوعين للمواءمة ما بين تلوين الخطاب، وتحوّل الخطاب تحت مفهوم واحد يجمع الاثنين بتحول الخطاب حيث يتوافر فيهما العدول عن صيغة إلى أخرى، والخروج على خلاف مقتضى الظّاهر، وحين نستعرض إمكانات توليد الصّور التّحويليّة في صيغة العدد في سياق البنية الاستفهاميّة، نجد أمامنا صيغتين أسلوبيتين هما:

1 ــ تحول الخطاب في البنية الاستفهامية من صيغة المفرد إلى صيغة المثنى:

ومنه قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ * قَالَ مُوسَى أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[2].



في الشّكل التّجريدي السّابق للآيات، نجد أنّ خط المعنى الدّلالي للآيات في السّياق الاستفهاميّ، يسيطر عليه الصّراع حول سوء اعتقادهم في معجزات موسى عليه

---

[1] ــ ينظر: السبكي: عروس الأفراح،ج1/ 376. والسيوطي، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي(ت911هـ): **شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان**، دار إحياء الكتب العلمية، د ط، د ت. ص:30 ــ 31.

[2] ــ سورة يونس الآيات : 76 ــ 78.

السّلام، ورأيهم في الرّسالة الّتي جاء بها، ومعه هارون عليه السّلام، وموقفهم من هذه الرّسالة[1].

وفي السّياق التّركيبيّ تسيطر صيغ الخطاب على تشكيل البنية اللّغوية لتعكس جوّ الصّراع، والمواجهة، فقد بدأت الصّياغة في الآية الثّانية كما أثبت الشّكل التّجريديّ باستخدام صيغة المفرد " أجئتنا / لتلفتنا لأنَّ المخاطب بها موسى عليه السلام [2]، فهو الّذي أراهم المعجزات، واختص بها دون أخيه هارون، لتكون دليلا على صدق رسالته ولهذا جاء خطاب فرعون، وحاشيته له بصيغة المفرد، ولـ ما انتقلت الصّياغة إلى بيان رأيهم في رسالته، وموقفهم منها كان العدول من صيغة المفرد إلى صيغة المثنى " لكما "، الّتي تجمع بين موسى وهارون عليهما السّلام في الخطاب على المستوى المعنويّ والدّلالي[3] ففرعون وقومه لا يعتقدون في سحر الغرض الّذي يدعو إليه موسى وهارون، لكنّهم يعتقدون أنّهما يطلبان به الملك والرّئاسة، وإذا بلغا هذا المنصب تجبرا وتكبرا، وقصدوا بذلك ذمهما [4]، وبهذا النّسق تطور موقفهم من موسى وهارون إلى نبرة العداء الّتي تمركزت في قرائن البناء الاستفهاميّ، وختام الآية " وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ "، وهذا الأمر جسد في الصّياغة التّحويلية العدوليّة من صيغة المفرد إلى صيغة المثنى حقيقة موقف الطّرفين، وتطوره من الجدال الفكريّ، والأخذ والردّ إلى العداء السّافر من جانب فرعون وقومه، وشروعهم في إجراءات عقابية تترجم هذا العداء السّافر ضد موسى وهارون .

2 ــ تحوّل الخطاب في البنية الاستفهاميّة عن خطاب الاثنين إلى الواحد :

ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾[5].

تعاكس

المستوى السطحي : ← فمن ربكما " مثنى ← → يا موسى " مفرد

يشير التّجريد البنائيّ للمستوى التّركيبيّ للبنية الاستفهاميّة إلى أنَّ الدّلالة في المستوى السّطحي تستهدف غرضين الأوّل دعوة فرعون للإيمان بالله، وترك البغـ ي في

[1] ــ ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير :ج11 / 149 ــ 151 . وينظر : سيد قطب : في ظلال القرآن،ج3 /1813 .

[2] ــ ينظر : الزمخشري : الكشاف، ج2 / 348 ــ 349 .

[3] ــ ينظر : فوز سهيل : لغة الحوار في القرآن الكريم،ص : 382 .

[4] ــ ينظر : الزمخشري : الكشاف :ج2 / 349 .

[5] ــ سورة طه الآيات : 48 ــ 49.

الأرض، والثّاني : إطلاق سراح بني إسرائيل، والسّماح لهم بالخروج من مصر، وفي هذا الغرض أمر الله رسوليه موسى، وهارون بالتّوجه إلى فرعون [1]، وإعلان أمر الرّسالة ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾[2].

فالبنية الدّلالية بهذا المعنى فرضت على التّركيب اللفظي في الصّياغة أنْ يبدأ المتكلم المخصوص برسالة موسى وهارون بالجمع بينهما " فمن ربّكما ؟" لأنَّ البلا غ المكلفان به بلاغ واحد إلى رجل واحد من رب واحد، لهدف واحد، وعند تمام هذا المعنى تحول الخطاب عن المثنى إلى المفرد " يا موسى " لعدة دلالات بلاغية سيطرت عليه الصّياغة التّركيبية لبنية الاستفهام وهي، أوّلا : ليخص الخطاب موسى عليه السلام بأصل النبوة،فهو المصدر،وهارون تابع له . ثانيا : ليثبت التَّحول الخطابيّ دلالة الإحساس بالالتقاء والتّوحد ما بين موسى وهارون، وعدم التّفاوت بينهما، وهذا خط معنوي يحرص القرآن الكريم على تعميقه في آيات كثيرة . ثالثا : أنَّ صلة القرابة بين الاثنين " الأخوة "، وصلة الممارسة السّياسية معا قد تقضي إلى النّظر إليها بوصفهما واحدا على مستوى الفاعل الدّلالي " موسى "، وجعل منهما كذلك كيانا واحدا تتجاوب أعضاؤه في توصيل الخطاب، وتأكيد محموله بموسى عليه السلام صاحب الرسالة، والمأمور بها،وزيادة على ذلك تذكر فوز سهيل سببا آخر يتعلق بنفسية فرعون فتقول : " التّحول الخطابيّ في البناء لملاحقة موسى، ولومه، والإنكار عليه، وتوبيخه، من أجل تنبيهه لطبيعة العلاقة التي تربطه بفرعون، فقد تربى موسى في قصر فرعون ، الّذي أولاه عناية، واهتماما يستوجبان من موسى الولاء لفرعون، وتأليهه، وعدم الوقوف ضده، أو تحديه ... ولهذا تحول الخطاب من المثنى إلى خطاب المفرد "[3]، ونرى أنّ المستوى السّطحي يتوافق مع العمق الدّلالي للبناء الاستفهامي ليؤكد حقيقة نبوة موسى وهارون، ومعاندة فرعون وأتباعه لهما، وتحدّيه بكل وسائل العصر المتاحة له .

---

[1] ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج2/ 207 ــ 208 .

[2] ــ سورة طه الآية : 47 .

[3] ــ فوز سهيل : لغة الحوار في القرآن الكريم، ص : 382 ــ 383 .

3. 4: أسلوبيّة التَّقديم والتَّأخير[1] في البنية الاستفهاميّة:

التّقديم والتأخير سمة بارزة في أسلوب القرآن الكريم، ويمكن أنْ نطلق عليه قواعد إعادة التَّرتيب في التّركيب اللّغوي (Rearrangement rules)، وهي من الخصائص الكليّة المهمة في اللغات الإنسانيّة [2] بعامة والقرآن الكريم بخاصة، حيث إنَّ لكل لغة نظاما معتادا في تركيب عناصر الجملة، ولكن هذا النِّظام ليس مطردا دائما، ففي أحوال كثيرة يتم العدول عنه، والخروج على قواعده بتحريك عنصر معين تقديما، أو تأخيرا بناء على أهميَّته في تشكيل الجملة، ولكي نحكم على لغة من اللّغات بالمرونة، أو التَّصلب، لا بدَّ أن ننظر إلى طبيعة قواعد ترتيب العناصر فيها، وإلى مدى مخالفة هذه القواعد " فمما يميز فصائل اللغات بعضها عن بعض نظام ترتيب العناصر من ناحية، وألوان تغيير التَّرتيب من ناحية أخرى "[3].

---

(1) – يعدّ مبحث التقديم والتأخير من أوسع أبواب البلاغة، وقد حظي بعناية النحاة والبلاغيين والمفسرين وعلماء الأسلوب قديما وحديثا، ونجد أن سيبويه أول من لفت أنظار الدارسين إلى معنى التقديم والتأخير، وقيمته البلاغية عند التكلم فظهر حديثه هذا في باب المفعول والفاعل. ينظر: الكتاب: ج1/34. وذكره الأخفش، والفراء في معاني القرآن والمبرد في المقتضب، وابن جني في الخصائص، فذكر ما يجوز تقديمه وما لا يجوز، وما يقبله القياس، وهو بذلك يسير معنى المنهج البلاغي في أثر التقديم على المعنى، وتحدث عنه الجرجاني في دلائل الإعجاز وفصل القول فيه وبين مواطنه في الاستفهام والنفي والإثبات...، وذكره الزمخشري في مواطن متفرقة في تفسيره الكشاف وحكم على وجوده من أجل دلالة الاختصاص، وناقشه السكاكي: مبينا قيمته من خلال هدف المتكلم وحالته النفسية، ومدى جمال هذا التركيب لدى المستمع، فعارض الزمخشري في دلالة الاختصاص مرجحا دلالة العناية والاهتمام، وفصل الحديث فيه كذلك ابن الأثير وأضاف إلى السابقين بعض الجوانب البلاغية مثل تقديم الكثرة على القلة، وبين العلاقة بين السبب والمسبب. واستوعب أبو حيان ما قاله القدماء عن التقديم وحلل وجوهه في البحر المحيط مبينا أن التقديم والتأخير في القرآن للأهمية.....وهناك الزركشي، والسيوطي.....

أما المحدثين فلم يغيب عنهم التقديم والتأخير وأثره في المعنى، فتناوله بالبحث والدراسة منطلقين بالدراسة من عند ما انتهى إليه القدماء، كما فعل محمود السيد في كتابه أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم، وحميد أحمد العامري في كتابه التقديم والتأخير في القرآن الكريم، وهناك من رفض أن يكون للتقديم والتأخير أثر في المعنى كما هو الحال في دراسة إبراهيم أنيس في كتابه أسرار اللغة، فحمل على سيبويه والجرجاني رافضا أن يكون للتقديم أثر في المعنى، وبين أن التقديم والتأخير في القرآن مراعاة للفاصلة دون المعنى. ومن الدارسين المحدثين من تعرض له من الوجهة النفسية كما فعل محمد ناجي في كتابه الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ومنهم من حاول دراسته ضمن المدرسة التحويلية كما فعل خليل عمايره في كتابه: في نحو اللغة وتراكيبها. ينظر: فوز سهيل: لغة الحوار: ص:235.

(2) – ينظر: الراجحي، عبده: **النحو العربي والدرس الحديث**، الإسكندرية، دار المعارف الجامعية، ط1، 1988 ص:154.

(3) – الطرابلسي، محمد الهادي: **خصائص الأسلوب في الشوقيات**، منشورات الجامعة التونسية، تونس، الطبعة الأولى، 1981. ص: 283.

وإذا نظرنا إلى عناصر الجملة في العربيّة، وجدناها كلها معرضة لـ تغيير أماكنها بالتّقديم والتّأخير، يشترك في ذلك المسند إليه " المبتدأ، والفاعل "، والمسند " الخبر، والفعل"، ومتعلقات الفعل، تتقدم على الفعل، وتتقدم بعض المتعلقات على بعض ". وقد وضع النُّحاة أصلا مثاليا لترتيب العناصر في الجملة العربية تسيطر عليه الحركة الأفقيّة المنتظمة، وهو ما يمثل البنية العميقة لتركيب الجملة، ويعكس التّرتيب الأمثل لعناصرها :

الجملة الاسمية : المسند إليه + المسند ....

↓ ↓

المبتدأ + الخبر

الجملة الفعلية : المسند + المسند إليه + متعلقات المسند

↓ ↓ ↓

الفعل + الفاعل + متعلقات الفعل

وتغيير التَّرتيب " بالتَّقديم والتّأخير " في البنية الاستفهاميّة والتّركيب والقرائن يمثل عدولا عن هذا الأصل المثالي، واختراقا للحركة الأفقيّة المنتظمة المسيطرة على البنية العميقة في البناء، تبعا لعنصر القصد عند المنشئ، حيث تتوافق البنية السَّطحية المخالفة مع اتجاه الحركة الذِّهنية عند المنشئ " فالتّقديم والتَّأخير يرجع إلى فنية المنشئ، وهذه الفنِّية المتشابكة مع حسِّه الشّعوري واللاشعوري، هي الّتي تتدخل في التَّركيب اللّغوي للعبارة"[1]، وكان سيبويه قد ذكر سببا عاما لتقديم أحد عناصر الجملة، وهو الاهتمام والعناية، فقال عند ذكر الفاعل والمفعول : "كأنَّهم إنَّما يقدمون الّذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعني، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم"[2].

ونبه عبد القاهر الجرجانيّ إلى أنَّ هذا السّبب عام مجمل، وأخذ على النُّحاة متابعتهم لقول سيبويه دون تفصيل، أو تمحيص، فقال : " وقد وقع في ظنون النَّاس أنَّه يكفي أن يقال: إنّه قدم للعناية؛ ولأنَّ ذكره أهم من غير أن يذكر، من أين كانت تلك العناية؟ وبمَ كان أهم؟، ولتخيلهم ذلك، قد صغر أمر " التَّقديم والتأخير " في نفوسهم، وهوَّنوا الخطب فيه، حتى إنَّك لترى أكثرهم يرى تتبعه، والنَّظر فيه ضربا من التَّكلف، ولم تر ظنا أزرى

---

[1] ــ رجاء عيد : في البلاغة العربية، مؤسسة كليوباترا، القاهرة، ط1، 1983 ص : 49.

[2] ــ سيبويه : الكتاب : ج2/250.

على صاحبه من هذا وشبهه "[1] وعندما تتبع البلاغيون سياقات التَّقديم تــراوح رصــدهم لمسوغات بين الجبر ــ أي أنَّ التَّقديم هو الأصل المثالي، ولا مقتضى للعــدول عنــه ــ والاختيار ــ أي قصد المبدع واحتياجات المتلقي . فهم يقولون عن أسباب تقديم المسند إليه لكون ذكره أهم، إمّا لأنّه الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه، وإمّا ليتمكن الخبر في ذهــن السَّامع؛ لأنَّ في المبتدأ تشويقا إليه، وإمَّا لتعجيل المسرَّة، أو لتعجيل المساءة، وإمَّا لإيهــام أنَّه لا يزول عن الخاطر، أو أنَّه يستلذ، فهو إلى الذِّكر أقرب، أو لإظهــار تعظيمــه، أو تحقيره...[2]، وذكر السيوطيّ أنّ شمس الدّين بن الصائغ ألف كتابا بعنوان " المقدمة فــي سرِّ الألفاظ المتقدمة " بحث فيه أسرار التّقديم في القرآن الكريم وأسبابه، وذكر منها عشرة أنواع: التّبرك، والتّعظيم، والتّشريف، والمناسبة، والسّبق، والسّببية، والكثرة، والتّرقي من الأدنى إلى الأعلى، والتّدلي من الأعلى إلى الأدنى..."[3].

وبالنّظر إلى أسباب ا لتّقديم والتأخير التي ذكرها النّحاة، والمفسّرون، والبلاغيّون نجد أنّها تتركز على اعتبارات يعود بعضها إلى المبدع، وحركته الذِّهنية ــ كالإيهام بحضوره في الخاطر، والاستلذاذ به، وإظهار التألم ــ، ويعود بعضها إلــى المتلقــي، واحتياجاتــه الدلالية ــ كالتَّشويق، وتعجيل المسرّة، وتعجيل المساءة، والتّنبيه من أوّل الأمر علــى أنَّ المسند خبر لا نعت، ولأنَّ في الخبر إخلالا بالمعنى المراد توصيله إلــى المتلقــي، وردِّ الخطأ في تعيين من وقع عليه الفعل، ويخلص بعضها الثّالث للصّياغة ذاتها على معنى أنّه من طبيعتها المثاليّة ــ إذا كان الأصل التّقديم، ولا مقتضى للعدول عنه[4].

وهذا القسم يدرس البنى الّتي تخالف مقتضى الظّاهر في البنية الاستفهاميّة، لذا سوف يركز الباحث على حالات التَّقديم، والتّأخير التي تعدل فيها الصِّياغة السَّطحيّة عن مقتضى البِنية العميقة، وعن مقتضى الحركة الأفقيِّة المنتظمة الّتي تحكمها من ناحيــة، وتخــالف المعاني العقلية الموجبة لتقديم عنصر من عناصر التَّركيب من ناحية أخرى، وفــي هــذا المجال وضح (الزَّجاجيّ) كما بين السّيوطيّ أنَّ التّقــديم والتّــأخير يعــود إلــى أســباب طبيعيّة، أو عقليّة مقبولة، أو أسباب طارئة قد توجب التّقـديم، فقال: " للأشياء مراتب فــي

---

(1) ــ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر: ص: 108.

(2) ــ ينظر: السكاكي: مفتاح العلوم: ص: 109 ــ 110. وينظر: القزويني: الإيضاح: ج1/ 192 ــ 193. والجرجاني: دلائل الإعجاز: ص: 124 ــ 125.

(3) ــ السيوطي: الإتقان: ج3/ 35 ــ 41.

(4) ــ ينظر: محمد عبد المطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى: ص: 238، 253.

التّقديم والتّأخير إمّا بالتّفصيل، أو بالاستحقاق، أو بالطبع، أو على حسب ما يوجبه المعقول"[1]. وذكر العلويّ أنّ المعاني لها في التّقديم أحوال خمسة: تقديم العلة على معلولها / التّقديم بالذّات / التّقديم بالشّرف / التّقديم بالمكان / التّقديم بالزّمان[2]. وتستند هذه المعاني إلى مرجعية ثابتة في عقل المتلقي، هي معرفته التّراكمية بالعالم، وبأنساق التّرتيب الّتي تحكمه، ويمثل التّرتيب العادي للوقائع في الخطاب مظهرا من مظاهر التّرابط والانسجام، " على أنَّ مبدأ التّرتيب ليس صارما إلى درجة استحالة تغيير التّرتيب في متتالية ما، بل يحتمل أن يحدث التّغيير، ولكنّه مصحوبا بنتائج تجعل التّأويل مختلفا من زاوية تداولية"[3].

وبداية يمكن استبعاد الأسباب الّتي تعود إلى الحفاظ على الأصل المثالي للصّياغة من الدّائرة الجماليّة؛ لأنّها لا تترك للمبدع حرية الاختيار الإبداعي، وتحقيق الحسن والمزية، ولا توفر للمتلقي إمكانية التّفاعل التّأويليّ مع الصّياغة. وتتضح أهمية التّقديم والتّأخير في البناء الاستفهاميّ من حيث أن كلَّ تقديم وتأخير فيه حكمة بالغة، وفطنة أسلوبيّة جاذبة، فكأنَّ المعنى يقتضي ما تقدم، أو تأخر اقتضاء طبيعيا للتأثير على المخاطب، ويتضمن أسلوب التّقديم والتّأخير في البنية أبعادا نفسيّة، ونكتا ولطائف بلاغيّة تنبع من طبيعة التّجربة الشّعورية المحيطة بالسّائل والمجيب، والمعنى المراد نقله، والانفعال المراد إحداثه في نفس المتلقي، وهذا يعني أنَّ ترتيب الكلمات في البنية الاستفهاميّة لا يرد اعتباطا بل يعكس ترتيب المعاني في النّفس، وتأثيره في المخاطب المباشر، وغير المباشر. ولهذا سيقسم هذا القسم إلى محاور مختلفة تنسجم مع المطلب العام للتقديم والتأخير في البنية الاستفهامية.

3. 4. 1: المحور الأول: مخالفة التّرتيب المكانيّ للتراكيب في البنية الاستفهاميّة:

في هذا المحور من التّقديم والتّأخير في البنية الاستفهاميّة تخالف الصّياغة مقتضى الظّاهر التي شكلته دوالها الأولى في عقل المتلقي، فتؤسس الصّياغة ــ في البداية ــ مواقع ثابتة لعناصر الجملة، تسير الحركة الذّهنية للمتلقي وفقا لترتيبها، ويتشكّل

[1] ــ السيوطي: **الأشباه والنظائر في النحو**، تحقيق، طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1975 ،ج1/ 169 ــ 173.

[2] ــ ينظر: العلوي: الطراز: ج1/ 56 ــ 58.

[3] ــ خطابي، محمد: **لسانيات النص**، المركز الثقافي العربي، بيروت، والدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1991 ص:38.

تبعا لذلك أفق معين لتوقعات التّرتيب في الجملة المقبلة، ولكن الصّياغة تخترق أفق التّوقعات الّذي تشكَّل تبعا للترتيب السَّابق للعناصر، وتنتج ترتيبا مكانيا مغايرا لعناصر الجملة السّابقة، يلفت من خلاله انتباه المتلقي، ويستوقفه للنظر في دواعي تغير التّرتيب المكانيّ للتّراكيب في البنية الاستفهاميّة، ويتشكل هذا المحور من نمطين بارزين : الأوّل مخالفة التّرتيب المكانيّ في الجملة الفعليّة، والثاني : مخالفة التّرتيب المكانيّ في الجملة الاسميّة .

أ : مخالفة التّرتيب المكانيّ للدوال في الجملة الفعليّة داخل السّياق الاستفهاميّ :

أ ــ **تقديم الفاعل وتأخير الفعل** : ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾[1] .

البنية السطحية ← أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أن نَّتْرُكَ

↓ ↓ ↓

فاعل مقدم فعل ومفعول به مصدر مؤول

البنية العميقة حسب مقتضى الظاهر : أتأمرك صلاتك أن تترك ....

السياق الاستفهامي في الآية أخّر الفعل، وقدّم الفاعل في ترتيب الجملة لإثبات السّخرية من دعوة شعيب، وتسليط الإنكار على ذلك المتقدم، ومواجهة شعيب بهذه الدّلالات، وصفعه بها، كما أثبت الزّمخشريّ فيقول : " جعلوا الصلاة آمرة على سبيل التَّهكم بصلاته ودعوته ..."[2]، فالزّمخشريّ بقوله السّابق يخّرج المعنى الدّلالي للاستفهام في بنيته العميقة إلى الإنكار والسّخرية، أمّا أبو السّعود والألوسيّ فإنّهما يبينان أن تقديم الفاعل في البنية الاستفهاميّة على الفعل، وتسليط الإنكار عليه من أحكام الوسوسة والجنون[3] وجمع البيضاوي بين كلام الأئمة مع الاختصار [4]، ويرى المطعني أن تقديم الفاعل " أصلاتك " على الفعل في سياق الآية يراد به استحضار صورة المستفهم عنه في الذهن ليجري الحديث عنه وهو حاضر كي يتمكن المعنى المراد في النفس كلَّ التمكن، ولذا أنهى السياق الحديث بقولهم : " إنك لأنت الحليم الرشيد " ملاحقين شعيب بصفاته

---

[1] ــ سورة هود الآية : 87.

[2] ــ الزمخشري : الكشاف : ج2/ 403 .

[3] ــ ينظر : تفسير أبي السعود : ج4/ 232 . والألوسي : روح المعاني : ج12/ 117 .

[4] ــ ينظر : تفسير البيضاوي : 303 . [5] ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام : ج2/ 119 .

الإيجابية التي تستلزم منه ترك صلاته كما يفهم من السياق الأسلوبي للتركيب والمتمثل بالضمير المتصل في لفظ " إنك " ولام التوكيد والضمير المنفصل في لفظ " لأنتَ "[5].

ومنه ما يأتي فيكون المتكلم فيه عالما بالمسؤول عنه،ولكنّه يريد من المخاطب أن يعترف ويقر بذلك لغرض ما كالتّشهير به أو رفع شأنه، وفي هذا يرى علماء البلاغة أن المقرر به يجب أن يلي همزة الاستفهام، ولا يتحققلك إلا بتقديم الفاعل على الفعل [1]، ومنه قوله تعالى :﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[2] فالسِّياق في بنيته العميقة يدخل ضمن التَّقرير بالفاعل، ولم يكن سؤالهم عن الفعل؛ لأنَّ الفعل وقع بالنّسبة لهم، فهم يريدون منه أن يقرَّ لهم أنَّ الفعل كان منه لا من غيره، فالمقرر به كما يرى البلاغيون ولي الهمزة متمثلا بضمير المخاطب، فيصرح الجرجانيّ بذلك ويقول : " لا شبهة في أنَّهم لم يقولوا ذلك له، وهم يريدون أنْ يقرَّ لهم بأنَّ كسر الأصنام قد كان، ولكن يقرَّ بأنَّه منه وكيف كان ..."[3]، ومما يؤكد أنَّ التَّقرير بالفاعل جواب المخاطب عليه السَّلام " بل فعله كبيرهم "، فأجابهم ببيان الفاعل؛ لأنَّه يعرف غرض سؤالهم، فيقول الزَّمخشريّ في سياق هذا المعنى: " إن قصد إبراهيم عليه السَّلام لم يكن إلاّ أن ينسب الفعل الصّادر عنه إلى الصنم، وإنّما قصد تقريره لنفسه، وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ..."[4]، والّذي يظهر من أسلوب التّركيب في البنية الصّياغية رغم سكوت كثير من الأئمة،والمفسرين عن تفصيله كما قال المطعني أنّه استفهام تقرير بالفاعل سواء كان حقيقيا،أو مجازيا ولذلك استدعى التَّقديم على الفعل في السّياق الاستفهامي[5].

ومن نفس الدّلالة الأسلوبيّة قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾[6].الدّلالة الأسلوبيّة للتركيب تخالف مقتضى الظّاهر بتقديم الفاعل " أنتم " وتأخير الفعل " أضللتم "، لأنَّ بؤرة الاستفهام

---

[1] ــ ينظر : الجرجاني : دلائل الإعجاز :ص : 113 . والقزويني : الإيضاح : ج1 /142 ــ 145 . والتفتازاني، مسعود بن عمر (ت791هـ)، **المطول على التلخيص**، مطبعة أحمد كامل، استنبول، ص : 236 .

[2] ــ سورة الأنبياء الآية : 62 .

[3] ــ الجرجاني : دلائل الإعجاز :ص : 113 .

[4] ــ الزمخشري : الكشاف : ج3/ 121 .

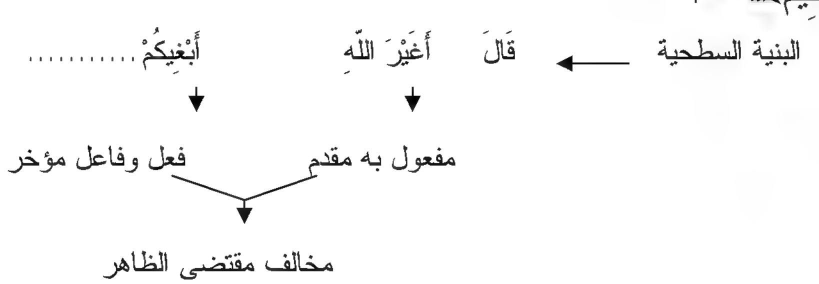
[5] ــ المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج2/ 379 ــ 381. وينظر : الألوسي: روح المعاني: ج17/ 64، والتوحيدي : البحر المحيط: ج6/ 324 .

[6] ــ سورة الفرقان الآية : 17 .

تتمركز حول الفاعل، ولهذا اقتضى التّقديم لتـوبيخ الفاعـل كمـا يفهـم مـن حـديث الزّمخشري في "فائدته أن يجيبوا بما أجابوا به تبكيتا لهم ..."[7]، وفي هذا النّمط من التّقديم للفاعل على الفعل داخل البنية الاستفهاميّة في سياق السّور المكيّة نلحظ اتـصال همـزة الاستفهام بالاسم مباشرة، أو في الضّمير المنفصل، ليكون محط الاستفهام على مخصوص يحدده السّياق ولهذا اقتضى التّقديم للفاعل، وتأخير الفعل ...

ب ــ تقديم المفعول به في البنية الاستفهاميّة:

والمفعول به يأتي بعد إتمام الإسناد، فلأصل فيه أن يتأخر عن الفعل والفاعل، ولكنّـه في السّياق النّصيّ قد يتقدم على الفاعل، وعلى الفعل والفاعل معا، وفي البنية الاستفهاميّة نجد أن المفعول به يتقدم على الفعل والفاعل معا، وخاصة في بنية الاستفهام الإنكـاريّ ليتوجه الإنكار إليه بشكل مباشر ومعه الفعل، ومنه قول موسى لأتباعه وقد طلبوا منه أن يجعل لهم أصناما يعبدونها، فيقول تعالى: ﴿ إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَـانُواْ يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَـضَّلَكُمْ عَلَـى الْعَـالَمِينَ وَإِذْ أَنجَيْنَـاكُم مِّـنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[1].



البنية العميقة موافقة لمقتضى الظاهر: تبغون غير الله إلاها .....فعل + فاعل + مفعول به + قرائن البناء.....

السّياق النّصيّ في الآية يتجه في بنيته العميقة كما بين الزّمخشريّ " للإنكار والتّعجب كونهم مغمورين في نعم الله ..."[2]، فتطلب مع دلالة الإنكار مخالفة مقتضى الظّاهر في البنية السّطحيّة بتقديم المفعول به " غير " على الفعل والفاعل " أبغيكم" لبيان محط الإنكـار وتخصيصه، فيقول ابن عاشور: " تقديم المفعول به الثّاني "غير " على معموله للاختصاص والمبالغة في الإنكار ..."[3]، ويبين المطعنيّ أن ما يقوله ابن عاشور في تقديم لفظ " غير "

---

[7] ــ الزمخشري: الكشاف: ج3/261. وينظر: تفسير أبي السعود: ج4/ 127.

[1] ــ سورة الأعراف الآيات: 139 ــ 141.

[2] ــ الزمخشري: الكشاف: ج2/ 145. وينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج8 / 267.

[3] ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج8 / 267.

للاختصاص غير لائق؛ لأنّه يترتب على موسى عليه السّلام أن ينكر عليهم أفرادا غير الله بالعبادة،إمّا أن يشركوا ذلك مع الله في العبادة،وهذا غير منكر عنده، وهذا لا يليق.[4].

ومنه ما يوجه فيه السِّياق النَّصيّ سؤالا مزدوج الدّلالة ظاهره التّقرير، وبا طنه الإنكار إلى متلق وسيط ليس مقصودا بالإنكار، وإنّما هو وسيلة لنقل الإنكار وما ارتبط به من دلالات إلى الّذي حقَّ عليهم القول ليؤدي من خلاله دور المتلقي المهمش المقصود من سؤال المستفهم، وهذا الأسلوب لا يتأتى إلاّ بتقديم المفعول به على معموله ليجعل التّقريع أشد، والتّعبير أبلغ، والخجل أعظم، فيقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[1].

البنية السطحية ← إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ترتيب مكاني مخالف مقتضى الظاهر.

↓ مفعول به مقدم ↓ جملة اسمية ↓ جملة فعلية

البنية العميقة توافق مقتضى الظاهر ← كانوا يعبدونكم.......

السّياق النّصيّ للبنية الاستفهاميّة يقدم المفعول به " إياكم " على معموله " تعبدون" ليحقق بذلك غايتين أسلوبيتين: الأولى تتجه إلى تخصيص المخاطب بفعل العبادة الشركيّة، ليقوم بعدها المتلقي بإنكار هذه النّسبة، وتنزيه ذاته منها، وإظهار حرصه على نفي مضمون السُّؤال بقولهم"سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ..."، والثَّانية: يظهر التّقديم المكانيّ للمفعول به أسلوبيّة جديدة تتمثل في إظهار الحقائق، والإخبار عنها بلسان المفترى عليهم ليدافعوا عن أنفسهم، ويقيموا الحجة على المُفتري الحقيقي " المتلقي المهمش "، دلنا على ذلك إجابتهم المتصدِّرة بقولهم " سبحانك " لتوحي بتنزيه الله أنْ يكون له شريك، والإجابة وجهت أيضا بتنغيم نلمس منه الاستهجان والإنكار.

ومنه قول قوم ثمود منكرين اتباع صالح عليه السلام؛ لأنَّه بَشر مثلهم، فيقول تعالى في تصوير حالهم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۝ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾[2] المتكلم في السّياق النّصيّ

---

[4] ـ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج2/404 ـ 401.

[1] ـ سورة سبأ الآية: 40 ـ 41.

[2] ـ سورة القمر الآيات: 23 ـ 25.

للاستفهام قَدَّم المفعول به " أَبشرًا" على معموله؛ لأنَّه محطُّ الإنكار كما يجمع الأئمــة [3]، وحتى تكتمل دلالة الإنكار تبع تقديم المفعول به تقديم بعض القرائن النَّــصيِّة المــصاحبة كتقديم لفظ " منا " ولفظ " واحدا" للإشعار بأن البَشريَّة المماثلة لـ بشريتهم سبب كاف فـــي إنكار الرِّسالة وصاحبها، ونجد من حديث المفسرين أنَّ التَّرتيب المكــانيّ للمفعــول بـــه حقق للسياق الاستفهاميّ فـــي بنيتـــه العميقـــة جـــانبين : الأوّل تحقيـــر المـــدلول عليـــه بالتّنكير، والثّاني : أن الإنكار المسلط على بنية المفعول به " أبشرا " لا يقــصد بـــه نفـــي مجرد الاتباع، وإنّما المقصود أن يكون المتبع بشرا لذلك استلزم التّقديم[1]، ونرى كذلك أن المقصود بالإنكار حاضر في ذهن المتكلم ماثل في فكره، وعقلـــه، ولا يـــشغله إلا أمـــر صاحب الرّسالة، ولهذا قُدم المفعول به على معموله للأهمية المعنويّة، والسّياقية.

وقد تتقدم بعض المفاعيل كتقدم المفعول به الثَّاني على الأوّل، أو على الفعل والفاعل والمفعول الأوّل وفقا للمعنى الَّذي في نفس المتكلم، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿قَـــالَ فَمَـــن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾[2]. فإجابة المخاطب على سؤال المتكلم تتطلب تقديم المفعول به الثَّاني " كل شي .." على المفعول الأوّل، والفعل معا " خلقه " إقرارا من المتكلم بنعم الله على عباده ومكايدة لفرعون[3].

ج ـــ تقديم المفعول لأجله على معموله في البنية الاستفهاميّة :

وفي هذا الـ نّمط تكون علة حدوث الفعل مثـــار إنكـــار المـــتكلم، فيـــستوجب علـــى الصِّياغة اللَّفظية تقديم المفعول لأجله في البنية الاستفهاميّة لمواجهة المخاطب به لعل هذه المواجهة تدفعه إلى إنكار تصرفاته، وتغيرها كما هو الحال في قول إبراهيم مـــن ســـورة الصافات : ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَـــا ظَـــنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4].

البنية السطحية مخالفة لمقتضى الظاهر : ← أَئفكًا — آلِهَةً دُونَ اللَّهِ — تُرِيدُونَ

أَئفكًا ↓ مفعول لأجله مقدم

تُرِيدُونَ ↓ فعل مؤخر

---

[3] ـــ ينظر : الزمخشري : الكشاف : ج4/ 426. وتفسير أبي السعود :ج8/ 171. والألوسي : روح المعاني : ج27/ 88.

[1] ـــ ينظر : المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام : ج4/ 200. وينظـــر : فوز سهيل : لغة الحوار في القرآن الكريم :ص :257.

[2] ـــ سورة طه الآيات : 49 ـــ 50.

[3] ـــ ينظر : فوز سهيل : لغة الحوار في القرآن الكريم : ص : 257.

[4] ـــ سورة الصافات الآيات : 85 ـــ 87.

نجد في البنية السَّطحيّة للبناء الاستفهاميّ، والتّركيبيّ للآيات أن مشاعر الغضب تتملك المتكلم كما هو واضح من أسلوبية التّنغيم، فتطلب سياقيا، وتركيبيا مع هذه المشاعر أن يقدم علة أفعالهم " أَئِفْكًا " على معموله " تريدون " لكونه سبب إنكاره، فيصدمهم المتكلم من خلاله بغاية يعاندها ويرفضها، ولذلك اختار السِّياق المصدر " إفكا " دون غيره للمبالغة في وصف عبادتهم بالقبح حتى صارت هي الإفك نفسه، فتطلب سياقيا مع المصدر تنكير المفعول به المقدم على العامل " آلهة " لانعدام وجود آلهة في الكون مع الله عز وجل[1]. وبهذا الأسلوب من التقديم والتأخير يدخل المتكلم المخاطب في مواجهة مع نفسه لمحاصرته وإقناعه بالحجة والبرهان، فتقديم المصدر والمفعول به في السّياق جعل من الاستفهام طاقة فاعلة في إبداع الدّلالات ليبلغ التَّأثير، والإقناع مبلغهما في نفس المخاطب، كما ويؤكد مخالفة التّرتيب المكانيّ للدوال، والألفاظ في البنية الاستفهاميّة على التّجدد الدّائم لدلالاته الإيحائيّة، والمعنوية في سياقاته المختلفة.

د ــ تقديم الجار والمجرور في البنية الاستفهاميّة:

يشكل أسلوب تقديم الجار والمجرور، في سياق البنية الاستفهاميّة، داخل نسق الجملة الفعلية وقرائنها أسلوبا بارزا يعمق دلالة الاختصاص، والتَّفصيل، والتّوضيح، وإزالة الإبهام، فهو قيد مخصص، أو محدد يبين الحدث . ومما يلفت النظر في هذا الأسلوب الكثرة العددية له مع سياق البنية الاستفهاميّة لما فيها من سهولة وليونة بالتَّنقل بين عناصر الجملة، وتتشكل بنية ترتيب الجار والمجرور في سياق الاستفهام من أشكال وأنماط مختلفة نرصد منها شكلين بارزين:

1 ــ تقديم شبه الجملة على الفعل، والفاعل في السِّياق الاستفهاميّ:

وعند تتبع هذا النَّمط الأسلوبيّ داخل البنية الاستفهاميّة في السّور المكيّة، نجده يتشكل في كلام الرّسل وأتباعهم من جانب، ومن جانب آخر يأتي الاسم المجرور المقدم على عامله في أغلبه مقتصرا على لفظ خاص ظاهرا، أو مضمرا ليجعله السّياق موضع الاهتمام، والعناية، وذلك لمواجهة المخاطبين به على اختلاف اتّجاهاتهم، ونظراتهم لصاحب الرّسالة، ومن ذلك تقديم شبه الجملة على الفعل، والفاعل

(1) ــ ينظر: فوز سهيل: لغة الحوار في القرآن الكريم، ص: 258. وينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام :ج3/ 376.

في قول سليمان عليه السلام في نقاشه مع رسل ملكة سبأ، وقد جاؤوه بهديتها، فيقول تعالى في وصف ذلك : ﴿فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[2] .

نجد في البنية السّطحية للبناء الاستفهاميّ أن السّياق قدم شبه الجملة الجار والمجرور "بهديتكم "على الفعل والفاعل " تفرحون " لتخصيص الفعل وربطه بالسِّياق الاستفهاميّ المتقدم في التَّشكيل اللفظي استهزاء وتحقيرا، وللأئمة في بيان ذلك آراء ومذاهب ــ قد نتفق معها حينا،ونختلف حينا آخر تبين الدِّلالة في المستوى السّطحي، والعميق للبناء التركيبي، فالزّمخشريّ يقول : " لما أنكروا عليهم الإمداد، وعلّل إنكاره أضرب عن ذلك إلى بيان السّبب الّذي حملهم عليه، وهو أنّهم لا يعرفون سببا للرضا ولا للفرح، إلا أن يُهدى إليهم حظ من الدّنيا الّتي لا يعلمون غيرها في واقعهم ..."[1]، وتابع الزّمخشريّ في رأيه البيضاويّ دون زيادة تذكر على رأي الزّمخشريّ[2]، إلا أنَّ الألوسيّ حمل البنية الاستفهاميّة بقرائنها الأسلوبيّة الداخلة في نسيجها على الإنكار والاستبعاد[3]، وزاد أبو حيان على الّذي أورده المفسّرون الّذين سبقوه بقوله: "الاستفهام إنكار واستقلال .."[4]أمّا الطّاهر بن عاشور فيقول : " الاستفهام إنكاري لأنَّ حال إرسال الهدية والسُكوت عن الجواب يقتضي محاولة صرف سليمان عن طلب ما طلبه بما بذل له من مال، فيحسبون أنَّه محتاج إلى ذلك المال ..."[5]، فالأئمة مجمعون على دلالة الإ نكار، وهذا واقع في السياق نتفق معه ساعد في تكوينها التّحوير المكانيّ للألفاظ، وخاصة تقديم شبه الجملة " بهديتكم " في نهاية السّياق الاستفهاميّ على العامل، أمّا ما قاله أبو حيان فلا مقام له حتى وإن كان المراد منه تحقير الهدية، لأنَّ هذا القول يوهم أن سليمان كان سيرضى لو كانت الهدية فوق ما رأى، فالتّقديم الأسلوبيّ لشبه الجملة في السّياق الاستفهاميّ جعل دلالة الإنكار مسلطة على الهدية ليتصل التّركيب بما قبله

---

(2) ــ سورة النمل الآية: 36.

(1) ــ الزمخشري: الكشاف، ج3/ 353 ــ 354.

(2) ــ تفسير البيضاوي: ص:503.

(3) ــ الألوسي: روح المعاني: ج19/ 200.

(4) ــ أبو حيان: البحر المحيط:ج7/ 74.

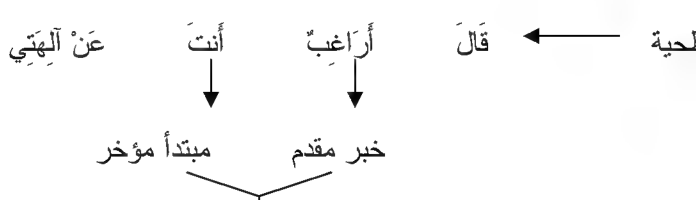
(5) ــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام:ج3/143 ــ 144. وابن عاشور: التحرير والتنوير: ج19/ 262. وينظر: فوز سهيل: لغة الحوار في القرآن الكريم،ص: 260.

2 ــ توسط شبه الجملة بين المفاعيل في السّياق الاستفهاميّ:

وهذا النَّمط يكثر وروده مع أفعال الرؤيا في السِّياق الاستفهاميّ في السُّور المكيّة، أو مع أفعال الطَّلب ليفيد الحصر، والتّخصيص، والتّأكيد في العمق الدّلالي للبناء الاستفهاميّ ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾[1]. نجد في السّياق النّصي، والتركيبي للألفاظ أن تقديم شبه الجملة " منه " فصل ما بين المفعول به الأول " ياء المتكلم " في لفظ " آتاني "، والمفعول الثّاني " رحمة " لأهمية المتقدم، فالمتكلم خالف مقتضى الظّاهر في ترتيب الألفاظ؛ لأنّه يريد أن يبين للمخاطب أنَّ منبع هذه الرَّحمة الله عزَّ وجل آتاه الله دون غيره [2]، ونرى أنَّ التَّقديم لشبه الجملة في السِّياق النّصي يمكن أن يؤدي إلى لفت انتباه المتلقي إلى مصدر الرّحمة، فاقتضى ذلك الفصل ما بين المفعولين الأوّل والثّاني[3].

بمخالفة التَّرتيب المكانيّ للدوال في الجملة الاسميّة داخل السّياق الاستفهاميّ في السّور المكيّة:

الأصل الظّاهر في ترتيب الجملة الاسميّة أن يتقدم المبتدأ على الخبر في الجملة المجردة، أو في حال دخول الأفعال، والحروف النَّاسخة، ولكن قد يتأخر المبتدأ في السِّياق النَّصيّ عن الخبر، ويتقدم الخبر عليه لمعاني دلاليّة تهم المتكلم والمتلقي، كالتَّنبيه، والتَّعجب، والتَّعظيم، واستعجال الأمر، وغيرها من الدِّلالات ...، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[4]



[1] ــ سورة هود الآيات: 62 ــ 63.

[2] ــ ينظر: فوز سهيل: لغة الحوار في القرآن الكريم، ص: 268.

[3] ــ ينظر: سورة يونس: الآية 66. والإسراء: الآية: 51، والأنبياء: الآية: 38، والنمل: الآية 71، والقصص: الآية62، والسجدة الآية: 28، سورة سبأ: الآية: 29، يس الآية: 48، غافر الآية: 11، 73، سورة الشورى: الآية44.

[4] ــ سورة مريم: الآية: 46.

ترتيب مكاني يخالف مقتضى الظاهر

البنية العميقة توافق مقتضى الظاهر : قَالَ أَأَنتَ رَاغِبٌ عَنْ آلِهَتِي ..... وهذا يساوي :

مبتدأ + خبر + قرائن البناء ....

فسياق الجملة الاسمية في المستوى السّطحي للاستفهام يبيّن أنَّ التّركيب خرج عن مقتضى الظّاهر ما بين المبتدأ والخبر، وقد وجّه الأئمة الاستفهام في ضوء ذلك كل حسب رأيه، فيقول الزّمخشري: " قُدّم الخبر على المبتدأ في لفظ " أراغب "؛ لأنّه كان أهم عنده، وفيه ضرب من التَّعجب والإنكار لرغبته عن آلهته..."[1]، ويذكر أبو السّعود بعض جوانب قول الزّمخشريّ إلاّ أنّه يزيد عليه موجها دلالة الاستفهام بقوله : " أنت معرض ومنصرف عنها، بتوجيه الإنكار إلى نفس الرَّغبة مع ضرب من التّعجب، كأنَّ الرَّغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل فضلا عن ترغيب الآخرين عنها..."[2]، فالزَّمخشريّ، وأبو السّعود يريان أنَّ دلالة الاستفهام تتجه إلى الإنكار، والتّعجب، إلاّ أنَّ أبو السّعود يخالف الزَّمخشريّ في أسلوبيّة التَّركيب من حيث التقديم والتأخير ما بين المبتدأ والخبر، فهو على خلاف الزّمخشري لا يرى تقديما في التّركيب كون التّركيب يحتمل ذلك، لكن التّبادل المكاني ّالّذي أشار إليه الزّمخشريّ أقوى في دلالة الخبر، ونجد أن أغلب الأئمة قد سار على نهج الزّمخشريّ[3]. ونرى أن ما ذهب إليه الأئمة يتوافق مع أسلوبيّة البناء من تقديم وتأخير من ثلاثة جوانب: الأول أنّ محط إنكار الاستفهام يتمركز في لفظ " أراغب "، ولذلك قدم في السّياق على المبتدأ " أنت "، والثّاني: أنّ الرّغبة عن الآلهة كانت مثار إنكاره، لا كون إبراهيم هو الرّاغب فاستلزم التّقديم للخبر على المبتدأ، والثّالث: أنَّ الإنكار المسلط على لفظ الرَّغبة عام، وشامل لكل راغب عن آلهة أبي إبراهيم، وليس مقصورا على إبراهيم وحده[4] ولهذا قدم الخبر على المبتدأ، وأرى كذلك أنَّ تقديم الخبر على المبتدأ في سياق البنية الاستفهاميّة، قد قطع على المتلقي جانب الشَّك في جواز الرَّغبة عن آلهة إبراهيم باليقين؛ لأنَّ آلهة أبيه لا تصلح للعبادة، فاقتضى على الصِّياغة اللفظية أن تخالف ما بين المبتدأ، والخبر بالتَّبادل المكانيّ.

---

[1] ـــ الزمخشري: الكشاف،ج3/ 19.

[2] ـــ تفسير أبي السعود: ج5/ 268.

[3] ـــ ينظر: الألوسي: روح المعاني، ج16/ 98. وتفسير البيضاوي: ج2/ 33. وحاشية الشهاب :ج6/167.

[4] ـــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج2/ 275 ـــ 276. وفوز سهيل: لغة الحوار في القرآن الكريم، ص: 269.

ومنه قوله تعالى: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[5]. فالتَّبادل المكانيّ ما بين الخبر، والمبتدأ عمق في السّياق الاستفهاميّ دلالة الإنكار مع التّعجب[6]، فقدم لتحقيق هذه الدّلالة على مستوى الصِّياغة اللفظية لفظ الخبر " أسحر " على المبتدأ " هذا "هذا من جانب[1]، ومن جانب آخر يشعر المتلقي بحالة المتكلم النَّفسية، وأنَّه وصل إلى أقصى غايات الإثارة فتطلب معها تقديم السّحر مثار الإنكار، والانفعال عند المتكلم على اسم الإشارة " هذا "، ويحقق التَّقديم كذلك جمالا أسلوبيّا يقطع فيه الرَّتابة المملة في الأسلوب حتى لا يشعر المتلقي بالملل، والضَّجر.

ومنه تقديم الخبر شبه الجملة على المبتدأ الصّريح للاختصاص، وهذا التّقديم يتشكّل داخلالإجابة في السّياق الاستفهاميّ، ومنه قوله تعالى : ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[2] وقوله تعالى في آخر من السّورة نفسها : ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[3].

البنية السطحية ← هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ ← خطاب موجه لزكريا

← هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ← خطاب موجه لمريم

البناء التّركيبيّ في الآيات من سورة مريم يقدم في سياق بنية إجابة الاستفهام شبه الجملة "عليّ" على الخبر " هين " للدلالة على اختصاص هذا الأمر الخارق الذي تسلط عليه الاستفهام بالله وحده دون غيره، فهو وحده القادر على جعل العقيم، والمسن ينجبان، وهو القادر على جعل الفتاة العذراء التي لم يمسها بشر بزواج، أو زنا تنجب أيضا[4].

[5] ــ سورة الطور : الآيات : 14 ــ 16.

[6] ــ ينظر : تفسير أبي السعود :ج8/ 147. والألوسي : روح المعاني :ج27/30، وتفسير البيضاوي :ص : 694.

[1] ــ ينظر : فوز سهيل : لغة الحوار في القرآن الكريم، ص : 269.

[2] ــ سورة مريم : الآيات :7 ــ 9.

[3] ــ سورة مريم : الآيات : 19 ــ 21.

[4] ــ ينظر : فوز سهيل : لغة الحوار في القرآن الكريم،ص : 270.

والمظهر الثّاني من أشكال التّقديم في الجملة الاسميّة يتمركز في تقديم خبـر الأدوات والأفعال النّاسخة على اسمها في البنية الاستفهاميّة، وفي هذا المظهر لم أجد إلا أمثلة قليلة لم تتجاوز أصابع اليد في السّور المكيّة، وخاصة " كان وليس "، فمن الأوّلى نجـد قولـه تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُـونَ لَكُمَـا الْكِبْرِيَـاء فِـي الأَرْضِ وَمَـا نَحْـنُ لَكُمَـا بِمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[1]. نجد في الآية أنَّ السِّياق النَّصيّ من خلال قرائن الاستفهام القبليّة، والبعدية قدَّم خبر تكون " لكما " علـى اسـمها " الكبريـاء " للاختصاص، وتسليطه على موسى وهارون؛ لأنّهما صاحبا الرّسالة، فالمتكلم أراد بهـذا التّقديم مراعاة خوالج النفس، ففرعون يقلقه أمر الرسالة، وأمـر موسـى، فهـو خـائف مترقب، ولهذا قدم شبه الجملة على اسم كان، ويحقق التّقديم كذلك جلب انتبـاه المتلقـي لمخالفة المتكلم مقتضى الظّاهر في ترتيب الخطاب، وأكد الخطاب هذه المشاعر بتكـرار تقديم شبه الجملة " لكما " العائدة إلى موسى وهارون في القرائن اللاحقة.

وثمة دلالة أخرى تتشكل من تقديم الخبر على اسم الأفعـال الناسـخة تتمثـل فـي تجسيم دلالة المتكلم وإبراز صفاتها للمتلقي المباشر، والمتلقي العام، وهذا نجده في قولـه تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[2]. فدلالة تجسيم الخبر تتمركز في شبه الجملة " لي " المقدمة على الاسم " مُلك " ليقدم التّرتيب المكانيّ المخالف لمقتضى الظّاهر ملمحين من ملامح شخصية فرعون: الأوّل: رسوخ شعور الغرور والطّغيان، وعظمة الذّات، وعظم ما يملك " ملـك مصر وأنهارها "، ولهذا اقتضى تقديم شبه الجملة " لي " على الاسم، والثّـاني: يعـاكس الأول ليشكل حالة خوف لدى فرعون من ولاء أتباعه، ومدى ثباتهم في مواجهـة دعـوة موسى عليه السّلام، ولهذا قدم السّياق شبه الجملة على الاسم[3]. ونرى أنّ التّقديم يجـسّم ذات فرعون الخائفة على الملك فقدم السّياق لفظ " لي "، هذا من جانب، ومن جانب آخر يبين ثبات ملكه أمام أتباعه.

---

(1) ــ سورة يونس: الآيات 77 ــ 79.

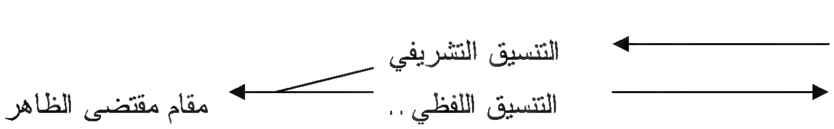
(2) ــ سورة الزخرف: الآية: 51.

(3) ــ ينظر: فوز سهيل: لغة الحوار في القرآن الكريم، ص: 272 ــ 273.

وبعد فنرى في هذا المحور الهام في البنية الاستفهامية أن الأفضل هو ترتيب التّفسير كما قال ابن الأثير [4]؛ لأنّ ا لتّرتيب الأوّل يوجه الحركة الذّهنية عند المتلقي توجيها محددا، ويكون له أفقٌ معينٌ لتوقعات التَّرتيب في العناصر التّفسيريّة اللاحقة، فتسير المعاني المجملة الأولى، والمعاني التّفسيرية الثّانية في اتجاه واحد يتركز فيه انتباه المتلقي، إلاّ أنَّ نسق التَّرتيب القرآنيّ في البنية الاستفهاميّة خالف في مواطن كثيرة مقتضى الظَّاهر في ترتيب الألفاظ سواء في المعاني التّفسيرية، أو التَّفصيلية بهدف كسر آلية التلقي الشفهي، واختراق سلبية المتلقي اتجاه النّص للفت الانتباه، وجلب المتلقي العام، والخاص إلى رحاب النّص، وجعله مشاركا في إكمال بنيته الدّلالية عن طريق إعادة الانتظام إلى البنية السّطحية من خلال تشكيل البنية العميقة التي تعدّ الأصل المثالي للتّوازي التّركيبي، والمعنويّ في السّياق.

3. 4. 2: محور التّقديم والتّأخير بمخالفة التّرتيب التّشريفي للمفردات والدلائل في البنية الاستفهاميّة وقرائنها:

وفي هذا المحور نجد في البنية الاستفهاميّة، وغيرها من البنى التّركيبية أنَّ الإنسان يكتسب من البيئة المحيطة به، ومن أنماط العلاقات الاجتماعيّة الّتي يتعايش بها مع غيره نسقا من المراتب التّشريفية التّصاعدية، أو التنازلية، تتدرج من خلال مظاهر الوجود المختلفة، والأشياء الّتي تحيط به، وتحتك به احتكاكا مباشرا، أو غير مباشر. ويؤثر النّسق التّشريفيّ الّذي يتكون في الذّهن على ترتيب التّشكيل اللّفظي للصّياغة في البنية الاستفهاميّة، سواء من ناحية الإبداع، أو من ناحية التّلقي، حيث يسير خط التّنسيق اللّفظي في اتجاه خط التنسيق التشريفي حينما تتوافق الصّياغة مع مقام مقتضى الظّاهر، ويمثّلها التّجريد التّالي:



بينما يسير خط التّنسيق اللفظي للبنية الاستفهاميّة في عكس اتجاه خط التّنسيق التّشريفيّ، حينما تهدف الصّياغة اللفظية، والتركيبية إلى تشكيل سياقها الخاص المخالف لمقتضى الظاهر لتحقيق هدف في البنية الاستفهاميّة تسعى إليه الصّياغة اللفظية، وهذا يمثله التّجريد التّالي:

---

[4] ـ ينظر: ابن الأثير: المثل السائر: ج3/ 173.

التنسيق التشريفي ←────────

التنسيق اللفظي ←────────

مخالفة مقتضى الظاهر ....

ومنه يكون التّقديم التّشريفي في البنية الاستفهاميّة لبيان مصدر الرزق، والحياة على وجه الأرض، فالتقديم يتسلط على المصدر الأساسي لـ ديمومة الحياة، ليلفت الأنظار إليه، فيقول تعالى : ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ *قُل لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

البنية السطحية تخاف مقتضى الظاهر ←──── قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.....

البنية العميقة توافق مقتضى الظاهر ... ←──── قل من يرزقكم من الأرض ....

الآيات من سورة سبأ تصرُّ في بنيتها السَّطحية على تقديم لفظ " السَّماوات " على لفظ " الأرض "، لشرف الرِّزق الّذي تتسبب به على جميع الأحياء، كالماء مثلا، فتطلب هذا التَّقديم تصدر التَّركيب النّصيّ بالفعل المضارع " يرزقكم " للدّلالة على أهمية التَّشريف للسّماوات، وتجدد الرّزق آنا فآنا، فالتّقديم التّشريفي للسّماوات على الأرض في السّياق النّصيّ خالف مقتضى الظاهر لزيادة فاعلية السّياق الدّاخلي، وتعميق الشعور بسيرورة التّشكيل اللّغوي وفق واقع صياغي خاص، بغض النّظر عن مخالفته للواقع الفعلي الخارجي، أو موافقته له، والهدف هو السعي إلى انسجام الخطاب مع السّياق الّذي ترمي الصّياغة إلى تشكيله، وهو سيطرة المشيئة الإلهية على الكون كله،وتضاؤل المشيئة الإنسانيّة أمام هيمنتها المطلقة . ونرى أن تقديم السّماوات أوّلا، والأرض ثانيا يهدف إلى هدم الواقع الفعلي المسيطر على عقلية المتلقي بتخصيص الرّزق فقط بما في الأرض وحدها، وإقامة واقع إيماني جديد يعمق تكاملية الكون، فلا ينفصل جزء عن جزء آخر إلا بحكمة يعلمها الله عزَّ وجل، فكل جزء فيه يكمل الآخر من أجل استمرارية الحياة وديمومتها على الأرض.

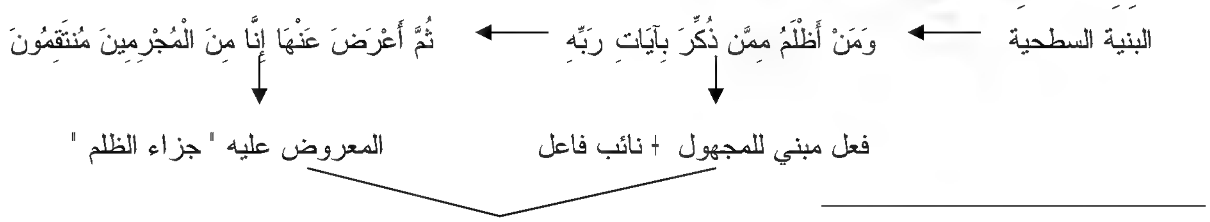
3. 4. 3: محور التّقديم والتّأخير في البنية الاستفهاميّة بأسلوب القلب:

يعدّ القلب في التّرتيب المكانيّ للدوال ذروة أشكال التّقديم والتّأخير في البنية الاستفهاميّة؛ لأنّه لا يكتفي فيه بتغير مواقع عناصر الجملة، أو التّبادل بينها، بل يضاف

(1) ــ سورة سبأ الآيات : 23 ــ 25.

إلى ذلك التّداخل المعنوي بين مفردات التّركيب المقلوب، وبالتّالي يتبعه تغير في الموقع الإعرابيّ لكلِّ مفردة؛ لأنَّ الإعراب فرع المعنى، ولهذا عدَّ السَّيوطي القلب نوعا من المجاز اللغوي[2]. وكذلك عدّه [جون كوين : Jean Cohen] نوعا من الاستعارة؛ لأنّه ينطوي على تغيير في المعنى، فقال : " القلب ينتمي إلى الصّور غير الاستعارية، بما أنّه صورة نحويّة تركيبية، ولكن ما دام هو يغير المعنى، فإنّه يعد استعارة أيضا "[3]، وهذا الحديث يعد نوعا من المبالغة الّتي تنطوي على إعجاب بالغ بالنماذج الجيدة من صور القلب؛ لأنّ صور القلب كما يذكر [جون كوهن] إلا واحدة " من أنماط الانحراف التّركيبي المختلفة، وهي تتصل بمجاوزة قاعدة ترتيب الكلمة في الجملة..."[1].

وتعتبره الدّراسات البلاغيّة الحديثة من الصّور الموجهة إلى الجمهور لجذب انتباه المتلقي عن طريق القلب المعنويّ، والمكاني في الصّياغة، والذي يحدث تغييرا حادا في ترتيب عناصر البنية السطحية، ويتبعه اهتزاز في شبكة العلاقات، والمعاني المنظمة والمستقرة في الذهن، مما يدفع المتلقي إلى محاولة إعادة الانتظام والاستقرار إلى البنية السطحية، وإلى شبكة المعاني، والعلاقات الذهنية عن طريق استحضار البنية العميقة المثالية لمقتضى الظاهر السياقي في البنية الاستفهامية، وفي أثناء ذلك يتوصل المتلقي إلى الغرض الذي دفع المبدع لكي يعدل بالبنية السطحية عن مقتضى الظاهر[2]. وأكثر مظاهر القلب المكاني في البنية الاستفهامية يتمثل في قلب الإسناد، الذي يحدث فيه تغيير في الترتيب المكاني، وفي المواقع الإعرابية لمفردات التركيب المقلوب، وبالتالي قلب في المعنى العام المُستنبط من التركيب، وتمركز هذا في قلب المفعول به في الجملة الفعلية نائبا للفاعل، ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[3].



---

[2] ينظر : السيوطي : الإتقان في علوم القرآن :ج3/ 116.

[3] ــ جون كوين : **اللغة العليا**، ترجمة : أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2، 1999، ص : 108.

[1] ــ جون كوين : اللغة العليا، ص : 113. وينظر : بناء لغة الشعر،ص : 213.

[2] ــ إيفانكوس، خوسيه ماريا : **نظرية اللغة الأدبية**، ترجمة : حامد أبو أحمد، مكتبة غريب، القاهرة، ط1، 1988، ص : 189.

[3] ــ سورة السجدة الآية : 22.

↓

الظالم لا يملك الإرادة

سياق البنية السطحية في الآيات يشير إلى واقع القلب في الإسناد، وخروج السياق عن مقتضى الظاهر لتحقيق غرضين بلاغيين : الأول: التعميم بالفاعل رسلا ودعاة بعد الرسل إلى يوم القيامة، وما يتصل بها، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال قلب الإسناد، وحدوث التغيير في دلالات التركيب، والثاني : التّهويل والتّرهيب لثبوت انتقام الله من المجرمين يوم القيامة، ولذلك استدعى في السياق اللفظي تقديم الجار والمجرور " من المجرمين " على لفظ " منتقمون، والتّقديم للجار والمجرور يحقق إلى جانب تأكيد دلالة التّرهيب جوانب أسلوبيّة أخرى تـ توافق وتشكيل الصّياغة اللّفظية في البناء الاستفهاميّ تتمثّل في جانبين أيضا: الأوّل تقديم السَّبب " الإجرام " على المُسبب " الانتقام "، والثاني: يعمق التناسق الصوتي والإيقاعي ما بين الفواصل " يرجعون / منتقمون "، حيث بنيت فواصل ما قبلها وما بعدها على حرف الـ مد[1] [2]. ونرى أن قلب الإسناد في البنية الاستفهاميّة، وما يتبعه من صياغة ترتيبية للدوال التي تعاكس مقتضى الظاهر يعيد الاعتبار إلى كثير من الشواهد النصية، ويكشف النقاب عن قيمتها الدلالية والجمالية.

3. 4. 4: محور التّقديم والتّأخير بمخالفة التّرتيب الزّمني في البنية الاستفهاميّة:

عند تتبع التّرتيب الزّمني في القرآن الكريم بشكل عام، والبناء الاستفهاميّ في السّور المكيّة بشكل خاص نجد في السّياق القرآنيّ زمنين: الأوّل زمن موضوعي منطقي خارجي يسير في خط واحد غير قابل للارتداد، وزمن داخلي لا يخضع لمنطق الأحداث ، أو لا يسري وفق النظام الزمني المعهود، إذ يمكن له أن يتداخل، أو يتقاطع مع أزمنة أخرى كما يمكنه أن يتقلص، أو يمتد حسب مقتضى الحال، وفي هذا المحور ضالتنا في الزمن الداخلي في البنية الاستفهامية الّذي لا يخضع لمنطق الأحداث، ومنه قوله

---

[1] ــ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج3/ 272 ــ 273.

[2] ــ ينظر: سورة العاديات الآية: 9، يونس الآية:32، 35 ، القيامة الآية: 3، 36، سورة سبأ الآية: 17، سورة القصص الآية: 57، سورة الأحقاف الآية: 17،35، سورة العنكبوت الآية: 67، سورة الغاشية الآية: 17، 18، سورة الكهف الآية:57، سورة ياسين الآية: 19، سورة فاطر الآية: 8، سورة المؤمنون الآية: 89، سورة الصافات الآية: 54،55، سورة المعارج الآية: 38، سورة الزخرف الآية: 45، سورة الأعراف الآية: 22، سورة الأنعام الآية: 47.

تعالى : ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾[3] .

البنية السطحية : ← أَئِذَا مَا مِتُّ ... لَسَوْفَ ... أُخْرَجُ حَيًّا " بعد الموت"

↓ ... الموت ... ↓

بعد → قبل " ترتيب زمني مخالف"

البنية العميقة : ← أحقا أنا سنخرج أحياء بعد الموت

↓ ... الموت

قبل → بعد " ترتيب زمني معتاد"

الخطاب في سياق البنية السَّطحية للا ستفهام دعوى وردٌ داحض لهـا فناسـبها فـي الأسلوب التّركيبيّ أن يبدأ سياق الآية بالفعل المضارع المسبوق بـالواو؛ لأنَّهـا تمكـن مفردات النَّص من الانتقال من غرض إلى غرض آخر، وبذلك تمكين صـفة الظَّـلال لهؤلاء الفئة من البشر، فتطلب الانتقال مجيء الفعل المضارع " يقـول " دون الماضـي للدّلالة على أنَّ الكفر بالحياة الأخرى لم يختص بوقت دون وقت آخر، بل هو موجود مـا وجدت الحياة .

والفعل المضارع ناسبه في التَّركيب لفظ " الإنسان " المعرف المفرد لتعمـيم الدلالـة الزَّمنية لتشمل كل إنسان يعيش ، فكل ذلك شكّل في فضاء الـصّياغة الـ لفظيـة للآيـة مجالا لعرض القدرة المطلقة المتناسبة مع عملية الإحياء بعد الموت بأسـلوب اسـتفهامي إنكاري، ليكون أبلغ ردٍّ على منكري البعث بعد الموت، فجاء ذلك بأسلوب مخالفة التّرتيب الزمني في سياق الآية ليقدم لفظ " الموت في الحياة الدنيا " على الإحياء بعد المـ وت " ويكون التقديم متوافقا مع مفردات السّياق للفت الانتباه إلى أهمية الدّلالة الّتي يمثل البعث، أو الإحياء مركز الثقل فيها، فلولا البعث، والحساب لم يكن هناك كون موجود، ولهذا لفت السّياق بمخالفة التّرتيب الزّمني وبأسلوب استفهامي أنظار المتلقين إلى التّفكـر، والنّظـر الفعليّ في الخلق، والبعث ليصبحا حقيقة لا تغيب عن فكره .

ومنه قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَـن فِـي النَّـارِ﴾[1] .

المعنى السّياقي للبناء الاستفهاميّ موجه إلى الرّسول عليه السّلام، يبصره الله عزَّ وجـل

---

[3] ــ سورة مريم الآيات : 66 ــ 67 .

[1] ــ سورة الزمر الآية :

من خلاله بأنَّ له مهمة هي البلاغ، وأنّه ليس في مقدرته أن يغرس الإيمان في قلوبهم، أو يهدي من لم يرد الله هدايته لاشترائه الضّلالة بالهدى، فالزّمخشريّ يبين هذا المعنى أثناء مناقشته أسلوبية البناء الاستفهاميّ، فيقول : " أصل البناء أمّن حقت عليه كلمة العذاب أنت تنقذه، جملة شرطيّة دخلت عليها همزة الاستفهام للإنكار، والفاء للجزاء، ثم دخلت الفاء التي في أوّلها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب تقديره : أأنت مالك أمرهم؟ فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه، وهمزة الثّانية هي الأولى، كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد"[2]. والسّياق الاستفهامي من خلال ترتيب مفرداته في البنية السطحية خالف الترتيب الزمني المعهود في تنسيق الأحداث وفق حدوثها في العالم الخارجي، كما يقول في ذلك الزمخشري نزّل استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النّار "[1]. لينتج على مستوى الصّياغة ا لتّركيبية، والمعنوية حدثا متماسكا أنزل المتوقع منزلة الواقع؛ لأن دخول النار لم يقع وسوف يقع، ولكنّه عبر عنه كما لو كان واقعا هذا من جانب، ومن جانب ثانٍ: تنزيل محاولات صاحب الرّسالة لهداية قومه منزلة من يحاول إخراجهم فعلا من النّار، والجانب الثالث : يحمل في طياته الوعيد الشّديد لمن ينكر البعث والحياة الأخرويّة، فدمج السّياق من خلال مخالفة مقتضى الظاهر ــ مخالفة الترتيب الزمني ــ التهديد، والوعيد بتسلية النّبيّ عليه السّلام مما يلاقيه من عنت قومه.

أمّا البنية العميقة لسياق مخالفة التّرتيب الزّمني فـي الأسلوب الاستفهاميّ فإنّها تتجه إلى مستويين من التلّقي : الأوّل: المتلقي الخاص لأنَّ الصياغة تتجه إليه مباشرة من خلال أسلوب الاستفهام، والقرائن المصاحبة لتحقيق الغرض العام بإنكار هداية من لم يرد الله هدايته، عقابا له على اختياره الكفر على الإيمان، وفي هذا السِّياق يبدو البناء الاستفهامي كتلة واحدة متحدة مع المرجعيات السابقة، واللاحقة له، أما المستوى الثَّاني من التلقي فإنَّه يتجه إلى المتلقي العام، أو المتلقي المقاميّ لتحذيره من مغبة الوقوع في الذّنب الّذي وقع فيه المتلقي الخاص، وفي هذا تظهر ملامح الاتصال في المعنى عن طريق الرّبط بوضع اللّفظ الظّاهر " من في النار " موضع المضمر " تنقذه " لما في المظهر من تخويف وترهيب ...

وبعد:

---

[2] ــ الزمخشري: الكشاف :ج4/ 117.

[1] ــ الزمخشري: الكشاف: ج4/ 117.

نجد أن القرآن الكريم دقيق في وضع الألفاظ، ورصفها بعضها بجنب بعض بدقة عجيبفي السياق النّصي للآيات، فأسلوبية التقديم والتأخير في سياق الاستفهام في السور المكية بشكل خاص والقرآن الكريم بشكل عام يدل دلالة واضحة على أن التَّعبير القرآنيّ تعبير مقصود، وأنّه لم يقدم لفظة على لفظة في المحاور الأسلوبيّة المختلفة إلا لغرض متعمد من المنشئ فرضته الصّياغة اللفظية، والجماليّة على السّياق النّصيّ للآيات القرآنيّة، وإنّه لم يقدم لفظة على لفظة إلا لغرض يقتضيه السّياق الاستفهاميّ في أبنيته المختلفة ليكشف أبعادا نفسية لدى المنشئ، والمتلقي على حد سواء تساعد هذه الأبعاد في الفهم الشمولي للآيات والسور.

3. 5: بنية التّكرار في السِّياق الاستفهاميّ:

يعد التّكرار من الظّواهر الأسلوبيّة التّي تستخدم لفهم النص الأدبي، وتتصف به اللغات عامة، واللغة العربية خاصة، ولا يتحقق على مستوى واحد بل على مستويات متعددة، مثل تكرار الحرف، والكلمة، والعبارات، والجمل، والفقرات، والقصص أو المواقف كما هو واقع في القرآن الكريم، وقد لاحظت فيما قرأت من دراسات أن كتب النحو، والبلاغة في ذخائر تراثنا العربي كانت مقصورة على عدة أمور منها بيان معنى التّكرار، وأنواعه المتعددة، وأغراضه البلاغيّة، وذكر شواهد له .... فلا نجد إسهامات توضح دوره في تحقيق التماسك النصي بين عناصره المتباعدة، وهذا بالطبع نتيجة لكون دراساتهم مقصورة على الجانب الجمالي، أو البلاغي في الغالب. هذا باستثناء بعض الإشارات التي أشار إليها البلاغيون[1].

والدِّراسات حول التّكرار قديما وحديثا متعددة، ومع ذلك لم يدرس التّكرار في ضوء علم اللغة النّصيّ، والأسلوبيّ إلا قليلا بصورة موجزة، هذا باستثناء الدّراسات الغربية الّتي أسهمت كثيرا، وإن لم يكن مثل غيره من الوسائل في مناقشة علاقته بالتّماسك، لهذا سوف أتجنب القضايا التي كثر فيها الحديث لمحاولة دراسة العلاقة بين التكرار في أسلوب الاستفهام، ومدى انسجامه، وتماسكه مع النص القرآني. فهذا القسم يجيب عن عدة

---

(1) ــ ينظر: عبدالمجيد، جميل عبدالمجيد: **البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية**، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ط1، 1988 ص: 79، 107.

أسئلة منها: أيوجد في معنى التكرار اللغوي ما يوحي بدوره في التّماسك النّصيّ؟، أهو نوع واحد أمْ له أنواع متعددة ؟، أتقتصر فوائده على ما ذكره القدماء؟.

فعند استعراض المعنى اللغوي لمصطلح التكرار يتبين أنَّ معاني مادة " كرر " تدور حول عدة محاور يبينها ابن منظور، فذكر : " أنَّ الكُرُّ: الرجوع... والْكَرُّ: مصدر كرَّ عليه يكرُّ كرّاً، وكرورا، وتكرارا، وكرَّر الشيء كركره : أعاده مرة بعد أخرى، وكررت عليه الحديث ردَّدته عليه، والكرُّ الرجوع على الشّيء، ومنه التكرار، والكرّة : البعث وتجديد الخلق بعد الفناء ... والكرُّ: الحبل الغليظ.... والكركرة صوت يردده الإنسان في جوفه... والكِرُّ: ما ضم ظلفتي الرّحل، وجمع بينهما"[2].

فمن معانيه اللغوية أوّلا: الرجوع ويلاحظ أن علاقة التكرار تشمل الإحالة القبلية، أو السّابقة بالرجوع لما سبق ذكره في النص بتكراره مرة أخرى، ثانيا : البعث وتجديد الخلق بعد الفناء، وكأنّي به يريد القول أنَّ المتكلم يذكر عدة جمل متتالية، وبعد فترة من الحديث يكاد المستمع أن يصل إلى نسيان ما قيل في أوّل الكلام، فنجد المتكلم يعود ليكرر بعض ما قاله أوّلا ليذكر المستمع، ويبعث الجملة، ويجددها بعد أن كادت تنسى، وثالث معانيه: ظلفتي الرّحل، وفي هذا تحقيق للتماسك بين هاتين الظلفتين. فحديث ابن منظور يبدو في ثناياه بعض من معاني التماسك منها المرجعية القبلية، والبعث، والتجديد، والضم للشيئين المتباعدين ليتماسكا، ويذكر (الرضيّ) كذلك معنى لغويا للتَّكرار قائلا: " التّكرار ضم الشّيء إلى مثله في اللفظ مع كونه إياه في المعنى للتأكيد والتّقرير..."[1] فحديث الرّضي بيان لوظيفة من وظائف التكرار، وهي الضم : والضم يعني ربط الشيء بما ضمَّ إليه، وفي هذا الربط يتحقق التماسك بينهما، وحده الزركشي بأنه الترديد، والإعادة ليشكل مظهرا من مظاهر الفصاحة " لتعلق بعضه ببعض"[2]، والتعليق الذي يذكره الزّركشيّ من الأمور التي تحقق التماسك، مثل تعلق شبه الجملة بما يرتبط به. ويذكر (سعيد بحيري) أنّ " الإحالة التكرارية هي الإحالة بالعودة

---

(2) ــ ابن منظور: لسان العرب: مادة " كرر".

(1) ــ الرضي (ت686هـ): **شرح الكافية في النحو** ــ لابن الحاجب ــ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1، د ت. ج1/ 15.

(2) ــ الزركشي: البرهان: ج3/ 9.

وتتمثل (EPANAPHORA) تكرار لفظ أو عدد من الألفاظ في بداية كلِّ جملة من جمل النص قصد التأكيد ... والإحالة بالعودة أكثر أنواع الإحالة دورانا في الكلام"[3].

وفي الاصطلاح يحده ابن معصوم المصريّ، فيقول : " هو تكرار الكلمة أو اللفظة أكثر من مرة في سياق واحد لنكتة بلاغية إما للتوكيد، أو لزيادة التنبيه، أو للتّهويل، أو التّعظيم، أو للتلذذ بذكر المكرر "[4]. والنكتة البلاغيّة الّتي أشار إليها ابن معصوم وثيقة الصّلة بالجانب التّأثيري الّذي يكونه التّكرار، كما بين موسى ربابعة، فيقول : " هذا المفهوم أعطاه جانبا وظيفيا متصلا بالموقف الشّعوري، والانفعالي، وهذا الموقف تؤديه ظاهرة أسلوبيّة تشكل لبنة أساسية من لبنات العمل الأدبي، ولذلك ينبغي على المرء ألا ينظر إلى التّكرار خارج نطاق السِّياق، ولو فعل ذلك لما بيّن له إلا أشياء مكررة لا يمكن لها أن تؤدي إلا نتيجة ما"[1].

فالتَّكرار من المفاهيم اللّغويّة، والاصطلاحيّة يمكن اعتباره ظاهرة موسيقيّة، ومعنويّة في آن واحد، فالموسيقى تتولد عندما ترد الكلمة، أو المقطع على شكل اللازمة الموسيقيّة أو النّغم الأساسي الّذي يعاد ليخلق جوّا نغميا ممتعا، ويصبح هذا التّكرار على المستوى اللغوي ذا فائدة معنوية إذ أنَّ إعادة ألفاظ معينة في البناء يوحي بأهمية ما تكتسبه تلك الألفاظ من دلالات، مما يجعل مفتاحا في بعض الأحيان لفهم الآية، أو السّورة، أو أي نصٍّ يحوي التّكرار، ونرى أيضا من المفاهيم أنَّ موضوع الألفاظ المكررة ليس مقصورا على بداية جمل النّص، لكن قد يكون في أوّل الجمل، وقد يكون في ثنايا الجمل، وقد يكون في آخرها، وهذا ما سوف نؤكده في بعض النّماذج التّحليلية، وكذلك ليس التّكرار مقصورا على عدد من الألفاظ في جملة بل قد تتكرر جمل كاملة، وقد تتكرر فقرات، وقصص، ومواقف، ونصوص، وبذلك يمكن لنا أن نذكر مـ فهوما أحسبه جامعا لمعنى

---

(3) ــ البحيري، سعيد البحيري: **من أشكال الربط في القرآن الكريم** ــ تضافر العناصر الإشارية والعناصر الإحالية في التماسك النصي من كتاب بعنوان : دراسات عربية وسامية مهداة من أصدقائه وتلاميذه بالجامعات المصرية، مركز اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1994 ص: 151. وينظر: الزناد، الأزهر الزناد: **نسيج النص**، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993. ص: 119. وينظر: جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية. ص: 79.

(4) ــ ابن معصوم المصري، السيد علي صدر الدين بن معصوم (1120هــ): **أنوار الربيع في أنواع البديع**، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف، ط1، 1969 ج5/ 346 ــ 347.

(1) ــ ربابعة، موسى ربابعة: **التكرار في الشعر الجاهلي**، دراسة أسلوبية : بحث منشور في مجلة مؤته للبحوث والدراسات، الأردن، المجلد الخامس، العدد الأوّل، 1990. ص: 16.

التّكرار يضمن وظيفته النّصية، فأقول أن التكرار هو إعادة ذكر لفظ، أو عبارة، أو جملة، أو فقرة وذلك باللفظ نفسه، أو بالتّرادف لتحقيق أغراض كثيرة أهمها تحقيق التّماسك النّصي بين عناصره المتباعدة.

وأهمية التكرار أنّه لا يكتفي بهذا الـ توّافق المزدوج الذي يجعلنا في مواجهة تكرارية مباشرة بل أنه يضيف إليها ملاحظة البعد المكاني للدوال، وتنسيقها على نحو معين يساعد على توافق حركة السّطح مع حركة العمق، وهو توافق بعيد الأثر في إنتاج الأدبيّة، فأهميته كما يورد علماء التّحليل النّصيّ تهدف إلى تدعـ يم التّماسك النّصيّ من أجل تحقيق العلاقة المتبادلة بين عناصره المكونة للنّص، ولتحقيق ذلك يشترط صلاح فضل شرطا أساسيا، فيقول: أن يكون لهذا الملمح ــ المكرر ــ نسبة ورود عالية في النّص تجعله يتميز عن نظائروأن.يساعدنا رصده على فك شيفرة النص، وإدراك كيفية أ دائه لدلالية..."[1]، فالتّكرار زيادة على كونه يؤدي وظائف دلالية معينة، فإنّه يؤدي كذلك إلى تحقيق التّماسك النّصيّ، وذلك عن طريق امتداد عنصر ما من بداية النّص حتى آخره، هذا العنصر قد يكون للكلمة، أو عبارة، أو جملة ، أو فقرة، وهذا الامتداد يربط بين عناصر هذا النّص بالتأكيد مع مساعدة عوامل التّماسك النّصي الأخرى، ويلعب التّكرار دورا مهما في بعث الموسيقى الدّاخلية، وهو بذلك موائم للفطرة، كما أن له أهمية مزدوجة الأداء تحمل مع التّوثيق للمعنى، ودفع المساهلة في القصد إليه، أهمية صوتية، وفنية تزيد القلب لقبولا والوجدان به تعلقا [2]. ولذا اتخذ تكرار الآية، أو الآيات وسيلة لتحقيق الموسيقى الّتي هي بلا شك أقوى وسائل الإيماء إلى الدّلالات اللّغوية والنّفسيّة في سيولة أنغامها[3].

أما أغراض التّكرار، والحديث عنها فيتفق تقريبا عند كلّ من تحدثوا عنه، مع زيادة هنا، أو نقص هناك، وهذه الأمور تناقشها الأبحاث الّتي تبحث في العلاقة بين التّركيب، والدلالة، أو الأبحاث الّتي تناقش هذا الموضوع بلاغيا [4]. وقد كان للقدماء، والمحدثين

---

[1] ــ فضل، صلاح: **ظواهر أسلوبية في شعر شوقي**، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، المجلد الأول، العدد الرابع، ص: 210.

[2] ــ ينظر: التكرير بين المثير والتأثير: ص: 88.

[3] ــ ينظر: الحمداني، سالم أحمد :مذاهب الأدب الغربي ومظاهرها في الأدب العربي الحديث: ص 246.

[4] ــ ينظر: الزركشي: البرهان: ج3/ 9، والسيوطي: الإتقان: ج2/ 19، والرافعي: إعجاز القرآن: ص: 22، وصلاح فضل: ظواهر أسلوبية في شعر شوقي: ص: 21، وخضر، سيد: **ظاهرة التكرار بين النحاة والبلاغيين** رسالة

إسهامات لإدخال أنماط كثيرة من فنون البديع تحت مظلة التّكرار، كالتّرادف، ورد العجز على الصدر، وتشابه الأطراف، والعكس، والتّبديل، والتَّرديد ...[1] ، ولا شك أن متابعة الدّرس البلاغيّ في رصده للظّواهر البديعيّة قد أكد حضور الخلفية التّكرارية التي مارست فاعليتها رأسيا، وأفقيا، وهي فاعلية تتجه إلى إنتاج الدّلالة أحيانا، وإلى إنتاج الإيقاع الخالص أحيانا ثانية، ثم مزج الإيقاع بالدّلالة أحيانا أخرى، والملاحظ أنَّ الإغراق في هذا الجهد الوصفيّ للتّكرار قد أدّى إلى تكاثر الأشكال البديعية، وهذا التّكاثر أدى إلى نوع من التّداخل بين كثير من الأشكال البديعية، حتى أصبح للشكل الواحد أكثر من مصطلح، وأصبح المصطلح الواحد يضم أكثر من شكل، ولكن في هذا القسم سيتم التّركيز على الأشكال التّكرارية ذات الصلة بأسلوب الاستفهام حسب ورودها في السّور المكيّة، كونها تشكل نسقا أسلوبيّا في بنيته السّطحية، والعميقة.

3، 5، 1: بنية التكرار الخالص في السّياق الاستفهامي:

بنية التكرار الخالص في التركيب عامة، وبناء الاستفهام خاصة من أعمق ظواهر الحياة التي نعيش، فيظهر في الأدب من خلال تناوب الحركة والسّكون، أو تكرار الشيء على أبعاد متساوية، نردد من خلالها لفظا واحدا، أو معنى واحدا، أمَّا الطّبيعة فيظهر فيها

دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة طنطا، 1997، ص: 36 ــ 58. فقسّم الأغراض إلى ثلاثين غرضا تحت قسمين: الأول الدواعي العامة، والثاني: الدواعي الخاصة، وفي هذه الأغراض جمع الأغراض التي سبق ذكرها عند البلاغيين، والمفسرين، والنحاة. وجميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص: 89 ــ 90. ومحمد عبد المطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى: ص 352. والأسعد، خولة محمود: **التشكيل التكراري في السور المدنية**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ص: 10 وما بعدها، وعباس، فضل حسن: **البلاغة فنونها وأفنانها**، دار الفرقان للنشر، عمان، الأردن، ط1، 1987 ص : 308 وما بعدها. والقرعان، فايز: **التكوين التكراري في شعر جميل بثينة**، مجلة مؤته، العدد السادس، 1996، ص: 82 ــ 89. والذنيبات، أحمد: **التكرار في الشعر الجاهلي**، رسالة دكتوراه مقدمة في جامعة مؤته، 2005، إشراف الدكتور: علي محاسنه، وأبو سمهدانه، كريم أحمد: **التشكيل التكراري في السور المكية** دراسة أسلوبية، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة مؤته، 2003، إشراف الدكتور زهير أحمد المنصور.

[1] ــ ينظر: جميل عبد المجيد: **البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية** : ص: 79، 107. حيث عرض لهذه الأنماط وعلاقتها بالتكرار، وآراء البلاغيين فيها، وكيف يمكن أن تكون أنماطا أو صورا أخرى للتكرار، فذكر منها الاشتقاق، والانتقال من العام إلى الخاص.

من خلال حركة القلب انقباضا، وانبساطا، وحركة المد جزرا، فهو قانون الحركة، والعمل وقانون الحياة....[2]، وتعدُّ بنية التَّكرار الخالص بتشكيلاتها المختلفة من الأبنية الّتي تتشكل على المستوى العامودي في حالة تكرار رؤوس الآيات، أو نهايتها، وتأخذ أبنية التّكرار في التّشكل حسب ورود الدَّال الأوّل، والدّال المكرر، وقد اختلفت صور، وآلات التّكرار في البنية، فمنها ما يكون في المفردة المصاحبة للاستفهام، أو في المفردتين، أو في التّركيب البنائيّ المتكامل، وفي استعراضي للأبنية التكرارية من هذا المستوى مع أسلوب الاستفهام، وجدت أنّها تتشكل في مستويات مختلفة:

أ ـ مستوى تكرار رؤوس الآيات في أسلوب الاستفهام:

وهذا المستوى من أكثر الأساليب ورودا في الآيات المكيّة، وقد جاء من خلال صور متعددة، كان من أبرزها تكرار الجملة الفعلية مع همزة الاستفهام، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً * أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾[1].

أ ⟵ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ.....................

أَ ⟵ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ.....

فالمفهوم التّكراري للاستفهام ينطلق في جملة الدّال الأوّل من دائرة الإنكار " والمقترن بـ" الفاءالعّاطفة على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم "[2]، فحملكم ذلك على الإعراض مبينا لهم أنَّه قادر على هلاككم في البرِّ وإن سلموا من البحر، وفي جملة الدال المكرر " أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ ..." تأتي كانتقال إلى استفهام إنكاري يعكس نوع الأمن الذي طرحته جملة الدال الأوّل، فالمعنى مختلف حول الأمن، فالدّال الأوّل يطرح أمن البرِّ، أمّا الدّال المكرر فإنّه يطرح أمن البحر، وشتان ما بين البرِّ والبحر، ويأتي هذا التّسلسل الإخباريّ حول الأمن كوسيلة تعليميّة للإقناع، والتّأثير بشكل أسرع؛ لأنَّ من خسف به البرّ لا يجد له عند الله تعالى وكيلا، أو مدافعا، أو نصيرا، فناسب الدّال الأوّل، وتماسك معه تركيبيا، ونصيا مجيء لفظ " وكيلا "، والوكيل

---

[2] ـ ينظر: روز غريب: **النقد الجمالي وأثره في النقد العربي**، دار العلم للملايين، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى، 1951م، ص: 28.

[1] ـ سورة الإسراء: الآية: 68 ـ 69.

[2] ـ الزمخشري: الكشاف: ج2/ 652.

كما يقول ابن عاشور المؤكل إليه القيام بمهام موكله، والمدافع عن حقه "[3]، فالمناسبة التّركيبية تأتي من جانب تضمنها معنى المدافعة على الأرض، والمجادلة وهذا لا يتسنى أن يكون في البحر، بل يتصل ويقترن باليابسة، وفي الدّال المكرر جاء السّياق بقرينة تتناسب، والمعنى الدلالي الذي يخرج إليه؛ لأنَّ من أغرق في البحر لا تجد له تبيعا، فلفظ التّبيع يتوافق ودلالة المعنى العام في السّياق، ويتماسك معه في البنية العميقة، فالعلاقة ما بين جملة الدال الأول، وجملة الدال المكرر تشبه علاقة الاتحاد " من الكل إلى الجزء"[4].

وفي الدّالين آثر البناء الفعل الماضي " أمنتم " لتوكيد الإنكار، ووقوعه على محقق؛ لأنّه ما كان ينبغي أن يكون منهم أمن، وقد جحدوا نعمة الله عليهم جحدا محققا، فالدّالين ينبّهان المخاطب إلى أنَّ الله لا غالب له، ولا يأمن بطشه إلاّ القوم الخاسرون، وهذا المعنى يتماسك دلاليا مع مجمل السّورة ليشكل من خلاله لحمة نصية واحدة تبين امتياز الرّسالة المحمدية بطابع غير طابع الخوارق الحسّية، وما يتبعها من هلاك المكذبين بها، وإلى تقرير التّبعية الفردية في الهدي، والضلال الاعتقادي، والتبعية الجماعية في السلوك العمليّ في محيط الـ مجتمع، كل ذلك بعد أن يُعذر الله سبحانه النّاس، فيرسل إليهم الرسل بالتبشير، والتّحذير، والبيان والتّفصيل وكل شيء فصلناه تفصيلا ". ويأتي منه بوجود همزة الاستفهام مع حرف العطف والجزم مع اختلاف دلالة الأفعال في الدال الأوّل، والدّال المكرر، ليلعبا دورا بارزا في الموسيقى اللفظية من جانب، والمعنى الدّلالي من جانب آخر، ويؤديا إلى زيادة ربط الأداء بالمضمون السّياقي، والتّركيبيّ للآيات [1]، فيقول تعالى: أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ *أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [2].

---

[3] ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج14/ 129.

[4] ــ الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (1173م)، **فتح القدير ــ الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ج3/ 291.

[1] ــ القاضي، النعمان عبدالمتعال القاضي: **أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي**: ص: 501.

[2] ــ سورة الروم: الآية: 8 ــ 9.

أ ←——— أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ .....

أ ←——— أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ..........

فالاستفهام في الدّالين أتّى لأغراض مختلفة في الظّاهر السّياقي، متحدة ومتماسكة نصيا في العمق الدّلالي، فالدّال الأوّل خرج لمعنى الإنكار، والواو للعطف على مقدر سابق، والمعنى أن أسباب التّفكر حاصل وموجود دلَّ عليه سياقيا جملة " في أنفسهم " الّتي وقعت موقع الظرف المحذوف، فلو تفكروا فيها كما ينبغي لعلموا وحدانيته، وصدق أنبيائه، ليقرر الاستفهام في الدّال الأوّل المنكرين بثبوت الرؤيا العلمية، ثم ينكر عليهم عدم جريهم على مقتضاها[3]، أمّا الدّال المكرر " أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ..." فهو انتقال من التّسجيل عليهم بالغفلة رغم وضوح الدّلائل، والبراهين القاطعة بنهاية هذه الحياة الدّنيا، وإقبال حياة الآخرة، إلى التّسجيل عليهم بإهمال الاعتبار من واقع الحياة، وأحداث التّاريخ، فلا هم اعتبروا بالدّلائل الكونيّة المحسوسة لديهم، ولا هم اعتبروا بما في الأرض من آيات حفل بها التّاريخ البشريّ، ومن هنا ينبع التّماسك النّصيّ لكثرة الإحالات المعنويّة المتلبسة في التّركيب، المتحدة في المعنى الدّلالي في الدّالين المكررين ليعمقا في مـ دلولهما حواس الفكر، والتّأمل فيما حول الإنسان، وداخل الإنسان نفسه، ليكونا حافزا للإيمان والصّلاح.

ومنه ما تتكرر فيه همزة الاستفهام في رؤوس الآيات مع الجملة الاسمية الّتي تبينها الجملة الفعلية، فيقول تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[1].

---

[3] ــ القنوجي، حسن بن علي الحسين القنوجي البخاري: **فتح البيان في مقاصد القرآن**، تقديم: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، إحياء التراث الإسلامي، مصر ، د ط، 1989م ج10/ 228 ــ 229.

[1] ــ سورة النمل: الآية: 59 ــ 65.

الدال الأول : ⟵ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء..........

الدال الثاني : ⟵ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي..

الدال الثالث : ⟵ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء......

الدال الرابع : ⟵ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا .....

الدال الخامس : ⟵ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ........

نلاحظ في السّياق التّركيبيّ للدوال المكررة التّماسك النّصي، فالدّال الأوّل يمهد للدال الثّاني بعده، وأنَّ ما يذكر بعد الاستفهام الأوّل إنما هو مقدمات صادقة للإنكار الذي جيء بالاستفهام الثّاني من أجله، وهذه طريقة بارعة رائعة حكيمة في إفحام الخصوم والتصدي لهم من حيث لم يحتسبوا، ففي الدال الأول آثر السياق التركيبي مع الاسم الموصول مجيء الفعل الماضي "خلق" لأنَّ الله تعالى خلق السماوات، والأرض مرة واحدة، فلا يصلح مع التّركيب البنائي إلا الفعل الماضي " خلق "، ليلفت الأنظار من خلاله إلى خالق السّماوات، والأرض، ذلك الخلق العظيم، ثم إلى إنزال الماء من السماء، وهو أصل الحياة، وبه يكون نموها واستمرارها، وتجددها على مدى الدهور، ثم يلفت الأنظار للنبات بشتى صوره وأشكاله، وأحجامه [1] .... نافيا البناء أن يكون لغير الله قدرة على إنباتها وإثمارها، فالبناء الأوّل يجمع ما بين السماء، والأرض ليلخّص من خلاله وحدانية الله عز وجل، وتفرده بالملك لهذا الكون وما فيه، أمّا الدّوال المكررة فهي شواهد تفصّل ما جاء في الدّال الأ وّل بأسلوب الإجمال في الدال الأول، والتّفصيل في الدّوال المكررة، والأسلوب التّكراري شكل في بنية الدّوال كتلة نصية واحدة، وهذا منبعه عدول السِّياق عن عطفها بحرف العطف، وتعامل معها كأنَّها آية واحدة؛ لأنَّ العطف كما يقول النُّحاة يقتضي المغايرة، لكن الدَّوال المكررة لا مغايرة فيها لأنّها صفات لموصوف واحد هو الله عزَّ وجل سيقت في مقام الردِّ على الّذين ادعوا آلهة دون الله.

ويتفرع من تكرار الاستفهام في رؤوس الآيات، في سياق الجملة الاسميّة بسبب التّوزيع المكانيّ للدلالة المكررة فرع آخر يقع في رأس الآية، ثم يتبعه الدّال المكرر في الآية الّتي تليها، مع ابتعاد الدّال المكرر مسافة بسيطة عن رأس الآية، كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ عَادٌ

---

[1] ـ ينظر: الزحيلي، وهبة، التفسير المنير: ج20/ 9 ـ 14 وينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن: ج5/ 2656 ـ 2658.

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾[2].

أ ⟵ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ....

أ ⟵ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ...

فالسِّياق النّصي للآيات يصرُّ على تكرار جملة " فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ " لتكون العبرة حاضرة مصورة للأذهان غير منسية في كلِّ أوان، ولكن الفرق بين الدّالين المكررين يتلخص في توجيه العذاب ــ بؤرة الحدث ــ فجملة الدّال الأوّل العذاب فيها يرجع إلى من كذَّب الرسل من البشر بشكل عام، فدلالته دلالة شمولية لجميع المتلقين في كلِّ زمان ومكان، ولذلك قدم على الدال الأول، أما الدال المكرر فإنَّ بؤرة الحدث فيه تتجه إلى متلق خاص يتصل بزمن المتكلم حال حدوث الحدث ليخص به، فالدالان الـ مكرران يتوجهان سياقيّا، وأسلوبيّا بهذا النّمط الأسلوبيّ الإنتقال من العام إلى الخاص، ويصلان بالبناء التَّركيبي إلى أقصى غايات المساحة السّطحية، والمكانية التي يتوقعها المتلقي[3].

ب ــ التَّرجيع :

وهو من المستويات التي أشار إليه العلويّ في تعريفاته [1]، بأن يكرر المتكلم صيغة السّؤال، ويقابلها تكرار صيغة الرّد، وقد ورد في السّور المكيّة من خلال أسلوب الاستفهام على نمطين : الأول : يتمثل بوجود مساحة مكانية بسيطة تفصل الدّال الاستفهاميّ المكرر عن بداية الآية، يتمثل بالفعل ليخلق حالة حوارية مباشرة يطرح من خلاله ا لسائل جملة ما متسائلا، أو مخبرا، أو آمرا، أو ناهيا، فيثير اهتمام الطّرف الآخر الّذي يقوم بإعادة تلك الجملة ساخرا، أو منكرا، أو مؤكدا، أو مجيبا .... أو غيره من التّعبيرات الّتي يوضحها السِّياق، وهذا يعني تنويع التَّراكيب الّتي يرد فيها الدّال المكرر بما يناسب غرض الطّرف الثّاني، ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[2].

أ ⟵ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ....

---

[2] ــ سورة القمر : الآية : 16 ــ 20 .

[3] ــ محمد علي طه الدرة : تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه، ج14 / 126 ــ 127 .

[1] ــ العلوي : الطراز : ج3 / 91 .

[2] ــ سورة يونس : الآية : 34 ــ 35 .

أ ←——— قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ....

فالسِّياق التَّكراريّ في المستوى السّطحيّ يبين أنَّ الله عزَّ وجل يلقن رسوله الكريم السّؤال الّذي يوجهه لمن يتحداه من المشركين، ويلقنه الجواب عن هذا السؤال نيابة عن المخاطبين المخصوصين بالسّؤال، مكررا الجمل المحور الّتي ينصبُّ عليها تركيز المتكلم، لكونها بؤرة التّحدي، والمواجهة التعّجيزية، فتشكل ذلك سياقيّا من خلال دالين مكررين بأسلوب الاستفهام، فالأوّل لإثارة انتباه المخاطب لهوية الفاعل الذي تنسب إليه هذه الأفعال الخارقة " من يبدأ الخلق "، فتكون الإجابة بالتّصريح عن الفاعل، وكشف نسبة الأفعال إليه " الله يبدأ الخلق ثم يعيده..." .

أمّا النّمط الثّاني من مستوى التّرجيع يتولد من ورود الدّال الأوّل في بداية الآية، والدّال المكرر في وسطها ليتبعه بعد مساحة مكانيّة، وسياقيّة استفهام آخر، ليشكل هذا النّمط ما يشبه أسلوب التّلقين، ومنه قوله تعالى : ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1] . فالسّور المكيّة في ثنايا بناء الاستفهام تصرُّ على تكرار مثل هذا الأسلوب في البنية الا سطحية، ليخلق عند المتلقي حالة من المتابعة لهذا التلاحق بين السؤال والجواب، خالقا توقعا، وترقبا للبنى الاستفهاميّة التي جاءت على الترتيب التالي:

قل....... سؤال تقريري ....سيقولون لله ......جواب الاستفهام ....قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .... سؤال إنكاري....

فهذا النّمط في جانبيه الأوّل، والثاني في السّور المكيّة يؤدي إلى تعميق المستوى الدّلالي؛ لأنَّ مواجهة المعاندين بأسئلة متلاحقة، وإجابتهم المتكررة عنها دون تردد، أو تلون، أو تنوع، تؤكد على إثبات ملكية الأشياء المسؤول عنها إلى الله، وإقرارهم بهذه الملكيّة، وكأنّها أمر مسلّم به لا يقبل النِّقاش، وهنا تبرز المفارقة بين هذا الإقرار المتكرر، وبين التّصرف الفعليّ للمعاند أمام الأنبياء بتكذيبهم، ولهذا أعقب السّياق النّصيّ

---

(1) ــ سورة المؤمنون: الآية 84 ــ 91.

إجابتهم في كلِّ مرة بسؤال إنكاري عن سبب هذا التناقض " أفلا تذكرون...؟" و " أفلا تتقون...؟" و " فأنى تسحرون؟..." .

ج ـ تكرار الدّال ذاته في مقولة المستفهم، والمجيب :

وهذا النّسق يشكل حوارا مباشرا يتشكل على المستوى الأفقي بانزياح الدّال ــ العنصر المعجمي ذاته من نقطة مكانية إلى نقطة أخرى أفقيا، ويتم التّشكل على المستوى العامودي بتكرار الدال وفق تناسق مكاني يأخذ ترتيبه داخل كتلة النّص، أو الفقرة، ومنه قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ * قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُواْ أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[2] .

أ ⟵ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ ....

أ ⟵ قَالُواْ أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ .... ⟵ تركيب استفهامي ...

أ ⟵ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا ⟵ تركيب خبري ....

فالتّركيب النّصي للتكرار في البناء الاستفهاميّ الّذي يسيطر على مجريات الحدث في النّص يصرِّح بالعلم " يوسف " في الدّوال الثّلاثة توكيدا من المخاطب المسؤول، وتقوية وإثباتا، فقد كان من الممكن أن تكون إجابة يوسف عليه السلام عن سؤالهم "أنا هو " أو " نعم"، لكنّه أعاد التلّفظ بعبارة من جنس لفظهم " قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ "، واصلا بظنهم من خلال الإجابة إلى درجة اليقين، كون سؤالهم يحمل في ثناياه معنى الظن، والشك في نسبة " أنت " إلى خبره " يوسف "، فجاءت عبارته في الدّال الثالث : " أنا يوسف.." مثبتة ومؤكدة نسبة الضمير إلى الخبر ذاته.

ومنه تكرار كلمة " الرحمن " الواردة على لسان الطرف المؤمن في سؤال الطرف المنكر، فيقول تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا * تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[1] .

أ ⟵ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ ⟵ تركيب خبري يحمل دلالة الأمر ...

---

(2) ــ سورة يوسف : الآيات : 87 ــ 90 .

(1) ــ سورة الفرقان : الآيات : 60 ــ 61 .

أ ← قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا ← تركيب يحمل دلالة الاستفهام......

فالسِّياق التّركيبي للآيات كرر لفظ " الرحمن " على لسان المنكر في جملة من خاطبهم آمرا، ساخرين منكرين الكلمة التي انصبَّ عليها تركيز الطّرف الأول، أي أنَّ الكلمة ذاتها وردت على لسان الطّرفين المتحاورين، لتمثل بهذا الورود ضدية الحق، والباطل، فالأول مؤمن بها عامل لها، و الثّاني: منكر لها لا يؤمن بوجودها، فالدّالين في هذا السّياق رغم تشابه اللفظ إلاّ أنّه بمصاحبة القرائن بيَّن الضدية المطلقة ما بين الحق والباطل.

ومنه تكرار الجملة الفعلية في سياق المحاورة، ما بين السّائل والمجيب، لتولد دلالة عميقه تتجه بؤرتها إلى المتلقي في السّلبي، والإيجابيّ على حدٍّ سواء، يفسرها حسب اعتقاده ودرجة إيمانه، فيقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[2].

أ ← أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ...............

أ ← بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ

فالدّال المكرر في السّياق النّصيّ سبق بحرف الإضراب "بل" لينشر براءة الملائكة من الرضا بعبادتهم لهم، ونفي وقوع فعل العبادة عليهم باستبدال المفعول به الوارد في الاستفهام التّقريريّ " إياكم " بالمفعول به الحقيقي " الجن "، ليدل تكرار الفعل مع القرائن المصاحبة على ثبات عبادة هؤلاء لغير الله.

د ـ التّكرار المتوازيّ في البناء الاستفهاميّ:

في هذا المستوى يطالعنا السّياق القرآنيّ في السّور المكيّة على ضرب آخر من التنوع في أسلوب التّكرار يقع تحت مسمى التّكرار المتوازي، الذي يأخذ مكانه في البناء الاستفهامي على شكل تواز محدد داخل الآيات، لينتج بمصاحبة القرائن، والألفاظ القبلية والبعدية دلالة عميقة تربط بين جملة الدّال الأول، أو مفرداتها، وجملة الدّال المكرر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ

(2) ـ سورة سبأ: الآيات: 40 ـ 41.

مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[1].

أ ← تعاكس دلالي → أ

إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ← // → أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ

تعاكس دلالي ولفظي ومعنوي بأسلوب التوازي

فالتّكرار المتّوازي في التّركيب الاستفهامي سبك نصيا طرفين متناقضين، يُحيل فيهما الدالّ المكرر" أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ..." إلى الدال الأول "أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ ..." لتأكيد معنى التّسليم المطلق في حالتي الرّ حمة، والضّر لله عزّ وجل. ونجد في بناء التكّرار المتوازيّ المتمركز في السّياق الاستفهاميّ في شاهد آخر دلالة التّفصيل، فيقول تعالى : ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾[2].

الدال الأول ← مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ

الدال الثاني ← وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ.... ← تكرار توازي في السياق الاستفهامي يفيد معنى التفصيل

الدال الثالث ← تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ

الدال الرابع ← وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ← تعاكس دلالي بين الدالين.....

فالسّياق النّصيّ للآيات يبدأ بالاستفهام الإنكاريّ، الّذي يلخص المعنى الإجمالي لطبيعة موقف المتكلم الإيجابي، والمتلقي السّلبي، ثمَّ يُفصّل ما أجمله بتكرار الدالين الثاني، والثالث" أدعوكم/ تدعونني" وقرائنهما لتجسيد المعنى، وتفسير المقصود، فالدّال الأول"مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ ..." يقابل، ويوازي الدّال المكرر الرّابع " أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ....."، والدّال المكرر الثّاني "وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ..." يقابل، ويوازي الدال المكرر الثالث " تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ..."، فمتعلق الدّال المكرر الرّابع يحيل إلى متعلق الدّال الأوّل، والعلاقة بين الدّالين علاقة سبب بنتيجة، وكذلك الأمر في الدّالين الثّالث، والرابع، ليجسدا بتكرارهما الدّعوة للكفر، والشرك، فدعوة الإيمان تؤدي إلى

(1) ــ سورة الزمر: الآية: 38.

(2) ــ سورة غافر: الآيات: 41 ــ 42.

النّجاة، ودعوة الكفر تؤدي إلى سوء المصير، وبهذا الأسلوب يتشكل التّفصيل، ويجسّد في مضمونه الاستمراريّة.

3. 5. 2: بنية التّرديد[1] في أسلوب الاستفهام:

التَّرديد من البنى البّديعية الّتي تجمع بين الدّالين على نحو بنائي مخصوص يعتمد البنية العميقة في السّياق " يعتمد على تكرار الدّال، وترديده مع متعلقاته في كلِّ مرة مشكلة اتساعا في مساحة المعنى الدّلالي العميق، ومن خلال اختلاف مواقع الدّوال يتشكل لدينا إيقاعٌ صوتيٌ، مما يجعل بنية التّرديد مميزة في أسلوبها البنائيّ تقسّم السّياق اللّغوي إلى بناءين متوازيين أسلوبيا في جملة الدّال الأوّل، ثم جملة الدّال المردد "[2]؛ أي إنَّ الدّال والدّال المردد يحافظان على توافقهما الشّكلي، ثم يحافظان على توافقهما العميق، مع اختلاف في المعنى الدّلالي على المستوى العميق، والاختلاف ما بين الدالين مصدره المنطقة، أو القرائن التي تسلط عليه كلّ دال، وهذا الاختلاف لا ينقص من قيمة التوافق بينهما، وإنفطي فاعليتهما مشكلا اتساعا في المسّاحة الدّلالية لكل دال منهما[3]. والفارق ما بين التّكرار، والتّرديد أنَّ الألفاظ المكررة تتحد في المعنى، والمبنى حالة التّكرار، وتختلف الألفاظ في بعض الدّلالات حالة التّرديد، فكل ترديد تكرار، وليس كلُّ تكرار ترديد[1]، ومن هذا الفارق بين التّكرار، والتّرديد يتمّ الانتقال للدَّال، والدال المردد من تركيب إلى آخر يتبعه انتقال في المعنى، ليؤدي وظيفة جديدة في مكانه الجديد، والمعنيان يجمعهما معنى دلالي معين إمّا الاتصال، أو الانفصال، أو التأكيد ...

أ ــ ترديد النِّداء في بنية الاستفهام من قبل المتكلم الإيجابيّ:

---

[1] ــ عرفه ابن رشيق القيرواني، فقال: " أن يأتي الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى، ثم يرددها بعينها متعلقة بمعنى آخر في البيت نفسه، أو في قسيم منه"، ينظر: ابن رشيق القيرواني: العمدة: ج2/ 566.

[2] ــ خولة الأسعد: التشكيل التكراري في السور المدنية: ص: 76 ــ 78. وينظر: القرعان، فايز: **التكوين التكراري في شعر جميل بثينة**، مجلة مؤته، العدد السادس، 1996، ص: 82 ــ 89. وينظر: محمد عبد المطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى: ص: 365 ــ 366. وينظر: عبد المطلب، محمد: **بناء الأسلوب في شعر الحداثة** ــ التكوين البديعي ــ دار المعارف، مصر، ط1، 1988، ص: 116 ــ 118.

[3] ــ عزّ الدين علي السيد: التكرير بين المثير والتأثير، محمد عبد المطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى: ص: 365.

[1] ــ عكاوي، إنعام نوال: **المعجم المفصل في علوم البلاغة** ــ البديع، والبيان، والمعاني ــ مراجعة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص: 305. وينظر: أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ج2/ 128 ــ 132.

شكل هذا الأسلوب ظاهرة لافتة في الوصايا، والنّصح لاستمالة، واستدراج المخاطب، فيناديه المتكلم نداء المشفق المتودد في بداية السّياق، ثم يطرح الاستفهام عليه محور القضية، أو الحدث مع ترديد أسلوب النداء بعده ليخلق في التّركيب النّصيّ حالتين :الأوّلى التّقسيم، والثّانية الإيقاع، ومنه قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾[2].

أ ← إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ.......................

أ ← يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ........

أ ← يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ.........

أ ← يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن...

فالاستفهام الّذي صاحب الدّوال المرددة يجسّم المشهد الحواريّ، الّذي دار بين إبراهيم وأبيه في المستوى السطحي للبناء، فيصور الترديد الأب معرضا عن أبيه ساخرا من كلامه، يشيح بوجهه عن ابنه الّذي يلاحقه بكلِّ وسائل الرجاء، والتلطف ليسمع كلامه ونصحه، فالتّرديد جعل من النّص كتلة نصية واحدة، لأنَّ المتكلم استخدم منبّها تعبيريا يحوي الكثير من الدّلالات في ثنايا دواله المرددة، ليوصل رسالته إلى الطّرف الآخر.

ب ــ ترديد الأدوات المخصوصة في بنية الاستفهام:

يشكل ترديد الأدوات بأبعاد متقاربة في السّياق الاستفهامي، عمقا دلاليا يكشفه السّياق النّصيّ، ومنه ترديد همزة الاستفهام في عدد من الشّواهد النّصيّة في السّور المكيّة لبيان التّحدي والمكابرة عند المتلقي السّلبي، فيقول تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ *قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ*وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]. فترديد همزة الاستفهام في الدّال الأوّل" أَئِذَا "، يدل على التّعجب، والإنكار، أما الدّال المردد " أَئِنَّا لَمَبْعُوثُون.."، دلَّ على السّخرية، والاستبعاد، فـ هذه المعاني تتحد في الدّالين لتكشف في العمق الدّلالي حالة المتلقي السلبي.

---

[2] ــ سورة مريم: الآيات: 41 ــ 45.

[1] ــ سورة المؤمنون: الآيات: 80 ــ 84.

ومنه ترديد " لا النافية" في السّياق الاستفهاميّ لينتج من أسلوب التّرديد نفي صفات، أو أفعال مخصوصة يجمعها حقل دلاليّ واحد يدور حوله محور الخطاب، فيقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾[2]. فترديد حرف النّفي " لا " في السّياق النّصيّ تطلب لإنتاج الدّلالة العميقة أن يخالف في متعلقات كلِّ حرف بمجيء فعل غير الفعل الّذي سبقه، ليولد التّغاير ما بين الأفعال نغما موسيقيا يجمع من خلاله حقيقة جمودية الأصنام " لا تسمع / لا تبصر / لا تغني من الأمر شيء"، وفقدانها عنصر الحياة، فالتّرديد جزّأ الصفة العامة إلى صفات جزئية، يعيد ربطها المتلقي المنفتح ليوحد عناصرها، ويكوّن منها كتلة دلالية عميقة واحدة بمساعدة القرائن قبليةا والبعدية للتركيب تتمركز في نفي الصلاح عن آلهة أبيه. واستخدم إبراهيم الأسلوب ذاته مع قومه في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ﴾[3] فردد السّياق حرف النفي " لا " في السياق الاستفهامي مع فعلين متقابلين يحملان دلالة التّضاد " ينفعكم/ يضركم "، ليبين ترديد الحرف مع قرائنه المختلفة أنَّ عبادة الأصنام يتساوى فيها الشّيء وضده، فهي والعدم سواء، والأبنية في هذا المستوى تكاد تكون محدودة.

ومنه ترديد الحروف النّاسخة في السّياق الاستفهاميّ المتصلة بالضّمير ــ أخصّ إنَّ من الحروف النّاسخة ــ ويظهر هذا النّمط في البناء السّطحي للنص على شكل دالين مرددين تتسع المسّاحة المكانيّة الفاصلة بينهما، فينتج هذا التّباعد ترابطا يشدُّ عناصر الجملة، أو العبارة من أولها إلى آخرها، أي يصبح التّرديد آلية من آليات التّذكير للمتلقي، ومنه قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1].

أ ← أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ

أ ← أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ....

---

[2] ــ سورة مريم: الآية: 42.

[3] ــ سورة الأنبياء: الآية: 66.

[1] ــ سورة المؤمنون: الآيات: 35 ــ 38.

فالترديد أحال الدال الثاني " أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ..."إلى الـدال الأول " أَيَعِـدُكُمْ أَنَّكُـمْ إِذَا مِتُّمْ خشيةَ تناسيه لطول العهد به في القول على حد تعبير السّجلماسيّ [2]، حيث جـاء الدالّ الأول "أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ ..." مجردا من الخبر رغم القرائن المصاحبة له فـي الجمـل التالية، فخلت الجملة الأولى من الخبر، وكذلك الثّانية، وحين أريد أدراج هذا الخبر فـي الجملة الثّالثة، كان قد طال العهد بين إنَّ واسمها، فتطلب إعادة وترديد اللفظ " أنكم .."مرة ثانية ليربط أجزاء الكلام بعضها مع بعض ويتماسك المعنى الدّلالي العميق للـنص مـن خلال الترديد.

3. 5. 3: بنية تشابه الأطراف في السّياق الاستفهاميّ:

تقدم بنية تشابه الأطراف مفهوما تكراريا " يعتمد على إعادة المنشئ لفظ القافية فـي أول البيت التالي لها "[3]، أو أن يعيد الناثر القرينة الأولى في أوّل القرينـة التـي تليهـا، فالتّكرارية في البنية ملحوظ فيها البعد المكانيّ في تجاوز الدّالين رغم تمايز التّراكيب التي تضم كلاًّ منهما من حيث الختام، أو الابتداء [4]، وقد لاحظ ابن معصوم أهمية هذا اللـون في تلاحم الدّلالة، واتصالها بين المفردات النَّصية " ففيه دلالة على العرض، والتّـصرف في الكلام، وإطاعة الألفاظ له، ولا يخلو مع ذلك من حسن موقع فـي الـسّمع، والطبـع لارتباط القرائن المصاحبة به "[5]، وهذا الارتباط الّذي يتحقق ما بين الدّال الأوّل، والـدّال المجاور المكرر من خلال الانتقال اللفظي الّذي يؤدي إلى مفاجأة المتلقي، والمفاجأة تؤدي إلى "إحداث توافق شكلي، ومضمونيّ بين البدء والختـام "[1]ومـن خـلال ذلـك يـتم التّشكيل التّكراريّ على المستوى العمودي للأبنية التّركيبية. وبنية تشابه الأطـراف فـي سياق الاستفهام تتشكل على نمطين أسلوبيين: الأوّل: يـأتي الـدال لفظـة مفـردة فـي آخر الآية ثم يعاد اللفظ نفسه في مطلع الآية التي تليها دون زيادة، أو تبـديل، أو تغييـر

---

[2] ــ أشار السجلماسي إلى هذا الضرب من التكرار، أو الترديد، بعد أن اصطلح على تسميته بـ" البناء"، فقال في تعريفه: البناء هو إعادة اللفظ بالعدد وعلى الإطلاق المتحدّ في المعنى مرتين فصاعدا خشية تناسي الأول لطول العهد به". ينظر: السجلماسي: المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع: ص 477 ــ 478.

[3] ــ المصري، ابن أبي الإصبع أبو محمد زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالواحد (ت654هـ): **تحرير التحبير**، لجنة إحياء التراث الإسلامي، د ط، د ت ص: 520.

[4] ــ ينظر: ابن معصوم: أنوار الربيع: ج3/ 45.

[5] ــ المصدر السابق: ج3/ 50. وينظر: محمد عبد المطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى: ص: 364.

[1] ــ محمد عبد المطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى: ص: 364.

كقوله تعالى : ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾[2] .

أ * أ

الدال الأول : ← " مِمَّ خُلِقَ ....

الدال المكرر : ← خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ....

فالدال الأول الفعل الماضي " خُلِق..." تعلق به الاستفهام من أجل الإيقاظ، والتّنبيه إلى ما يجب علمه، أما الدّال المكرر "خُلِقَ من ماء ..." إجابة السّؤال، ومفاجأة السّامع بأن خلق الإنسان الثّاني من ماء دافق، موضحا كيفية الماء، ومكانه الّذي يتكون منه، فالبنية في سياقها الاستفهاميّ من خلال الدالين تؤكد أنَّ الخلق عند الله عزَّ وجل شيء هين سواء أكان الخلق الأوّل، أو الثّاني[3].

أما النّمط الثاني للبناء فتأتي فيه الجملة المكررة، أو الدّال المكرر في آخر الآية، ثم يعاد في بداية الآية الّتي تليها مع وجود مساحة مكانية بسيطة تفصل بين الأطراف المتشابهة، فلا يؤثر ذلك في إيقاع السياق، كقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾[4]. فالبناء التّركيبي يوضح أن الدال جاء من المضاف والمضاف إليه " يوم الدين " الذي تسلط عليه بناء الاستفهام، والدال المكرر من الظرف " يوم هم..."، ليؤكد بهذا الأسلوب إلى لفت الانتباه إلى متعلق " يوم الدين . من خلال الفتنة، ولم يقف هذا التعلق عند هذا الحد بل تجاوزه إلى جعل الفتنة عذابا [5]. فهذا التعلق عمّق التواصل البنائي، والتماسك النصي ما بين " يوم الدين ..." والفتنة، فنتج عنه عمق في المستوى الدلالي .

3 . 5 . 4 : تكرار الأبنية الاستفهاميّة وقرائنها خارج نطاق الآية الواحد، أو الآيات إلى نطاق السّور المكيّة تكرارا لفظيا تاما، أو تكرارا لفظيا منقوصا :

---

[2] ــ سورة الطارق : الآيات : 5 ــ 8 .

[3] ــ ينظر : الألوسي : روح المعاني : ج30/ 96 ــ 97.

[4] ــ سورة الذاريات : الآيات : 12 ــ 14 .

[5] ــ محمد جواد مغنية : التفسير الكاشف : ج7/ 142 ــ 143 .

لقد تكررت الأبنية الاستفهامية وقرائنها في مواضع متعددة في السّور المكيّة، فالموقف الاستفهاميّ الواحد للشخصية المستفهمة ذاتها يُكرر أحيانا بلفظها التام، وتتصَّب عناصرها أحيانا في قوالب منوعة، فيقدم عنصر في موقف، ويتأخر في موقف متكرر، أو ينقص، أو يبدل عنصر بآخر لتقرير معنى واحد، وهذا التغير في البنية اللغوية للمستفهم الواحد لا يخرجها من إطار التكرار اللفظي، فالمعنى الواحد الذي تدور حوله الدوال المكررة يتحقق ويترسخ بطرق أدائية متنوعة اقتضاها المقام من جانب، وتسهيل المعنى الدلالي للمتلقين على جميع مستواياتهم من جانب آخر مع مراعاة الفروق الدلالية لكل دال مكرر حسب وروده في السياق النصي الذي ينتمي إليه.

فالتكرار في هذا القسم لا يأتي إلاّ ويقدم زيادة في المحاورة، والحدث لم تكن قد وردت من قبل أشار إلى هذا المعنى الزركشي في البرهان، فقال: " إنَّ التكرار لا يأتي إلاّ ويقدم زيادة في القصة لم تكن قد وردت من قبل "[1]، وفي هذا المقام يقول ابن الأثير: " اعلم أنه ليس في القرآن مكرر لا فائدة في تكريره، فإن رأيت شيئا منه تكرر من حيث الظاهر، فأنعم النظر فيه، وانظر إلى سوابقه ولواحقه لتنكشف لك الفائدة منه "[2]، ونرى أن تكرار الموقف الواحد في البناء الاستفهامي إبراز للجوانب التي لا يمكن أداؤها على وجه من وجوه التعبير، فالعبارة تعاد أكثر من مرة لتبرز في كلِّ مرة وجها من وجوه الحدث، فيخرج المتلقي بتصور كامل للمشهد المتكرر، هذا بالإضافة إلى تأكيد مضمون الحدث، وتثبيته في نفس المتلقي لتكرار وروده في سياقات متنوعة تبرز له أثناء التمعن في السياق النصي للحدث المبثوث في ثنايا السور المكية، فالكلام والتعبير كلما تكرر تقرر عند المتلقي.

أولا: التّكرار اللفظي التّام في سياق السّور للحدث:

---

[1] ــ الزركشي: البرهان: ج4/ 27.

[2] ــ ابن الأثير: المثل السائر: ج3/ 8.

ومنه قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[1]. فتكرر الموقف في سورة الأعراف، فيقول تعالى : ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[2].

أ ← قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ← قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ

أ ← قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ← قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ

فالدالين الأول والمكرر وردا في سياق استفهامي " ما منعك ..." للدلال على استكبار إبليس، واحتقاره لآدم، وعصيانه أمر الله، وفي إجابة الدالين المكررين " قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي .... " تحذير لبني آدم من إبليس، وهي جملة محور أنهت وجوده في الجنة، فالسياق يعرض المشهد أمام المتلقين من زوايا مختلفة وفي مواقع مختلفة، ومع قرائن مختلفة لكنها في العمق الدلالي تؤكد الاستكبار، والعصيان من قبل المخاطب، و يحمل السياق كذلك في طياته معاني التهديد، والإخراج من قبل المتكلم المهيمن على الحدث "فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ "، وكان التأكيد مكررا كذلك في سورة الحجر ليحقق بذلك التماسك النصي للحدث رغم تكراره، وبلورة جميع جوانب القصة أمام المتلقي.

ثانيا : تكرار الحدث بإبدال الدال الأول بجملة أخرى في الدال المكرر تتوافق في الدلالة مع الدال الأول والثاني :

ومنه قوله تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾[3]، وقوله تعالى : ﴿إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾[4]، وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[5].

---

[1] ــ سورة ص : الآية : 75 ــ 77.

[2] ــ سورة الأعراف : الآيات : 12 ــ 13.

[3] ــ سورة الشعراء : الآيات : 69 ــ 71.

[4] ــ سورة الصافات : الآيات :84 ــ 86.

[5] ــ سورة الأنبياء : الآيات : 51 ــ 52.

أ ← إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ

أ ← إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ

أ ← إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ

يفسر الخطيب الإسكافي زيادة "ذا" في الدال الثاني "مَاذَا تَعْبُدُون" وخلو الدالين الأول الثالث من ذكرها فيقول: "إن قول إبراهيم "ما تعبدون" معناه أي شيء تعبدون، وقوله "ماذا" في كلام العرب على وجهين: أحدهما أن تكون "ما" وحدها اسما، و "ذا" بمعنى الّذي، والمعنى ما الذي تعبدون، والآخر أن تكون "ما" مع "ذا" اسما واحدا بمعنى أي شيء، وهو في الحالين أبلغ من "ما" وحدها، فإذا قيل ما المستفهم بـ "ما" وحدها أجابوه نعبد أصناما فنظل لها عاكفين، فنبه ثانية معقبا على إجابتهم، فقال: "هل يسمعونكم إذ تدعون"، وأما "ماذا تعبدون" في سورة الصافات فإنها تقريع، وهو حال بعد التنبيه، ولعلمهم بأنه يقصد توبيخهم، وتبكيتهم فلم يجيبوا كإجابتهم في الأول، ثم أضاف في التعقيب تبكيتا إلى تبكيت، فقال: "أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُون"، فلما قصد في الأول التنبيه كانت "ما" كافية، ولما بالغ وقرّع المخاطبين استعمل اللفظ الأبلغ وهو "ماذا" التي جعل "ذا" منها بمعنى الذي، فهو أبلغ من "ما" وحدها"[1].

وفي الدال الثالث استبدل السياق الجملة الفعلية "تعبدون" بـ "مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُون ..." فأعاد إبراهيم عبارتهم الخبرية في قالب استفهامي ساخرا متجاهلا محقرا آلهتهم مصغرا من شأنها مع علمه بإجلالهم لها، ونرى أن التبديل راجع إلى ترتيب السورة وفق نزولها، فسورة الأنبياء التي جاء فيها التبديل تأخر نزولها عن سورتي الصافات، والشعراء اللتين حوتا حوارا تمهيديا مهد للحدث في سورة الأنبياء، وعلل مجيء جملة الدال المكرر الثالث "مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُون..." على لسان إبراهيم عليه السلام في موقع جملة "تعبدون" في الدالين الأول والثاني.

ثالثا: إبدال الصيغة الصرفية للكلمة المكررة في البناء الاستفهامي بصيغة صرفية أخرى تتوافق مع العمق الدلالي للحدث في الدالين:

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ

---

(1) ــ الخطيب الإسكافي: درة التنزيل وغرة التأويل: ص: 331.

سَحَّارٍ عَلِيمٍ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾[2] وقوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾[1].

أ ← يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ......

أ ← يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ......

فسياق التكرار في الدالين ورد ضمن قصة موسى عليه السلام مع فرعون، من خلال متكلم واحد يخص العامة من قوم فرعون، أما الملأ من قوم فرعون فهم المتكلم الوسيط الذي نقل عبارة المتكلم إلى فرعون، مع تحوير بسيط في العبارة ليناسب المقام الذي قيلت فيه، ويتمثل هذا التحوير بتبديل الدال الأول " سحّار " الوارد في سورة الشعراء بلفظ " ساحر "في الدال المكرر [2]، ونرى أن التبديل راجع إلى تلطف الملأ مع فرعون بالخطاب حفظا على مشاعره المضطربة، والخائفة من قدرة موسى عليه السلام، فلفظ " سحّار " في الدال الأول ناسب الحال التي عليها فرعون؛ لأنَّ القوم أرادوا بالمبالغة أن يسكنوا بعض قلقه الذي لاحظوه أثناء حوارهم معه وجها لوجه، ببيان مهارة السحرة، وبراعتهم في السحر، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال لفظ " سحّار "، أما لفظ " ساحر " فإنه يفتقد هذا المعنى.

وبعد التأمل في هذا القسم للحدث المتكرر في القرآن نجده يجزأه في أكثر من سورة، بحيث لا يعرض الحدث متكاملا، وإنما يعرض في كلِّ سورة توجد فيه جزءا، فإذا جمعت هذا الأجزاء المتفرقة بدت أمامنا كتلة نصية واحدة ذات عمق دلالي واحد، وبهذا يستغل السياق النصي كلَّ لقطة فيها بذاتها لتؤدي دورا في السورة التي وردت فيها متناغم ومتماسك مع مضمونها السطحي والعميق، وهذا الأسلوب يؤدي في نسيج النص القرآني وظائف تتسلط على النص والمتلقي في آن واحد، منها إعانة المتلقين على استيعابه، وتثبيته جزءا جزءا، وهذا النمط ورد في محور العقيدة؛ لأنَّ ترسيخها في النفوس يحتاج إلى تكرار وعرض لجوهر الموضوع، أو الفكرة في أكثر من موطن، وفي قوالب متعددة

---

(2) ــ سورة الشعراء: الآيات: 34 ــ 38.

(1) ــ سورة الأعراف: الآيات: 109 ــ 113.

(2) ــ ينظر: الخالدي، صلاح: **إعجاز القرآن البياني**،دار عمار للنشر والتوزيع،عمّان، ط1، 2000 ص: 227 ــ228

في النص القرآني [3]. ولهذا تكررت قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه وأبيه، ولم تكرر محاورته لابنه إسماعيل، وتكررت قصة موسى مع فرعون، ولم تكرر قصته مع الخضر عليه السّلام، أو مع ابنتي شعيب، لكون الأولى في صلب محور العقيدة، أمّا الأخريان فهما في محيط السلوك، والأخلاق.

ويمكن لنا أن نقول بعد العرض المتواضع لأسلوب التّكرار ضمن السّياق الاستفهاميّ بقسميه التّكرار الخالص في سياق الآية الواحدة، أو الآيتين المتجاورتين في السّورة الواحدة، وما يتفرع منه من أساليب تكراريّة متنوعة، وتكرار الأحداث نفسها خارج نطاق السّورة ليشمل سورا أخرى، فأنه يتعلق بطبيعة النفس البشرية، فالنفس تطرب إذا ردَّ الصدى صوتا كما يقول أهل الأدب [1]، ويزداد طربا للكلمة ذاتها إذا تكررت، فالنفس البشرية طبعت على طبيعة تكرارية .... ويعزز هذا ما أشار إليه بعض علماء النفس من أنّه متى كثر تكرار أمر تولّد تيار فكري، وعاطفي، يتلوه ذلك المؤثر العظيم في الأفراد، والجماعات وهو العدوى [2]، إذ لا يكفي لتحويل الانفعال في السّياق الاستفهاميّ وغيره إلى عاطفة من مرة واحدة، فلا بدَّ من تكراره مرة ثانية، فهو السبيل الوحيد لربط الانفعال المتولد من الاستفهام به وتركيزه حوله، إلى جانب ما يثيره من انفعالات أخرى في تركيبه.

ونجد كذلك في السِّياقين أنَّ التَّكرار يتماشى مع طبيعة المتلقين، فهم ليسوا سواء فمنهم من لا يكفيه الوجيز والخلاصة من الحديث، بل يحتاج إلى الأمر مفصلا مطنبا، ومنهم من تكفيه الخلاصة ويقنعه الإيجاز، فاقتضى الأمر أن تصرف المعاني القرآنية في طرائق مختلفة من التعبير والبيان [3]، وكثيرا ما يعبر الأسلوب القرآن من خلال التكرار عن وجدان الإنسان في حالاته المختلفة. ويظهر لنا أنَّ التكرار من القسمين مطلب نفسي ملح تلجأ إليه حين تخشى الوقوع في الخطأ أو النسيان، وقد نبه إلى هذا الوجه الإمام الخطابي حين قال: " وإنما يحتاج إليه، ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية

---

[3] ــ ينظر: عبد الحليم حفني: أسلوب المحاورة في القرآن الكريم: ص: 56.

[1] ــ ينظر شحاته، مصطفى أحمد: **لغة الهمس**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، د ط، 1972. ص: 57.

[2] ــ ينظر: فهمي، مصطفى: **الدوافع النفسية**، مكتبة مصر، القاهرة، د ط، 1987. ص: 101 وما بعدها.

[3] ــ قنيبي، حامد صادق: **المشاهد في القرآن الكريم**، مكتبة المنار، الزرقاء، د ط، 1984 ص: 298.

بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها، والاستهانة بقدرها "[4]. وهذه الأمور واضحة الدلائل في أسلوب التكرار ضمن السياق الاستفهامي.

الفصل الرابع

موضوعات البنية الاستفهاميّة

من المعروف بطبيعة الحال أنَّ هناك سورا مكيّة، وسورا مدنيَّة في القرآن بحسب مكان نزولها وقت البعثة، وهذ ا الأمر يفرض علينا كدارسين استفهاما يدور في بنية القرآن بشكل عام، والبنية الاستفهاميّة بشكل خاص؟ ما هو السر الّذي يكمن وراء تأثير القرآن الكريم في نفوس البشر؟ وأين يكمن السر؟ أفي معانيه؟ أم في إيقاعه الموسيقي؟ أم في موضوعاته المتنوعة؟ ...كل هذا يطرح ليشا ر إلى أن أثره كامن في كل ذلك، مضافا إليها سره الروحاني الذي حدثنا عنه القرآن، وتحدث عنه أصحاب القول بهذه الوجه من أوجه الإعجاز كقولهم : " إنَّ للقرآن فوق البلاغة، والعذوبة، والحكمة، والبيان روحانية يدركها من لاحظ له فهم الكلام، وتقدير الحكمة، وإدراك البلاغة ، ألا ترى أنَّ الطفل والعامي يعتريهما تهيب عند تلاوته، ولو بصوت حسن، حتى أنّهما ليكادان يفرقان بين ما هو قرآن، وما ليس بقرآن، فيما لو أراد التّالي أن يغشهما .... روحانية تظهر للعارف باللغة، وللجاهل بها فالقرآن صنيع الوحي الإلهي في نفوس البشر، وذلك مالا يتوفر لأيّ كتاب سوى القرآن الكريم ونظمه الفريد.[1]

ويمكن أن يقال إن في القرآن طاقة روحية هائلة ذات تأثير بالغ الشأن في نفس الإنسان، فهو يهز وجدانه، ويرهف أحاسيسه ومشاعره، ويصقل روحه ويوقظ إدراكه وتفكيره، وهذه الخاصية هي التي جعلت العرب يـ خشون سماعه لضعفهم وقوته[2]، والحقيقة التي لا يمكن أن تنكر أن هذا القرآن له سلطة على الفطرة الإنسانية، وشره خاص في التأثير عليها بمجرد تلاوته، أو حتى سماعه، فما من قارئ للقرآن إلا ويشعر أنَّ شيئا ما وراء المعاني الّتي يدركها العقل من

---

[4] ــ الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم (ت 388هـ): **ثلاث رسائل في الإعجاز** ــ البيان في إعجاز القرآن ــ تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، القاهرة، دار المعارف، ط4، د.ت. ص: 48.

[1] ــ فريد، وجدي محمد: **دائرة معارف القرن العشرين**، دار الفكر، بيروت، ط1، 1979 .ج7/679.

[2] ــ ينظر: العمري، أحمد جمال: **مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري**، ص:262.

التّعبير، فهو " سرّ مودع في كل نص قرآنيّ يشعر به من يواجه نصوص هــذا القــرآن ابتداء .... ثم يأتي وراءه الأسرار المدركة بالتّدبير، والنّظر، والتّفكير في بنــاء القــرآن كله"[3]، فالقرآن يطرح التصور الكامل الصحيح الذي ينشئه في الحس، والقلب، والعقــل، والتصور لحقيقة الوجود الإنساني، وحقيقة الوجود كله.

ويطرح الطّريقة الّتي يتبعها لبناء هــذا التّــصور الكامــل الــصّحيح فــي الإدراك البشريّ، وهو يخاطب الفطرة خطابا خاصا غير معهود مثله في كلام البشر أجمعين، وهو يقلب القلب من جميع جوانبه، ومن جميع مداخله، ويعالجه علاج الخبير بكل زاوية، وكل سر فيه، وفي الشمول، والتوازن، والتناسق بين توجيهاته كلها، والاستواء على أفق واحد فيها كلها، مما لا يعهد إطلاقا في أعمال البشر، التي لا تستقر علــى حــال واحــدة، ولا تستقيم على مستوى واحد، ولا تحيط بجميع جوانبه، ولا تملك التوازن المطلــق الــذي لا زيادة فيه ولا نقص، ولا تفريط فيه ، ولا إفراط، والتناسق المطلق الذي لا تعارض فيــه ولا تصادم سواء في الأصول أو الفروع [1]. فهذه الظّواهر المدركة، وأمثالها ... مع ذلك السّر الخافي الّذي لا سبيل إلى إنكاره، مما يسبغ على الكتاب سمة الإعجاز المطلق فــي جميع العصور، وهي مسألة لا يماري فيها إنسان يحترم حسه، ويحترم نفسه، ويحتــرم الحقيقة التي تتطالعه بقوة، وعمق، ووضوح حيثما واجه هذا القرآن بقلب سليم.

والبنية الاستفهاميّة بموضوعاتها في السور المكية خاصة والقرآن الكريم بعامة، تدخل في نسيج السر الإعجازي للقرآن الكريم، فـ موضوعات البنية الاستفهامية في سياق السور المكية نجدها سريعة الحركة والنبض في التركيب الصياغي، لتخاطب من خــلال تعــدد الموضوعات الوجدان[2]. ومن خلال ذلك الترتيب الصياغي نجد أن البناء الاستفهاميّ في جميع أشكاله مشغول بمحور العقيدة خلال ثلاثة عشر عاما من الزمان، وأن التــشريعات

---

[3] ـــ سيد قطب: في ظلال القرآن، ج6/ 3399.

[1] ـــ ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ج6/ 3399.

[2] ـــ ينظر: القطان، مناع: **مباحث في علوم القرآن**، دار غريب، القاهرة، ط5، 1981 ص: 52. وينظر: السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج1/ 22 ـــ 33.

والتّنظيمات لم ينزل منها شيء في مكة إلا توجيهات عامة [3]. ومحور العقيدة ينسحب تحته كل موجبات الأفاق، والأنفس، وتفصيلاتها، وتفريعاتها، ومقتضياتها في واقع النفس والحياة[4]، فالموضوعات في البنية الاستفهاميّة من خلال ذلك ظاهرة بارزة في سياق السّور المكيّة تأتي موضوعاتها على النّحو التّالي:

4 . 1: العقيدة:

يعتبر موضوع العقيدة من خلال البنية الاستفهامية وتشكيلاتها في سياق السور المكية " رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها، فمن عرف عقيدة قوم في إلاههم فقد عرف نصيب دينهم، من رفعة عقيدة الفهم والوجدان، ومن صحة المقاييس التي يقاس بها الخير والشر، وتقدر بها الحسنات، والسيئات، فلا يهبط دين وعقيدته في الإله عالية، ولا يعلو دين وعقيدته في الإله هابطة، ليس مما يناسب صفات الموجود الأول التي تتبعه جميع الموجودات"[1] فالقرآن جاء بأسمى عقيدة في الإله الواحد الأحد صححت فكرة العقائد الباطلة التي سبقته " فكان تصحيحه أعظم المعجزات التي أثبتت له في حكم العقل المنصف، والبديهة الصادقة أنه وحي من عند الله عزَّ وجل "[2]، ولا شك في أنَّ مفهوم العقيدة واسع، ومواضيعه مختلفة، ولذلك سأبحث أغلب الموضوعات التي اشتملت عليها الأبنية الاستفهامية في باب العقيدة، والأشكال التي برزت فيه العقيدة في سياق البنية الاستفهامية هي:

1 ـ الألوهيّة:

إنَّ وجود الذَّات الإلهيّة للمؤمن حقيقة موضوعية، وذاتية معا " فوجوده برهان على هذا الوجود، وكل موجوداته هما آيات هذا الوجود، وليس مقاييس العقل الإنساني هي مقاييس هذا الوجود، فالله هو مقياس كل موجود، ومن يحاول أن يستدل على وجود الله بالبرهان العقلي، كمن يحاول أن يزن الجبل بميزان الذهب، وهذه هي عقلانية وجود الله

---

[3] ـ ينظر: قطب، محمد، **دراسات قرآنية، دار الشروق**، بيروت، لبنان، ط4، 1985. ص:20. وينظر: علي، أسعد اسماعيل، **القرآن الكريم رؤية تربوية**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 2000 ص: 142. ومناع القطان، مباحث في علوم القرآن: ص: 54 ـ 55.

[4] ـ ينظر: الميداني، عبد الرحمن حبنكة، **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجل**، دار القلم، دمشق، ط1، 1989. ص: 53 ـ 56.

[1] ـ العقاد، عباس محمود،**حقائق الإسلام وأباطيل خصومه**، المكتبة العصرية، بيروت، د ط، 1957 ص: 32.

[2] ـ علي، أسعد اسماعيل، القرآن الكريم رؤية تربوية، ص: 18.

الذاتية"[3]وهذه العقلانية الذاتية تقابلها العقلانية الموضوعية الأسلوبية للأبنية الاستفهامية لتثبت حق الألوهية لله عزَّ وجل، ويرد ذلك من خلال هذه الأبنية الأسلوبية المختلفة وتشكيلاتها، ولكن اللافت للنظر سيطرت بنية الهمزة على هذا القسم من أقسام محور العقيدة، لما تتصف به البنية من مرونة مطلقة في الصياغة اللفظية للتركيب، والمعنى في وقت واحد، وتأتي مظاهر الألوهية في سياق البنية الاستفهامية في السور المكية على أنماط وأشكال مختلفة يفرضها السياق النصي للآيات ليقرع من خلالها المتلقي المباشر بهذه الحقيقة.

والجانب الأوّل الّذي نلحظه في سياق البنية الاستفهاميّة لهذا الموضوع يتمركز في تفرده بخلق السماوات والأرض، فالقرآن نزل في زمن تاهت فيه الأفكار، وتراكمت فيه العقائد، والتّصورات، والفلسفات، والأساطير، والأوهام، والتّقاليد ... وحاد النّاس عن الحق إلى الباطل، وعن التوحيد إلى الشرك، واختلط الدين بالخرافة، والفلسفة بالأسطورة وعبد الناس عنا صر الكون، وظواهر كالشمس، والقمر، والنجوم، والأنهار، والجبال، والرعد، والبرق... ولم تخل حضارة من الحضارات التي عاصرت القرآن من لوثة الوثنية، ولم تنأ عن تعدد الألهة .... فجاءت الأبنية الاستفهاميّة في سياق السّور المكيّة لتناقش هذا المحور الخطير من خلال لفت الأنظار إلى الخالق بدلالة المحسوسات الكونيّة، وأوّل ما تطالعنا بنية الهمزة بلفت الأنظار إلى كيفية بدء الكون ومصيره، فيقول تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ۞ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۞فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1].

البناء ←—— قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ....

فالبناء السطحي للتركيب الاستفهامي يطرح موضوع خلق الأرض للدلالة على المنشئ المتصرف في كل الأمور، فبدأت الصياغة اللفظية للسياق النصي بالهمزة، وحرفي التوكيد " إن " و " اللام " لتشويق المتلقي إلى ما بعد الاستفهام ببيان أن أمرا مهما

---

(3) ــ صعب، حسن، **الإسلام والإنسان**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1980 ص:95.

(1) ــ سورة فصلت الآيات: 9 ــ 12.

سيلقى إليهم، فتمركز الأمر بحادثة خلق الأرض من قبل خالق عالم بكل الحيثيات، وفي هذا السياق يقول ابن عاشور : " بدأ السياق بذكر خلق الأرض؛ لأنَّ آثاره أظهر للعيان، وهي في متناول حواس الإنسان، فلا جرم إن كانت الحجة عليهم بخلق الأرض أسبق نهوضا، كون النعمة التي عليها أقوى وأعم، فيظهر قبح الكفر بخالقها أوضح وأشنع..." [2]. ونرى أن البناء الاستفهامي يطرح الموضوع، أو الدعوى مقترنة بالدليل الصادق على وجود خالق الأرض، ومن عليها، ورغم وجود الدليل كفروا، فينكر عليهم السياق هذا السلوك، ويصفهم بالغباء.

والبناء الاستفهاميّ لا يقف عند هذا الحدِّ في التَّصور، بل يتجاوزه إلى بيان أصل خلق السَّماوات والأرض، ويعرض ذلك في صياغة لفظيّة تتصدرها همزة الاستفهام، وحرفا العطف والنفي" ولِيلفِت السّياق من خلالهم أنظار المتلقين إلى الخالق المبدع المتصرّف العالم بالأمور، فيقول تعالى : ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [1].

البناء ← أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...
← وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ....

يظهر لنا في البنية السطحية للاستفهام أن الآيات تطرح الموضوع للمتلقين بأسلوبين : الأول العقلي، والثاني النقلي، فالعقلي يطرح للمتلقين أن السماوات والأرض كانتا ملتصقتين ففتقهما الله عزّ وجل، وفصل كل مجموعة منهما عن الأخرى، والنقلي يتجلى في بيان قدرة الله خلق كل شيء من الماء، فالاستفهام بهذا الطرح التركيبي داخل البنية النصية للآيات يجعل البرهان الثاني النقلي الدال على الخالق مفضيا إلى التسليم بالبرهان الأول " العقلي " رغم قوة البرهان الأول، لأن البرهان الأول حقيقة ملموسة لدى المتلقين في جميع الأحوال والأزمان، وهذه الحقيقة ملموسة ومشاهدة يعترف بها، فكان ذكر هذا الدليل، وهذه الحقيقة دليلا على الإلزام، والتسليم بتلك الحقيقة الإيمانية

[2] ـــ ابن عاشور : التحرير والتنوير، ج25/ 17.

[1] ـــ سورة الأنبياء الآيات : 29 ـــ 32.

الشامخة "خلق السماوات والأرض " التي لم يرها أحد[2]، فالبرهان الثاني الذي تسلط عليه الاستفهام وقرائنه طريق لقصر الإيمان بالحقيقة الأولى، كما كان البرهان الأول " العقلي " طريقا قصريا للإيمان بالبرهان الثاني " النقلي " الذي ينازع في المشركون، وزيادة على القصر في دلالة الإيمان يفضي الاستفهام في هذا السياق إلى حقيقة علمية يقرها للمتلقين " ببيان أن الماء هو مهد الحياة الأول، وهي حقيقة تثير الانتباه فكل ما في الكون يقود إلى الإيمان بالخالق المدبر الحكيم ..."[3]، ونرى إلى جانب ما ذكره المفسرون أنَّ التَّركيب الصّياغي للاستفهام خاطب المتلقين بهذا النَّسق العقلي، والنّقلي ليفاجأهم ببيان عجز آلهتهم عن الخلق، ويهز عقولهم هزا ببيان قدرة الخالق، وتصرفه في الكون، ويبين للمتلقي سفاهة عقولهم التي أوصلتهم إلى عبادة ما لا يضر، ولا ينفع من دون الخالق القادر، فوجود السماوات والأرض، وتدبيرهما وفق هذا النظام الواضح لم يكن لهوا ولعبا، وإنما ملتبس بالحق الذي ينبغي أن يوحي بوجود الله عزَّ وجل، وبقدرته التي تكمن في هذا الخلق الضخم العجيب...

وتبقى البنية الاستفهامية وخاصة همزة الاستفهام في سياق السور المكية، وفي هذا الموضوع ــ خلق السماوات والأرض ــ توقظ القلب البشري في التأمل والتدبر واستجلاء العجائب في هذه المشاهد الهائلة، غير أنه لا يدرك هذه العجائب إلا القلب العامر باليقين، وقد ورد ذلك في سياق الهمزة المتصلة بحرفي العطف والنفي في نهاية الآيات، فيقول تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1].

البناء وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ....

فالّذي يصر على العناد والكفر، حاله تشبه حالة من يمر بالمشهد الكوني مغمض العين، والقلب؛ لأنَّ لمسة اليقين الإيماني لم تثبت في قلبه، فأصبح محجوبا عن حقيقة

[2] ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام، ج2/ 356 .

[3] ــ سيد قطب : في ظلال القرآن، ج4/ 2376 .

[1] ــ سورة الذاريات الآيات : 15 ــ 22 .

الوجود، التي لا تنفتح إلا بحقيقة الإيمان، ولا ترى إلا بنور اليقين، وفي هذا يوجه البيضاوي التركيب الاستفهامي في ضوء المعنى العام للسياق النصي والتركيبي للآيات، فيقول: " فيها من الأنواع والمعادن، والحيوان .... أو وجوه دلالات من الدحو والسكون تدل على وجود الصانع المتحكم ..."[2]، فالتركيب الاستفهامي يأتي بعد هذا الحث لتقريع المتلقين المباشرين وقت نزول النص القرآني في إزراء لهم لصدهم عن هذه الآيات المنتشرة في أرجاء الأرض، وحثا لهم على النظر فيها، وتأملها تأملا فكريا نابعا من القلب والوجدان للوصول إلى أعلى درجات الإيمان.

ولا يقف الحدّ عند بنية الهمزة وحدها في بيان خلق السَّماوات والأرض، وتدبر شؤونها بل يتجاوز إلى سياق بنية " من "، التي توجه الصياغة اللفظية، والتَّركيبية توجيها من أجل الاستدلال على وحدانية الله وتنزيهه، وجعل الكون، ومشاهده العظيمة برهانه وحجته، وجعلهما مجال النظر، والتدبر للحق الذي جاء به، فيقول تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1].

البناء ←——— وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ...............

←——— وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ............

فالبناء الصّياغي للاستفهام في الدالين يتجه إلى المتلقي السّلبي يقرعهم بمسلماتهم في أمور الكون، فهم يقرون بخلق السماوات والأرض، وتسخير الشمس والقمر، وإنزال الماء من السماء، وإحيائه الأرض بعد موتها، وما يتضمنه هذا من بسط الرزق لهم، أو تضييقه عليهم. بعد ذلك كله يشركون بالله، فيعبدون الأصنام، أو يعبدون الجن، أو الملائكة، وهذا تناقض عجيب يعجب منه الله عزَّ وجل في سياق الآيات، ويطرحه بأسلوب

---

[2] ــ البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص: 690 ــ 691.

[1] ــ سورة العنكبوت الآيات: 60 ــ 65.

استفهامي " فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ.." وفيه يقول الزمخشري : " كيف يصرفون عن توحيد الله، وأن لا يشركوا به شيئا مع إقرارهم بأنه خالق السماوات والأرض ...."[2]، ونرى أن السياق الاستفهامي يكرر التركيب عن ماهية خالق السماوات والأرض مرتين ليقرر من خلالهما حقيقة الخالق في فطرتهم، ويجعله أساسا لإلزامهم في إبطال عبادتهم للأصنام وما هو من دون الله، ودحض شركهم، وتوهين آلهتهم.

وتأتي بنية " ماذا " الاستفهاميّة في عمق هذا المحور لتخاطب الإنسان بمساعدة القرائن، وتدعوه أن يوجّه نظره إلى خلق هذا الكون ـ سمائه وأرضه ـ وتدعوه إلى فكلتدّ في أسراره ليدعم إيمانه، ويطرد فلول الشّك في نفسه، فيقول تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ * فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾[1].

البناء ←قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ........

البناء التَّحويلي للصِّياغة اللفظية " ماذافي السَّماوات ..." في الآية يطرح مفهوم النَّظر، وإعمال الفكر لما فيالكون لتأكيد أن بين الفطرة البشرية ، وهذا الكون الذي نعيشفيه لغة خفية غنية، وأنَّهذه الفطرة تسمع هذه اللغة الكونيّة حين تتفتح وتستيقض ... فبنية " ماذا ..." تكثف الصّياغةرالتّيبية، وتدعو المتلقي إلى التّأمل والاعتبار، ثم تفخم المأمور بالتَّمل فيه، فالبنية تناقش أمرين : الأوّل إقامة الحجة على المنكرينخبالقِ الكون ذات مطلقة متصرفة بيدها مقاليد كل شيء، والثّاني: إيناس قلوب المؤمنين بأن ما في الكون والوجود لخدمتهم، وبهذا يكون البناء الاستفهامي في هذا الموضوع قد حول الفكر الإنساني من عبادة عناصر الكون التي لا تستحق التأليه إلى عبادة الله الحري بالعبادة وحده، والنظر إلى ما في السماوات والأرض ليمدّ عقل المؤمن

[2] ـ الزمخشري: الكشاف، ج3/ 447.

[1] ـ سورة يونس الآيات: 100 ـ 102.

وقلبه بزاد من المشاعر والتأملات، وزاد من الاستجابات والتأثيرات، وقدر من سعة الشعور بالوجود، وبهذا التعاطف والانفعال الذي ترسمه البنية الاستفهامية يزداد إيمان الفرد بوجود الله، وجلاله وتدبيره، وسلطانه، وحكمته، وعلمه.

أمّا الجانب الثّاني لهذا الموضوع في سياق التركيب الاستفهاميّ ــ خلق السدّ ماوات والأرض وما عليها ــ هو دعوة المتلقين في جميع مستوياتهم الإيمانية إلى النظر في الكون بجميع جوانبه، وذلك حتى يعرف الإنسان قدر خالقه وعظمته، وسيطرته، وفي المقابل يعرف الإنسان من هو؟ وفي أي موقع من الكون يقع؟ وما هي مسؤولياته في الحياة؟ وكيف ينبغي أن يتصرف " فكل ما في الوجود مما سوى الله تعالى، فهو فعل الله، وخلقه، وكل ذرة من الذرات من جوهر، وعرض، وصفة، وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته، وجلاله، وعظمته، وإحصاء ذلك غير ممكن..."[1]، والأبنية الاستفهامية في السور المكية تطرح هذا المفهوم تحت أنماط أسلوبية مختلفة، فأول هذه الأنماط أن يكون المحور في السياق الدلالي للتركيب ذكر دلائل الخلق، والتسخير لما في السماوات والأرض ثم يعقب بعد ذلك بالسياق الاستفهامي، منه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۞ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ۞ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

البناء ←أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ.......

فالسياق النصي للآيات بمساعدة القرائن السابقة، والامتداد التركيبي على مستوى البنية السطحية يعدد نعم الله الدالة على وجوده، ليلفت نظر الإنسان، ويخلق عنده حالة انفعال من خلال التدبر والتفكر في مجالات الكون المتعددة من النعم سواء خلق السماوات والأرض، وما فيهما من عجائب، أو خلق الإنسان، وتسخير الشمس والقمر، و إنزال الماء من السماء " فهو سياق جامع للتنبيه على وفرة هذه النعم لخدمة الإنسان حيث لا يستطيع

---

[1] ــ حوى، سعيد: **المستخلص في تزكية الأنفس**، دار الأرقم،عمان، دار القبس، بيروت، ط1، 1983م. ص: 109.
[2] ــ سورة النحل الآيات: 9 ــ 16.

عدّها العادون، وإذا كانت كذلك، فقد حصل التنبيه إلى كثرتها بمعرفة أصولها، وما يحويها من العوالم ... وفي هذا إيماء إلى الاستكثار من الشكر على مجمل النعم، وتعريض بفضاعة كفر من كفر بهذه النعم..."[3].

أما البناء الاستفهامي الذي ختم الصياغة اللفظية والتركيبية في البنية السطحية " أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ...." جاء بمثابة المسفّه لمن يسوون الخالق المدبر بمن لا يخلق [4]، ونرى أن البناء الاستفهامي في سياقه السطحي والعميق تركيب في صورة التشبيه السلبي، فوجه الشبه بين الطرفين معقود على سبيل التوهم، أو الادّعاء خارج نطاق السّياق القرآنيّ فأتى البناء الاستفهاميّ لينفي أن يكون بين الطّرفين صلة، وهذا النّفي يأتي من جانب حرف الاستفهام " الهمزة ..." دون حروف النّفي، وذلك لأنَّ النّفي الصّريح أشبه ما يكون بالتلقين، أما النفي المستفاد من الاستفهام الإنكاري كما يقول المطعني: " يحتاج إلى إعمال الفكر ، والعقل، فالنفوس هي التي تدرك هذا النفي، فيتمكن فيها كل التمكن، وأن ما تستنتجه النفوس بعقلها وفكرها فلا سبيل لرفضه عندها فإنكار المساواة بين الذّات الإلهية، والأصنام في هذا السياق حكم عقلي قبل أن يكون شرعيا؛ لأن العقل يفرق بين الطرفين تفريقا بديهيا..."[1].

ومنه ما يأتي في سياق بنية " أنى " ليخاطب الخلق والإنسان، وحقيقة كفالة الحياة بالرزق الذي يسره لها رب العزة في ملكه، فيقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[2].

البناء ←—— ...... وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُون ......

---

[3] ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير، ج13/ 99.

[4] ــ ينظر : الزمخشري: الكشاف، ج2/ 575. وتفسير أبي السعود، ج5/ 104. والألوسي: روح المعاني: ج14/ 117.

[1] ــ المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام، ج2/ 186.

[2] ــ سورة الأنعام الآيات: 94 ــ 98.

فالامتداد السياقي والقرائن القبلية والبعدية للبنية الا ستفهامية " فَأَنَّى تُؤْفَكُون..." جعلت هذه الحقائق تقف في موقف المؤثر ، والموحي لكل أسباب الانفعال، وجلب الانتباه عند المتلقي اللبيِّ، والإيجابي على حدٍّ سواء، فالانفعال يدعو المتلقي إلى ضرورة إخلاص الاعتقاد والعبادة لله تعالى، والخضوع له وحده، فالاستفهام بهذه العمق الصياغي يفتح قلب المتلقي، وينير له البصيرة، وينبه أجهزة الاستقبال، والاستجابة في فطرته، ويصل المتلقي في جميع أحواله الزمانية، والمكانية بالوجود، كما هي الحال في التّركيب الصِّياغي الَّذي يصل الامتداد الّذي يسبق البناء الاستفهاميّ بالتركيب الّذي يلي البناء، ويجعل منه كتلة نصية متماسكة تدعو الوجدان إلى الإيمان بالله خالق الجميع[3].

ويطرح السّياق الاستفهاميّ في هذا الموضوع ظاهرة كونيّة مشاهدة للعيان تتكرر كل يوم أمام أعين البشر بأسلوب الإجمال، والتّفصيل من أجل التّدليل على قدرة الله في الخلق دون غيره، فيقول تعالى: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ * نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾[1].

البناء ←
أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ....
أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ....
أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ....
أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ....
أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ ....
أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ..

فالسّياق النّصي للبناء الاستفهام يطرح موضوعات متعددة تمس موضوع الألوهيّة، وهذه الحقائق في كل لحظة ينساها الإنسان لتكرارها أمام عينيه، وهي أعجب من كلِّ عجيب يبدعها شطحات الخيال، فخلقه في كل مظاهره أعجوبة لا يقدر

(3) ـ ينظر: الصَّابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ط، 1993، ج1/ 407.
(1) ـ سورة الواقعة الآيات: 56 ـ 69.

عليها إلا خالق تدبر أمره، ولا يقل في هذا المشهد الكوني الدال على الخالق الذي يعيشه البشر إنبات النبات، وإنزال الماء من السحاب...

فالسّياق الاستفهام بهذا الأسلوب التّركيبي، والّذي يجمل فيه ويفصل، يعقد حوارا مع المتلقين ليثبت من خلاله جلال القدرة الإلهية، وكمالها وبديع صنعها، ونرى كذلك أن البناء بهذا السبك اللغوي، وفي هذا الموضوع يخلق عند المتلقي حالة من الترقب لمعرفة اللاحق كونه يضع المتلقي في حالة انفعال شديد، ثم بعد هذا الانفعال يأخذ بطرقه، وقرعه بأسئلة متوالية الأسئلة عند طرحها عليه معروفة من الممارسة والمعايشة، ولكنّه يشعر معها منخلال الصياغة اللفظية أنه يسمعها لأول مرة لعمق الدلالة التي تحويها والموضوع العميق الذي تدعو إليه.

ومن هذه المظاهر الكونيّة الّتي تدل على وجود الخالق، وترتبط ارتباطا وثيقا بحياة الإنسان العربيّ خلق الإبل، وربطها بخلق السّماوات والأرض والجبال، بل وكل شيء خلقه، فيقول تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[1].

فالصّورة المعروضة من خلال البنية الاستفهاميّة،وقرائنها،وخاصة ترديد حرف الجر " إلى "، جمعت بين السّماء والأرض، والجبال والجمال، وهي أربعة مظاهر للضّخامة في هذه المخلوقات، وأجزاء الصورة موزعة بتناسب فني، ففي الاتجاه الأفقي لقطتان السماء المرفوعة، والأرض المبسوطة، وفي الاتجاه الرأسي لقطتان الجبال المنصوبة، والجمال صاعدة السّنام، فاللقطتان الرأسيتان متناسقتان مع اللقطتين الأفقيتين، فاللوحة الطبيعية المرسومة من خلال البنية الاستفهامية قاعدتها السماء، والأرض لا يبرز فيها من الأحياء إلا الجمال ... والجمال أنسب الأحياء؛ لأنها سفن الصحراء التي تحدها السماء والجبال، وبهذه الدقة التعبيرية التي أنتجتها الصياغة التعبيرية، واللفظية داخل السياق الاستفهامي نجد التناسق في الأشكال والأحجام، والألوان[2].

ونرى أنّ البناء الاستفهاميّ يلفت انتباه الإنسان العربيّ في الصّحراء إلى هذه المخلوقات " الإبل " من خلال عظمتها، وقوتها، لكنّها رغم ذلك تنقاد للطفل

---

[1] ــ سورة الواقعة الآيات: 17 ــ 22.

[2] ــ ينظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم،ص: 101.

الصّغير، فالاستفهام بهذا الأسلوب التّشريفيّ من خلال تقديم خلق الإبل على غيرها من مخلوقات الله يجعل العقل، والوجدان يبدأن خطوات التّفكير السّليم بالإحساس بالظّاهرة، ثم الانتقال إلى خطوات الوعي بهذه الظّاهرة، وتحديد إطارها، وميدانها، ثم الانتقال إلى خطوات التعرف على تفاصيل هذه المعلومات، وتدبرها وتصنيفها، واكتشاف اللائق بينها، ثم الانتقال إلى خطوة اكتشاف الحكمة الكامنة وراء الظاهرة، وبين الأدوات التي ينبغي استخدامها لاكتشاف الحكمة[3].

ومن المظاهر الطبيعية الّتي تمركزت فيها البنية الاستفهاميّة وتثبت ألوهية الخالق عزَّ وجل خلق البحر، ليشهد الإنسان من خلال التركيب، والصياغة اللفظية، والدافع العقليّ المشاهد للعيان عِظم هذه الظّاهرة من خلال اقترانها بمظاهر الخلق فالملتي قرع بها النَّص المتلقي السَّلبي في كل زمان ومكان، فيقول تعالى : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ *أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَأَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلا مَّا تَذَكَّرُونَ *أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ *أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

فسياق الاستفهام يطرح الموضوع من خلال أسلوب المقارنة، أو بأسلوب التّفصيل ثم التّوضيح لمكانة النّعمة على الإنسان، فالأرض والسّماوات هما مودع النِّعمة والاستقرار، وديمومة الحياة، فالأرض مستقرة بوجود الجبال، والبحار، وكل موجوداتها ولهذا يلفت السِّياق النّصيّ المتلقي السّلبي إلى هذه النعم كونه منكرا أنْ تكون من خالق

---

[3] ــ ينظر : الكيلاني، ماجد عرسان : **مقومات الشخصية المسلمة**، رئاسة المحاكم الشرعية، قطر، الطبعة الأولى، 1411هــ، ص :55.

[1] ــ سورة النمل الآيات : 60 ــ 64.

موجود، ولهذا عقَّب السّياق بما يسبقه من ذكر للنعم بقوله أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى ..." ليلزم المشركين والمنكرين بالحجة، وتكذيبهم فيما يدعون، ورميهم بالجهل والجهالة معا .

وفي السّياق نجد التّوافق ما بين الصّياغة الأسلوبيّة للتركيب، والمعنى الدّلالي الذي يتجه إليه التركيب، فقدم السياق لفظ " الأنهار " على لفظ الرواسي لشدة الحاجة اللفظية والسياقية إليه، وتأخر لفظ " الرواسي "؛ لأنها تأكيد للقرار المذكور، فيقول المطعني في بيان ذلك : " دلالة جعل الأنهار دلالة تأسيسيّة، أما دلالة الرّواسي فإنّها دلالة توكيدية، والتأسيس مقدم على التوكيد "[2]. ونرى أن السياق الاستفهامي بهذا الترديد للتركيب الاستفهامي يترك لنفس المتلقي أن تصل إلى النتيجة، وهذه من الوسائل المؤثرة في النفس والوجدان حتى يصل بعقله، ووجدانه إلى النتيجة التي يرغب السياق أن يؤكدها للمتلقي السّلبي، والمتلقي الإيجابيّ.

أمّا الجانب الثّالث لهذا الموضوع العقدي، الّذي تطرقه البنية الاستفهاميّة، يتمركز في لفت النظر إلى خلق الإنسان، فقد حظي هذا الجانب بالقسط الأكبر من الصّياغة اللفظية في السّور المكيّة، كيف لا وهو سيد المخلوقات، الّذي سُخر له كلّ ما في السماوات والأرض، وخصَّ بملكية العقل، والبيان، فكان أهلا لحمل الأمانة الّتي عجزت عنها السّماوات والأرض، فبينت الأبنية الاستفهاميّة من خلال القرآن النّصية واللفظية والتّركيبية مبدأ خلق النّوع البشري، ثم سنة الله عزَّ وجل في تطويره، وتكاثره من الزّوجين، ومصيره باعتباره كائنا حيا . ومن الأبنية الاستفهاميّة الّتي طرقت هذه الموضوع في سياق السّور المكيّة بنية " من "، فيقول تعالى : ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ﴾[1].

فالبنية الاستفهامية من خلال الصياغة اللفظية، والتركيبية تجعل من النفس الإنسانية منفذا للإقناع، دون قسرها عليه، فالاستفهام يحث الإنسان على النظر في مبدأ خلقه ليتذكر من خلاله، وينتبه ليعتبر، ويصل إلى كمال قدرة الله عزَّ وجل في صنيعه، وفي هذا المحور يقول (الكسيس كاريل): " إن البشر بذلوا مجهودا جبارا لمعرفة النفس البشرية، إلا أن هذا الجهد أعطانا جوانب معينة عن هذه النفس .... ويبقى الجزء الأكبر

---

(2) ــ المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام، ج3/ 170 ــ 171 .

(1) ــ سورة الطارق الآيات : 4 ــ 10 .

دون معرفة تحوم حوله الأسئلة دون جواب شافي "[2]. ونرى أن البنية الاستفهامية وقرائنها تخاطب العقل بمنطق قوي، وحجة ظاهرة، ودليل قاطع، وفي الوقت نفسه تخاطب الشعور والوجدان، خطابا يستدر به العطف، ويوقظ الإحساس.

وفي هذا القسم نجد أن البنية الاستفهامية في تشكيلاتها المختلفة، تضعنا أمام مشاهد جامعة لملكوت السماوات والأرض من بحار وجبال، وأنهار، وما فوقها من أفلاك وشموس وقمر ونجوم ... وفي كلِّ جزئية تسيطر عليها البنية الاستفهامية في المشهد الجامع تتجلى قدرة الله المبدعة في جمال الخلق وروعته واتساقه، فالآيات التي عرضت لها البنية الاستفهامية، ومن خلال هذا الأسلوب في الربط ما بين الصياغة، والمعنى تعمق عند المتلقي قوة الاستدلال على قدرة الله وتدبيره، ورحمته، وحكمته، وسعة علمه، والأمثلة كثيرة شاهدة على ذلك.

2 ــ البعث:

ليس الإيمان بالله، وإثبات وجوده وتوحيده، وبيان قدرته، ورحمته وسعة علمه، بمعزل عن حقائق أخرى هامة في الفكر الإسلامي، كالإيمان بالكتاب والنبوة، والبعث، بل إن هذه الحقائق لتتفرع عن تلك التي سبقتها في كثير من الآيات القرآنية، ونجد أن الأبنية الاستفهامية من خلال نسيج النص القرآني في السور المكية تستدل بأحوال السماء والأرض، وما بينهما على البعث والنشور، ونرجع هذا الربط ما بين دلائل الخلق بجميع أشكاله ومظاهره، والبعث في سياق البنية الاستفهامية إلى واقع المعنى الدلالي في بنيته العميقة على المستوى السطحي للصياغة اللفظية، والمستوى العميق، فالمعنى يشمل كل ما يدركه العقل، وبهذا الإدراك نلمس الصلة ما بين الربط السياقي لدلائل الخلق من خلال الكلام والعقل، فإذا أدرك العقل هذا المعنى واستوعبه نقله إلى مكامن الإحساس والوجدان وحصل عنده المعنى المراد هذا من جانب [1]، ومن جانب آخر أن خطاب السياق الاستفهامي في القرآن الكريم لا يتجه إلى العقل وحده، بل يخاطب كلا من العقل والخيال والشعور ... فيحمل إلى العقل معنى يخاطبه به، وينفث في المشاعر والخيال إحساسا ينقل لنا ما في المشهد من حركة وحياة ودلالة سياقية ومعنوية.

---

(2) ــ كاريل،الكسيس: **الإنسان ذلك المجهول**،تعريب:شفيق أسعد فريد،مكتبة المعارف،بيروت، ط4، 1985،ص:17.

(1) ــ ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان: **من روائع القرآن**، مكتبة الفارابي، دمشق، د ط، 1977 ص:168.

فالذي خلق هذا الكون العظيم البديع المتسق على غير نظير سابق، ولا مثال محتذى، والذي أوجد هذه الأجرام من العدم، ولم يعجزه إنشاؤها قادر على أن يبعث الإنسان، وينشئه نشأة جديدة، فهذه الظلال التي تتركها الصياغة على الأفكار والمشاعر، هي التي تبقى حية ماثلة بجملتها في الفكر والوجدان، حتى بعد انقضاء الصقورأو المشهد، أو الدلالة، فتبقى تهيم بها النفوس [2]، وأول بنية استفهامية تخرج علينا في سياق هذا الموضوع بنية الهمزة، فيقول تعالى : ﴿ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُورًا﴾[3].

فالبنية الاستفهامية تطرح في المستوى السطحي للصياغة اللفظية مسألة منطقية لا تكلف فيها ولا غرابة، فالمتلقون الجاحدون يؤمنون بخالق السماوات والأرض مع ما لها من ضخامة في الحس والواقع، ولم يعجزه إيجادها من العدم، لكنهم رغم ذلك ينكرون البعث بعد الموت لقناعتهم أن من مات لا يمكن جمعه خلقا جديدا، فالسياق الاستفهامي وقرائنه يطرح قضيتين في العمق الدلالي : الأولى: إيمانهم الشكلي بخالق السماوات والأرض، والثاني: كفرهم الحقيقي بمن يبعث الأموات، وفي هذه الدلالة يقول الزمخشري: " قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السماوات والأرض، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس؛ لأنهم ليسوا بأشد خلقا منهن.... فأبوا مع وضوح الدليل إلا الجحود والنكران والكفر ..."[1]، ونرى أن البنية الاستفهامية تثير عواطف البشر ببيان الجزاء الذي لحق بالمعاندين الكافرين قبل ذكر السبب؛ لأن في هذا الأسلوب إيقاظاً للعقول والعواطف في وقت واحد، وفي هذا المنحى نجد فهما عند (أحمد بدوي) للصياغة الأسلوبية، فيقول: " وبعد الاقتناع والإيقاظ يطمئن العقل، ويهدأ الإحساس بنشوة الفرح والارتياح من قبل المتلقي الإيجابي لأنه أيقن أن الذي يخلق من العدم قادر على إيجاد

(2) ــ ينظر: عبد التواب، صلاح الدين، **الصورة الأدبية في القرآن الكريم**، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1995 ص: 11.

(3) ــ سورة الإسراء الآيات : 98 ــ 99.

(1) ــ الزمخشري: الكشاف،ج2/668.

المخلوقات بعد الموت، لكن الواقع ينعكس عند المتلقي السلبي فيبقى في حالة قلق واضطراب لما يعيشه من واقع وسوء مصير لكفره وإنكاره البعث"[2]. فالسياق الاستفهامي بهذه كما بين بدوي يطرق الحس والعقل والوجدان.

وتلفت بنية الهمزة كذلك أنظار المتلقين إلى آيات الله المحيطة بالغافلين من سماء رفعها، وأرض بسطها، وأنهار أجراها، وجبال أرساها، فإذا كانت له هذه الآيات كيف يعجز عن بعث الناس بعد الموت، فيقول تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى * أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾[3].

فالصياغة اللفظية للبناء الاستفهامي تتوافق مع الدلالة المعنوية، ليحقق هذا التوافق جانبين : الأول : بيان حقيقة المعاندين المتضاربة بأن أقوالهم تخالف أفعالهم، والثاني : تأصيل أمر الإحياء والموت بالذات الألهية.

وثمة مظهر ثانٍ نلمحه في البنية الاستفهاميّة في هذا الموضوع ــ البعث ــ يتمثل في الاستدلال بظاهرة اختلاف الليل والنهار على البعث، لما في هذه الظاهرة الكونية المتكررة من تشابه، وربط بالحياة والموت، فيقول تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ * بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

البناء ← وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ......

نجد في التركيب الصياغي أن الامتداد الصياغي الذي يسبق الاستفهام " أَفَلا تَعْقِلُونَ..." بمثابة التمهيد لمركزية الاستفهام، وتعليل له، وتأصيل على المستويين الصياغي والمعنوي، فالحياة والموت حادثان يقعان في كل لحظة، وليس ببعيد عنهما اختلاف الليل والنهار فكلاهما سنة كونية، الأولى في الأجساد، والثانية في الأفلاك، وهذا

[2] ــ بدوي، أحمد أحمد : **من بلاغة القرآن**، دار نهضة مصر للطباعة والنشر،الفجالة،القاهرة، د ط، 1978،ص :42.

[3] ــ سورة النازعات الآيات : 26 ــ 33.

[1] ــ سورة المؤمنون الآيات : 78 ــ 85.

الأسلوب في تركيبه الصياغي " يركز على التجانس الصوتي ليتوافق مع ما تميل إليه نفس المتلقي الإيجابي، فيخاطب حاسية الوجدان والعقل بلغة الجمال الفنية، وتعرض الصياغة اللفظية من خلاله الغرض الدي ني بلغة الجمال الفني الذي يجعل ورود المعنى عند المتلقين أيسر "[2]، وبهذا يكون نزع الحياة من الحي إعتاما لجسده وهلاكه، وكذلك نزع الضوء من الأرض إعتاما وسكون لها [3]، فهذه الدلائل من خلال الصياغة اللفظية والتركيبية مدركة دالة على الخالق المدبر، المالك تصريف ما في الكون، فبعد هذه الدلائل الكونية والنفسية يأتي البناء الاستفهامي ليستنكر على المنكرين حقيقة البعث رغم قوة هذه الدلائل التي تنطق بوحدانيته تعالى.

ويتشكل من هذا المظهر مظهر آخر يتمثل في استنطاق الأبنية الاستفهامية آيات الكون الصامت لتكون دليلا على عظم ته في الحياة، والإنشاء، والبعث والموت، فالأبنية الأسلوبية للاستفهام في هذا المظهر قائمة على رعاية حال المخاطبين [1]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىأَن يَكُونَ قَ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[2]، وقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

فالصياغة اللفظية في الآيتين تجعل المتلقي ينتقل من جو إلى جو ومن طريقة تفكير إلى طريقة تفكير أخرى، ومن مشاعر إلى مشاعر أخرى، فالمتلقي بهذه الصياغة اللفظية والتركيبية للاستفهام في الآيتين يتعامل مع كائن حي يتحرك وينطق : بمشاعره، وأحاسيسه، فهذا التنقل أخرج الن فس عن الواقع المألوف الذي يشكل خطرا كبيرا على

---

[2] ــ عامر، فتحي أحمد: **بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ**، دار المعارف، الإسكندرية، د ط، 1980، ص: 389. كما ذهب إلى هذا المعنى صاحب الفن القصصي في القرآن حين أشار إلى أن القرآن يجعل الإحساس في اختياره للمواد الأدبية من صور وألفاظ قادرة على التعبير والتأثير، وكان أن بنى عليه تلك النتيجة التي أثارت حفيظة العلماء، وهي أنه ليس بالضرورة أن تكون الأحداث التاريخية والدينية التي يتحدث عنها القرآن أحداث واقعية. ينظر: خلف الله، محمد أحمد: **الفن القصصي في القرآن**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط3، 1965 ص: 252 ــ 254، 260.

[3] ــ ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ج4/ 2477.

[1] ــ ينظر: الزرقاني، محمد عبد العظيم الزرقاني: **مناهل العرفان في علوم القرآن**، تحقيق: بديع السيد اللّحام، مطبعة دار قتيبة، د. مكان، ط2، 2001م.ج1/272 ــ 273.

[2] ــ سورة الأعراف الآية: 185.

[3] ــ سورة العنكبوت الآية: 20.

النفس الإنسانية ممثلا بالملل، فعند تأمل الصياغة في عرض الموضوع زيادة على الحالة النفسية نجد السياق في بنيته السطحية يشير إلى المظاهر الدالة على الخالق وفي المقابل يشير إلى العجز التام للأنداد، التي اتخذها البشر آلهة من دون الله.

فموضوع البعث من خلال البنية الاستفهامية والصياغة اللفظية المصاحبة يتعامل مع النفس البشرية بجميع قوامها لغايات الإقناع، والتغيير، والاستجابة، والتأثير، فاقتضى مع هذا أن ينوع البناء الاستفهامي في طريقته الأسلوبية، وينوع أشكال الخطاب، لـ يضرب من خلالها على أوتار النفس المتعددة، وبهذا يكون الاستفهام في الصياغة التركيبية قد اعتمد التلوين في الأداء الأسلوبي من أجل الوصول إلى الإقناع هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن معظم النصوص القرآنية في سياق البنية الاستفهامية، التي تعرّف الناس بالذات الإلهية تتضمن الكثير من الحقائق عن الكون، والحياة الإنسانية، ولم تكن غايتها تناول هذه المعارف تناول الفلك والحساب، والعلوم الكونية والإنسانية، بل كان عرضها وغرضها ليكون دليلا واضحا لا يقبل شكا ولا ريبة على عظمة الله سبحانه.

3 ــ الرّسالة والملائكة:

المعروف من أسلوب القرآن الكريم في السّور المكيّة والمدنيّة أنّه يجمع في الآية الواحدة بين المسائل العقديّة، والأخلاقيّة، وجوانب السّيرة، وجوانب العبرة، وهذه الأمور على الرّغم من أنّها تبدو لأوّل وهلة موضوعات شتى، إلا أنّها في حقيقة الأمر مرتبطة بموضوع القرآن الرّئيسي ، وبحثه الأساسيّ " فالإنسان هو موضوع القرآن، ودعوة الإنسان إلى منهج هو جوهر هذا القرآن "[1]. وبهذا الموضوع لا تكتمل عقيدة المسلم حتى يؤمن بالقرآن، والكتب المنزلة من قبله، ويؤمن بالوحي، والنّبوة، والقدر خيره وشره، وأنّه لا متصرف فيه سوى الله، وقد وردت هذه الـ بنى من خلال الأبنية الاستفهاميّة " لتطلع المتلقي على خريطة الحياة ومسرحها، ويتأمل مواطن النّجاة فيها، ويرى نماذجها، وفي المقابل يرى مصارع قوم كانت أمامهم فسحة فلم يستثمروها .... كل هذا قبل دخوله

[1] ــ المودودي، أبو الأعلى: **المبادئ الأساسية لفهم القرآن** ، الدار السعودية، الدمام، ط1، 1987 ص: 19.

معترك الحياة، فتكون له زادا وروحا، ونورا يشبه في حاله من استيقظ من نومــه، وقــد رأى في المنام أمرا يخشى تحققه..."[2].

ومن الدّراسة والمشاهدة للأبنية الاستفهامية في السور المكية، وفي موضوع الرسالة، تُبْرِزُ الأبنية في الصياغة التركيبية قدرة عالية بمساعدة القرآن على استحــضار المــشهد الذي تسيطر عليه، فلم تأت مواضيع الرسالة، والملائكة مستقلة في ثنايا السور المكية بل انتشرت في مختلف السور دون ترتيب زمني تتصل فيه حقائق الكون، والحياة، والإنسان بالله تعالى، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة في أسلوب تتعذر مجاراته أو تقليده، وأول ما يظهر لنا في سياق البنية الاستفهامية في موضوع الرسالة ماهية الرسل، وتبين بأسلوب صياغي فني أنهم من جنس البشر، وهذا الجانب تتناوب عليه بنية " هل " و " الهمزة "، فيفــضي البناء الأول إلى الثاني في بيان المعنى الدلالي، فيقول تعالى : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّــن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ *لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَــذَا إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُون *قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي الــسَّمَاء وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3].

السّياق النصي للبناء الاستفهاميّ في بنيته السّطحية يناقش عقيدة التّوحيد، ويفضح أهل الشّرك، والوثنية، فالاستفهام من خلال بنية " هل " يناقش العقيدة، ولكن بصورة تعــاكس الواقع الحقيقي، فالواقع يشير إلى أنّ صاحب الرّسالة يجب أن يكون من جنس المرســل إليهم، لكن المغلين أصروا على نفي ذلك، يقول الزّمخشريّ : " اعتقدوا أن رســول الله عليه السلام لا يكون إلا ملكا، وأن كلّ من ادعى الرّسالة من البشر، وجاء بالمعجزة هــو ساحر، ومعجزته سحر،"[1] وفي السياق نفسه يقول أبو الــسعود : " مــا هــذا إلا بــشر مثلكم، أي من جنسكم، وما أتى به سحر أتعلمون ذلك، وتحضرونه على وجــه الإذعــان والقبول، وأنتم تعاينون أنّه سحر؟"[2].

---

[2] ــ عبدالله، محمد محمود: **حصـــر الفوائد في القرآن الكريم**، الدار الوطنية للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1992، ص 56.

[3] ــ سورة الأنبياء الآيات: 2 ــ 4.

[1] ــ الزمخشري: الكشاف،ج3/ 100.

[2] ــ تفسير أبي السعود: ج6/ 54.

فالمعنى الدّلاليّ للاستفهام كما أشار إليه المفسّرون يتجه في بنيته العميقة إلى نفي المعاندين أنَّ يكون صاحب الرّسالة من جنس البشر، فتأتي الصّياغة اللفظيّة، والأسلوبيّة للبناء الاستفهاميّ ببنية " الهمزة " بعد هذا النّفي أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُون ..." بمثابة إنكار لمن يتّبع هذا البشر . فالبناء الاستفهاميّ الأوّل هَلْ هَذَا إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ..." يمثل في دلالته المعنوية قصر ذات النّبي على صفة البشريّة، وطريقه النّفي المتولد من عنصر الاستفهام " هل "، غير أن هذا النفي، أو الإنكار في الدالين الواردين في السياق النصي للآيات يمكن لنا أن نجعله كناية عن تقريرية بشريته عليه السلام، المستلزم لنفي الرسالة، أو إنكارها في زعمهم[3].

وقريب من هذا ما جاء في سياق بنية " الهمزة " على لسان قوم صالح عليه السلام لنفي صفة الرسالة عنه كونه من جنسهم البشري، وسياق الحديث يأتي في صياغة لفظية وأسلوبية للتراكيب والقرائن تحمل دلالة الإنكار، والتكذيب لمجمل الرسالة، ومن هنا ندرك الحكمة في كون القرآن عربيا، فخاطب القوم بما يعرفون في هذا المجال، لكنه فاقهم في حسن الصوغ، ولطف المعنى، وروعة الأسلوب، فيقول تعالى : ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾[4].

فالأسلوب البنائيّ للتركيب الاستفهامي، وقرائنه النّصيّة يثبت من خلال البنية السّطحيّة حقائق متعددة أوّلها تكذيب قوم صالح للدعوة، والرَّسالة، والثّانية : إنكار أنْ يكون من البشر رسولا يمكن أن يوحي إليه، وهذا الإنكار في حدِّ ذاته دعوى شيطانيّة لكلِّ المعاندين عبر الأزمان والدّهور، والثّالثة : إفراده من دون الجماعة، ومخاطبته بصيغة المفرد " ولا يخفى ما لهذا الأسلوب من دور في التَّركيز، وإثارة الوجدان، ويهدف إلى التأثير العقليّ، وإقامة الحجة والدّليل والبرهان "[1]، وهذه الحقائق في نظرهم كافية لاتهامه بالكذب في ادعاء الرِّسالة.

---

[3] ــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام :ج2/ 342 ــ 343.

[4] ــ سورة القمر الآيات : 23 ــ 25.

[1] ــ خلف الله : الفن القصصي في القرآن،ص : 112.

ونلمس من التركيب الصياغي للبناء الاستفهامي، في المستوى العميق حسد القوم المعاندين، بأن يكون الرسول مخصص في شخص صالح عليه السلام " فالاستفهام إنكار أن تتبع الأمة رجلا واحدا، أو أرادوا واحدا من أفنائهم [*] ليس بأشرفهم، وأفضلهم دلَّ عليه قولهم أألقي الذكر عليه من بيننا "، أي أنزل عليه الوحي من بيننا، وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة"[2]، والذي يظهر من خلال الصياغة اللفظية للبناء الاستفهامي، ونتفق فيه مع المطعني بأنَّ الاستفهام يطرح قاعدة حضارية تتمثل في ثنائية الخير والشر، وأن المنكرين لبشرية الرسل في زمن صالح هم منكروا بشرية الرسول في زمن سيدنا محمد عليه السلام، وهذا هو خلقهم في كلِّ وقت ومكان [3]، واللافت للنظر أن إنكار بشرية الرسول والرسالة بالنسبة للمعاندين يستلزم معه في الصياغة اللفظية مجيء استفهامين الأوّل للإنكار، والثّاني : للتقرير، وهي صياغة ملازمة لهذا المحور الموضوعي في سياق السّور المكيّة.

والشّكل الثّاني الذي تطرحه الأبنية الاستفهامية في موضوع الرسالة يتجلى في بيان مهمة الرسل، وهي بلاغ الناس ما أوحي إليهم من ربِّ العزة، ونجد هذا في سياق من أعرض عن أمر ربه، ليثبتوا بألسنتهم أن الرسالة مهمتها البلاغ دون الإكراه، فهو من الأساليب العلمية التي يعتمد المتكلم فيها على تفريغ الموقف من الأفكار المسبقة التي تحوّل الموقف إلى عقدة تفرض نفسها على التركيب. لكن الصياغة اللفظية في التركيب تواجه الخصم بالقناعات المستندة إلى الأدلة والبراهين، فيعين على تجريد الموقف من حالات التعصب وتحجر الفكرة [1]، ومنه قوله تعالى : ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ۝ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ

(*) ـ قوله واحدا من أفنائهم، ورد في الصحاح: يقال من أفناء الناس، إذا لم يعلم ممن هو، ولم يذكر له واحدا.

(2) ـ الزمخشري: الكشاف، ج4/ 427. وينظر: تفسير أبي السعود: ج8/ 171

(3) ـ ينظر: المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام، ج4/ 198 ـ 199.

(1) ـ ينظر: فضل الله، محمد حسين: **الحوار في القرآن الكريم**، دار التعارف، بيروت، ط5، 1987 ص: 56. وينظر: حفني، عبد الحليم: **أسلوب المحاورة في القرآن الكريم**، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، د ط، 1985 ص: 55.

هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[2].

البناء ←—— ......فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ.........

فسياق الآية في بنيته السطحية يذكر أن المشركين يبررون كفرهم بمشيئة الله ورضاه، وأن ما قاموا به من أعمال يأتي في سياق هذه المشيئة التي يدعونها، فالسياق بهذا التمهيد الذي يسبق البناء الاستفهامي يهيئ للمنشئ أن يبلور بذ ية السؤال بأسلوب القصر ليخص الرسول بعبء التبليغ الواضح لا غير [3]، ونرى أن السياق التركيبي للاستفهام في ظاهره السطحي والعميق يثبت أن مهمة الأنبياء مهمة تبليغية، ليس عليهم إكراه الناس على ترك معاصيهم، وفي المقابل لا يقر السياق الكافر على كفره، فتترك البنية ا لاستفهامي المجال أمام خيار البشر، فإن اتبعوا البلاغ سلموا في الدنيا والآخرة، وإن أبوا البلاغ خسروا الدنيا والآخرة.

والشّكل الثّالث الّذي يأتي عليه موضوع الرّسالة في سياق البنية الاستفهاميّة يتمركز في جانب مجازي، ليخص الرّسل بتلاوة الآيات التي نزلت عليه م من ربّ العزة على المتلقين، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[4].

فالاستفهام كما ذكر ابن عاشور : " للتّوبيخ والتّقرير "[1]، يقول المطعنيّ : " الاستفهام للتقرير وتولد التقرير من دخول الهمزة على الفعل المضارع المنفي فنفت النفي الحاصل بـ" لم " فعاد الكلام إثباتا "[2] ودلالة التقرير تنبع من مهمة الرسل التي تتحصر بتلاوة وتبليغ أمر الله قبل هذا اليوم الذي ذكرتهم به ببيان خيرية الحياة الأخروية باتباع المنهج الأقوم، إلا أن المنكرين رغم ذلك أصروا على الاستكبار على الرسالة وصاحبها، ويظهر

---

[2] ـ سورة النحل الآيات : 34 ـ 36.

[3] ـ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام،ج2/ 192.

[4] ـ سورة الجاثية الآيات : 30 ـ 32.

[1] ـ ابن عاشور : التحرير والتنوير،ج25/ 385.

[2] ـ المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام،ج4/ 80.

لنا في البنية العميقة للبناء، أن معنى التقرير يمكن أن يتفرع منه معاني أخرى تتجه إلى الندم، والحسرة على التفريط بما جاءت به الآيات عندما رأوا العذاب قد حاق بهم.

ولنا في هذا أن نتساءل عن أثر دلالة التقرير في هذا السياق وغيره من السياقات النصية في السور المكية، فتؤكد النصوص في السور المكية أن استفهام التقرير من أكثر التراكيب اللغوية استدعاء للمثيرات عند المتلقي وإنرى أنه يومئ بالحالة الانفعا لية التي يريد الله أن يلف مخاطبيه بها؛ فيسمو به من دور المتلقي السلبي الذي تغيب ذاته الفاعلة إزار الرسالة الخطابية إلى متلق متفاعل حتى وإن لم ينبس بحرف، وبهذا يتوافق المعنى السطحي والدلالي للتركيب مع المعنى العميق الذي تخرج إليه الأبنية الاستفهامية في السور المكية.

أمّا الشّكل الرّابع الّذي تركز الصّياغة اللفظية داخل البنية الاستفهاميّة على ذكره في هذا الجانب الموضوعي فيتمثّل بنصح الأنبياء، والرّسل لأقوامهم بأسلوب نلمس من خلاله حرقة المستفهم، واستنكاره لبشاعة الفعل الّذي يقوم به الأتباع، وقد تمثّل هذا ف ي خطاب لوط عليه السّلام إلى قومه، فيقول تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[3].

فالموضوع من خلال السّياق النّصيّ للتركيب الاستفهاميّ، والقرائن القبليّة، والبعديّة يثبت أن لوطا وصف قومه الشاذين بالجهل، لينبثق من صفة الجهل الّتي أطلقها لوط على قومه معرفة الحالة الانفعاليّة، والوجدانيّة التي عليها المتكلم، فنجدها تتمركز في دلالة إنكار هذه الجريمة والإنكار تولدت دلالته من جوانب أسلوبيّة، ومعنويّة مختلفة فرضها التّركيب البنائيّ، فالأسلوبيّة تأتي من مجيء سياقين أسلوبيين الأوّل للإنكار والتّوبيخ، ـــ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ـــ والثّاني لتوكيد لأوّل وبيان لما فيه من إبهام الفاحشة ـــ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ـــ وأنَّ القوم قد مارسوا الفاحشة، وهذا الشكّل الأسلوبيّ تشكّل من خلال العرض، والتّفصيل السِّياقي، أمَّا المعنويّة فإنَّها تأتي من ثلاثة جوانب :الأوّل إتيان الفاحشة، وارتكابهم لها، حيث تحكمت فيهم الشَّهوة

---

(3) ـــ سورة النمل الآيات: 53 ـــ 56.

وسيطرت على حياتهم، الثّاني : مخالفة الفطرة الإنسانيّةفي هذه الشهّوة،والثّالث : علانية المعصية[1].

ونرى أنّ البنية الاستفهامية تحمل في ثنايا التركيب معنى الإرشاد والنصح لهذا الجهل الذي ارتكبه قوم لوط، فهو جهل طيش، وخفة، وسفه ... وتبيّن كذلك أن الذي يعلم، والذي لا يعلم لا يستوون عند الله تعالى في الدرجة، فلوط عليه السلام علم خطر المعصية علما حقيقيا من خلال الوحي، فبعلمه نصح قومه الجاهلين عن ابتعادهم عن هذه المعصية التي لم يسبقهم إليها أحد من البشر، وبهذا يكون الجهل الذي وصف به لوط القوم جهلا جنسيا لذلك استحق التنبيه والتذكير به.

وفي لحظة ينقلب النّصح، والإرشاد، والتوجيه إلى تهديد ووعيد من قبل الأنبياء لأقوامهم المعاندين، فيقول تعالى : ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾[2].

البناء ← قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ......

فالتركيب التجريدي للاستفهام من خلال بنية الهمزة " قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا..." وقرائنها المصاحبة يصف الحالة الحوارية الّتي دارت بين هود وقومه، فهو يخاف عليهم عذاب الله بعندهم وكفرهم، فينصحهم، ويرشدهم، لكنَّ القوم بحوارهم مع صاحب الرِّسالة، وقولهم له بكل عُنْدٍ " أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا..." يردون الدعوة ويكفرون بها، ويطلبوا منه إيقاع العذاب الّذي يهددهم به بأسلوب إنكاري " أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا ..." فالاستفهام إنكار والمجيء مستعار للقصد بطلب أمر عظيم ..."[1]، فالأمر العظيم والعذاب الذي طلبه قوم هود قلب أسلوب الصياغة اللفظية داخل النسق التركيبي للآيات من أسلوب اللين إلى أسلوب الشّدة، فجعل هود بعد هذا النّصح يتجه إلى التّهديد فيصف القوم بالجهل.

---

[1] ـــ ينظر : المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام،ج3/ 162 ـــ 163.

[2] ـــ سورة الأحقاف الآيات : 21 ـــ 23.

[1] ـــ ابن عاشور : التحرير والتنوير،ج26/ 40.

ونرى أنَّ الجهل الّذي أطلقه المتكلم علـــى صـــفة المتلقـــين الـــسلبيين فـــي البنـــاء الاستفهامي سياق عام وَّلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ....' يحمل في ثناياه التركيبية أكثر من دلالة معنوية وإشارية ، فأول هذه الدلائل : أنه جهل اختيار، ومنبعه يأتي من جانب دعوة هود عليه السلام للقوم أن يؤمنوا بالله، وعدم الشرك .... لكنهم عاندوا دعوته، واختـــاروا الكفر به، والشرك بالله، فاختيار عبادة الآلهة على عبادة الله دليل على جهلهـــم، والـــدليل الثاني: جهل الطلب؛ فلما هددهم هود بالعذاب وأخبرهم بأنه يخاف علـــيهم العـــذاب لـــم يتفاعلوا مع وعيده وتهديده، ولم يستقبلوا تخويفه، وإشفاقه، لكنهم قوم يجهلـــون، فطلبـــوا إيقاع العذاب الذي يهددهم هود به، بل واستعجلوا ذلك العذاب، فهذا الأمر الذي رســـمته التراكيب في الصّياغة اللفظية لا يخرج عن عاقل بل عن جاهل مكابر، والـــدّليل الثّالـــث الّذي يبرزه السّ ياق الاستفهاميّ:جهل التحليل، والنظر : فلما استعجلوا العذاب أرســـل الله لهم ذلك السّحاب الكثيف المتراكم من بعيد فظنوه سحابا ممطـــرا، ففرحـــوا واستبـــشروا معلقين عليه الآمال بالخير والخصب، فهذه نظرة جاهلة تثبتها البنية الاستفهامية في السياق النصي للآيات، فالأدلة الث لاثة للجهل كما يفهم من العمق البنائي للاستفهام يتحقـــق فيهـــا المعنى الجامع للفظ " الجهل " الذي أطلقه هود عليه السلام على قومه المعاندين.

أمّا موضوع الملائكة في سياق البناء الاستفهامي في السور المكية، فإن ظهوره يكـــاد يكون محدودا مع بنيتي " الهمزة " و " هل "، ومرد ذلك أن البنيتين تمتلكان مرونة كبيـــرة في الصّياغة اللّفظية بدخولهما على الجملة الاسميّة، والفعلية في وقت واحـــد، والبنيتـــين تطرق الموضوع لتبين مهمة الملائكة المنحصرة في بـــلاغ أمـــر الله لأنبيائـــه، فيقـــول تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[2]. فالتركيب في بنيته السطحية يثبت مهمة الملائكة ببلاغ أمر الله إلى الأرض.

4 ــ اليوم الآخر:

وفي هذه البنية يشكل السّؤال التقريريّ، والإنكاريّ للمتلقـــين أداة تعـــذيب معنـــوي يستنطقهم السائل به تقريعـــا، أو تحـــسيرا، أو غيرهـــا مـــن الـــدلالات التـــي تـــصفع المخاطب، وتطارده ملجمة إياه عن الكلام، أو تدفع به إلى الإجابة الموجزة المؤكدة بكلمة " بلى" لتجسم حالة الاستسلام المطلقة في هذا اليوم العظيم . وموضوع اليوم الآخـــر

[2] ــ سورة الذاريات الآيات : 23 ــ 25.

تشخصه آيات القرآن الكريم تشخيصا حسيا حيا، فوضعت مراحل هذا اليوم بدقة، ووصفت من خلاله حالة الإنسان الانفعالية والنفسية حين ينفخ في الصور، ثم كيف يهرع الناس سراعا إلى ساح الحساب، وينقلب الكون من خلالها إلى تظاهرة رعيبة، حيث ترجف الأرض، وتتفطر السماء، وتتدثر الكواكب، وتندك الجبال، وتزول النجوم، وتتبدل المعالم المألوفة، ليسود نظام جديد، فالسماوات على اتساعها اللانهائي تطوى كطي السجل للكتاب، ثم يعرض الناس على خالقهم ليحاسبهم على أعمالهم.

فالأبنية الاستفهامية تصف، وتنقل تلك الحالة النفسية التي تعتمل في نفوس المبعوثين للحساب، ذلك كله في جوٍّ يثير الرهبة حين تبرز جهنم للعصاة ترمي بشرر كالقصر، تدعو من أعرض، واستكبر من المعاندين، والكفرة ...... ولا يترك البناء الاستفهاميّ وسيلة فنية، أو أسلوبيّة في عرض مشاهد البعث، والنّشور، والحشر من القبور إلاّ أتى عليها لتشكل جسرا تعبر عليه المعاني إلى النفس الإنسانية بسهولة. فالأبنية الاستفهاميّة تتدرج في الوصف في عرض صور الحشر، ومشاهد البعث، وشخص ذلك بأسلوب بلاغي يمزج بين عناصر الوصف والتخييل من استعارة أو كناية، ويتناول النفخة الأولى في الصور التي تعلن بدء مراحل الحشر[1]، ثم النّفخة الثّانية.

وأوّل مظهر تطلع علينا به الأبنية الاستفهامية من مظاهر اليوم الآخر تداعي الكون، وفيه تتسع دائرة الوصف في الساعات الأولى للحشر، فتظهر من خلال الصياغة اللفظية والتركيبية الحالة النفسية التي يشعر بها الإنسان، أو المتلقي، فتبرز تلك الدلالة من خلال اختلاف الجو المكاني والزماني الذي أخذ يتغير نتيجة هذا التداعي للكون، فتكون الحالة النفسية عند المتلقي على شكل اضطراب وخوف، فيقول تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إِن كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1]. فالاستفهام في سياق بنيته السطحية والعميقة يتجه إلى استهوال الواقع الذي هم فيه فألفاظهم وكلماتهم التي تصدر عنهم في

---

(1) ـ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل : ج4/ 336.

(1) ـ سورة ياسين الآيات : 51 ـ 54.

هذا الموقف تظهر لنا على ألسنتهم ما يعتمل في نفوسهم من مشاعر " يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا من مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا ... "، فالعلاقة وثيقة ما بين صوتهم الدال على المعقول، والمتصور في هذا الموقف، وهذا التعبير بمثابة التنفيس عما في داخل المتلقي لهول الموقف، بغض النظر عما إذا كان هناك من يسمع ذلك الكلام أم لا [2]. فاعتقادهم الجاهل أوصلهم إلى هذه الحالة النفسية المضطربة، لما كانوا يعتقدونه أن الأحياء بعد الموت لا وجود لهم، فلا أحد يستطيع أن يبعثهم من جديد، وهنا تبرز المفارقة ما بين الواقع الصياغي للتركيب، والواقع الذي هم ينكرونه في حياتهم الدنيوية، فالصياغة تعقد المشهد قبل حدوثه.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الذين اهتموا بالعلاقة بين اللغة والفكر ليس فقط علماء النفس في العصر الحديث ــ كما هو شائع ــ فقد تحدث عنها الفلاسفة القدماء، كما تحدث عنها علماء اللغة العرب، ويؤكد هذا أنهم اشتقوا لفظ " المنطق " الذي يعني قوانين الفكر من " النطق "، وفي هذا إشارة إلى ما بين اللفظ والفكر من صلات، كما أننا نجد إشارات متناثرة بين كلام العلماء تشير إلى وعيهم بهذه المسألة، بأن اللغة مكتسبة وله تعلق بتفكير الإنسان[3]، فهو من المظاهر السلوكية الإنسانية التي تعبر عن المشاعر والأحاسيس البشرية المختلفة.

والمظهر الثَّاني الّذي تمثله الأبنيّة الاستفهاميّة في هذا الموضوع يتشكّل في واقعه بين يدي يوم الحشر، وفيه تصف الأبنية، وقرائنها القبلية والبعدية، انتهاء المصير الكوني، فتبدو الشمس مكورة، والنجوم مكدرة [4]، أما الجبال الشامخات فقد قلعت عن الأرض، والوحوش حشرت، والجبال سجرت، ثم يظهر الإنسان من بين هذه التظاهرة الكونية، وهو محط البناء الاستفهامي، مقرونا إلى قبيله ليسأل عن النفس الموؤودة لِم قتلت؟ وما ذنبها ؟، لأنَّه أيقن أنَّ لكلِّ بداية نهاية، فصحف الأعمال برزت للعيان مشاهدة من كل فرد .... وفي وسط هذا الموقف الّذي تتحبس فيه الأنفاس، وتضطرب الأقوال، تقلب الصياغة اللفظية الدلالة لتكمل من خلالها الصورة المرتسمة لهذا اليوم، فتصف السماء من جديد، ويبرز في هذه الصياغة اللفظية عنصر جديد يتمثل في عرض

---

[2] ــ ظاظا، حسن، **اللسان والإنسان**، مكتبة الدراسات اللغوية، د مكان، د ط ، 1990 ص : 68.

[3] ــ ينظر : ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس زكريا الرازي اللغويّ : **الصّاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، تحقيق : عمر فاروق الطّباع، مكتبة المعارف، بيروت،ط1، 1993م.، ص : 48.

[4] ــ ينظر : تفسير النسفي : ج5/ 228.

جهنم وهي تستعر، فيقول تعالى : ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝ وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ ۝ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾[1]. فالبنية الاستفهامية "وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ...." تطرح هول العمل الذي قام به المشركون بين يدي الحشر؛ لأنه يترتب عليه مصير الفاعل.

والمظهر الثالث الذي ترسمه بعض الأبنية الاستفهامية يتمثل في مظاهر الحشر، وفي هذا المظهر تلجأ الصياغة اللفظية إلى ربط مظاهر الكون بعضها مع بعض[2]، بأسلوب التصوير البياني من تشبيه واستعارة، وكناية، وصور حركية ولونية، لترسم الصورة متكاملة ليوم الآخر، فينقلب هذا اليوم بفضل هذه الوسائل الواصفة إلى تظاهرة كونية كبيرة، والجامع المشترك بين هذه الأساليب أنها تحمل إلى الخيال صورة المعنى، وتبث فيه الحركة والحياة، وهذا ما يمكن أن نلمسه في اللفظة، والجملة على حد سواء، إذ كثيرا ما نجد اللفظة تؤدي هذه المهمة.

ففي سورة القيامة نجد بعض مظاهر الحشر التي تسهم في التظاهرة الكونية، فالبصر يبرق، والقمر يخسف ليجمع مع الشمس دون أن ندري إلى أين؟، وفي هذا المعترك تبرز لنا الصياغة اللفظية الذات الإنسانية المسؤولة ــ محط البناء الاستفهامي ــ وتبين حالتها النفسية المضطربة من خلال ألمها واستغرابها لما يحصل فتسأل الذات : أين المفر؟، فيقول تعالى : ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝ كَلا لا وَزَرَ ۝ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[3]. فالسياق النصي يأتي بالجواب على الاستفهام الذي شكلته الصياغة اللفظية للآيات من أعماق المشهد الكوني المتهالك "إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ....". فالوصف بهذا الأسلوب يمتاز بالرشاقة والخفة، والحيوية، وقوة الإيقاع على الفكر؛ ليتماشى هذا الأسلوب مع الحدث الكوني الرهيب الذي يمر بسرعة كبيرة في الصياغة اللفظية، وأرض الواقع هذا من

---

[1] ــ سورة التكوير الآيات : 1 ــ 13.

[2] ــ ينظر: تفسير النسفي: ج3/ 9 ــ 10. وقد أورد النسفي أن التبديل والتغير قد يلحق بالذوات.

[3] ــ سورة القيامة الآيات: 7 ــ 13.

جانب، ومن جانب آخر كانت الجمل قصيرة داخل الصياغة اللفظية لتشكل منه مهمازا للخيال الواهن في ظل هذا اليوم العظيم.

ومنه نجد أن الإنسان يتخيل ذلك اليوم، ويعيش فيه بسبب من هذا الوصف المستفيض المتعدد من السياق القرآني، يتأمل أحداثه، ويعي حقائقه، فوصفه وبيانه معهود في الأذهان متخيلا في الأوهام، ويتجسد هذا في سياق بنية "كيف" الاستفهامية وسياقها التركيبي والدلالي، فيقول تعالى: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلا * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولا * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا * إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

ففي هذا الأسلوب الاستفهامي "فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا" نلحظ غياب صوت المتلقي، فلا نسمع إجابته، ليتولى المنشئ الإجابة عنه من خلال الإيماء والإشارات الكونية اليقينية والمشاهدة بالعين، في قوله "السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولا" فحرارة الموقف الاستفهامي تكمن بثبات اليقين الذي أكدته الصياغة اللفظية. فالمتلقي في هذا النسق منزوع الإرادة من هول الموقف الذي يعيشه، تكتنزه الحسرة والندامة على ما فرط في جنب الله تعالى.

فالصياغة اللفظية في عرضها للمشهد بهذه التراكيب الأسلوبية تعين على حفظ الفكرة، وتجعلها مرتبطة بالذهن، من خلال تصويرها، وتعمل على تحريك طاقة الذهن الفكرية، مما يجعلها تعمل عند المتلقي على توسيع أفاقه النفسية، وربطها المعقول بالمحسوس ربطا يصل من خلاله إلى عظمة الله تعالى.

والمظهر الرّابع الّذي تشكله الأبنية الاستفهاميّة في بعض تشكيلاتها يتمركز بيوم الحشر، فقد وصفت الآيات القرآنيّة في السّور المكيّة هذا اليوم، ومكانته ناثرة جزئياته في بطون السّور، فظهر الوصف بأسلوب التّصوير، والتّخييل، وأوّل ما يطالعنا من الأبنيّة

---

[1] ــ سورة المزمل الآيات: 16 ــ 20.

الاستفهاميّة بهذه الصدّ ور بنية " أنىّ "تيالّتعرض المـشهد بمـساعدة القـرآن القبليّـة والبعديّة، فيظهر المشهد من خلالها ببروز الذات الإلهيّة، وقد سيطر على الكـون جـلال وخشوع، فذكر الزمخشري هذا اليوم فقال : إنه تمثيل لظهور آيات الله واقتـداره وقهـره وسلطانه....."[1]. وفي هذا اليوم تصطف الملائكة لهيبة هذا اليوم كأنهم في عرف البـشر في استعراض يوم عظيم، ولا تكتمل اللوحة لهذا اليوم إلا بحضور جهـنم إلـى مكـان المحاجة، وفي هذا الوسط المليء بالرهبة يظهر الإنسان كعنصر أخير في لوحـة فنيـة سواء في عالمه النفسي، أو المادي، ثم يعود القهقرى نحو حيـاة فانيـة قـضاها يتـذكر أحداثها، وما جنته يمناه وأنى له الذكرى ، وهذا الوصف يتجسد في قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُـولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[2]. فبنية " أنى " الاستفهامية في السياق النصي للآيات " وأنى له الذكرى..."تلخص الحالة الا نفسية التي وصل إليه المعاند من شدة هول هذا اليوم، فلا ينفع معه الندم، فالبنية أعادت مشهد الحياة السالفة في لمح البصر مع هول هذا اليوم.

وترسم بنية الهمزة بمساندة القرائن النصية صورة الإنسان بعد أن توجه إلـى سـاح الحساب، فتكون صورته الوصفية كاملة متكاملة مـ تسقة العناصر يظهر الناس فيهـا كمـا يقول البيضاوي: " أشبه ما يكون بحالة الجند المعروضين على السلطان لا ليعـرفهم بـل ليأمر فيهم..."[3]،فيقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا *وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْـتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَـا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُـوا حَاضِـرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[4].

فحالتهم النّفسيّة كما يظهر من تنغيم الاستفهام أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ..." أشـبه مـا تكون في الضّعفوقلة الحيلة، وعدم امتـلاكهم للأشياء، فهذه الحال تشبه حالهم الأولـى تيالّكانوا عليها عندما ولدتهم أمهاتهم، و بهذا التّصوير تكون البنية الاستفهاميّة قد جسَّدت

---

[1] ــ الزمخشري: الكشاف،ج3/ 271.

[2] ــ سورة الفجر الآيات: 21 ــ 25.

[3]البيضاوي، ناصر الدين أبي سعيد عبدالله الشيرازي : **تفسير القرآن الكريم أنوار التنزيل وأسـرار التأويـل،** مطبعة محمد علي صبيح،ط1، 1926،ص: 421.

[4] ــ سورة الكهف الآيات: 47 ــ 49.

إلى جانب الضَّعف جهل الإنسان المنكر الّذي ضنَّ أنَّ الحياة الدنيا عبث ولهو، فلا حشر ولا موعد للقاء، ولا حقيقة للجزاء.

وتتضح الصّورة متكاملة متناسقة ليوم الحشر في السّياق الاستفهاميّ عندما يخص البناء الكافر بوصف دقيق، يبرز ما يعتريه من مظاهر الخوف، وعلامات الوجل والاضطراب، فالوصف يتناول المظاهر الخارجية، فيكون البصر أوضحها، فهو خاشع ذليل، شاخص كليل، والرؤوس منتكسة ذليلة،يقول تعالى :﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً *قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾(1).

فالبنية الاستفهامية "يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ...." بمساعدة السياق تبرز الصراعات النفسية التي تتناوب نفس الكافر يوم الحشر، فهو ضائع، فارغ القلب مضطرب الجنان، لا يعرف أين يسير، وكيف سيصير. فجمال الصورة التي تبرزها البنية الاستفهامية في السياق النصي يكمن في المزج ما بين الناحيتين النفسية والشكلية، فوصفت القلوب بالوجوف، والأبصار بالخشوع، فالقلوب يسري بين أعطافها الخوف، والأبصار يشع فيها الإنكار بطرح التساؤلات لهول هذا العظيم [3]. وهذه المظاهر التي شكلتها الأبنية الاستفهامية تفصح في عمقها الدلالي عن بعض الجوانب النفسية التي تتشكل في وسط هذا اليوم العظيم. وهنا لا بد لنا من قضية أخرى تستدعي الذكر، وهي أن هذا الشاهد يشتمل على عنصر بلاغي قل الإشارة إليه عند البلاغيين يمكن أن نصفه بتوصيف الفكرة، ففيه يستعين السياق النصي لتوضيح الفكرة المجردة، بتجسيدها في الكلام، وتوصيفها توصيفا مؤثرا، ذلك لأن ثقافة العربي في زمن النزول وحالته النفسية، وواقعه الاجتماعي لم تتعود العيش في أعماق التجريد الدلالي، ولم تتعود المفاهيم المجردة، فتفكيرها كان تفكيرا قريبا من السطح دون التبحر في أعماق الوجود، ولهذا حرص النص القرآني في أبنيته الاستفهامية على الاستدلال للوصول إلى الفكرة، أو أي مفهوم مجرد.

4 . 2: مرحلة المصير الأبديّ:

اهتمت الأبنية الاستفهاميّة في السّور المكيّة اهتماما كبيرا بتقرير حقيقة اليوم الآخر، وما فيه من نعيم وعذاب، وجزاء وحساب، فعده بعض الدّارسين من الأركان

[2] ــ سورة النازعات الآيات: 7 ــ 13.

[3] ــ ينظر: تفسير النسفي،ج5/ 319.

الأساسيّة التي لا يصحّ الإيمان بدونها، فيقول (درّاز): "على أساس فكرة كمال الله المطلق بنى القرآن الشطر الأول من النظرية الدينية العامة، وهي أنه لا شيء في الوجود يستحق العبادة سوى الله الواحد القهار، وبنفس الفكرة يؤسس القرآن أيضا الشطر الثاني من هذه النظرية، وهي الإيمان بالحياة الأخروية، فكما أنَّ الله هو الأوّل فهو الآخر، غدا إليه مآلنا لنقدم إليه أعمالنا، ونتلقى منه الجزاء الذي نستحق"[1].

وقد جاءت رسالات السماء مخبرة، ومبينة بأن الجزاء الأخروي أمر حتمي، وحدوثه قطعي، فهناك يوم عظيم سيجمع فيه كل الخلائق، وينصب أمامهم ميزان العدل فيجازى المؤمن على إيمانه، ويجازى الكافر على كفره، ثم يكون لكل منهما المصير الأبدي، وفي موضوع المصير الأبدي تطرق الأبنية الاستفهامية أوصاف الجنة والنار:

1 ـ أوصاف الجنة:

في هذا الموضوع وصفت السور المكية هذا المصير الأبدي وصفا مجسما في صور حسية بصرية ومعنوية، فكانت الصورة موحية بمعاني النعيم الذي يغمر نفوس الفائزين، لتبقى الصورة قائمة في الأذهان، لذا عمدت الأبنية الاستفهامية في طرقها هذا الموضوع إلى تشخيص ما يجري في اليوم الآخر، ووصف ما يصير إليه الإنسان مرة ثانية، وعرض صور النعيم مرة ثالثة.

وبسبب من هذا الوصف الذي سيطرت عليه الأبنية الاستفهامية، وبمصاحبة القرائن يتخيل المطالع لهذه المشاهد أن عالم الجنة عالمٌ فسيحٌ في جنان نظرة، وأفنان وارفة، وفي خضم هذا التخيل يظهر الإنسان في الجنان سارحا متلذذا بين الرياض، أو متكئا على وثيرة الأرائك، وفي هذا الوصف يظهر لنا في الدراسة أن جلَّ اعتماد البنية الاستفهامية في هذا الموضوع على الصورة البيانية الملائمة والصورة الحركية الحية واللونية، فتظهر المعاني من خلال هذه الصور متخيلة ومحسوسة لتكون وسائل إثارة نفسية تستحث الخطا إلى الفوز بها.

فترسم بنية "ما" الاستفهاميّة هذه الصورة البيانية لأصحاب الجنة، فتصفهم بطبيعة يعرفها أهل الدنيا، وهي أصحاب اليمين، فيبدو المشهد غنيا بعناصره، فتظر في السّياق السرر مرمولة بالذهب واللؤلؤ،ووجوهم مقربة بعضها من بعض ينتقل بينهم أولاد

(1) ــ دراز، محمد عبدالله: **مدخل إلى القرآن الكريم**، ترجمة: محمد عبد العظيم، دار القلم، الكويت، ط3، 1981،ص: 83.

مخلدون على صفة واحدة لخدمتهم، فيشربون ويشربون فلا تتصدع رؤوسهم، ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة في الشدة المطربة، واللذاذة الحاصلة، فيقول تعالى : ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾[1]. ونرى أن السياق النصي للبناء الاستفهامي في الآيات يعتمد اعتمادا كبيرا على أسلوبية التضاد، وقيامه بين الطرفين على أساس التناقض، وبهذا يكون التناقض معينا للبنية الاستفهامية في نشر الدلالة في المستوى العميق للصياغة؛ لأن الطرف الأول يعين الطرف الثاني المعاكس على التذكر، ومن خلال ذلك تكثف الصياغة اللفظية المعنى ويكون تأثيره في المتلقي أكثر.

وفي السورة عينها ــ الواقعة ــ يوصف الأبرار من خلال بنية " ما " وصفا حسيا يدركه المتأمل، فالطلح منضود، والظل ممدود، والماء مسكوب، والفاكهة كثيرة لا تنقطع ولا تمتنع عن الظلال[2]، وفي هذا السياق يقول تعالى : ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾[3].

وفي هذه الصياغة يظهر لنا قضية بلاغية مرتبطة ارتباطا كبيرا بالتكرار، وخاصة تكرار الصِّيغ الجاهزة، ــ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ــ ليجعلها نواة تتجمع حولها تنويعات محددة تخدم التّركيب في صياغة التّركيبية من جانب، وتجعل الصياغة النّصية في نسق البنية الاستفهامية أكثر تماسكا من جانب آخر، فسياق الآيات يثبت أنَّ البنية الاستفهاميّة دخلت في سياق هذه التّراكيب الجاهزة والثّابتة، وعمقت الدّلالة في النَّسق الأول وجعلته متصلا بالنسق الثّاني رغم وجود فاصل كبير من الآيات بين الدالّين.

ونرى أنَّ ما ورد من مشاهد للجنة في سياق البنية الاستفهاميّة ينسجم مع مفهوم السامعين، وأحوالهم، ومتناول إدراكهم وحسهم، وخاصة لدى المتلقي الأول، وأن هذه الأوصاف التي رافقت البنية الاستفهامية وردت على سبيل التقريب لبث الطمأنينة في

[1] ــ سورة الواقعة الآيات : 8 ــ 18.

[2] ــ ينظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم،ج4/ 288.

[3] ــ سورة الواقعة الآيات : 27 ــ 32.

نفوس المؤمنين الصالحين، حتى يثبتوا في الطريق القويم الذي هدوا إليه، فيقول الزمخشري في هذا المعنى : " إن كلَّ ما وعد الله، أو أوعد به في الآخرة، فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنه ما عندنا منه إلا المسميات ..."[1].

2 ــ أوصاف النّار في البنية الاستفهاميّة :

وفي هذا الموضوع المعنوي داخل البنية الاستفهامية، وقرائنها تنشط الأساليب التركيبية، فتعرب عن حاجة الباث إلى مساهمة المتقبل، أو المتلقي، الذي يتحول فيها من متقبل مجرد إلى طرف مشارك [2]. ونظرا لقدرة البنية الاستفهامية على نسج خيوط اتصال متينة بين المنشئ والمتلقي فقد صنفتها الدراسات البلاغية الحديثة ضمن ما يعرف بــ" أشكال الاستعانة"، وهي الأشكال التي تشمل الخطابة الكلاسيكية تفهمها على أنها أشكال مواجهة الجمهور، وإثارة انفعالاته عن طريق تحميل الأساليب الإنشائية، والبنية الاستفهامية من ضمنها، بمعان أخرى غير معانيها الأصلية، وبذلك يتم ربط المتلقي بالموضوع، وتشكيل انفعالاته بما يتوافق مع ما يريده المنشئ[3].

والبنية الاستفهامية وصفت المصير الأبدي للمعاندين، وأهوال هذا المصير، وما يلاقيه المعاندين، من خلال بعض عناصر الاستفهام، الّتي تتحول في البنية العميقة للصياغة إلى معنى الفهم الخارجي والداخلي، وأرى في هذا المقام أن عناصر الاستفهام التي تدخل في سياق هذا الموضوع، تقيم نوعا من التّعادل الدّلالي في الإنتاج الصّياغي لها، حيث تجعل الصّراع متناقضا ما بين البعد الدّاخلي، والبعد الخارجي للمتلقي، فالرغبة الداخلية لدي المعاندون في الحصول على الشّيء المحبوب شديدة، ولكن الواقع الخارجي يجعله مستحيلا، أو عسير المنال، وحتى إذا كان الشيء المحبوب ممكن الوقوع، فإنَّ إحساس النَّفس به مع عناصر الاستفهام يجعله في حكم المستحيل.

وقد ورد ذكر النار أو المصير الأبدي للمعاندين في أكثر من عشرين ومائة آية في سور القرآن بشكل عام [1]، على أنها دار العذاب التي يحل بها المجرمون يوم

---

[1] ــ الزمخشري : الكشاف، ج2/ 385.

[2] ــ ينظر : الطرابلسي، محمد الهادي : خصائص الأسلوب في الشوقيات،ص : 349 ــ 350.

[3] ــ خوسيه ماريا إيفانكوس : نظرية اللغة الأدبية،ص : 193.

[1] ــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ص : 723 ــ 725.

القيامة، يعذبون بلهيبها، ولظاهما المحرق، وقد سميت بعدة أسماء تجتمع كلها لترسم صورة العذاب الرهيبة، فنجد جهنم /الجحيم/ نار الحريق/ اللظى/ السعير/ سقر/ الهاوية ... [2].

والأبنية الاستفهامية وصفتها بأنها " سقر " فورد الوصف من خلال بنية " ما " على طريق تساؤل يجسد المعنى، ويبرزه في الخيال ماثلا مشاهدا أنها النّار التي تلقم كلّ شيء، لواحة للبشر، وكما قال مجاهد في تفسير ابن كثير : " تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل ..."[3] وسنجد أن الوصف يرسم المشهد أكثر إيحائية حين يشير إلى الزبانية الذين وكلوا بالنار، وكان عددهم تسعة عشر، فيقول تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ وَمَا هِيَ إِلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾[4]. فالوصف الذي اقترن به البناء الاستفهامي " وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ..." في عمقه الدلالي ينفي، وينكر أن يكون عند المخاطب علم محيط بحقيقتها، وشأنها الغريب العجيب، فمقام الإنكار من قبل المعاندين لا يناسبه إلا مقام التهويل .

ونرى أنّ السّياق الوصفي للنار يهدف من خلال الصياغة اللفظية إلى قمع الخصم،وإرهاقه من ناحية الفكر، وذلك من خلال أسلوب السّخرية (Mockery) بالمعاند، الذي يستخدم مهارة التلاعب بالألفاظ، وجعلها وسيلة لحرب الخصم من الناحية النفسية، وليس غرضها الإمداد بالمعلومات، وهذا اللون الأسلوبي في الصياغة اللفظية أشبه بحرب الأعصاب، الذي تبرز فيه العوامل الانفعالية بشكل واضح .

---

(2) ـ ينظر : سورة الأعراف الآية : 181، الأنفال : 50، الحج : 4، 9، البروج : 10، المعارج : 15، الليل : 14، المدثر : 26، القارعة : 7، الواقعة : 41 ـ 44 .

(3) ـ ابن كثير : تفسير القرآن الكريم : ج4/ 443 .

(4) ـ سورة المدثر الآيات : 26 ـ 31 .

ووصفها يلازم لسياق بنية " هل في سورة الغاشية، فيقول تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلا مِن ضَرِيعٍ * لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾[1].

فالوصف المقترن ببنية " هل " الاستفهامية يضع نقطة مركزية في سياق الصياغة اللفظية للبناء "حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ" ليفجر منها الدلالات المعنوية، وهذه النقطة تجمع بين الحديث، وأثر الحديث على المتلقي، لينقلنا حد يثها من خلال الصياغة اللفظية إلى بيان المصير الأبدي، الذي يستمد توهجه الدّلالي من جانب الامتداد الصياغي بعد البنية الاستفهامية " تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ... ".

فالبنية الاستفهاميّة " هل " وقرائنها لتأكيد بلوغ خبر الغاشية، والاستفهام مستعمل في التّشويق إلى معرفة هذا الخبر، فدلالة التّشويق صاحبها في الصّياغة اللفظية قرائن داعمة تساير المعنى الدّلالي، وأكبر هذه القرائن ذكر لفظ " الوجوه " بصيغة التّنكير لتثبيت بيان قصد المصير الأبدي، لأنَّ لفظ الوجوه ينبئ عن حالة أصحابها، إذ الوجوه عنوان عمّا يجده صاحبه من نعيم، أو شقوة، وهذه القرينة تعلق بها مصاحبات نصية تدعم حالة الوجوه البائسة منه : تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ / لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلا مِن ضَرِيعٍ/ يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ ..."[2] ونرى أن السياق التركيبي للبناء الاستفهامي ينقل النفس في لحظات بين الهدوء الشامل، وبين الخوف الرهيب، والعذاب الموجع ترتاع منه، وتتصدع خوفا وهلعا، وتجسد ذلك تعبيريا بوعي المنشئ، ووجود المتلقي الذي يتحرك بالقراءة وراء المسافة التعبيرية للسياق ليعطي مؤشرا على اكتمال الدلالة المعنوية له.

وفي محور صياغي آخر تظهر جهنم في سياق بنية " هل " شاخصة ناطقة، فهي تخاطب ثم تجيب بلسان رطب متحرك، فيقول تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[3]. فالصياغة اللفظية للبنية، وقرائنها تحاول أن تجسم دلالة جهنم في البنية السطحية بصفات يألفها المتلقي من خلال حياته اليومية " فهي نهمة لا يفلت منها أحد، ولا تشبع بأحد، جهنم التي تدعو من كانوا يدعون إلى الهدى ويدبرون .... جهنم التي

(1) ــ سورة الغاشية الآيات: 1 ــ 8.

(2) ــ ينظر: مغنية، محمد جواد: التفسير الكاشف: ج7/ 556.

(3) ــ سورة ق الآية: 30.

ترى المجرمين من بعيد فتغيظ وتفور ..."[1]، وأورد محقق الكشاف قولا يتماشى مع البنية السطحية للبناء الاستفهامي، فيقول : " سؤال جهنم، وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب، وتثبيته ..."[2]، فالبناء وقرائنه يشعر بكثرة من ألقي في النار ساعة أن يقال لها هذا القول، والاستفهام صادر من الله، لا ليعلم مجهولا بل لتخويف العباد. ونرى أن البناء الاستفهامي في هذا المحور يقيم تعادلا بين الخارج والداخل من خلال الصياغة اللفظية، ويقيم توازنا بين تفجر العالم الخارجي، والعالم الداخلي للمتلقي، ومناط التعادل يرتكز على الخارج ــ اللفظ السياقي ــ باعتباره مفتاح رؤية المتلقي الداخلية، فقول المنشئ " هَلِ امْتَلأْتِ..." في مطلع الصياغة اللفظية إعلانٌ صريحٌ عن الرَّصد الخارجي الّذي يتمثل في بيان طبيعة مكان المصير الأبدي، والبناء الثّاني في الصّياغة اللّفظية نفسها "وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ..." يقدم المعادل الخارجي المتمثل في تأكيد مكان المصير الأبدي، بفاعلية الواقع لهذا المصير.

والسّياق القرآنيّ في كلِّ وصف يذكره من أوصاف المصير الأبدي للمعاندين يضع المتلقي في عظمة الموصوف، فالنّار، أو جهنم التي يكذب بها المعاندين يرد في سياق سورة الصافات وفق الدلالة السابقة، من خلال بنية الهمزة، فيقول تعالى : ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَأَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾[3].

فحركة الصياغة في المستوى السطحي للآيات تقوم على توسيع دائرة الموضوع من خلال عقد المقارنة ما بين المصير الأبدي المنعم، والمصير الأبدي للمعاندين، فذكر الشجرة المصاحب للتركيب"أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ...." يحمل في طابعه الخوف المروع، فهو يشبه رؤوس الشياطين للدلالة على الكراهية وقبح المنظر؛ لأن الشياطين مكروهة مستقبحة في طباع الناس لاعتقادهم أنها شرٌّ محض[4]، وتجسد الصياغة اللفظية صورة حية تبث من خلالها حال من يعيش هذا الوضع.

---

[1] ــ قطب، سيد : التصوير الفني في القرآن، د مكان، د ط ، د ت. ص : 65.

[2] ــ الزمخشري : الكشاف :ج4/ 379.

[3] ــ سورة الصافات الآيات : 61 ــ 66.

[4] ــ ينظر : تفسير النسفي: ج4/ 267. وينظر : الخاني، **محي الدين: حسن البيان في تفسير مفردات القرآن**، مطبعة الزمني، دمشق، ط1، 1342، ص : 252.

ونرى أنّ حركة الصّياغة في سياق البنية الاستفهاميّة، وهي تتحرك من خلال أبعاد زمانيّة تركز على الجانب الإنسانيّ، فتجعل الصّورة البيانيّة أكثر تجسيدا وحيوية، فترصد الجانب من خلال الجمع بين العذاب الحاضر القائمة صورته في الأذهان من خلال الصّياغة اللفظيّة"أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ..."، وبين الماضي السحيق الذي كان فيه المجرمين سادرين في غوايتهم " إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ "هذا من جانب . ومن جانب آخر تجمع الصياغة اللفظية بين العنصرين المتباعدين، والموقفين المتناقضين في سياق البنية الاستفهامية مما يجعل الحركة الحسية شيئا واقعيا عند المتلقي تتقاطع معها الحركات الصياغية الأخرى في نقطة معينة يسميها محمد عبد المطلب " الحركة الموضعية"[1]، فعندها تتمركز الدلالة الموضوعية للتركيب الاستفهامي ببيان مصير المعاندين، ونشر بعض حالهم في هذا المصير " فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ....".

وهكذا يصف القرآن المصير الأبدي وصفا حسيا شاخصا يقرب صورته من الأذهان، وإن كان التصوير السياقي بالكلمات غير الحقيقة، فالوصف يستخدم الصورة البيانية تارة، والمشاهد السريعة تارة أخرى، وكل ذلك يقع في سياق البنية الاستفهامية، وتحت قاعدة التخييل الكبرى، التي يستثمرها القرآن الكريم في سياقه النصي للإيحاء والإيماء.

ونجد أن صورة المصير الأبدي جاءت بأسلوب المقارنة بين واقعين متعاكسين ، تحمل ألوانا من التعبير مشحونة بالمعاني، والخلجات النفسية المختلفة، وتجري على أساليب العرب في كلامهم مراعية لطباعهم، متصلة بوجداناتهم، معنية بالانفعالات والنزعات عند المتلقي، يجمع هذا كله أسلوب بلغت فيه الصياغة اللفظية أقصى غايات الفصاحة والبلاغة[2]، لتجعل النص القرآني منفتحا لا يستهدف تحديدا قاطعا للمعنى، بل يترك المعنى محتملا مفتوحا للتأويلات حسب اعتقاد المتلقي، ولكن تأويل موضوع المصير الأبدي رغم ذلك يبقى في دائرة المعنى الدلالي الذي رسمه القرآن الكريم.

---

[1] ــ محمد عبد المطلب: بناء الأسلوب في شعر الحداثة،ص: 179.

[2] ــ ينظر: سلام، محمد زغلول: **أثر القرآن في تطور النّقد العربيّ**، مطبعة دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، 1962،ص: 104.

4. 3: الرّحمة في سياق البنية الاستفهاميّة:

تدل هذه الكلمة في اللغة على معاني الرقة، والعطف، والرأفة، والمغفرة [1]، ومعناها لا يدل على أنها انفعالات مجردة، ومشاعر نفسية لا أثر لها في العالم الخارجي، بل هي كما يقول الراغب الأصفهاني :"رقة تقضي الإحسان إلى المرحوم "[2]، فالرحمة: هي من الكيفيات النفسية، والانفعالات الوجدانية، ولكن لها عند المتصف بها أفعالٌ وجودية، وآثارٌ خارجة من الرفق بالمرحوم، والإحسان إليه، ودفع الضر عنه، وإعانته على المشاق[3].

ويأتي موضوع الرَّحمة في سياق البناء الاستفهاميّ دليلا على وحدانيّة الله، فالرَّحمة في الواقع الفعليّ هي سبب وجود الكون، وما فيه، فمن مقوماتها أنَّ الله عزّ وجل سخر لهم ما في السَّماوات والأرض، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[4]. ومعنى التّسخير الذي يلفت النظر إليه البناء الاستفهامي، أنه خلقها لانتفاعنا بها، فهي مسخرة لنا من حيث إننا ننتفع بها على الوجه الذي نريده، والتعبير بلفظ " التسخير " في الصياغة اللفظية، والذي تسلط عليه البناء الاستفهامي، مؤذن بصعوبة الانتفاع، لولا ذلك التسخير، وهنا ومن خلال الصياغة اللفظية في المستوى الأفقي للسياق يظهر مظهر الرأفة بالعباد، والرّحمة الإلهية بهم ونجد أنَّ المعنى الدِّلالي للرَّحمة ينساب بسهولة إلى المتلقي من خلال أسلوبيِّة التَّركيب، فالتَّركيب الاستفهاميّ، وقرائنه سار بطريقة التتميم، بحيث جمعت الصياغة كلَّ توابع الموضوع التعبيرية "سخر ما في السماء / وما في الأرض/ أسبغ النعم ظاهرة وباطنة..." حتى يصل المتلقي إلى قناعة أن كل ما في الكون لخدمته.

---

[1] ــ ينظر: ابن سيده، علي بن اسماعيل: **المحكم والمحيط الأعظم في اللغة**، تحقيق: عائشة عبد الرحمن، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1، 1958 ج3/253 ــ 255. وينظر: الجوهري: الصحاح:ج5/ 1929. وابن فارس: معجم مقاييس اللغة:ج2/498. والزبيدي: تاج العروس:ج8/ 305 ــ 306. وابن منظور: لسان العرب:ج12/230 ــ 231.

[2] ــ الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: **مقدمة جامع التفاسير**، تحقيق: أحمد حسين فرحات، دار الدعوة، الكويت، ط1، 1984 ص: 114. وينظر: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت، ط1، د ت، ص: 191.

[3] ــ ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير:ج1/ 169.

[4] ــ سورة لقمان الآية: 20.

والمظاهر التي يتشكل عليها موضوع الرحمة في سياق البنية الاستفهامية، متعددة، ولكن أول مظهر يطالعنا فيه السياق يتشكل في إنزال الماء، فالماء أساس الحياة، وعنصره الذي لا تقوم بدونه، فيقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

فالبنية الاستفهامية في المستوى الأفقي "أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ..." والمستوى العامودي في قوله : "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ...."، زيادة استدلال بما هو أظهر لرؤية الإبصار، ومحط أخذ العبرة [2]، ونرى أن الصياغة اللفظية في التركيب النصي جرت مجرى التذييل في عملية توليد الدلالة، فربطت ما بين خلق السماوات، والأرض في البناء الاستفهامي الأول "أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ..." وجعل الماء عماد الحياة "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ..."، فالربط الصياغي بالتذييل يثبت أن الماء هو مهد الحياة الأول، وهي حقيقة يجب أن تثير انتباه العلماء، ليقفوا عليها، وبيان العلاقة ما بين الخلق الأول ووجود الماء.

ونرى كذلك أن الصياغة اللفظية من خلال بنيتي الاستفهام، في البناء الأول والثاني، تلفت أنظار المتلقين في كل زمان ومكان إلى أنَّ الطبيعة وما فيها من معبودات يعبدها البشر قاصرة على عمل هذه الأشياء، والتي تدل دلالة قاطعة على رحمة الخالق بخلقه في كل زمان ومكان حتى قيام الساعة.

ومن مظاهر الرحمة بإنزال الماء الامتنان على الإنسان بهذه النعمة العظيمة في مقام الاستدلال على الألوهية، فيقول تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[3]. ولزيادة فاعلية هذا المظهر الموضوعي لجأت الصياغة اللفظية إلى أسلوبية " التتميم "[4] لتعميق المعنى الدلالي، ويطلق عليه محمد عبد المطلب : "الاستشهاد والاحتجاج حيث يأتي في الصياغة استدعاء ما يتبعها لتؤكد به

---

[1] ــ سورة الأنبياء الآية : 30.

[2] ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير :ج17 / 42.

[3] ــ سورة الواقعة الآيات : 69 ــ 75.

[4] ــ محمد عبد المطلب : بناء الأسلوب في شعر الحداثة،ص : 125.

المعنى النّاتج من الصّياغة الأولى ... فالمعنى الأول يحسن السكوت عليه، لكن يتولد عنه شاهد عليه وحجة على صحته ..."[1]، فالاستفهام من خلال الصياغة التوليدية للمعاني داخل السياق ــ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء.../ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ.../أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ .../ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا.... يلفت أنظار المتلقين في كل زمان ومكان إلى مصدر الرحمة، والمتسبب بها في هذا الوجود، فالمعنى الأول يدل دلالة مطلقة على وجودية الخالق، لكن السياق النصي للآيات يلاحق المتلقي المنكر لوجود الله بهذه الحقائق، فيبدأ بالحلقة الأكبر، ثم الأصغر منها حتى يغلق عليه السياق منافذ الإنكار.

وكثيرا ما تربط الصّياغة اللفظية للبنى الاستفهاميّة في سياق السّور المكيّة رحمة إنزال الماء من السماء، بحقيقة البعث والنشور، يقول تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاء وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

وعند التدقيق في البنية السطحية للاستفهام "كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَ..." نجد أن البناء في كتلته النصية دعوة إلى التفكر، والنظر المعتبر المستبصر للاستدلال بتلك الآثار على قدرة الله العظيمة، ورحمته الواسعة، فإنزال الماء رحمة " فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ. فالصياغة بهذا الربط ما بين دلالتين في الظاهر نلمس منهما الاختلاف، لكنهما في العمق الدلالي وجه لحقيقة واحدة، القدرة الإلهية المطلقة المسيطرة على هذا الوجود. ونرى أنَّ دلالات الصِّيغ في التركيب الاستفهامي " فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ. تسيِّر في اتجاه معاكس لأمنيات المتلقي السلبي، و رغباته الدفينة، فرغبته أن يبقى الواقع على وفق إرادته، وأمنياته، لكن الربط الدلالي ما بين حقيقة إنزال الماء، والبعث والنشور يثير هذا الاتجاه المعاكس للأمنيات، ليؤسس من خلاله واقعا صياغيا اعتباريا مفارقا للواقع، ما بين الصياغة النصية للمنشئ، والواقع الفعلي لـ لمعاند، وبهذا تطمح الصياغة اللفظية للبناء الاستفهامي بالربط الدلالي إلى إزالة واقع فعلي غير مرغوب فيه

---

[1] ــ محمد عبد المطلب: بناء الأسلوب في شعر الحداثة،ص: 125. وهذا التوالد هو الذي أشار إليه العسكري بقوله: " ومجراه مجرى التذييل لتوليد المعنى"، ينظر: العسكري: الصناعتين، ص: 407.

[2] ــ سورة الروم الآيات: 48 ــ 50.

يتمثل بالشرك والعناد والكفر، وتأسيس واقع صياغي اعتباري لا يفارق العمق الدلالي في النص يبين قدرة الخالق في خلقه من جانب، ورحمته على الخلق من جانب آخر، فالسياق بهذا الأسلوب يربط بين الدلائل المعنوية المحسوسة بغير المحسوسة، ليثبت قدرة الله ورحمته على عباده.

والمظهر الثّاني الّذي يمكن أن نلمحه في سياق هذا الموضع، ومن جانب بنية الهمزة تسخير الأنعام، فهي من أهم مصادر الرَّحمة في هذا الوجود، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾[1].

وفي هذا المظهر نجد أن الصياغة في الآيات تهدف إلى العموم، وذلك من خلال أسلوبيّة حركة المعنى ما بين الدّال الأوّل للبناء الاستفهاميّ " أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ..."، والدَّال الثَّاني للتركيب الاستفهاميّ " وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ..." فالصِّياغة اللفظيّة بهذا التّركيب تضيف في العمق الدّلالي قوة معنوية تتجه سلطتها إلى الذّات المطلقة، فالبناء الأوّل يلفت نظر المتلقين إلى رؤية آثار الخلق ثم يرتب على فعل الرؤيا نعمة التسخير لهذه المخلوقات تقريرا للمتلقين، بالامتنان، وإيجاب الإيمان بالله، والشكر على إنعامه، ببيان آثار رحمته على الخلق، ثم يعقب السياق في المستوى الأفقي بالبناء الثاني " أَفَلَا يَشْكُرُونَ"لإنكار واقع من لا يشكر الله على هذه النعم من جانب، والحث على تحصيل المستفهم عنه متمثلا برحمة التسخير مع فضل الشكر لله عزَّ وجل.

ونرى أنَّ الصّياغة التّركيبية للبناء الاستفهاميّ في الدّالين تساير الدلالة السطحية والعميقة للبناء، فالإنسان حين ينظر – " أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا..." – إلى هذا الأمر، وهذا التسخير، وهذه الرحمة يحسّ لتوه أنه مغمور بفيض من نعم الله، فيض يتمثل في كلّ شيء حوله، ففي كل ركبة يركبها، أو قطعة لحم يأكلها، أو جرعة لبن يشربها، أو يلبس ثوبا من شعر أو صوف، يشعر بعظمة الله.... فهذا الشعور والإحساس المتدفق من أعماق الوجدان يقنع قلبه بوجود الخالق ونعمته، ويطرد هذا في كلِّ ما تمس يده من أشياء حوله، وكل ما يستخدمه من حي أو جامد في هذا الكون المتسع، لتعود حياته كلها تسبيحا لله، وحمدا وعبادة، فالبناء الاستفهامي في الدالين يربط الوقع بالوجدان ليصل إلى حقيقة الخالق.

---

(1) – سورة يسن الآيات: 71 – 74.

والمظهر الثّالث من مظاهر الرَّحمة تسخير البحار،والأنهار، وما فيهما، ويأتي ذكرهما في الصّياغة من النَّاحية الأسلوبيّة في سياق البنية الاستفهاميّة واقعيا يلمسه المتلقي بحاسة النَّظر، والإدراك في كل زمان ومكان هذا من جانب، ومتوخيا البساطة، والبعد عن الشَّطط الفنيّ، والتّركيبيّ في حشد الصّور؛ لأنَّ ذكره في الصِّياغة هادف لإظهار سيطرة الله عزّ وجل على ما فيهما، وما فوق سطحهما، وعلى الظواهر التي تحيط بهما .... لكن الصياغة في المستويين الأفقي والعامودي من خلال المصاحبات النصية للبناء الاستفهامي تركز على رحمة الله للإنسان، وبيان قدرته وتفرده في الخلق، فمن سياق بنية الهمزة، نجد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[1].

فالاستفهام في المستوى الأفقي في الصّياغة اللفظية"أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ..." للتقرير والامتنان، وهذا الأسلوب التركيبي للسياق يوقف العباد، وجميع المتلقين على هذه الحقيقة، لكنّه لا يكتفي بالمستوى الأفقي للصياغة لبيان التقرير والامتنان، بل يتطلب صياغيا المستوى العامودي لتفسير هذه الرحمة، فجاء السياق بالفعل المضارع " تجري ..." للدّلالة على تجدد الرحمة، والجري لهذه الفلك، وأنها لا تختص بزمن دون زمن آخر[2].

والمظهر الرَّابع للرّحمة الّذي يتشكل في سياق البنية الاستفهامية، يتمركز في إخراج النبات، ففي سورة الزمر، ومن سياق بنية الهمزة، نجد وصفا وذكرا لهذه الرحمة، فالصياغة اللفظية تصبغ الموضوع بصباغ الواقع، الذي يعيشه الإنسان، فيقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ *أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[3].

---

[1] ــ سورة لقمان الآيات: 31 ــ 32.

[2] ــ ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن:ج5/ 2797. وينظر المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج3/261.

[3] ــ سورة الزمر الآيات: 21 ــ 22.

تنقل الصِّياغة التركيبية للبناء الاستفهاميّ مشهد الرّحمة بأسلوب لفت نظر وذهن المتلقي ــ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ــ إلى رؤية الماء وهو ينزل من السماء بقدر، ثم يغور في أعماق الأرض ليخرج مندفعا غزيرا فيكون نهرا، أو يخرج هادئا فيشكل نبعا، وفي كلتا الحالتين تسير معه حياة الزرع متعدد الألوان من خضرة وحمرة، وصفرة وبياض، ثم ينمو ويجف، وينقلب إلى اللون الأصفر بعد نظارة وبهاء، مواصلا طريقه إلى الفناء[1].

ونرى أنَّ المشهد الّذي يلفت الأنظار إليه من خلال السِّياق الاستفهاميّ تسير حركته بسلسلة متصلة بالماضي " أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ..." ثم الحاضر " يُخْرِجُ/ يَهِيجُ/ يَجْعَلُه.. ليشكل السياق بهذه السلسلة الزمنية واقع المشهد المتجدد لعملية الإنبات. فحركة الزمن المتصلة في السياق الاستفهامي ما بين الماضي، والحاضر شكل في العمق الدلالي للبناء الاستفهامي مشهدا متكاملا من مشاهد الأرض متعدد الخطوات، فالزمن يسير في عملية الانتقال ببطء شديد، لكن البطء الزمني يفصّل المشهد للعين، والعقل بإعطاء مدة زمنية كافية للتأمل، ومدة كافية للتأثير في أعماق النفس، وهذا نلمسه من خلال قرائن الصياغة اللفظية للبناء، وخاصة حرف الترتيب " ثم ــ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا / ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا/ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ــ الذي ورد، وبهذا يتفق السياق الأسلوبي للبناء الاستفهامي في الطرح الذي قدمه مع نظرة سيد قطب[2].

ومنه يأتي لبيان رحمة الله في بسط الظل يتفيأه الناس، فيقول تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[3]. فالاستفهام يلفت نظر المتلقي بأسلوب انعكاس الواقع الطبيعي لتفريغ دلالة الرحمة في العمق الدلالي للسياق. ومنه نجد تصويرا للحدائق المبتهجة بما فيها من أشجار وارفة الظلال، تقطر الحياة من أوراقها فجمالها وتناسقها يكلم عن رحمة الله وعظمته، فيقول تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[4].

---

[1] ــ ينظر: تفسير النسفي: ج4/ 318.

[2] ــ ينظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم،ص: 60.

[3] ــ سورة النحل الآيات: 60 ــ 61.

[4] ــ سورة النمل الآية: 60.

والمظهر الخامس من مظاهر الرّحمة في سياق البنية الاستفهامية تسخير الشَّمس والقمر، والليل والنّهار، وفي هذا السياق وغيره، نجد أن هذا المظهر يتمثل بمشيئة الله، وما يتطلبه الوجود، فخلق الله الكون، وجعل القوانين التي تنظمه، ولو شاء لجعل الأرض ساكنة لا تدور، فيكون الليل دائما في جهة منها، والنهار في جهة دائما في جهة أخرى، ولكن في ذلك فناء الأحياء جميعا، أو يجعل مدة دورانها أطول مما هي عليه الآن، فيكون ليلنا، ونهارنا أطول مما هما الآن إلى الحد الذي لا يستطيع الإنسان، أو الحيوان، أو النبات تحمل ذلك، سواء في حالتي الحرّ والقر، وهنا تصبح حياة الإنسان معاناة مستمرة، ومشقة دائمة تؤدي إلى هلاكه، ولكنه تعالى جعل الليل، والنهار على هذا النظام المشهود رحمة منه بعباده، ليتهيأ لهم مناخ ملائم للحياة والعيش، فقال تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

فالصياغة اللفظية للبناء الاستفهامي ــ الليل / والنهار ــ في هذا المظهر تعتمد على المدركات البصرية، والذهنية في آن واحد، وتعتمد على عملية الحضور والغياب، إذ إن الطرف الحاضر يعادل بالضرورة طرفا غائبا، ومن هنا يكون التأثير الدلالي مزدوجا في المستوى السطحي للسياق الاستفهامي، حيث يؤدي الحاضر " الليل " ــ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ... ــ دوره التعبيري، ثم يتبعه الغائب " النهار " ــ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا ... ــ بأداء دوره من خلال حركة الذهن، فيتعمق بهما المعنى الدلالي للرحمة.

فرحمة الله تتجلى على الإنسان كلَّ يوم بأن جعل الليل سكينة وقرارا، والنهار نشاطا وعملا، وهما من مشاهد الكون وتدبير الخالق العزيز، واختياره، ولكن الناس لطول ما اعتادوا من كرِّ الجديدين ينسون جدتهما المتكررة التي لا تبلى، ولا يهزهم طلوع النهار، وإقبال الليل إلا نادرا، ولا يتدبرون ما في تواليهما من رحمة بهم . والبناء الاستفهامي بهذا الأسلوب يوقظ الناس من همود الإلف والعادة، ويدعو إلى تملي الكون، ومشاهده العظيمة، وبذلك يكون الاستفهام في السور المكية قد ربط المعنى العميق للرحمة بأسلوب الصياغة.

---

(1) ــ سورة القصص الآيات: 71 ــ 73.

4. 4: السّخرية والاستهزاء في سياق البنية الاستفهاميّة:

شاع مصطلح السّخرية (Irony) في الدّراسات الحديثة بوصفه دالا على المفارقة التي تنطوي على الجمع المفاجئ بين النقائض، أو النظائر المتزامنة، أو المتعاقبة بوصفه تقنية تهدف إلى تدمير التصورات الثابتة، أو المتعارف عليها، والعبث بها . وفي خطاب ما بعد الحداثة شاع مصطلح المحاكاة التهكمية (Parody) بوصفه دالا على السخرية الواعية، أو على الاستحضار الساخر لنموذج، أو لنماذج فنية مغايرة، سابقة أو معاصرة[1].

وقد اهتمت الدراسات التداولية، والنصية الحديثة بصور التهكم والسخرية من خلال ما يعرف بـــ" أشكال التباعد "في الخطاب، وذلك عندما يعمد المرسل إلى اتخاذ موقف لا يدل على التبني الكامل لما يقوله، وهذا يؤدي إلى خلق مفارقة واضحة تـــنجم عنهـــا صـــور بلاغيّة مهمة مثل التهكم والسخرية، وتتمثل السخرية ـــ فـــي معظـــم الأحيـــان ـــ فـــي الانتقاص من شيء أو شخص آخر، وقد لـــوحظ أنَّ جـــانـــب المفارقـــة فـــي الـــسخرية يعني بالضرورة قدرا من التباعد من قبل القائل عن قوله؛ لأنها " تبنـــي علـــى أن نقـــول عكس ما نعتقد، ولكن بطريقة تمكن القارئ، أو المستمع من أن يتعرف ـــ انطلاقـــا مـــن السياق ـــ النية الحقيقية للمرسل..."[2].

ويمكن صياغة التباعد الساخر في نظام الخطاب باعتباره من قبيل قصد المـــستقبل أن يعزو إلى المرسل عدم تأييده لرسالته ذاتها، وبالفعل فإن السخرية لا تتحقق، أو لا تقـــوم بوظيفتها إذا لم يكوّن المستقبل هذه الصورة عن المرسل، فالشرط في تحققهـــا أن يكـــون تأويل الرسالة وسيلة لكي يسند إلى المرسل موقفا مخالفا لمـــا يقـــول، أي يؤولـــه بـــأن يتظاهر بقصد حرفية التعبير مع أن رأيه الحقيقي ليس كذلك، فالسخرية كما يرى (رولان بارت) "ترتكز على الإيحاء بشيء آخر غير الذي نقوله ..."[3]، فـ(بارت) يقصد صور التهكم التي ترد بألفاظ المدح، والمقصود بها الذم، وبذلك يستطيع المستقبل أن يدرك قصد المرسل منها، ويحولها عن ظاهرها المدحي إلى باطنها الهجائي.

---

(1) ـــ ينظر: عصفور، جابر: **آفاق العصر**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1997 ص: 18.

(2) خوسيه ماريا إيفانكوس: نظرية اللغة الأدبية، ص: 211. وينظر: فراى، نورثروب: **تشريح النقد**، ترجمة: محي الدين صبحي،الدار العربية للكتاب، طرابلس، وتونس، ط1، 1991 ص: 62، 320.

(3) ـــ بارت، رولان: **قراءة جديدة للبلاغة القديمة**، تـــرجمة: عمر أوكان، دار إفـــريقيا للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1994،ص:83.

وهناك مفارقات تعمل عن طريق آليات قلب الدلالة في البنية الاستفهامية في السور المكية، كصور السخرية والتهكم التي ترد بألفاظ الوعد والبشارة، والمقصود بها الوعيد والنذارة، ومن الطر ق التي تسمح للمستقبل بأن يستنتج أن المرسل لا يؤيد ظاهر البنية السطحية لرسالته، وبالتالي يؤوله على أن المقصود من الرسالة التهكم والسخرية ما يلي:

أوّلا: كون التّعبير في البناء الاستفهاميّ إذا حمل على معناه الحرفي لا يتلاءم بصورة ظاهرة مع الموقف، وكما أنه غير مناسب وفق ما اتضح، فإنَّ السّامع مضطر إلى إعادة تأويله ليصبح وافيا بالغرض، ويعتمد التّأويل الأكثر طبيعية على أن ننسب إلى التّعبير المعنى المضاد لما يوحيه شكله الحرفي[1].

ثانيا: طريقة الذّكرفيها نجد التّعبير السّاخر يشير في سياق البنية الاستف هاميّة إلى شيء غير ملائم، أو ينص على ما فيه من مبالغة، أو مثار للتندر، ويمكن التّعرف على هذا التّعبير المذكور بإشارة حركيّة، أو لغويّة، أو بلاغيّة.

ثالثا: أن تُحدث السخرية في سياق البنية الاستفهامية بعبارات محايدة غير موسومة بأي شكل، ولكن المرسل يظل عل ى ثقة من أنَّ المستقبل عنده معلومات كافية تجعله لا يمكن أن يصدق القول حرفيا، وبالتالي فإنَّ متتاليات الرسالة، ومجموعة العناصر السياقية يمكن أن توضح سلوك المرسل، وتقود إلى تأويل رسالته على الوجه المقصود[2]. ويرى (رولان بارت) أنَّ السخرية تمثل نوعا من الإسنا د المضاد..."[3]، فالإسناد يقوم على توليد دلالة مغايرة لمعاني الألفاظ الظاهرة، وهذا الإسناد المضاد يشترك في تكوينه أطراف عملية الاتصال، فالمرسل هو الذي يصوغ الرسالة المراوغة المحملة بالمعاني المتضادة في بنيتها السطحية والعميقة، والمستقبل هو الذي يتلقى دوال الرسالة، ويحللها وينمي احتمالات التضاد، ويوفر لها الفاعلية المؤثرة، لذلك تعد السخرية في سياق البنية الاستفهامية في السور المكية نوعا من الخطاب المفتوح، الذي لا تكتمل دلالته إلا بحضور المتلقي، وإضاءة السياق للبناء الاستفهامي.

---

(1) ـــ ينظر: جون . ر . سول: **مبادئ التأويل الاستعاري**، ترجمة إبراهيم فقيه، مجلة الفكر العربي، بيروت، العدد 46، 1987،ص: 358. وهو ترجمة للفصل الرابع الخاص بالاستعارة (Metaphorc).

(2) ـــ ينظر: صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 103، 104.

(3) ـــ بارت: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص: 76.

ونجد أن موضوع السخرية والتهكم والاستهزاء في سياق البنية الاستفهامية داخل السور المكية يُطرح بأسلوب الحرب الإعلامية، وهي صورة ذات أثر كبير في النفوس المخاطبة لما تتركه من أثر سلبي على الأنبياء، والدعاة من بعد إلى ما يشاء الله، فالمنكرون يقصّدون من أسلوب السخرية الذي يسلكونه مع الدعاة تحقير الرسل وأتباعهم ومن أتى بعدهم من الدعاة إلى يوم الدين، وتهوين شأنهم في عيون الناس، حتى لا يكون لكلامهم تأثير في النفوس، ووقع في القلوب، وذلك لأنَّ الشخص الذي يهزأ به، ويسخر منه في عرف الجاهلية ضعيف العقل، قليل الإدراك لا يسمع إليه، ولا يكترث بكلامه..."[1]. والمنكرون يسلكون هذا الأسلوب مع الدعاة، وفي مقدمتهم الأنبياء والمرسلين " للفتِّ في عضدهم، ولحربهم نفسيا حتى يضعف حماسهم لفكرتهم، ودعوتهم، ويتراجعوا عمَّا يدعون الناس إليه"[2].

وقد تشكّل هذا الموضوع في سياق البنية الاستفهاميّة على شكل محاور فرضها البناء الأسلوبيّ للبناء الاستفهاميّ في السّور المكيّة، فالمحور الأوّل الّذي يطرقه الموضوع في سياق البنية الاستفهامية السخرية من الرسول عليه السلام، يتشكل أسلوبيا من خلال مقارنة الحال التي عليها المتلقي المعاند، بحال المعاندين في الزمن الماضي، ويناسب هذا الأسلوب التّركيبيّ بنية " كيف "، ليساير التّركيب الصّياغي التركيب الدّلالي في المستوى السطحي والمستوى العميق، فيقول تعالى : ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ۞ قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۞ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[3].

فالبناء الاستفهاميّ من خلال بنية " كيف " وقرائنها القبلية والبعديّة يلفت نظر المتلقين إلى أنَّ أسلوب الاستهزاء، والسخرية بالدعاة للنيل منهم، وتحطيمهم أسلوب قديم سلكه جميع الطواغيت مع الرّسل، وأتباعهم، وتتشكل الموضوع صياغيا في سياق البناء الاستفهامي من خلال فعل الأمر " قل " ليترك الفعل حركة مزدوجة ما بين

(1) ــ أبو فارس، محمد عبد القادر : **الابتلاء والمحن في الدعوات**، دار الفرقان، عمان، ط1، 1987 ص : 57 .

(2) ــ المرجع السابق، ص : 57 .

(3) ــ سورة الأنعام الآيات : 10 ــ 12 .

الخارج " الآثار الدالة..." والداخل " الذهن والوجدان، فيجذب الخـارج " الآثـار " إلـى الداخل ــ الذهن ــ دلالة واقع القوم المعاندين في الزمن الماضي، وقد ساند وعمق هـذه الدلالة في الصياغة اللفظية بنية " كيف "، وفي نفس اللحظة تعطي الصياغة اللفظية للبناء للذهن حرية من الحركة في عكس دلالة الواقع الماضي على واقعه، ليصل مـن خـلال ذلك إلى نتيجة البعد عن الاستهزاء، وعلى هذا النمط التركيبي الذي طرحته بنية " كيف " يكون الاستهزاء بالرسل والرسالة من مقومات العناد عند المشركين.

ومن نفس المحور تشكل بنية الهمزة الموضوع لتخص الرسول بالإنكـار ولاسـتهزاء دون الرسالة، فيقول تعالى ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا * وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلا﴾[1].

السّياق الدّلالي للاستفهام "أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا ..." سياق إنكـار تـسلط علـى المبعوث دون البعثة، وتشكل هذا المعنى الدلالي في الصياغة التركيبية من ذكر عنـصر الاستفهام " الهمزة " الذي لا يليه إلا المستفهم عنه سواء أكـان الاسـتفهام للإنكـار أو التقرير، وهذا التركيب الصياغي للبناء يوضح حال المتكلم المستخفة بشأن المبعوث، لكن السياق يصنع مفارقة دلالية ما بين الواقع الذي يعيشه المستخف في حالـة الاسـتخفاف، وحاله بعد الاستخفاف، فالحال الثانية تعيد التوازن الدلالي إلى الصياغة بأن كـل معانـد ومكابر له عذاب شديد "وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَـذَابَ مَـنْ أَضَـلُّ سَـبِيلا ....."، فالأسلوب الصياغي للبناء الاستفهامي يهز الوجدان هزا عنيفا حتى يفيق المعاند أو المتلقي السلبي من الغي، والهوى الذي يسبح فيه.

ونرى أنّ التّركيب البنائيّ للاستفهام لا يـ نكر في بنيته السّطحية الرّسالة، بل صـاحب الرّسالة، وهذا بحدِّ ذاته سخرية واستهزاء؛ لأنَّ السّاخر استخدم أسلوب التقليل الذي يشير إلى ظاهر للعيان ممثلا باسم الإشارة " أهذا ..." قاصدا من ذلك الـسخرية مـن بـشرية الرسول، وأنّه ليس أهلا لحمل الرسالة هذا من جانب، ومن جانب آخـر يجـب الأخـذ بالاعتبار الإمكانات الدلالية لاسم الإشارة " أهذا "، الذي نلحظ فيه طريقة الأداء، والتعبير

(1) ــ سورة الفرقان الآيات: 40 ــ 42.

التي تعطي الصياغة،وقرائنها هذا البعد الدلالي للسخرية، فالبعد الدلالي الساخر الذي يتجه مركزه إلى ذات الرسول بهذا العمق ناتج من ترابط حركة الذهن،مع الصياغة اللفظية.

والاستهزاء بالرسول أو الرسل يتبعه الاستهزاء بما جاء به الرسل، وخاصة القرآن الكريم، وفي هذا السياق يقول الله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾[1]. فبنية الاستفهام في المستوى العميق للصياغة اللفظية تقرر أن المنكرين استكبروا عن ذكر الله، وهذا واضح من خلال فاعلية الصياغة اللفظية، وخاصة في بنية الهمزة وحرف النفي " أفلم ..."، والقرائن اللاحقة، فالبناء في مجمله لحظة حضور في العالم، حيث تتراءى فيه الحقيقة الإنسانية في جانبيها المتباعدين، الجانب الطيب، والجانب السلبي المعاند المستهزئ، لكن الصياغة ركزت محورها الدلالي على الجانب السلبي لما فيه انعكاس لعالم الشر في كل زمان ومكان، فعالم الشر صفته الاستكبار، والإجرام في كل زمان ومكان.

والمحور الثاني الذي تسجله الأبنية في سياق السخرية ينحصر في تهديدهم، ووعيدهم ومركزية التهديد تأتي في سياق البنية الاستفهامية على شكل ضرب الأمثال من الأمم السابقة، ويتشك ذلك من بنية " الهمز " وحرف النفي " لم "؛ فيقول تعالى : ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ * أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[2]، ومنه قوله تعالى : ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

فالبناء التركيبي للاستفهام يتعامل مع الموضوع من خلال حديث الغياب، وتتشكل ذلك من جانب حرفي الاستفهام " الهمزة " والنفي " لم "، الذي يؤدي بمشاركته بنية الهمزة

---

[1] ـــ سورة الجاثية الآيات : 31 ــ 33.

[2] ـــ سورة الأنعام الآيات : 4 ــ6.

[3] ـــ سورة الشعراء الآيات : 6 ــ8.

دورين في الصياغة اللفظية، الدور الأول الدلالة السلبية، والجانب الثاني : عمل على تفريغ الفعل المضارع " يرى..." من زمنه ليملأه بدلالة بديلة، فنقله من الحاضر إلى دلالة الماضي نقلا سياقيا، والنقل السياقي للفعل قدم في العمق الدلالي لفت أنظار المتلقين إلى التاريخ الماضي، وأخذ العبرة، فنشر لهم من خلال التراكيب أنهم سيمرون على هذه الأرض كما مرَّ عليها من سبقهم من الأمم . والرؤيا التي تطرحها بنية الهمزة والقرائن اللفظية رؤية بصرية؛ لأن الأمم التي أشار إليها السياق، وما حلَّ بها من هلاك ودمار، صار لفضاعته وهوله كأنه يرى بالعين الباصرة، بعد آماد طويلة ما بين زمن السياق النصي، والحدث الفعلي الذي يخبر عنه النص[1].

وفي سياق الشاهد الثاني الوارد في سورة الشعراء، يطرح السياق النصي للاستفهام التهديد، والوعيد بأسلوب آخر، يمزج فيه السياق بين إلزام الرؤيا، والاعتبار من دلائل خلق الله في الأرض والاستفهام بهذا الأسلوب يحمل دلالتين : الأولى التقرير، والثانية الإنكار،والدلالتان تبرزهما الصياغة اللفظية من خلال فعل الرؤيا "أولم يروا ..."، لأنَّ المعاندين لم يسيروا على واقع الرؤيا البصريّة، فنزلة رؤياهم منزلة العدم، فلم يستفيدوا منها، فيؤمنوا بمقتضياتها، ونتيجة لهذا وقع العذاب على من أنكر واستهزئ بقدرة الله عزّ وجل[2].

ونرى بعد العرض أن موضوع السخرية في الأبنية الاستفهامية داخل السور المكية، فيه توجيه لذهن المتلقي نحو العدول عن المعنى الظاهري، لإحداث نوع من الحيرة والتساؤل والتخمين، يتبعه استنكار يغرسه المرسل في نفس المستقبل، يؤدي إلى النفور أو السخرية من الأشخاص، أو الأشياء التي يأخذ المرسل منها موقفا ساخرا، ويتم هذا الأسلوب بطريقة النطق، والتنغيم في العدول بذهن المتلقي عن المعنى الظاهري لدوال الصياغة إلى معاني أخرى يقصد المرسل، أو المتكلم ترسيخها في نفس المستقبل، أو المتلقي الإيجابي والسلبي على حد سواء . ونجد من خلال الشواهد في سياق البنية الاستفهامية أن موضوع السخرية يلقي ضوءا كاشفا على التفاعلات الداخلية في نفس المرسل، ويوضح تأثيرها على تعبيراته، وتراكيبه؛ لأنه إذا تناهى غضبه تجاه شخص ما، ربما عظم كبره فاستهان بالمخاطب (المتلقي الخاص)، واستهزأ به، وربما أحمى

(1) ـــ ينظر : المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: ج1/ 280 ـــ 281.
(2) ـــ المرجع السابق: ج3/ 75 ـــ 76.

الغضب مزاجه حتى خيّل إليه ضد مقتضى الحال فبنى عليه مقام الوعيد، والإنذار بالوعد والبشارة، وفي مقام الهجاء بالمديح، أو عكسه.... وهكذا تشكل الصياغة الأسلوب.

4. 5 : الشّورى في سياق البنية الاستفهاميّة:

الشّورى موضوع من موضوعات القرآن الكريم، عرضته آياته، وتحدثت عنه، إمّا باللفظ الصّريح " شورى "، وإما بألفاظ قريبة منه، بل أطلق هذا المصطلح على إحدى سور القرآن ـ سورة الشورى المكية ـ وهذا يؤكد لنا أهمية الموضوع في سياق آيات القرآن الكريم. وبما أن القرآن تحدث عن الشورى، فإننا نجد له حضورا كبيرا في السياق الاستفهامي في السور المكية، ومرجع ذلك أن موضوع الشورى مسألة ضرورية في الحياة الفردية والجماعية، والحياة العامة والخاصة في القديم والحاضر، وتكاد الشورى تدخل في جميع مجالات حياة النّاس من ممارسات فردية أوجماعية، ووظيفية أو أدائية، ومن هنا ينبع وجودها في السياق الاستفهامي، أو الأبنية الاستفهامية؛ لأن الموضوع مرتبط بانفعالات، وحاجات الفرد أو الجماعة.

والشورى مصطلح إسلامي قرآني خاص بالأمة الإسلامية، وهو روح إسلامية تسري في كافة ميادين المسلمين، فتدب فيها الحياة الطيبة، وهو نور مبارك ينير حياتهم، فإذا تخلوا عن الشورى، فقد خرجت الروح من حياتهم، وأطفئ النور من وجودهم، وتحولت الحياة إلى موات، وجماد قاتل، وعاش المسلمون البؤس والشقاء في ظلام الاضطهاد والاستبداد.

وقد تشكل موضوع الشورى في سياق الأبنية الاستفهامية للسور المكية على شكل محورين رئيسيين : الأول الشورى الحسية من خلال الإشارة، والثاني : الشورى اللفظية، فالمحور الأول نجد له حضورا بارزا في القصص القرآني، وخاصة في سورة مريم، ففيها قدم السياق التركيبي من جانب بنية " كيف "، ملامح المحور، فيقول تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[1].

فالإشارة التي أبرزها السياق الاستفهامي إشارة حسية، نلحظ معها تحريك اليد نحو المشار إليه ـ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ـ مركز بؤرة الاستفهام، وهي تعبير عن معنى

---

(1) ـ سورة مريم الآيات: 27 ـ 30.

يريده صاحب الإشارة، لكن معنى الشورى يتحقق عندما ينطق محور الاستنكار المشار إليه " الصبي" بحقيقة ما يريدون، فيقدم نفسه إليهم، ويخبرهم بما جرى بأسلوب لم يخطر ببال المتكلمين "قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا "، وفي هذا يقول ابن عاشور : " الاستفهام إنكار أن يكلموا من ليس شأنه أن يتكلم، وأنكروا أن تحيلهم مكالمته على معرفة الجواب، وكيف نلقي عليه السؤال؛ لأنّ الحالين تقتضيان التّكلم "[1]. ونرى أن الذي زاد الإنكار في الصياغة لفظ " الصبي "، فالإشارة الحسية إليه قلبت أوجه الرأي، وقطعت على السائل شوطا كبيرا لمعرفة ما يجول في خاطره، أو خاطر الجماعة بثبوت الخبر الذي يسألون عنه، فتثبت الصياغة اللفظية وعلى لسان المشار إليه، أنه عبد من عبيد الله جعله نبيا .

أمّا المحور الثّاني فإنّه يتشكل من الشورى اللفظية الذي تمثله الأبنية الاستفهامية في سياق السور المكية، وأول قسم لهذا المحور نجده في معنى الشورى الإيجابية الخيرة، فمنه سيدنا إبراهيم يشاور اسماعيل عليه السلام في رؤياه بذبحه، وقد تشكل هذا في بنية " ماذا "، فيقول تعالى : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[2].

فبنية " مَاذَا ..." الاستفهامية تحمل في صياغتها التركيبية دلالة التفكر والتدبر، وإعمال العقل للخروج بالرأي الصواب، فإبراهيم عندما أطلق استفهامه " ماذا.." للمتلقي المباشر يعلم حقيقة الموقف الذي سيكون عليه، متمثلا بحرصه الشديد على الاستسلام لأمر الله، فالصياغة اللفظية تلقي الضوء على طبيعة إنسانية فريدة، تبرز حقيقتها على وجه العموم والخصوص، فالمتكلم الذي يطلب المشورة، والمتلقي محور مركزية المشورة من طبيعة واحدة تلخصها الصياغة اللفظية في العمق الدلالي بالانقياد لأمر الله عزّ وجل .

---

[1] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج16/ 33 .

[2] ــ سورة الصافات الآيات : 100 ــ 107 .

ومنه مشورة ملكة (سبأ) لقومها بشأن رسالة سليمان عليه السلام، فقد جمعت الملكة مجلس الشورى عندها، ودعت الملأ المستشارين إلى التفكير في الأمر، وطلبت مشورتهم، وأخبرتهم أنها لا تقطع أمرا من أمور الدولة إلا بعد موافقتهم، ورضاهم، فيقول تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[1].

فشورى ملكة سبأ لمجلسها ورد بأسلوب استفهامي: "فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ..." ليكشف لنا من خلال الصياغة اللفظية في المستوى السطحي للتركيب جوانب متعددة من الحقائق التاريخية: أولها: أن نظام الحكم في مملكة سبأ اليمنية العربية كان حكما ملكيا شوريا، فالملكة تشاور الملأ من قومها في القضايا العامة، وتلتزم بـ ما يشيرون به عليها، ولا تتخذ قرارا، ولا تقطع أمرا إلا بعد استشارتهم بدليل الصياغة اللفظية "مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ"، وفي هذا يقول سيد قطب: "في هذا القول تظهر شخصية المرأة التي تكره الحرب، والتدمير، التي تنتضي سلاح الحيلة، والملاينة قبل أن تنتضي سلاح القوة والمخاطبة..."[2].

والحقيقة الثانية التي يكشفها التركيب أن المستشارين لم يشيروا عليها بشيء بل أعادوا القرار إليها، ويثبت أنهم قوم مأمورون ينفذون ما تأمرهم به "وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ..."، ويبين كذلك حقيقة أكبر أنهم أمامها لا يجيدون إلا التنفيذ، فهم أولوا قوة وبأس شديد، أما التفكير فلا يجيدونه، فالتفكير، والرأي والقرار لها، والفعل والتنفيذ عليهم، وبهذا يكون البناء الاستفهامي من خلال صيغة "ماذا ..." وقرائنها، قد ورد بصيغة الفتوى والشورى.

ومن نفس القسم يـأتي ولكن من سياق بنية "هل"، فيظهر السياق مشورة أخت موسى الرضيع عليه السلام على آل فرعون، بأن تدلهم على من يكفله، فيقول تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا

(1) ـ سورة النمل الآيات: 29 ـ 36.

(2) ـ سيد قطب: في ظلال القرآن :ج5/ 2640.

عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ *فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ*وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

فصياغة التركيب الاستفهامي "فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ ..." في عمقها الدلالي للتشويق، تبين تلطف المتكلم في تقديم رأيه على آل فرعون، والرأي أن المتكلمة تعرف المرأة التي يقبلها الوليد الرضيع، فكانت المشورة في موضعها الصحيح، لإعادة الابن إلى أمه دون أن يعلموا أنها أمه.

والقسم الثاني من محور المشورة اللفظية يتمثل في الصياغة اللفظية للبناء الاستفهامي في عكس القسم الأول من نفس المحور، ونجده يتمركز في المشورة السيئة الشريرة التي لا تنسجم مع الواقع الإيماني، وأول شاهد تطالعنا به الأبنية الاستفهامية استشارة فرعون لقومه ومستشاريه في أمر موسى عليه السلام، فيقول تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ *وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[2].

فالسّياق التّركيبي للاستفهام "فَمَاذَا تَأْمُرُونَ..." يبين في المستوى السّطحي، والعميق أنَّ فرعون هو الّذي استشار الملأ من حوله، ويبيّن أنَّ الملأ المستشارين أشاروا عليه بحبس موسى، وإحضار السحرة، فالاستفهام وقرائنه يبيّن جانبين في المستوى الدلالي: الأول يتصل بالمستفهم ببيان حكمه في ظاهر الأمر بأنه حكم شوري، ولكنه في باطنه حكم جبري، يبين أن فرعون بجبروته قد لقن المستشارين ما يريد بطريقة غير

[1] ــ سورة القصص الآيات: 11 ــ 15.

[2] ــ سورة الشعراء الآيات:34 ــ 42.

مباشرة رأيه في موسى، فعندما عرف القوم هذا الرأي طرحوه على فرعون، فوافقهم عليه، فمشورتهم إليه طريقة إجرائية لمواجهة موسى.

والجانب الثاني: أن المستشارينعنده ينقسمون إلى قسمين : الأول المستشارون الخاصون، والثاني المستشارون العامون، فالمستشارون الخاصون يريدون أن يوجهوا للمستشارين العامين الجدد ما يقولونه، ويقررونه، ويشيرون به، وكأنهم يعرفون أن هذا هو رأي فرعون، وهم بهذا الأسلوب يلقنون الملأ الجدد بما لقنهم إياه فرعون من قبل، وهذا ما أثبته سياق النص القصصي للحادثة بتكرارها مرة ثانية في سورة الأعراف، فيقول تعالى ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[1].

وبهذا يكون السياق الاستفهامي في السورتين ـ الشعراء والأعراف ـ يقرر حقيقة حكم فرعون، وأن رأي فرعون قد تم على مرحلتين : الأولى الاجتماع السري الذي عقده فرعون مع المستشارين الخاصين، وأخبرهم به أن موسى ساحر يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره، والمرحلة الثانية : تظهر بعد اتفاق فرعون مع مستشاريه الخاصين، وفيها يظهر فرعون بمظهر المستشير الحريص على العودة إلى الرعية، فرتب لهذا لقاء موسعا لوجوه القوم للتشاور في قضية موسى [2]. ونرى أن الاستفهام المتشكل من بنية "ماذا" قد كشف استشارة فرعون الشريرة السيئة في هذه الآيات، فالصياغة البنيوية بينتها على شكل مسرحية تمثيلية هزلية، فالملأ المستشارون كانوا يشيرون عليه بما يريد، وأنَّ فرعون كان في الحقيقة ظالما مستبدا، وليس استشاريا عادلا.

وثاني الأمثلة على محور الاستشارة السيئة يتمركز في سياق تشاور قريش ضد الرسول عليه السلام، فظهر هذا جليا في سورة المدثر، وفي سياق بنية "كيف" التي سجل سياقها البنائي النتيجة السخيفة المضحكة التي خرج بها الملأ المستشارون والرأي المتهافت لزعيمهم، فا لبنية تدل دلالة واضحة على حال صاحب الرأي، فيقول تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ

[1] ـ سورة الأعراف الآيات: 109 ـ 112.

[2] ـ ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن:ج1348/3.

تَمْهِيدًاثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ۞سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ثُمَّ نَظَرَ ۞ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾[3].

وبهذا يكون السياق الاستفهامي في بعض أبنيته المختلفة قد سلط قرائنه على معنى الشورى بقسميها الإيجابي، وغير الإيجابي، وهذه التراكيب تبرز أن معاني الشورى كثيرة في سياق الأبنية الاستفهامية باعتبارها موضوعا قرآنيا حياتيا قرره وأمر به، وجعله أساسا لحياة المسلمين الفردية والجماعية، ومظهرا لسعادتهم، وتوفيقهم ونجاحهم في حياته الدنيوية.

ونخلص من الموضوعات التي طرقتها البنية الاستفهامية في السور المكية، فنجد أن القرآن الكريم في سياق الاستفهام يخاطب العقل بمنطق قوي، وحجة ظاهرة، ودليل قاطع وتراه في الوقت نفسه يخاطب الشعور والوجدان، خطابا يستدر به العطف، ويوقظ الإحساس، فلا نجده يغذي جانبا، ويهمل جانبا آخر، ففي النفس الإنسانية قوتان كما هو معروف، قوة تفكير، وقوة وجدان، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها، ومع هذا نجد أن البناء الاستفهامي في القرآن الكريم قد جمع بين هاتين القوتين، فهو بهذا الأسلوب يشبه الغصن الواحد من الشجرة الواحدة يحمل أوراقا، وأزهارا، وثمارا في وقت واحد، وكما يسري الروح في الجسد، والماء في العود.

والحقيقة هذه لا ينقصها دليل أو برهان، فالقارئ لكتاب الله يلمسها في أسلوبه، إذ هي سمة بارزة فيه، تارة تخاطب الأبنية الاستفهامية العقل، وتسوق له الأدلة، والبرهان، كما هو الحال في محور العقيدة، وتارة تلهب المشاعر وتخاطب الوجدان ويتمثل ذلك في محور موضوع المصير الأبدي، والسخرية، والشورى، وفي هذين الأسلوبين يشعر المرء بأنه أمام كلام يصل إلى شغاف قلبه، ويلامس حاجته، فيترك ذلك فيه أثرا لا يفارقه ما دام يتلو آيات الله، ولعل هذا التوازن بين تغذية القوتين سابقتي الذكر، هو السبب في ذلك الأثر الذي يحدثه في نفس المتلقي.

وفي هذا المقام لا يغيب عن الذهن أن القرآن في طرقه الموضوعات في سياق البناء الاستفهامي، من خلال الأساليب والأبنية التي تشكله لا يتجه إلى إثارة العواطف، والمشاعر لذات الإثارة، بل لما وراءها من يقظة وانتباه، ونظر في جوانب النفس الإنسانية، فالقرآن يثير العواطف، ويوقظ العقول في وقت واحد، وبعد الاقتناع يطمئن

[3] ـ سورة المدثر الآيات: 11 ـ 21.

العقل ويهدأ، ويشعر الإنسان بنشوة الفرح والارتياح، وبهذا يمكننا أن ندرك أن القرآن له تأثير في نفوس مستمعيه، يستوي في ذلك مؤمنهم، وكافرهم، ومعاندهم، لكن مصدر التأثير الذي تحدثه البنية الاستفهامية يختلف فيما بينهم.

الخاتمة:

الحمد لله حمدا يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، الحمد لله في الأولى والآخرة حمدا يليق بجلال وجهه، وعظيم سلطانه، له الحمد على نعمة التَّوفيق للعيش في ظلال كتابه الكريم، والصَّلاة والسَّلام على من أنزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيرا، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

تمكنت الدّراسة من تتبع معنى الاستفهام من جانبي اللّغة والاصطلاح من خلال المعاجم، والدِّراسات النَّحوية، والبلاغيّة، وما طرحه المفسّرون، والمتكلمون على اختلاف أزمانهم، وآرائهم الّتي تقدموا بها، وبينت الدِّراسة من خلال التَّتبع المستقصي لأغلب الآراء أنَّ الاستفهام من أساليب القرآن الكريم، بنيته طلبية، على وزن " استفعال" تقدم صيغته الصرفيّة دلالة الوضع في طلب الفهم، بأدوات مخصوصة مذكورة، أو محذوفة تختلف دلالاتها الّتي تحويها حسب تلون الموضوعات الّتي ترد فيها.

أظهرت الدراسة أنَّ الاستفهام أمر جوهري في البناء اللّغوي، ونظم الكَلم، ويمكن من خلاله حمل الكثير من المسائل النَّحويّة، والتّفسيريّة عليه لبيان إعجاز القرآن، وبلاغة نظمه.

كما أظهرت الدِّراسة أنَّ الأبنية الاستفهاميّة في القرآن الكريم بعامة، والسّور المكيّة خاصة، تتميز بتحقيق أكبر قدر ممكن من التّناغم، والتّوافق بين الوظائف الثّلاث الرّئيسة في عملية الاتصال الأدبيّ داخل النَّسيج البنائي للسّور المكيّة وهيالوظيفة الانفعاليّة، والطّلبية، والمرجعيّة، فالانفعاليّة في سياق البناء تتمركز عند المتكلم، أو المُستفهم، والطّلبية تتمركز عند المتلقي الخاص، والعام على حد سواء، والمرجعيّة في السّياق، وتَظْهر هذه الوظائف الثَّلاثة تباعا في المستوى الصّياغي الأصلي للبنية الاستفهاميّة، وفي المستويات الدّلالية التّوليدية الناتجة عن تفاعل الصّياغة مع المقام، ومقتضيات الأحوال....

وقد أظهرت الدراسة أنَّ البناء العميق للاستفهام يتصل بالإفهام، والإفهام وظيفة مشتركة بين اللّغة الأدبيّة، واللّغة اليّومية المعتادة بكل أساليبها، وأنماطها، لكنَّ اللّغة

الأدبيّة تتجاوز الإفهام إلى تـ حقيق الإطراب، أو الوظيفـة الجماليـة باسـتخدام وسـائل إيقاعيّة، وتركيبية مختلفة، وأشكال بلاغية متعددة في نسيج البناء الاستفهامي لجذب انتباه المتلقي إلى البنية الدّاخلية للرِّسالة الأدبيِّة في السِّياق الاستفهامي، فيتحقـق لـه عنـصر الإطراب، أو لذة النَّص، وبينت الدراسة أنَّ الأساس الّذي يعتمد عليه الإطراب، أو اللّـذة في البنية الاستفهاميّة متعدد المسارب في رصده لتحركات التّراكيب من البنية الأصلية، أو العميقة إلى البنية السّطحية مع استجلاء الحركة الدّلالية الارتدادية للتّراكيب، فتبدأ البنيـة الاستفهاميّة بجميع أنماطها، ومراحلها الأسلوبيّة، والدّلاليـة بالتّفـصيلات الجزئيّـة فـي الصياغة اللفظية، وهي مرحلة تظل في منطقة الحقيقة، ثم تنتقـل إلـى مرحلـة الدّلالـة المجازية بمساعدة القرائن القبلية، والبعديّـة داخـل التّركيـب، لتبـدأ بعـدها المرحلـة الثّالثة، وهي مرحلة تكثيف الـ دّلالة المجازية، وزيادة فاعليتها عـن طريـق التّـشكيلات اللّغوية، والأسلوبيّة الّتي تتعاور على البناء، أو تتّحد فـي نـسيجه، كـالتّنغيم، والتّقـديم والتّأخير، .... إلى أن تصل البنية الاستفهاميّة إلى مرحلة البنيـة الـسّطحية النهائيـة للصّياغة.

كما أظهرت الدراسة أنَّ مقام السؤال، أو الاستفهام مـن أكثـر المقامـات اللّغويـة والتّركيبية مناسبة للحذف؛ لأنَّه يعجّ بلهفة السّائل التّائق إلى كشف المجهـول، ومعرفـة الحقائق من خلال انفعال ثائر سريع يطوي من جوانب الكلام ما لا يحتاج إليـه الـسَّائل المنفعل.

كما بينت الدِّراسة من خلال الشّواهد أنَّ الحذف يحقق للمتلقي حـضورا فـاعلا فـي السِّياق من خلال قوة التَّأويل، والتَّخيل للمواقف الّتي يتخللها ليجعل المشهد، أو الحـدث صورة مسموعة ومرئية، دون تدخّل ملازم بالسَّرد، أو الوصف، فيـشعر المتلقـي بأنَّـه يعيش في بؤرة الحدث يسمع الشّخوص تتكلم عن ذاتها دون وسيط، فيحدد المفقـود مـن المذكور في التَّركيب النَّصي.

وقد بينت الدِّراسة أيضا في هذا النَّمط الاسـلوبيّ أنَّ الحـذف يـساهم فـي البنيـة الاستفهاميّة في عملية الإقناع مساهمة فعالة بما له من خصائص أسلوبيّة وبيانيّة، ليتناسب السّياق من خلاله مع طبا ئع النّفوس الّتي قد يلازمها في بعض الأحيان الملل، والسّآمة مع طول الكلام، ومن هنا استغنى القرآن عن كثير من الألفاظ، واكتفى بالدّلالة عليهـا مـن

السّياق، لِيُخرج الكلام في أبهى صوره وأحسن تأليف مع الوفاء بحق المعنى، ليتحقق لــه التّأثير المطلوب.

كما أظهرت الدِّراسة أنَّ البنية الاستفهاميّة تراعي حال المتلقي في أسـلوبيّة تحـول الخطاب، فبينت أن التَّحول الخطابي يمثل نازعا نفسيا للمتلقي يوحي بتـضارب الأشـياء والأحداث، وتداخلها في العقل الباطن للمنشئ، فيكون تحول الخطاب هو التَّمثيل اللّغـوي لهذا النّزوع النّفسي عند المتكلم، والمتلقي في آن واحد.

وقد أظهرت الدّراسة أنَّ أسلوبيّة التّقديم والتَّأخير في سياق الاسـتفهام فـي الـسّور المكيّة بشكل خاص، والقرآن الكريم بشكل عام تدل دلالة واضحة على أنَّ التَّعبير القرآني تعبير مقصود، وأنَّه لم يقدم لفظة على لفظة في المحاور الأسلوبيّة المختلفـة إلاّ لغـرض متعمد من المنشئ تفرضه الصِّياغة اللفظية، والجمالية على السِّياق؛ ليكشف أبعادا نفـسيّة لدى المنشئ، والمتلقي على حد سواء تساعد هذه الأبعاد فـي الفهـم الـشُّمولي للآيـات والسُّور.

وقد بينت الدراسة أنَّ أسلوبية التّكرار في نسيج البنـ ية الاستفهاميّة داخل السّور المكيّة يتعلق بطبيعة النَّفس البشريّة، فهو السَّبيل الوحيد لربط تيار الفكر، والعاطفـة بالانفعـال المتولد من الاستفهام وتركيزه في الصّياغة، ليكوّن المتلقي من خلال أسلوبيّة التَّكرار فهما شموليا للموضوع، والفكرة المطروحة ما بين المُستفهِم والمتلقي.

وقد أظهرت الدِّراسة أنَّ موضوعات البنية الاستفهاميّة فـي سـياق الـسّور المكيّـة متنوعة، وهذا التّنوع في الموضوعات يـدور فـي فلـك مـضموني متقـارب تقاربـا أسلوبيّا، يحمل في طياته صوتا جمعيا يحاكي الواقع الّذي يعيشه المتلقي في كـل زمـان ومكان.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

إبراهيم، نبيلة، 1984م، القارئ في النص " نظرية التأثير والاتصال"، **مجـــــلة فصول**، الهيئة العامة للكتاب، مصر، عدد الأسلوبية، المجلد الخامس، العدد الأول ص101 ــ102

إبراهيم، زكـــــــريا،1971م: **مشكلة الحياة**، مكتبة مصـــــــر، القاهـــرة، ط1.

ابن أبي الاصبع، زكي الدين عبد العظيم بن عبدالواحد، د.ت: **بديع القرآن**، تحقيق: حفني شرف، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، د.ط.

ابن الأثير الجزري، ضياء الدين محمد بن محمد الشيباني، 1973م: **المثل السّائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق: أحمـــــد الحوفي، وبدوي طبانه، مكتبة نهضة مصـــــر، القاهرة، ط2.

ابن الأثير الحلبي، نجم الدين أحمد بن اسماعيل، د.ت: **جواهر الكنز**، تحقيق: محمـــــــد زغلول سلام، منشأة المعارف، الاسكندرية، د.ط.

ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني (ت392هــ)، 1986م: **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، لبنان، د.ط.

ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني (ت392هــ)، 1386هــ، **المحتســـب**، تحقيق: علي النّجديّ ناصف، وآخــــرون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ،د.ط.

ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني (ت392هــ)، 1954م: **المنصف لشرح التصـــريف**، تحقيق: إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، مطبعة الباب الحلبي، مصر، ط1.

ابن السّراج، أبو بكر محمد بن سهيل بن الســـــــرّاج (ت316هــ)، 1988م :**الأصول في النّحو**، تحقيق : عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3.

ابن سيده، علي بن اسماعيل، 1958م : **المحكم والمحيط الأعظم في اللغة**، تحقيق : عائشة عبد الرحمن، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1.

ابن فارس، أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (ت395هــ)، 1993م : **الصّاحبي في فقه اللغة**، وسنن العــــرب في كلامها، تحقيق : عمــــر فاروق الطّباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط1.

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مســــــلم، 1981م : **تأويل مشكل القرآن الكــريم**، تحقيق وشرح : أحمد صقر، المكتبة العلمية، الدمام، ط5.

ابن المعتز، عبد الله، د ت : **البـــــديع**، منشـــــورات دار الحكمـــة، دمشق، د ط.

ابن معصوم المصري، السيد علي صدر الدين بن معصوم (ت 1120هــ)،1969م : أنوار **الربيع في أنواع البديع**، تحقيق : شاكر هادي شكــر، مطبعة النعمان، النجف، ط1.

ابن منظور : محمد بن مكرم الأنصاري (ت711هــ)، 2001م : **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، د ط.

ابن النّاظم،أبو عبدالله بدر الدّين بن مالك الدّمشقـــيّ (ت686هــ)، 2001م : **المصباح في المعاني والبيان والبديع**، تحقيق : عبدالحميد الهنداوي، منشـــــورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1.

ابن النّقيب، أبو عبدالله محمد بن سليمان البلخيّ (ت698هــ)، 1995م : **مقدمة تفسير ابن النقيب في علم المعاني والبديع وإعجاز القرآن**، تحقيق : زكـــــريا سعيد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1.

ابن هشام، عبدالله جمال الدين بن يوسف الأنصـــاري (ت761هــ)، د ت : **مغني اللبيب**، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة المدني، القاهرة، ط1.

ابن هشام، عبدالله جمال الدين بن يوسف الأنصاري، (ت761هــ)، د ت : **أربع رسائل في النحو** ــ ومنها الإلمام بشرح حقيقة الاستفهام ــ ، تحقيق عبدالفتاح سليــــم، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1.

ابن يعقوب المغربي، أبو العباس أحمد بن محمـــــد بن أحمد، 2003م : **مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح**، تحقيق : خليل إبراهيم خليل،دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

ابن يعيش، موفق الدين بن يعيش (ت643هـ)، د ت: **شـــــرح المفصل**، عالم الكتب، بيروت،ودار الطباعة، القاهرة د ط.
أبو السعد، عبد الرؤوف، 1985م: **الأداء النفسي واللغة العربية**، دار النمـــر للطباعة والنشـــر، القاهرة، د ط.
أبو عبيدة، عمر بن المثنى (ت210هـ)، 1981م: **مجاز القـــرآن** ، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مـــؤسسة الرسالة، بيروت، ط2.
أبو العـــدوس، يوســـف، د ت: **البلاغة والأسلـــوبيّة** ــ مقـــدمات عامة ــ الأهلية للنشر، عمان، د ط.

أبو العدوس، يوسف، 1987م: هـــمزة الاستفهام بين المفهوم النحوي والبلاغي، **مؤته للبحوث والدراسات**، المجلد الثاني، العدد الثاني ص 198 ــ199.
أبو فارس، محمد عبد القادر، 1987: **الابتلاء والمحن في الدعوات**، دار الفرقان، عمان، ط1.
استيتية، سمير شريف، 1995م : **الشـــرط والاستفهام في الأساليب العربية**، دار القلم، دبي، ط1
أسعد، خولة محمود، 1999م: **التَّشكيل التَّكراري في السُّور المدنيّة**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك.
إسماعيل، عزالدين، 1978: **الشّعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية**، دار الفكر العربي، القاهرة ، مصر، ط2.
الأصفهانيّ، أبو الفـــرج الأصفهاني، د ت: **الأغاني**، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية.
أنيس، إبراهيم، 1973م: **في اللهجات العربية**مكتبة الأنجلو المصـرية ، القاهرة، ط4.
أنيس، إبراهيم، 1984م: **الأصوات اللغـــوية**، مكتبة الأنجلو المصـــرية، القاهرة، ط5.
إيفانكوس، خوسيه ماريا، 1988م: **نظرية اللغة الأدبية**، ترجمـــة: حامد أبو أحمـــد، مكتبة غريب، القاهـــرة، ط1.
بارت، رولان، 1994م: **قراءة جديدة للبلاغة القديمة**، تـــرجمة: عمـــر أوكان، دار

إفــريقيا للنشر، الدار البيضاء، ط1.
باظاهر، بن عيسى، 2000م: **أساليب الإقناع في القرآن الكريم** ــ دراسات بيانية وفكريّة في القرآن الكريم، الأردن عمان، ط1.
البحيري، سعيد، 1994م: : **دراسات عربية وسامية**، مــركز اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة.
بدوي، أحمد أحمد، 1978م: **من بلاغة القرآن**، دار نهضة مصر للطباعة والنشر،الفجالة، القاهرة، د ط.
برجستراسر، ج، 1982م: **التَّطور النَّحويّ**، ترجمة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، د ط.
بشر، كمال، 1998م: **التَّفكير اللّغــــوي بين القديم والجديد**، مكتبة الشباب، الإسكندرية، ط1.
البقريّ، أحمد ماهر محمــــــــــود، 1989م: **أساليب النّفي في** القرآن، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، ط1.
بنت الشَّاطئ، عائشة عبد الرحمن، د ت: **التّفسير البيانيّ للقرآن الكــريم**، دار المعارف، ط6.
بنت الشاطئ، عائشة عبد الـــــــــرحمن، 1971م: **الإعجاز البياني للقرآن**، ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، مصر، ط2.
بنت الشاطئ، عائشة عبد الـــــــــرحمن،1971م: **من أسرار العربية في البيان القرآني**، محاضرة ألقيت في جامعة بيروت، ثم نشرت في كتيب.
البوطيّ، محمــــد سعيد رمضان، 1977م: **من روائع القــرآن**، مكتبة الفارابي، دمشق، د ط.
البيضاويّ، ناصر الدين أبي سعيــــد عبدالله الشيرازيّ، 1926م : **تفسير القرآن الكريم** " أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مطبعة محمد علي صبيح [د م]،ط1.
التفتازانيّ، سعد الدين مسعــود بن عمر [ت791هـــ]، د ت: **شــــــروح التلخيص**، دار السرور، بيروت، د ط.
التنوخيّ، محمــــد بن أحمد بن عمــــرو التنوخيّ، 1327هــ: **الأقصى القريب في علم البيان**، مكتبة الخانجي، القاهرة.

التّوحيديّ، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسيّ (ت754هـ)، 1983م: **البحر المحيط**، دار الفكر العربي، بيروت، ط2.
الجارم، علي ، وأمين، مصطفى: د ت **البلاغة الواضحة**، دار المعارف، لبنان، ط2،
الجرجانيّ: أبي بكر عبد القاهر الجرجاني بن عبد الرحمن (ت471هـ)، 1984م: **دلائل الإعجاز**، تحقيق وشرح: محمود محمد شاكر،مطبعة المدني، القاهرة.
الجرجانيّ، أبي بكر عبد القاهر الجرجانيّ بن عبد الرحمن (ت471هـ)، 1982م: **المقتصد في شرح الإيضاح**، تحقيق: كاظم بحر المرجان، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ط1.

الجرجانيّ، السيد الشريف،د ت: **حاشية السيد على المطوّل**، مطبعة عيسى البابي، مصر.
الجرجانيّ، علي بن محمد الشريف الجرجاني (ت 816 هـ)، د ت: **التعريفات**، دار الشؤون الثقافية، بغداد، طبعة جديدة.
جون . ر . سول، 1987م: مبادئ التّأويل الاستعاريّ، ترجمة إبراهيم فقيه، **مجلة الفكر العربي**، بيروت، العدد 46 ص :31 ــ 32.
الجوهريّ، أبو إسماعيل بن حمّاد الجوهري (ت393هـ)، د ت: **الصحاح في اللغة**، المركز العربي للثقافة والعلوم، د ط.
الجوينيّ، مصطفى الصّاوي، د ت: **مناهج في التفسير**، الجيزة، الاسكندرية، ط1.
الحروب، ياسر خليل، 1996م: **أنظمة التركيب في جملة الاستفهام العربية**، رسالة ماجستير مخطوطة غير منشورة، إشراف أهيف سنّو ، جامعة القديس يوسف، كلية الآداب، فرع بيروت.
حسان، تمام، 1982م: **الأصول**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط1.
حسان، تمام، 1979م: **اللغة العربية معناها ومبناها**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2.
حسان، تمام، 1979م: **مناهج البحث في اللغة**، الدار البيضاء، دار الثقافة، د ط.
حفني، عبدالحليم، 1987م: **أسلوب السُّخرية في القرآن في القرآن الكريم**، مطابع الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط1.

الحكيم، محمـــــــد السيد، 1945م: **في إعجاز القرآن**، الأزهـــــر، القاهــرة، د.ط.

حموده، طاهر سليمان، د.ت: **ظاهرة الحــذف في الدّرس اللّغوي**، الدّار التّونسية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، الطبعة الأولى.

حموده، عبد العزيز، 1998م: المرايا المحدبة "من البنيوية إلى التّفكيك"، **عالم المعرفة**، العدد 232، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ص: 46 ــ 47.

الحمـــــوي: ياقوت الحمـــــوي، د.ت: **معجم الأدباء**، دار المأمـــــون، بيروت، ط1.

حميده، مصطفى، 1997م: **نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية**، الشـــركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، ط1.

حنفي، حسن، 1988م: قراءة النص" الهرمينوطيقيا والتأويل"، **مجـــلة البلاغة المقارنة**، الجامعة الأمريكية، مصر، العدد8. ص: 64 ــ 65

حــوى، سعيد، 1983م: **المستخلص في تزكية الأنفس**، دار الأرقم،عمـــان، دار القبس، بيروت، ط1.

الخالديّ، صلاح، 2000م:**إعجاز القرآن البياني**، دار عمار للنشر والتوزيع، عمّان، ط1.

الخانيّ، محي الدين، 1342هــ: **حســـن البيان في تفسيـــــر مفردات القرآن**، مطبعة الزمني، دمشق، ط1.

الخشاب، أبو محمد بن الخشاب، 1972م: **المـــــرتجل**، تحقيق: علي حيدر، دمشق، ط1.

خضر، سيد، 1997م: **ظاهرة التكـــــــرار بين النحاة والبلاغيين**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة طنطا، مصر.

الخطابيّ، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم (ت 388هــ)، د.ت: **ثلاث رسائل فـــي الإعجاز** ــ البيان في إعجاز القرآن ــ تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلـــول سلام، القاهرة، دار المعارف، ط4.

خطابيّ، محمـــــد، 1991م: **لسانيات النص**، المـــركز الثقافي العــــربي، بيروت، والدار البيضاء، الطبعة الأولى.

الخطيب البغداديّ، أبو بكر أحمد بن علي (ت 643هــ)، 1987م: **تاريخ بغداد** ــ مدينة السلام ــ تحقيق: محمد مولود خلف، القاهرة، دار المعارف، ط1.

خلف الله، محمد أحمـــد، 1965م: **الفن القصصي في القرآن**، مكتبة الأنجلو المصـــرية،

القاهرة، ط3.
الخويسكيّ، زين الدين، د ت: **الجملة الفعلية منفية واستفهامية ومؤكدة " دراسة تطبيقية على شعر المتنبي**، مؤسسة الرسالة الجامعية ، الاسكندرية، د ط.
دراز، محمد عبدالله، 1981م: **مدخل إلى القرآن الكريم**، ترجمة: محمـــد عبد العظيم، دار القلم، الكويت، ط3.
دراز، محمـــــد عبد الله، 1969م: **النبأ العظيـــم**، مطبـــعة السعادة، مصـــــر، ط1.
الدمياطيّ، أحمد بن محمد بن أحمد (ت 1117هـــ)، 1997م: **أتحاف فضلاء البشر فـــي القراءات الأربعة عشر**، تحقيق: شعبان محمد اسماعيل، عالم الكتب، بيروت، د ط.

دي سوسير، فردناند، 1987م: **محاضرات في علم اللسان العام** ترجمة: عبد القادر قنيني، الدار البيضاء، ط1.
الرّاجحيّ، عبده، 1988م: **النحو العـــــــــربي والدرس الحديث**، الإسكنــــدرية، دار المعارف الجامعية، ط1.
الرازيّ، محمـــد بن بكر الرازيّ (ت660هـــ)، 2001م: **مختار الصحاح**، تحقيق وشرح: سعيد محمود عقيل: دار الجيل، ودار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1.
الراغب الأصفهانيّ، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت425هـــ)، 1973م: **الـــــذَّريعة إلى مكارم الشـــَّـريعة**، تحقيق: محمد أبو اليزيد العجميّ، مكتبة الكليات الأزهـــــرية، القاهـــرة، ط1.
الرّاغب الأصفهانيّ، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت425هـــ)، د ت: **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت، ط1.
الرَّاغب الأصفهانيّ، أبو القاسم الحسين بن محمـــــد (ت425هـــ)، 1984م: **مقدمة جامع التفاسير**، تحقيق: أحمد حسين فرحات، دار الدعوة، الكويت، ط1.
الرافعيّ، مصطفى صـــــادق، د ت: **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، دار الفكر العربي، القاهرة ط8.
ربابعة، موسى1990م.: التّكـــــــرار في الشّعر الجاهليّ ، دراسة أسلوبيّة : **مجلة مؤته للبحوث والدراسات**، الأردن، المجلد الخامس، العدد الأوّل،ص:16 ــ 17
الرضي الاستراباذيّ، محمـــد بن الحسين نجم الدين (ت686هـــ)، 1983م: **شرح الرضي**

على الكافية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3.
روز غريب، 1951م: **النقد الجمالي وأثره في النقد العربي**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1.
زايد، أحمد محمد علي عبده، 1992م: **عكس الظاهر في ضوء أسلوب القرآن**، ولغة العرب، دار الصحوة، القاهرة، ط1.
الزّجاجيّ، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (ت340هـ)، 1984م: **مجالس العلماء**، تحقيق: عبد السلام هارون، الكويت، ط2.
الزّجاجيّ، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (ت340هـ)، 1984م: **حروف المعاني**، تحقيق: توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1.
الزرقانيّ، محمد عبد العظيم الزرقاني، 2001م: **مناهل العرفان في علوم القرآن**، تحقيق: بديع السيد اللّحام، مطبعة دار قتيبة، القاهرة، ط2.
الزّركشيّ، لبدر الدين الزركشيّ، د.ت: **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، مصر، ط1.
الزمخشريّ، جار الله محمود الزمخشري (ت538هـ)، 1995م: **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل**، ترتيب محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1.
الزّناد، الأزهر، 1993م: **نسيج النص**، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1.
السّاريسيّ، عمر عبدالرحمن، 2004م: **تعريفات الراغب الأصفهاني**، عالم الكتب الحديث، لبنان، ط1.
السّامرائيّ، فاضل، 1998م: **التعبير القرآني**، دار عمار، عمان، ط1.
السّبكي، بهاء الدين أبي حامد أحمد بن علي السّبكيّ (ت773هـ)، 2001م: **عروس الأفراح، في شرح تلخيص المفتاح**، تحقيق خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.
السجلماسي، أبو محمد القاسم الأنصاري (ت 704هـ)، 1980م: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**، تحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط1.
السّعران، محمود، 1962م: **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي**، دار المعارف، مصر، ط1.
السّكاكي، أبو يعقوب يوسف ابن أبي بكر (ت626هـ)، 1983م: **مفتاح العلوم**، شرح:

نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1.

سلام، محمد زغلـول، 1962م: **أثر القـرآن في تطور النقـــد العـربي**، مطبعة دار المعارف، القاهـرة، ط2.

سلـــوم، تامــر، 1983م: **نظرية اللغة والجمال**، دار الحـوار، اللاذقية، ط1.

سيبويه، عمـــر بن عثمان بن قنبر (ت180هـ)، 1991م: **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1.

السّيوطيّ، جلال الدين عبد الرحمن السّيوطيّت (ت911هـ)، 1975م: **الأشباه والنظائر في النحو**، تحقيق، طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط1.

السّيوطيّ، جلال الدين عبد الرحمـن السّيـوطيّ (ت911هـ)، 1987م: **الإتقان**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د ط.

السيوطي،، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت911هـ)، د ت: **شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان**، دار إحياء الكتب العلمية، د ط.

الشّايب، أحمـــد، 1945م: **الأسلـــوب**، مطبعة الاعتمـاد، مصـر، ط2.

شحاته، مصطفى أحمـــد، 1972م: **لغـة الهمس**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، د ط.

الشّريف المرتضي، علي بن الحسين بن موسى، د ت: **الأمالي "غـــرر الفوائد، ودرر القلائد**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب اللبناني، د ط.

الشّوكانيّ، محمد بن علي بن محمد (ت1173م)، 1994م: **فتح القدير ـ الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط1.

الصّابونيّ، محمـد علي، 1993م: **صفوة التفاسير**، دار إحياء التراث العـربي، بيروت، د ط.

صعب، حســن، 1980م: **الإسـلام والإنسان**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1.

صمود، حمادي، 1988م: **الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة**، الدار التونسية للنشر، تـونس، ط2.

الطّباطبائيّ، محمـــد حسين، 1997م: **الميزان في تفسير القـرآن**، منشـورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط1.

طبانه، بدوي، 1988م: **البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العــرب**، دار المنارة، جدة، ط7.

الطّبريّ، أبو جعفر محمـــــد بن جرير (ت310هـــ)، 1980م: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط4.

طحان، ريمون،1972م: **الألسنية العربية ــ النحــــو، الجملة ، الأسلوب ــ** دار الكتب اللبناني، بيـــروت،ط1.

الطّرابلسيّ، محمد الهادي،1981م: **خصائص الأسلوب في الشـــــوقيات**، منشـورات الجامعة التونسية، تونس، ط1.

الطّوفيّ، سليمان بن عبدالقوى البغداديّ(ت716هـــ)، 1977م: **الإكسير في علم التفسير**، تحقيق: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1.

ظاظا، حســــــن، 1990م: **اللســـان والإنسان**، مكتبة الـــدّراسات اللغوية، د مكان، د ط.

عامر، فتحي أحمــــــــد، 1980م: **بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ**، دار المعارف، الإسكندرية، د ط.

عباس، فضل حســــــن، 1987م: **البلاغة فنونها وأفنانها**، دار الفرقان للنشر، عمان، الأردن، ط1.

عبد الله، محمد محمود، 1992م: **حصـــر الفوائد في القرآن الكريم**، الدار الوطنية للنشر والتوزيع، الرياض، ط1.

عبد التّواب، صلاح الدين، 1995م: **الصـــورة الأدبية في القرآن الكـريم**، مكتبة لبنان، بيروت، ط1.

عبد الجليل، عبد القادر، 2002م: **الأسلوبية وثلاثية الدّوائر البـــــلاغيّة**، دار الصفاء للنشـــر،عمان، ط1.

عبداللطيف، محمــــد حمادة،1990م: **ظواهر نحوية في الشّعــر الحر**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1.

عبد المجيد، جميل، 1988م : **البــــديع بين البلاغة العربية واللّسانيات النصية**، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ط1.

عبد المطلب، محمــد، 1995م: **جدلية الإفــراد والتركيب في النص العربي القديم**، مكتبة

لونجمان، القاهرة، ط1 .
عبد المطلب، محمد، 1995م : **بناء الأسلوب في شعر الحـــداثة ــ** التكوين البديعي ــ دار المعارف، مصر ، ط2 .
عبد المطلب، محمــــــــد، 1997م .: **البلاغة العربية قــــراءة جــــديدة،** مكتبة لبنان، بيروت، ط1 .
عتيق، عبد العزيز، 1985م : **علــم المعاني،** دار النهضة العربية، بيـــروت، لبنان، ط1 .
عثمان، عبدالفتاح عثمان، د ت : **دراسات في علم المعاني والبديع،** مكتبة الشباب المثيرة، القاهرة، ط1 .
العسكريّ، الحسن بن عبدالله بن سهيل (ت395هـــ)، 1952م : **الصّناعتين،** تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاويّ، مكتبة عيسى البابي الحلبي، ط1 .
عصفــــــــور، جابر، 1997م : **آفاق العصـــــر،** الهيئة العامـــة للكتاب، القاهــرة، ط1 .
العقاد، عباس محمــــــــود، 1957م : **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه،** منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د ط .
عكاوي، إنعام نوال، 1992م : **المعجم المفصل في علوم البلاغة** ،مراجعة : أحمـــد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 .
علام، عبد الواحد، 1989م : **البديع المصطلح والقيمة،** مكتبـــة الشباب، القاهـــرة، ط1 .
العلوي، يحيى بن حمزة، د ت : **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة،** وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق : جماعة من العلماء، مكتبة المعارف، الرياض، د ط .
علي، أسعد اسماعيل، 2000م : **القرآن الكريم رؤية تربوية،** دار الفكر العربي، القاهـــرة، ط1 .
علي، عواد، 1998م : نهر المجرة " مختارات من شعر البياتي"، هيئة قصــــــور الثقافة، **سلسلة آفاق الكتابة،** القاهرة، العدد السادس .
عليــــــوه، عبد الله، 1993م : **بلاغة الالتفات والتَّغليب،** دار الأرقــم، الــزقازيق، ط1 .
عمايره، خليل، د ت : **أسلوبا النفي والاستفهام في العربية،** ــ في منهج وصفـــــــي في التحليل اللغوي ــ جامعة اليرموك، د ط .
عمايره، خليل أحمد، 1987م : **في التَّحليل اللغـــوي** ــ منهج وصـــفي تحليلي ــ، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط1 .

عمر، أحمد مختار عمر،1997م: **دراسة الصـــــوت اللغوي**، عالم الكتب، القاهـــرة، د.ط.

العمريّ، أحمـــــد جمال، 1990م: **المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني نشأتها وتطورها**، حتى القرن السابع الهجري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1.

العمريّ، أحمد جمال، د.ت: **مفهوم الإعجاز القــرآني حتى القرن السادس الهجـــري**، دار المعارف، القاهرة، د. ط.

العمريّ، أحمـــد جمال،1981م: **شروح الشّــعر الجاهلي، مناهجها واتجاهاتها**، دار المعارف، مصر، ط1.

عياش، ثناء نجاتي محمود، 1996م: **القرآن في الدرس البلاغي المعاصـــــر**، رسالة ماجستيـــــر غير منشورة، الجامعة الأردنية.

عيد، رجاء، 1983م: **في البلاغة العـــربية**، مـؤسسة كليــــوباترا، القاهرة، ط1.

الغريب، أحمد أبو اليزيد علي، 1996م: التنغيم في إطار النظام النحوي، **مجلة جامعة أم القرى**، السعودية، السلسة العاشرة، العدد14. ص:76 ـ 77

فاير، بول ، وبابليون، كـــريستيان، 1992م: **مدخل إلى الألسنيّة**، ترجمة: طلال وهبة، المركز الثقافي العربي، ط1.

الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (ت207هـ)، 1955م: **معاني القرآن**، تحقيق أحمـــد يوسف نجاتيّ، ومحمد علي النّجار، الدّار المصرية، القاهرة، د.ط.

فراى، نورثروب، 1991م: **تشريح النّقد**، ترجمة: محي الدين صبحي،الدار العــــربية للكتاب، طرابلس، وتونس، ط1.

الفراهيديّ، الخليل بن أحمـــــد (ت175هـ)، د.ت: **العين**، دار الكتب العلمية، د.ط.

فريد، وجدي محمد، 1979م: **دائرة معارف القــرن العشرين**، دار الفكر، بيروت، ط1.

فضل، صلاح، 1985م: **علم الأسلوب** ـ مبادئه وإجــراءاته ـ الهيئة المصــرية العامة للكتاب، القاهــرة، ط2.

فضل الله، محمـد حسين، 1987م: **الحــــوار في القرآن الكريم**، دار التعاريف، ســوريا، ط5.

فضل، صلاح، 1981م: ظواهر أسلوبيّة في شعـــر شوقي، **مجلة فصول**، المجلد الأول، عدد4، الهيئة المصرية العامة للكتاب. ص:35 ـ 36

فضل، صلاح1984م : علم الأسلوب، وصلته بعلم اللغة، **مجلة فصول،** الهيئة المصـــرية العامة للكتاب، عدد الأسلوبية، المجلد الخامس . ص : 36 ــ 37

فهمي، مصطفـــى، 1987م : **الدّوافع النفســـــــية،** مكتبة مصـــــر، القاهرة، د ط .

الفيروز أبادي، مجد الدين أبي الظاهر محمد بن يعقوب (ت817هـ)، 1993م : **القامـــوس المحيط،** مؤسسة الرِّسالة، بيروت، د ط .

الفيوميّ، أحمد عبد التـــــواب، 1991م : **أبحاث في علم أصوات اللغة العـــربيّة،** دار السعادة، مصـــــر، ط1 .

القرعان، فايز، 1996م : التّكوين التَّكـــــراريّ في شعر جميل بثينة، **مجلة مؤته للبحوث والدراسات،** جامعة مؤته، العدد السادس . ص : 82 ــ 89

القزوينيّ : الخطيب صلاح الدين محمــــــد (ت739هـ)، 1989م : **الإيضـــــاح في علوم البلاغة،** تحقيق :محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب العالمي، بيـــروت، لبنان،ط3 .

القطان، مناع،1981م : **مباحث في علـــوم القرآن،** دار غـــــــريب، القاهـــــرة، ط5 .

قطب، سيــــــد، د ت : **التصـــــويـــــر الفني في القـــرآن،**دار الكتب، القاهـــرة د ط .

قطب، محمـــــــد، 1985م : **دراسات قـــــرآنيّة، دار الشروق،** بيـــروت، لبنان، ط4 .

قطب، سيــــــد، 2002م : **في ظـــلال القـــرآن،** دار الشـــــــروق، القاهرة، ط31 .

قطبي، الطاهر، 1987م : **الاستفهام بين النحو والبلاغة،** رسالة ماجستير مخطـــوطة في جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية .

القنوجي، حســــــن بن علي الحسين القنوجي البخاري، 1989م : **فتح البيان في مقاصد القرآن،** تقديم : عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، إحياء التراث الإسلامي، مصر، د ط .

قنيبيّ، حامـــــد صادق، 1984م : **المشاهد في القرآن الكـــــريم،** مكتبة المنار، الزرقاء، د ط .

القيروانيّ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت456هـ)، 1988م : **العمدة في محاسن الشعر وآدابه،** تحقيق : محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1 .

كاريل، الكسيس، 1985م : **الإنسان ذلك المجهول،** تعريب : شفيق أسعد فـــــريد، مكتبة المعارف، بيروت، ط4 .

الكرميّ، حســـــن سعيد، 1992م : **الهادي إلى لغة العرب**، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1 .

كوين، جون،1993م : **بناء لغة الشّعر** : ترجمة : أحمـــــد درويش، دار المعارف، القاهرة، ط3 .

كوين، جون، 1999م : **اللغة العليا**، ترجمة : أحمــــــد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، القاهــــرة، ط2 .

الكيلانيّ، ماجد عرسان، 1411هــ : **مقومــــــــات الشّخصية المسلمة**، رئاسة المحاكم الشرعية، قطر، الطّبعة الأولى .

لاشين، عبد الفتاح، 1984م : **البيان في ضــــوء أساليب القرآن الكريم**، دار المعارف، القاهــرة، ط1 .

اللبديّ، عبد الرؤوف سعيـــد، د ت : **همزة الاستفهام في القــــــرآن الكريم**، المكتبة الـــوطنية، القاهرة، د ط .

المالقيّ، أحمد بن عبد النور (ت702هــ)، 1985م : **رصف المباني في شــــرح حروف المعاني**،تحقيق أحمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية،دار القلم،دمشق، ط2 .

مالميرج، برتيل، د ت : **علم الأصوات**، تعــريب : عبد الصبــور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة، د ط .

مالميرج، برتيل، 1985م : **الصوتيات**، تعــــريب : محمد حلمي هليل، المنظمة العربية للتربية، الخرطوم، ط1 .

المبارك، محمــد، 1973م : **دراسة لنصوص من القرآن** ، دار الفكــــر ، بيروت، ط4 .

المبرّد، أبو العباس المبرد محمـــد بن يزيد (ت385هــ)، 1386هــ : **المقتضب**، تحقيق : محمــــد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، ط1 .

محمـــــد العبــد،1990م : **اللغة والإبداع الأدبي** ،دار الياس العصـــرية، القاهرة، د ط .

محمــــد موســى، 1987م : **دلالة التراكيب دراسة بلاغية**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2 .

محمود، حسني، 2001م : **أساليب الاستفهام، في الشـــعر الجاهلي**، دار المعارف للثقافة، الأحساء، ومؤسسة المختار، القاهرة، ط1 .

المراديّ، الحسن بن قاســم المرادي، 1983م : **الجنى الداني في حروف المعاني**، تحقيق : فخر الدين قباوه، ومحمد نديم فاضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2 .

المصـــريّ،ابن أبي الإصبع،أبو محمد زكي الدين عبدالعظيم بن عبد الواحد (ت654هـــ)، د.ت: **تحرير التحبير**، لجنة إحياء التراث الإسلامي، بيروت، د.ط.

مصلـــــــــوح، سعـــــــــد، 1992م: **الأسلـــــــــوب**، عالم الكتب، مصـــر،ط3.

مصلوح، سعد، 1993م: في النَّص الأدبي، دراسة أسلـــوبيّة إحصائية، **عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية**، القاهرة، ط1، ص: 52 ـــ 54

المطلبيّ، مالك يوســف، 1986م: **الزمن واللغة** ، الهيئة العامة للكتاب، القاهـــرة، ط1.

المنصوريّ، علي جابر، 1984م: **الدّلالة الزّمنية للجملة العربيّة**، مطبعة الجامعة، بغداد، ط1.

المودوديّ، أبو الأعلى، 1987م: **المبادئ الأساسية لفهم القرآن** ، الدار السعودية، الدمام، ط1.

الميدانيّ، عبد الـــــرحمن حبنكة، 1989م: **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجل**، دار القلم، دمشق، ط1.

النسفيّ، أبي البـــركات عبدالله بن أحمد بن محمـــــــــود، د.ت: **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، المكتبة الأموية، بيروت دمشق، د.ط.

الهاشميّ، أحمــــــد، د.ت: **جـــــــواهر البلاغة في المعاني والبيان والبـــديع**، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ط12.

الاسم : كريم أحمد زيدان أبوسمهدانه.
الكلية : كلية الآداب .
التخصص : اللغة العربية وآدابها .
التاريخ : 17 / 12 / 2006
العنوان : الأردن / محافظة الكرك / لواء القصر .
الهاتف : أرضي 2315718 / خلوي 0777178713